

شرح

مَقَامَاتُ الْحَبْرِي

أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن القيسي الشيباني

تأليف
محمد إبراهيم الفضل إبراهيم



المكتبة العصرية
سنة ١٤٢٥ هـ

الجزء الأول

شرح مقامات الحريري

للأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

جامعة الكويت

إدارة المكتبات - قسم التزويد والعرض

رقم التسجيل: ١٣٦٧٢١

التاريخ: ٩٨/٦/٢٠

الجزء الأول

المكتبة الوطنية
مكتبة - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م

شركة البناء شريف لايف ستايل للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العامة للطباعة والنشر

الدار البيضاء - المغرب

بكرت - ص.ب. ٨٣٥٥ - تلوكس ٢٠١٧٧٤

ص.ب. ٢٢١ - تلوكس ٢٩١٩٨٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

مقامات الحريري

١ - لم يبلغ كتاب من كتب الأدب ما بلغته هذه المقامات - التي أبداع إنشاءها الأستاذ الرئيس أبو محمد القاسم بن علي الحريري - من نباهة الذكر ، وبعد الصيت ، واستطارة الشهرة . فإنه لم تكد تصدر منها النسخة الأولى في بغداد حتى أقبل الوراقون على كتابتها ، والعلماء على قراءتها عليه من شتى الجهات ؛ ذكروا أن الحريري وقع بخطه في شهر سنة أربع عشرة وخمسمائة على سبعمائة نسخة^(١) ؛ كما أن العلماء في جميع الأقطار العربية أخذوا يتدارسونها في المدارس والمعاهد ، ويقرءونها في الأندية والمحافل ، بل إن شهرتها امتدت في حياته إلى الأندلس ، فوفد فريق من علمائها على الحريري ببغداد - منهم الحسن بن علي البطليوسي ، والحجاج بن يوسف القضاعي ، وأبو القاسم عيسى ابن جهور - وقرءوا عليه بمنزله هذه المقامات ، ثم عادوا إلى بلادهم حيث تلقاها عنهم العلماء والأدباء ، وتناولوها رواية وحفظاً ، ومدارسه وشرحاً . .

ولمؤرخي الآداب العربية أقوال مختلفة في سبب إنشائها . .

نقل ياقوت من عبد الله بن محمد بن محمد بن أحمد النعمان البزاز ببغداد ، قال : سمعت الرئيس أبا محمد القاسم بن علي الحريري صاحب المقامات . يقول : أبوزيد

(٢) معجم الأدباء ١٦ : ٢٦٧ .

السَّروجِيّ، كان شيخاً شجاعاً بليفاً ، ومكدياً فصيحاً ، ورد علينا البصرة ، فوقف يوماً في مسجد بني حرام ، فسلم ثم سأل الناس — وكان بعض الولاة حاضراً ، والمسجد غاص بالفضلاء — فأعجبهم فصاحته ، وحسن صياغة كلامه وملاحظته ، ثم ذكر أسر الروم ولده . . واجتمع عندي عشية ذلك اليوم جماعة من فضلاء البصرة وعلمائها ، فحكيت لهم مشاهدت من ذلك السائل ، وما سمعت من لطافة عبارته وتحقيق مراده ، وظرافة إشارته في تسهيل إيرادها ؛ فحكى كل واحد من جلسائه أنه شاهد من هذا السائل ومجلسه مثل مشاهدت ، وأنه سمع منه في معنى آخر فصلاً أحسن مما سمعت ، وكان يغيّر في كل مسجد زِيَّة وشكله ، ويظهر في فنون الحيل فضله ، ففعلوا من جريانه في ميدانه ، وتصرفه في تلون إحسانه . فأنشأت المقامة الحرامية ، ثم بنيت عليها سائر المقامات ، وكان أول شيء صنعته . وذكر ابن الجوزي هذه الحكاية في تاريخه ، وزاد فيها أن الحريري عرض هذه المقامة الحرامية على أنوشروان بن خالد وزير السلطان ، فاستحسنها ، وأمره أن يضيف إليها ما شاكلها ، فأتتها خمسين مقامة^(١) .

وفي رواية لابن خلكان ، قال : لما عمل الحريريّ المقامات أنشأها على أربعين مقامة ، وحملها من البصرة إلى بغداد ، وادعاها ، فلم يصدق ذلك جماعة من أدباء بغداد ، وقالوا : إنها ليست من تصنيفه ، بل هي لرجل مغربيّ من أهل البلاغة مات بالبصرة ، ووقعت أوراقه إليه ، فادعاها . فاستدعاه الوزير إلى الديوان وسأله عن صناعته ، فقال : أنا رجل منشيء ، فاقترح عليه إنشاء رسالة في واقعة بعينها ، فأنفرد في ناحية من الديوان ، وأخذ الدواة والورقة ، ومكث زماناً كثيراً ، فلم يفتح الله عليه بشيء من ذلك ، فقام وهو خجلان ، وكان في جملة

(١) معجم الأدباء ١٦ : ٢٦٣ .

من أنكر دعواه في عملها أبو القاسم علي بن أفلح الشاعر ، فلما لم يعمل الحريري^٢
الرسالة التي اقترحها الوزير أنشأ ابن مفلح :

شَيْخُ لَنَا مِنْ رِبِيعَةِ الْفَرَسِ يَنْتَفِ عُنُونُهُ مِنَ الْهُوسِ
أَنْطَقَهُ اللَّهُ بِالْمَشَانِ كَمَا رَمَاهُ وَسَطَ الدِّيَّوَانِ بِالْخُرُوسِ

وكان الحريري يزعم أنه من ربيعة الفرس ، وكان مولعاً بـتنتف لحيته عند
الفسكرة ، وكان يسكن مشارف البصرة ، فلما رجع إلى بلده عمل عشر مقامات
آخر ، وسيرهن إليه ، واعتذر من عييه وحصره في الديوان لما لحقه من المهابة^(١).

وقال ابن خلكان أيضاً : رأيت في شهور سنة ست وخسين وخمائة
بالقاهرة المحروسة نسخة مقامات ، وجميعها بخط مصنفها الحريري ، وقد كتب
أيضاً بخطه على ظهرها أنه صنفها للوزير جمال الدين عميد الدولة أبي علي الحسن
ابن أبي العز علي بن صدقة وزير المسترشد ... قال : ولا شك أن هذه الرواية أصح
لكونها بخط المصنف^(٣) .

٢- وقد نسب الحريري رواية هذه المقامات إلى الحارث بن همام ، وعنى
بهذا الاسم نفسه ، ونظر في ذلك إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « كلكم حارث
وكلكم همام » ، فالحارث الكاسب ، والهمام كثير الاهتمام بأموره ، وما من
شخص إلا وهو حارث وهمام .

وجعل بطل هذه المقامات أبا زيد السروجي ؛ وتختلف الروايات أيضاً في
حقيقة أمره ، فمن قائل : إنه اسم خيالي وضعه الحريري واستوحاه من صورة
الشحاذ الذي لقيه في مسجد بني حرام بالبصرة . ومن قائل بأنه كنية اسم حقيقي

(١) ابن خلكان ١ : ٤٢٠ . (٢) ابن خلكان ١ : ٤٢٠ .

لرجل اسمه المطهر بن سلام ، ذكره القفطى فى إنباه الرواة ضمن تراجم النحاة ، وقال فى حقه : صاحب أبى محمد القاسم بن على الحريرى البصرى ، أنشأ المقامات على لسانه ، وكان فيه فضل وأدب ، وله معرفة بالنحو واللغة والعربية ، قرأ على أبى محمد الحريرى بالبصرة ، وتخرج به ، وروى عنه ^(١) .

وأباً كان الخلاف حول سبب إنشاء هذه المقامات وبطلها أبى زيد ، فإن هذه المقامات عمل فنى رائع منقطع القرن ، حوى من متخير الألفاظ ومتنخل الأساليب وناصع البيان ، مع إحكام السبك وإشراق الديباجة والبعده عن الركافة والابتذال - ما جعلها قمة فى الآداب العربية ترتفع عن مقام المتحدى والمعارض على السواء . وقد صاغها مجالس متنوعة تختلف موضوعاتها باختلاف البلاد التى تخيل أنه زارها ، ورحل إليها ، ما بين فرغانة وغانة ، وأفرغها فى قوالب طريفة فى الأدب والنقد والوعظ والفكاهة ، يتخللها وصف للمجتمع وأحوال الناس ، وجمالها فى أسلوب السجع الكامل ، بعد أن وشاها بألوان البديع ، من الجناس والطباق والمقابلة ، أو كما يقول المؤلف فى صدر كتابه : أنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة ، وفطنة خامدة - خمسين مقامة تحتوى على جد القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره ، إلى ما وشحتها به من الآيات ، ومحاسن الكنايات ، ورصعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجى النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب الخبيرة ، والمواعظ المبكية ، والأصاحيك الملهمية .

وكان أول لقاء وقع بين الحارث بن همام وأبى زيد السروجى فى صنعاء ، وكانا فى رواء الشباب وبيع العمر ، حيث لقي الحارث أبازيد خطيباً واعظاً ، ثم عرفه بعد ذلك مخادعا مخاتلاً ، وعليه بنى الحريرى المقامة الأولى وأسماها المقامة الصنعانية . ثم

(١) إنباه الرواة ٣ : ٢٧٦

أخذ الحارث يقطع الأسفار ، ويجوب الفياق والقفار ؛ ليلقى أبا زيد ؛ مرة في ساحة القضاء ، وأخرى في مجالس الولاة ، وآونة في أندية الأدباء ؛ واعظا أو شاعرا ، أو شحاذا أو مخاصما ؛ ثم يمضى بهما العمر وتتابع الأيام ؛ إلى أن يلتقيا في أخريات عمرهما بالمسجد الجامع بالبصرة بعد أن خلقت جذتهما ، وذوى عودهما ، ورث بُرد شبابهما ؛ وإذا أبو زيد يقف في حشد الناس ؛ يعلن توبته ، ويندم على ما قدم من ذنوب وآثام ، وينشد :

أستغفر الله من ذنوب أفرطت فيهن واعتديتُ
كم خضت بحر الضلال جهلا ورحت في الفتن واعتديتُ
وكم تناهيت في التخطي إلى الخطايا وما انتهيت
فليتني كنت قبل هذا نسيا ولم أجن ما جنيتُ
يارب عفوا ، فأنت أهل للعفو عني ، وإن عصيت
ثم يختفي أبو زيد ويعود إلى بلده سرّوج ، يلبس الصوف ، ويؤم الصفوف ،
ويجرح الحارث بعدها إلى الراحة ويكف عن الأسفار ؛ ويكون هذا آخر لقاء بينهما ،
وبه تنتهي المقامة الخمسون ، آخر المقامات .

٣- ولم يكن الحريري مبتدع فن المقامات ولا أبا عذرها ، بل سبقه إلى هذا الفن بديع الزمان الهمداني ، وإلى ذلك يشير بقوله في صدر المقامات يتحدث عن سبقه : هذا مع اعترافي بأن البديع رحمه الله سبق غايات ، وصاحب آيات ، وأن المتصدّي بعده لإنشاء مقامة ، ولو أوتى بلاغة قدامة ، لا يفترق إلا من فضالته ، ولا يسرى هذا المسرى إلا بدلالته ؛ والله درّ القائل :

فلا قبل مبكها بكيت صباية

يسعدى شفيت النفس قبل التندم

ولكن بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَ لِي الْبُكَاءُ بكاءها فقلت الفضل للمتقدم
ومع ذلك فإن من جاء بعدها من كتاب المقامات ؛ إنما قصد محاكاة
الحريري والنسج على منواله ، والسَّير في دربه ؛ فمنهم من حاول ولم يوفق ، ومنهم
من عمل ولكنه أخفق . . .

فمِمَّنْ حاول ذلك على بن الحسن بن عنتر المعروف بالشميم الحلي ، قال ياقوت :
وردتُ أَمِد في سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة وأنا في عنفوان الشباب ورُبُّهُ ؛ فبلغني
أن بها على بن الحسن بن عنتر المعروف بالشميم الحلي - وكان من العلم بمكان
ممكن ، واعتلق من حباله بركن ركين ؛ إلا أنه كان لا يقيم لأحد من أهل العلم
المتقدمين ولا المتأخرين وزناً ، ولا يعتقد لأحد فضيلة ، ولا يقتر لأحد بإحسان
في شيء من العلوم ولا حُسن ، فحضرتُ عنده ، وسمعت من لفظه إزراءه على أولى
الفضل ، وتنديده بالعيب عليهم بالقول والفعل ؛ فلما أبرمني وأضجر ، وامتدَّ في
غِيَّهِ وأصحر ، قلت له : أما كان فيمن تقدَّم على كثرتهم وشغف الناس بهم عندك
مجيد قط ! فقال : لا أعلم إلا أن يكون ثلاثة رجال : المتنبّي في مديحه خاصة ،
ولوسلكت طريقه لما برز على ، ولسقت فضيلته نحوى ونسبتها إلى ، والثاني
ابن نباته في خطبه ، وإن كانت خطبتي أحسن منها وأشهر ، وأظهر عند الناس
قاطبة وأشهر . والثالث ابن الحريري في مقاماته . قلت : فما منعك أن تسلك
طريقته ، وتنشد مقاماتٍ تحمد بها جهرته وتملِكُ دولته ؟ فقال : يا بني ، الرجوع
إلى الحق خير من التماذي في الباطل ؛ ولقد أنشأتها ثلاث مرات ، ثم أتأملها
فأسترذ لها ، وأعمد إلى البركة فأغسلها ؛ ثم قال : وما أظنُّ الله خلقني إلا لإظهار
فضل الحريري ^(١) !

ومنهم أبو الطاهر محمد التميمي السرقسطي الأشرأكوي ^(٢) المتوفى بقرطبة سنة

(١) معجم الأدباء ١٦ : ٢٦٧ - ٢٦٩

(٢) منسوب إلى أشرأكوي ، من أعمال تطيلة ، من بلاد الأندلس .

٥٣٨ ، أنشأ كتاب «الحسين مقامة الزومية»^(١) عارض بها مقامات الحريري، ولزم في نثرها ما لا يلزم ، متأثراً بالمعري في لزومياته، فأبعد النجعة، وأتعب خاطره، وكدّ ذهنه ، وأسهر جفنه ، وصعب على نفسه المسالك ، وقيد كلامه نظماً ونثراً. واتخذ راويه المنذر بن همام، وجعل بطله السائب بن تمام ؛ ولكن هذه المقامات ذهبت بها عوادى الأيام ، فلم تصل إلينا .

ثم قام جارا الله محمود بن عمر الزنجشري المتوفى سنة ٥٣٨ أيضاً ، فأنشأ مائة مقامة كالمقالة ، تدور كلها حول الوعظ ؛ ولكن ليس فيها راوٍ ، ولا بطل ؛ بل خاطب في جميعها نفسه ، وذكرها بالآخرة ، ورغبها في الأعمال التي تؤدي بها إلى نعيم الله ورضوانه .. وكان الزنجشري أحسن في هذه المقامات بقصوره عن غاية الحريري ، وبعده عن مداه ، فقال :

أقسم بالله وآياته ومشعر الحج وميقاته
أن الحريري حري بأن نكتب بالتبر مقاماته

ثم توالى المقلدون جيلاً بعد جيل ، كابن الجوزي وأبي العلاء أحمد بن أبي بكر الرازي وابن نايقا وابن الصيقل الجزري وابن حبيب الحلبي وابن الوردى والسيوطي وغيرهم ؛ إلى أن انتهى إلى خاتمة المقلدين الشيخ ناصيف اليازجي ، أحد أعيان البيان بלבنان في القرن التاسع عشر الميلادي ؛ فدرس مقامات الحريري وحفظها ، ثم أخذ يروض قلمه على مقامات تنحو نحوها ؛ وتسلك نهجها ، وما زال يلتمس الوسائل ، ويتطلب الذرائع ، ويرتاد نواحي الظفر ، ويتوخى وجوه النجح ، حتى عمل أكثر من ستين مقامة سماها «مجمع البحرين» ، أى النثر والنظم ؛ وجعل راويها سهيل بن عباد ، وبطلها ميمون بن حزام ؛

(١) فهرست ابن خلدون ٣٨٧

وتنقل بسهيل بن عباد في البلدان — كما تنقل الحريري بالحارث بن همام —
ليلقي ميمون بن حزام ، سالكا مسالك أبي زيد في السكايد وطرق التنكير
والتعلق بفصيح الكلام ...

وعلى الرغم من دقة الحاكاة في بعض هذه المحاولات ، فإن الحريري يبقى
منفردا بفته ، واحداً في أسلوبه ؛ لا يدانيه أحد منهم في نثره أو نظمه ، بدّاً من
قبله ، وأتعب مَنْ بعده ، وستظلّ مقاماته من أجود ما جادت به القرائح ، وأجل
مانضحت به الأقلام ؛ على مرّ العصور والأيام ..

٤ - وإن كان لهذه المقامات منزلة عند التدماء ، عبر عنها ياقوت بقوله :
« واقع من السعد مالم يوافق مثله كتاب ، جمع بين الجودة والبلاغة
وأتسعت له الألفاظ ، حتى أخذ بأرقها وملك ربقها ، وأحسن نسقها ؛ حتى
لو ادعى الإعجاز لما وجد من يدفع صدره ، ولا يردّ قوله ، ولا يأتي بما يقاربها ،
فضلا عن أن يأتي بمثلها ، ثم رزقت مع ذلك من الشهرة وبعد الصيت والانتفاق
على استحسانها من الموافق والمخالف ما استحققت به وأكثر ... » ، - فإنها
لم تخل من نقد بعضهم وتجريحهم له ؛ منهم ابن الأثير في المثل السائر وابن الطقطقي
في الآداب السلطانية .

ومن أشهر من نال منه أبو محمد عبدالله بن أحمد بن أحمد المعروف بابن
الخشاب ، وضع رسالة جمع فيها المأخذ التي وقع عليها في المقامات ؛ قال في
مقدمتها : « وله أشياء في أثناء مقاماته لورجع فيها لأقرّ مع الإنصاف بالخطأ
ساکتاً فسلم ، أو لنازع مباحثاً . وأنا أسوقها على التوالي موضعاً فموضعاً ، مع
تمهيد عذره ؛ لقلتها في جنب صوابه ، وما مر به من الحسن في أثناء كتابه ،
علماً بأن الكامل من عدّت سقطاته ، والفاضل من أحصيت هفواته » .

وقد قام الإمام عبدالله بن برى فألف رسالة انتصر فيها للحريري من

مأخذ ابن الخشاب ثم جاء عبد اللطيف بن يوسف البغدادي ، فنصب نفسه حكماً بينهما ، ووضع رسالة أسماها الإنصاف بين ابن برى وابن الخشاب في كلامهما على المقامات .

٥- وبجانب الحركة الفكرية والأدبية التي أحدثتها المقامات في المشرق ؛ في العراق والشام ومصر . فإن مثل هذه الحركة قامت في الغرب أيضا ؛ في أسبانيا وإنجلترا وفرنسا وألمانيا ؛ وكان أول ما عمل من ذلك ما قام به المستشرق الهولندي جوليوس سنة ١٦٥٦م ، من ترجمة المقامة الأولى إلى اللغة اللاتينية ، ونشرها في الطبعة الثانية لكتاب تعليم اللغة العربية أرينيوس في ليدن . ثم نقل المستشرق الهولندي شولتنس ست مقامات بين سنتي ١٧٣١ ، ١٧٤٠م ونقل بعده فانتوردي پارادي منتخبات من سبع عشرة مقامة بين سنتي ١٧٨٦م و ١٧٩٥ إلى اللاتينية أيضا .

وفي فرنسا قام المستشرق كوسان دي پرسفال بنشر المتن العربي الكامل ، وطبع سنة ١٨١٢م كما قام الأستاذ دي سامي بجمع مخطوطات المقامات وشروحا ، وعمل منها شرحاً عربياً ، وطبع المتن والشرح في باريس سنة ١٨٢٢م ، ثم طبع مرة أخرى في باريس أيضا بين سنتي ١٨٤٧ ، ١٨٥٣م ، واشتهرت هذه الطبعة في الشرق والغرب ، وتصدى لها بالنقد الشيخ ناصيف اليازجي .

أما في ألمانيا ، فقد قام العلامة رُكْرْت ، وترجم هذه المقامات سجعاً باللغة الألمانية ، وقد اقتضى منه ذلك جهداً في استعمال كلمات نادرة الاستعمال في هذه اللغة حتى قال بعض النقاد الألمان : إن رُكْرْت أجبر لفته على الألعاب الرياضية الشاقة ؛ وقد تمتعت هذه الترجمة بشهرة عظيمة في عالم الاستشراق .

وفي اللغة الإنجليزية قام تشنري بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية في سنة ١٨٦٧م وتبعه استجاس فترجمها أيضا في سنة ١٨٩٨م .

وفي أسبانيا ترجم الشاعر اليهودي يوراي الحريزي هذه المقامات إلى العبرية، وطبعت هذه الترجمة في لندن سنة ١٨٧٢ م.
وفي كثرة هذه التراجم والطبعات دلالة على ماناله الحريزي في الحلقات الاستشرافية من التقدير في نواحي الغرب^(١).

٦- وقد كانت المقامات من أوائل ما طبع من الكتب العربية ؛ وأول طبعة لها كانت هي الطبعة التي ذكرت أنها كانت في باريس سنة ١٨١٩ م بعناية كوسان دي برسفال، ثم توالى طبعاتها بعد ذلك في باريس ولندن وليدن وكلكتة ولكناو ودهلي بالهند وبولاق والقاهرة وتبريز وبيروت^(٢).

أما النسخ الخطية من هذه المقامات فلا تكاد تخلو مكتبة من المكتبات العربية في الشرق والغرب من عدد وافر منها متناً أو شرحاً ، وفي دار الكتب المصرية من المقامات أكثر من ثمان وعشرين نسخة ؛ غالبها نفيس ، ومنها نسخة برقم ١٠٥- أدب منقولة من خط المؤلف بعد سماعها عليه ، وفي أولها إجازة بخطه ، ونسخة برقم ٤٤٧٩- أدب طلعت ، وعليها خط المؤلف أيضاً ، ونسخة برقم ٢٥٩- أدب ، عليها سماعات مؤرخة سنة ٦٦٣ ، ونسخة بخط مرتضى الزبيدي كتبت سنة ١١٦٥ ، ونسخة برقم ١٥٢٩- أدب بخط ابن نجدة كتبت سنة ٧٢٩ ، هذا عدا النسخ الخطية المشروحة^(٣).

(١) أفدت هذه المعارف الاستشرافية ؛ مما كتبت به إلى العلامة الدكتور أنست يانرت أستاذ اللغات العبرية في جامعة فينا .

(٢) انظر معجم المطبوعات العربية لسركيس ٧٤٨ ، ٧٤٩

(٣) انظر فهرس دار الكتب .

صاحب المقامات

١ - ومؤلف المقامات هو الرئيس أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريريّ منسوباً إلى صناعة الحرير أو بيعه ، ولد سنة ٤٤٦ هـ بالمشان ، وهي قرية قرب البصرة ، ثم رحل إلى البصرة وسكن في محلة بنى حرام - وهم قبيلة من العرب سكنوا بالبصرة - وتأدب بها ، وقرأ العربية على أبي الحسن بن فضال المجاشعيّ شيخ إمام الحرمين ، والفقه على أبي إسحاق الشيرازي . وعُيّن صاحب الخبر بالبصرة ؛ وهو منصب ظل به إلى أن مات ، فتوارثه أولاده من بعده ، وظلّ فيهم إلى عهد العمد الأصبهانيّ الذي زار البصرة سنة ٥٥٦ هـ .

وكان الحريريّ - إلى جانب علمه وأدبه وتمرسه بفنون العربية جميعها - من ذوى الجاه واليسار ، كان له بالمشان أكثر من ثمانية عشر ألف نخلة ، يغلها ويتردد عليها ، وكان له منزل بالبصرة يقصده الأدباء والعلماء يقرءون عليه أو يفيدون من علمه ، وخاصة بعد أن ألف المقامات وذاع أمرها بين الناس . وكان مرهف الشعور صادق الحسّ والتخمين ، حكى أنه زاره شخص غريب ليأخذ عنه شيئاً ؛ فلما رآه استزرى شكله . ففهم الحريريّ ذلك منه ، فلما التمس منه أن يُملّي عليه قال له : اكتب :

ما أنت أول سارٍ غَزَهُ قَمَرٌ ورائد أعجبتَه خُضْرَةُ الدَّمَنِ
فاختر لنفسك غيري إنني رجل مثل المعيدى فاسمع بي ولا ترني
نخجل الرجل وانصرف عنه .

٢ - وللحريريّ ديوان رسائل أورد ياقوت شيئاً منها ، وله الرسالة السينية التزم في جميع كلماتها حرف السين ، والرسالة الشينية للترزم في جميع كلماتها حرف الشين ، أوردتها ياقوت أيضاً .

وله شعر في غير المقامات ، ذكر منه ابن خلكان قوله :

قال العواذل ما هذا الفراءُ أما ترى الشعر في خَدَيْهِ قد نَبَتَا

قلّت والله لو أن المفنّدى تأمل الرشد فى عينيه ما ثبتا
ومن أقام بأرض وهى مجدبة فكيف يرحل عنها والربيع أتى !
وأورد له صاحب الخريدة :

كم ظباءً بجاجرٍ فتنت بالحاجر
ونفوسٍ نفائسٍ خُدرت بالخادر
وتثنٍ خلّاطٍ هاجَ وجداً خلّاطٍ
وعِذارٍ لأجله عاذلى عاد عاذرى
وشجونٍ تضافرت عند كشف الضفائر
وأورد له ياقوت :

لا تخطون إلى خطّ ولا خطٍ من بعد ما الشيب فى فوديك قد وخطا
وأى عذر لمن شابت ذوائبه إذا سرى فى ميادين الصبا وخطا
وله غير الشعر والرسائل والمقامات ما أتى :

١ — درة النواص فى أوهام الخواص ، بين فيه أغلاط الكتاب فيما
يستعملونه من الألفاظ بغير معناه فى غير موضعه . طبع فى مصر سنة ١٢٧٢ هـ ،
وفى ليبسك سنة ١٨٧١ م ، وطبع مع شرح الخفاجى فى الآستانة سنة ١٢٩٩ هـ .
٢ — ملحّة الأعراب فى صناعة الإعراب ، وهى أرجوزة ، وأولها :

أقول من بعد افتتاح القول بمحمد ذى الطول شديد الحول
طبعت فى باريس وبيروت ومصر ، وقد شرحها بحرق الحضرمي ، وأسمى
الشرح « تحفة الأحباب وطرفة الأصحاب » ، وطبع بمصر مرارا أيضا .
٣ — قصيدة من وزن الخفيف ، منها نسخة مخطوطة فى مكتبة برلين برقم
٧٧٩ ، وأوردها السيوطى فى المزهرة ١ : ٢٨٦ — ٢٨٨ ، وأولها :

أبها السائل عن الظاء والضا د اكملّا تضيّه الألفاظُ

شرح المقامات

١ - وتعتبر مقامات الحريري أكثر الكتب حظاً فيما وقع لها من شروح ، وما أديرَ حولها من تعاليق ، أحصى صاحب كشف الظنون أكثر من خمسة وثلاثين شارحاً ، منهم محمد بن علي بن عبد الله الحلّي ، ومحمد بن علي المعروف بابن حميدة ، ومحمد بن محمد المكي الصقلي المعروف بابن ظفر ، وأبو المظفر محمد بن أسعد المعروف بابن حكيم ، وعلي بن الحسن المعروف بشميم الحلّي ، وسليمان بن عبد الباقي بن سلامة الضرير ، والشهاب الحجازي ، وعبد الله بن الحسين المكبري ، وقاسم بن قاسم الواسطي ، عبد اللطيف بن يوسف البغدادی ، وأبو الفتح ناصر بن السيد المطرزي ، ومحمد بن عبد الرحمن محمد بن مسعود الفندجيهي ، وأحمد بن عبد المؤمن القيسي المعروف بالشريشي ، وسليمان ابن عبد القوى الحنبلي العروف بن نجم الدين الطوفي ، وأحمد بن المظفر الرازي وغيرهم .

ومن قام بشرحها من المتأخرين المستشرق دي ساسي - كما ذكرنا - عمل شرحاً من الشروح التي وقعت له ، وأضاف إليه فوائد من كتب الأدب والنحو والتاريخ . وطبع هذا الشرح في باريس مع فهرس للألفاظ والأمثال والأعلام .

ولعل كثرة هذا العدد من الشارحين يرجع إلى ما زخرت به المقامات من الكلمات العربية ، والأمثال والأحادي والأناز ، والنكات النحوية والبلاغية مما يحمل ميدان الشرح ذا سعة وأردية الاستطراد كثيرة .

٢ - وتختلف هذه الشروح إيجازاً وإطناباً ، وأسلوباً ومنهجاً ، ومن أوسعها مجالاً ، وأجمعها الشئيت الفرائد ومنشور الفوائد ، ومتشعب الأغراض ، هذا الشرح الذي

وضعه العلامة أحمد بن عبد المؤمن القيسي المعروف بالشريشي . وقد وقعت له نسخة المقامات مما رواه عن أبي القاسم عيسى بن جهور وأبي الحجاج يوسف القضاعي وأبي الطاهر الخشوعي ، وهم ممن ذكرنا أنهم رحلوا إلى المشرق من علماء الأندلس ولقوا أبا محمد الحريري في بغداد ، وقرءوا عليه المقامات في منزله ، وعادوا إلى بلادهم يحملون المقامات ؛ ضمن الكنوز النادرة التي حملوها من المشرق إلى المغرب عن طريق الرحلة والرواية ...

وقد وقف الشريشي جهده حقبة على هذه المقامات ، يتدارسها مع العلماء ، ويستوعب الكتب والأسفار والدواوين والشروح والتعاليق ، ليتخذ العدة لشرحها ؛ ولهذه الغاية يقول : لم أدع كتاباً ألف في شرح ألفاظها ، وإيضاح أغراضها إلا وعبيته نظراً ، وتحققته معتبراً ومختبراً ، وترددت في تفهمه وردياً وصدراً ، وعكفت على استيفائه بسيطا كان أو مختصراً ... ولم أترك في كتاب منها فائدة إلا استخرجتها ، ولا فريدة إلا استدرجتها ، ولا نكتة إلا علقها ، ولا غريبة إلا استلحقها ... فاجتمع من ذلك حفظاً وخطأً أعلق جمّة ، وفوائد لم تهتم بها قبله همة ؛ ثم لم أقنع بتدوين الدواوين ، ولا اقتصرت على توقيف التصانيف ؛ حتى لقيت بها صدور الأمصار ، وعلماء الأعصار .

وجعل من أهم مقاصده في هذا الشرح أيضاً التعريف بالأمصار المذكورة في المقامات - ما وسعه الجهد - ثم شرح الأمثال . وترجم للمشهورين من الآباء والأبناء والشعراء والأدباء والأعيان ، مع العناية بصنوف البديع وبسط أنواع الأدب وفنونه والإكثار من الشعر في كل مناسباته وخاصة الشعر الأندلسي فإنه حشد فيه مجموعة من مختار هذا الشعر ، وانفرد بنصوص نادرة منه لا تجدها في غير هذا الكتاب .

وبهذه المزايا مجتمعة كان هذا الشرح مرجع الباحث وغُنْية المتأدب ،وغاية المطالع والمستفيد .

٣ - والشارح هو أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القيسي الشريشي ، ولد بشريش سنة ٥٧٧ - وكانت شريش من أجمل بلاد الأندلس ، وأحفها بأشجار الكروم والتين والعنب والزيتون - عاش فيها صدر شبابه ، وتلقى بها على أبي الحسن بن لبّال وأبي بكر بن الأزهر وأبي عبد الله ابن زرقون وأبي الحسين بن جبير . ورحل إلى المشرق ثم عاد إلى شريش ، وتوفي بها سنة ٦١٩ هـ .

وقد ألف من الكتب غير هذا الشرح مختصرا لنوادير أبي علي القالي وشرحا لكتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي وآخر لشرح الجمل للزجاجي ، وجمع مشاهير قصائد العرب ؛ كما وضع رسالة في العروض . وكان أيضا شاعرا مطبوعا شائق اللفظ رشيق المعنى .

ومن نموذج شعره تلك الأبيات التي أوردها المقرئ في ترجمته^(١) ، وكان قد سافر إلى الشام وشَغِف بها ثم رحل عنها ، فقال يتشوق إليها :

يا جيرة الشام هل من نحوكم خبرُ	فإن قلبي بنار الشوق يستمر
بعدت عنكم فلا والله بعدكمُ	مالذّ للعين لا نومٌ ولا سهرُ
إذا تذكرت أوقاتا نأت ومضت	بقربكم كادت الأحشاء تنفطر
كأنني لم أكن بالنَّيرِ بين ^(٢) ضحى	والغيم يبكي ومنه يضحك الزهر
والورق تنشد ، والأغصان راقصة	والدَّوح يطرب بالتصفيق والنهر
والسفحُ ، أين عشيّاتي التي سلفت	لى منه ، فهي لعمري عندي العُمْر !
سعة كياسفح ، سفح الدمع منه ملا	وقلّ ذاك له إن أعوز المطر

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الشرح واحد من ثلاثة شروح وضعها

(١) فتح الطيب ٢ : ٣١٧ (٢) النيرين ، من قرى دمشق .

المؤلف : أولها مختصر ، وثانيها متوسط ، وثالثها هذا المطول ؛ وهو الذى اشتهر فى الخلفائين ذكره ، وأقبل عليه العلماء والمتأدبون دون غيره . . . ومن قصد البحر استقل السواقيا .

* * *

٤ - وحينما قمت بتحقيق هذا الكتاب تحيَّرت النسخ الآتية للرجوع إليها :
(١) نسخة كاملة مخطوطة بدار الكتب برقم ١٧٥ - أدب ، مكتوبة بقلم معتاد ؛ إلا أنها تخلو من الضبط ، ، وتقع فى ٤٣٢ ورقة ، وفى كل صفحة ٣٥ سطرا ، وكل سطر يشتمل على ٢٢ كلمة تقريبا كتبت سنة ١١٣٠ هـ ، وفى أولها وقفية على خزانة جامع شيخون سنة ١١٩٣ هـ وبعض التمليكات ، وقد رمزت لها بالحرف (ا) .

(٢) نسخة خطية محفوظة بدار الكتب برقم ١٧٨ - أدب ، تقع فى ١٢٧ ورقة ، وفى كل صفحة ١٩ سطرا ، كل سطر يشتمل على ١٢ كلمة تقريبا ؛ وهى نسخة جيدة صحيحة فيها بعض الضبط إلا أنها ناقصة تشتمل على شرح ١٧ مقامة فقط ، وبهامشها المقامات ، وقد رمزت لها بالحرف (ب) .

(٣) نسخة خطية محفوظة بدار الكتب برقم ١٨٠ - أدب ، وهى نسخة خزائنية كتبت بخط نسخ واضح ، ولكنه خال من الضبط ، وتقع فى ٤٥٢ ورقة ، وفى كل صفحة ١٠ كلمات تقريبا ، وتحتوى على شرح خمس وعشرين مقامة . وقد رمزت لها بالحرف (ج) .

(٤) نسخة طبعت فى بولاق سنة ١٣٠٠ هـ بتصحيح محمد الحسينى ، وقد رمزت لها بالحرف (ط) .

وجميع هذه النسخ كتب على هامشها المقامات .

هذا عدا مارجمت إليه من كتب الأدب واللغة والتاريخ ومجموعات
الشعر ودواوين الشعراء .

ويطيب لى فى هذا المجال أن أنوه بفضل الصديق العلامة الحجة الدكتور
محمود مكى الذى تفضل بقراءة هذا الجزء بعد طبعه ، وكانت له ملاحظات قيمة
أثبتها فيما بعد ، هنا بالإضافة إلى المعارف والمعلومات التى أفدتها منه ، وخاصة
فى الأدب الأندلسى وتاريخه .

ويقع هذا الكتاب - إن شاء الله - فى ستة أجزاء ، وسألقى بآخره إن شاء الله
الرسالتين السينية والشينية للحريرى ، وخواشى ابن الخشاب وابن برى وغيرهما على
المقامات ؛ فضلا عن الفهارس الفنية العامة .

ومن الله العون والتوفيق .

رمضان سنة ١٣٨٩ هـ

نوفمبر سنة ١٩٦٩ م

محمد أبو الفضل إبراهيم

شَحْجَ مَقَامِ الزَّجَرِيِّ

للأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريفي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ الأستاذ الغويّ النحويّ أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن ابن عيسى بن موسى بن عبد المؤمن القيسي الشريشيّ ، تغمده الله برحمته ورضوانه ، وأسكنه فسيح جناته بمنّه وكرمه آمين :

الحمد لله الذي اختصّ هذه الأمة بأفصح الألسنة وأفسح الأذهان ، وشرف علماءها بالافتنان في أفانين البلاغة والبيان ، وميّزنا بين سائر الأمم بالنثر المتفق الفِقَر والنظم المعتدل الأوزان .

نحمده على أفئدة هداها ، وألسنة أطال في شأو البلاغة مداها ، ونصّل على سيد المرسلين ، وخيرة العالمين ، الذي ختمت بنبوّته العامة النبوة ، ونسخت بشرعته التّامة الكتب المتلوّة ، محمد سيد هذا العالم والمخصوص بعلوّ المكانة ، وعموم الدّيانة في ولد آدم ، وعلى آله وصحبه الذين عزّروه ووقّروه ، وآووه إيواء الموفّين بالعهود ونصروه ، وثقلوا شرّعه الكريم ثقل التواتر وآثروه ، وسلّم تسليماً ، وآتاهم من لدنه رحمة وأجرّاً عظيماً .

ورضى الله عن الإمام المصوم ، المهديّ المعلوم ، مجدّد معالم الديانة ، وللملئ بأداء الأمانة ، والمشهور على تعاقب العصور بالزمان والمكان والمكانة ، وعن خلفائه الراشدين المرشدين أئمّة الهدى ، والتالين له في شرف ذلك المدي ، والقائمين بأعباء أمره الموعود أنه يبقى أبداً .

ونسأل الله تعالى لسيدنا الخليفة الإمام أمير المؤمنين ابن الخلفاء الأئمّة الراشدين ، سعداً يُعلّى أعلامه ، ونصراً يصحب قلمه وحسامه ، وتأيداً يُظهر أمره وينصر اعتمازه ، حتى ينتظم شدّان^(١) الأمّهار في سلك ملكه ، وتزدحم وفود الأمم

(١) الشّدان ، بالضم والتفتيح : المتفرّق ، وأصله في الحصى والإبل .

على غمر برّه ، وتنطوى ضمائر القلوب ومحبات الغيوب على إخلاص طاعته
والإشناء لأمره .

أما بعد ؛ فإن العلم أربح المكاسب ، وأرجح المناصب ، وأرفع للراتب ،
وأنفع للمناقب ، وحرقة أهل الهمم من الأمم ، ونجاة أهل الشرف من السلف ،
لم يتقلد سلكه إلا جيدٌ ماجد ، ولم يتوشح برؤده إلا عطف جاد في طلب الكمال .
جاهد ، ولم يستحق اسمه إلا الواحد النذ بعد الواحد ، وهو وإن تشعبت
أفانيه ، وتنوعت دواوينه ؛ فلم الأدب علمه ، والأس الذي يبني عليه كلمه ،
والروح الذي يخب في ميدان الطروس قلمه ؛ ولذلك كان أولى ما تشرحه
التراجم ، وأعلى ما تجنح إليه الجوانح ؛ فذوو الأخطار في سائر الأقطار يقنافسون
في اقتنائهم ، ويتصافنون في عافى إنائهم^(١) ، ويرتاحون لأوضاعه وتأليفه ،
ويستريحون إلى أعبائه المكدودة وتكاليفه ، فإنه زمام المنظوم والمنثور ،
وقوام^(٢) نطق الألسنة وفكر الصدور ، ومنشط المقال من عقال الفهاة ، ومميز
الأقدار بالمهابة والنباهة .

ولم يزل في كل عصر من حمانته بدر طالع ، وزهر غصن يانع ، وعلم ترنوا إليه
أبصار وتوحيء إليه أصابع ، وصناعة البراعة بينهم تتمكن وتتأصل ، وتنويع
البديع ينضبط ويتحصّل ، والآخر يكدّ ذهنه في تميم ما غادره الأول ؛ إلى أن
اعتدلت كفتاه ، وامتلاّت ضفّته ، وراق مجتلاه ومجتناه ، وتناهى في الحسن
والإحسان لفظه ومعناه .

وكان آخر البلاء وخاتمة الأدباء ، أولهم بالاستحقاق ، وأولاهم بسمّة
السباق ، والفد الذي قد عمقت عن توءمه فتية العراق ، وفارس ميدان البراعة ،

(١) يقال : تصافن القوم الماء ؛ إذا قسموه بالحصص . والعاق : ما فضل في القدر ؛
والكلام على الاستمارة .

(٢) قوام الأمر بالكسر : نظامه وعماده .

ومالك زمام القراطس واليراعة ، والملبّي عند استدعاء دُرّر النِقَر بالسمع والطاعة ،
 أبو محمد القاسم بن عليّ الحريريّ - سقى الله ثراه صَوْبَ رحماه ، وكافاً إحسانه
 في الثناء عليه بمجسّاه - فبسط لسان الإحسان ، ومدّ أفنان الافتنان ، ومهد جادة
 الإجادة ، وقوى مادّة الإنادة ، ولم يبق في البلاغة متعقبا ، ولا للريادة مترقبا ،
 لاسيّما في المقامات التي ابتدعها ، والحكايات التي نوّعها وفرّعها ، والمُلح التي
 وشّحها بدُرّر النِقَر ورصّعها ؛ فإنه برّز فيها سابقاً ، وبرّز البلاء فائقاً ، وأتى بأعنى
 الدقيق للنظ الرقيق مطابقاً ، وخلّدها تاجاً على هامة الأدب وتقصّراً^(١) في جيد لغة
 العرب ، وروضة تحوم أنفاس الهم عليها ، ولا تصل أيدي المطامع إليها .

ولما كانت من البراعة بهذا الحلّ الشهير ، وسارت مسير النّيرين بين
 مشاهير الجماهير ؛ جعلتُ الاعتناء بها سهم فهمي ، والعكوف عليها حرز عزمي ،
 والدّءوب في حفظ لغاتها وفكّ محبّاتها أهمّ همّي ، وصيرت تحفّظها فرض عيني ،
 والفكر الذي لا يحول وسني بينه وبينّي . فبدأت بروايتها عن الشيوخ والثقات ،
 وتقييد ألتاظها عن أعلام هذه الجهات ؛ حتى لا أقبل لفظاً إلا عن تحقيق ، ولا أثبت
 ضبطاً إلا من طريق .

فكان أوّل من أخذت عنه روايتها ، وتلقّيت منه درايتها ، ببليدى ،
 الشيخ الفقيه المقرئ أبو بكر بن أزهر الحجريّ ، حدّثني بها عن صهره
 الفقيه الحدّث الراوية أبي القاسم بن عبد ربه القيسى المعروف بابن جهور ،
 عن منشئها أبي محمد الحريريّ . وحدّثني بها أيضاً ببليدى الشيخ الفقيه الراوية
 أبو بكر بن مالك النهريّ عن ابن جهور المذكور ، وعن الشيخ الفقيه
 أبي الحجّاج الأبدّي القضاعيّ ، كلاهما عن أبي محمد الحريريّ . وحدّثني بها
 أيضاً إجازةً الشيخ الفقيه الحدّث أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الحجريّ

(١) التقصار والتقصارة ، بالكسر : القِلادة ؛ سميت بذلك لازومها قصرة العنق .

عن القُضاعيّ. وحدثني بها أيضاً الكاتب الزاهد أبو الحسين بن جبير عن الشيخ
الجليل بركات بن إبراهيم بن طاهر بن بركات القرشي المعروف بالخشوعيّ عن
الحريريّ. وحدثني بها أيضاً الشيخ الفقيه الأستاذ أبو ذرّ مُصعب بن محمد بن
مسعود الخشنيّ بسنده ، بعد وقوفه رحمه الله على هذا الشرح وأمره لي بتكميله .
وتلقيت بها جماعة من جلةُ الأُشياخ أ كثر في العدد ممن ذكرت ؛ لا يعدمني
واحد منهم إفادةً ضبطيّةً أو لفظيّةً ، ولا يقدني زيادةً هزليّةً أو وعظيّةً ، فأخذتها
أخذ متثبت ، عن واعي منكّت .

ثم لم أدع كتاباً ألف في شرح ألفاظها وإيضاح أغراضها ، وتبيين الإنصاف
بين انفصالها واعتراضها إلا وعيته^(١) نظراً ، وتحقيقته معتبراً ومختبراً ، وتردّت
في تفهمه ورذاً وصدراً ، وعكفت على استيفائه بسيطاً كان أو مختصراً ؛ حتى
أتيت على جميع ما انتهى إليه وسعى ممن فسرّها ، واستوعبت عامة فوائده
الممكنة بأسرها ؛ ولم أترك في كتاب منها فائدة إلا استخرجتها ، ولا فريدة
إلا استدرجتها ، ولا نكتة إلا علقتها ، ولا غريبة إلا استاحقتها ، ولا غادرت في
موضع منها مستحسنًا يشذّ عن جمعي ، ولا مستجاداً ينبو عنه بصريّ أو سمعي .
فاجتمع من ذلك حفظاً وخطأً أعلاق جمّة ، وفوائد لم تهتمّ بها قبلي همّة ،
ثم لم أقنع بتبيين الدواوين ، ولا اقتصرتُ على توقيف التصانيف ؛ حتى لقيت
بها صدور الأمصار ، وعلماء هذه الأعصار ، فباحثُ وناقشت ، وتناولت
وتداولت ، وطالبت المتحفّظ بالأداء ، والتميّظ بالإبداء ؛ حتى لم أبق في قاذية
زنداناً إلا اقتدحته ، ولا مُقفلاً إلا افتتحتّه ، فتحصّل لي من ذلك أيضاً عيون
صائبة النواظر ، وفنون قلماً توجد في مخبّات الدفاتر .

وأنا في خلال ذلك ألتبس مزيداً ، ولا أسأم بحثاً وتقييداً ، إلى أن عثرتُ على

(١) ط ب : « وأوعيته » ، وأوعى الشيء : حفظه ؛ مثل وعى .

شرح الفَنجَدِيهِي^(١) للمقامات - والفنجديهِي هو الشيخ الحافظ أبو سعد محمد ابن عبد الرحمن بن محمد السعودي ، من قرية فنجدية من عمل خراسان - فرأيت في شرحه الغاية المطلوبة ، والبغية المرغوبة ، والضالة التي كانت عني إلى هذا الأوان مطوية محجوبة ؛ فاستأنفت النَّظَرَ ثانياً ، وثمرت عن ساعد الجِدِّ لا متكاسلاً ولا وانياً ، وعانيت نور المعنى في نور اللفظ فأصبحت محتياجاً جانباً ، فاستوعبته أيضاً أبلغ استيعاب ، وقيدت من فوائده ما لم أجد قبله في كتاب ، وأخذت منه أحاديث مسندةً أوردتها ، وآثاراً مرفوعة قيدها تليق بالباب الذي أوردت فيه ، وتورد مصححةً إما لألفاظه وإما لمعانيه ، وحذفت أسانيد - وإن كان قد أوردتها - تحقيقاً عمن يريد الملتن ويتنغيه ؛ فتم لي بهذا الغرض استيفاء مقاصده ، واستيعاب فوائده . وتركته مستلب المعاني ، مطروق المعاني ، كالروض ركبت ريمه ، والجسم قبض رُوحه ؛ فأنضاف من فوائده هذا التأليف البديع - إلى الفوائد الملتقطة من الألسنة والمأخوذة من التصنيف المستحسنة - روض كله زهر، وسلك كله دُرر ، وأدب إن لم يجمعه التصنيف فهو بعد عين أثر .

فاستخرت الله تعالى في ضمّ ما انتشر من فوائدها ، ونظم ما انتثر من فرائدها ، والاعتناء بتأليف في المقامات يُعنى عن كل شرح تقدّم فيها ، ولا يحوج

(١) الفنجديهِي ؛ منسوب إلى فنجدية ، قال ياقوت : « فنجدية ، بالفتح ثم السكون تم فتح الجيم وكسر الدال وياه ثم هاء خالصة ، وينسب إليها فنجدية . بلدة فيها خمس قرى ؛ قد اتصلت عمارة بعضها ببعض ، قرب مرو الروذ . وهو أبو سعيد محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مسعود السعودي ، التوفي سنة ٥٨٤ ، ذكره صاحب كشف الظنون ، ووصفه العماد في شذرات الذهب بالرحال الأريب وقال : مات عن اثنتين وثمانين سنة بدمشق ، وسمع من أبي الوقت وطبقته ، وأملى بمصر مجالس ، وعنى بهذا الشأن ، وكتب وسمى ، وجمع فأوعى ، وصنف شرحاً طويلاً للمقامات ، قال يوسف بن الخليل الحافظ : لم يكن في نقله ثقة ، وقال ابن النجار : كان من الفضلاء في كل فن ، في الفقه والحديث والأدب ، وكان من أطرف المشايخ وأجلهم » .

إلى سواه في لفظ من ألفاظها ولا معنى من معانيها ، فتمّ من ذلك مجموع جامع ، وموضوع بارع^(١) ، أودعته من اللغات أصحّها وأوضحّها ، وأسلسها قياد لفظ وأسمّها ؛ وأولاها بالصواب في مظان الاختلاف وأرجحها ؛ ونسبت المشكل منها إلى قائله من جهابذة العلماء ، وجمعت بين مشهور اللغات ومشهور الأسماء ، وسبكت العبارة عن المعاني سبكاً يدلّ على الإلقاء والإصفاء . وهذا الفصل وإن سبقني إليه من تقدّمني من الشارحين قبلي ، فلي فيه مزية إيراد اللفظ البعيد عن الإشكال ، والمطابقة بين الأقوال وأرباب الأقوال .

ثم زدت في فوائد هذا التأليف التعريف بالأمصار المذكورة في المقامات على أوفى ما يمكنني ؛ من ذكر مواضعها وأقذارها واختطاطها ، ومن عمّد صلاحها ، أو تولّى فتحها ؛ وهذه فوائد لا يخفى مكانها ، ولا ينكر استحسانها ، فالحاجة إلى التعريف بالمكان ، تتلو الحاجة إلى غوامض اللسان .

ثم استوعبت شرح الأمثال ونسبتها ، جمعاً بين القائلين والأقوال ، ولم أغفل منها الكثير الدور ولا القليل الاستعمال ، وهذا الفن لم يتبعه أحد على الكمال ، وإن ذكره فإنما يذكره استطراداً بحسب الحال .

ثم استوفيت أيضاً ذكر من وقع فيه من الرجال والنساء أتمّ استيفاء ، وعرفت المشتهرين من الآباء والأبناء ، وبيّنت أنسابهم وأمكنهم ، وأخبارهم وجرّفتهم ، وآثارهم ومدّتهم ، زيادة في التهم^(٢) والاعتناء . وهذا الفن أيضاً لم يورده الشارحون حقّ إيراده ؛ ولا اعتمدوه بالتبليغ حقّ اعتماده ، وهو مهمّ في الإفادة ، وعلى مغفله في الوقت وبعده الإعادة .

ثم زدت فيه فصلين مفيدين لم أر من اعتنى بهما ، ولا من قصد قصدهما ، سوى أبي سعيد النجديّ في بعض المواضع ، فإنه الملح والمع ، وأورد اليسير فما شفي ولا أقنع :

(١) : « فصار ذلك مجموعاً جامعاً ، وموضوعاً بارعاً » .

(٢) ط : « التهم » ، تحريف ، صوابه من ١ .

أحدها: تبين مأخذ الحريرى في الكلام ، وإخراج الإحالات المودعة فيه من حيز الإبهام ، والرد إلى المنشأ في آية أو أثر ، أو خطبة أو خبر ، أو حكمة فائقة ، أو لفظة رائقة ، أو بيت نادر ، أو مثل سائر ؛ وهذا تتميم بين ، وتكميل متعين .

والفصل الثانى : التنبيه على صناعة البديع ، وتوفية أسمائه ؛ كالجنيس والتتميم والترصيع ، والإتيان بهذا النوع من التبيين والتنبيه على الجميع ، وبسط أنواع الأدب واقتنائه ، والإكثار من الشعر في مظانه من الجدة والهرل في المواضع اللاقة باستحسانه ، ومقابلة كل باب بما يزيد في حسنه وبيانه ، والجرمى مع أبى محمد حسب اتساع خطوه وامتداد ميدانه .

ومن تمام التصنيف ردّ الفرع إلى أصله ، والجمع في الترتيب بين الشكل وشكله ، فأتبعت المواعظ بما يزيد لها أثراً في القلوب ، وأردفت المسليات بما يعينها في إجلاء الكروب ، وسلكت هذه المسالك في سائر الأساليب وأنواع الضروب ؛ فإن وُجد في هذا الكتاب لفظ ظاهره الهرل ، أو معنى ينسب فيه إلى العذل ؛ من وصف نور وثمر ، وذكر نديم وخر ، أو نعت حُسن وحسن ، أو مدح سماع وأذن ، فلا نأبأ بمحمد بدأ بأمر فتمم ، وخصّ نوعاً فعمم ، مع أن صنعة الأدب مبنية على المُلح ، وخواطر الأدباء جائشة بما سَنَح . فجاء من هذا الترتيب الغريب ، ما يضرب في الإجادة بسهم مصيب ، ويثبت لى في الجدة والدعوى أو فَرَ نصيب .

ثم رأيت الشارحين لها من أولى البصر كالفنحديهي وابن ظفر^(١)

(١) هو محمد بن أبى محمد بن محمد بن ظفر ؛ صاحب التصانيف المتنوعة السائرة ، ذكره القفطى في الإنباه ٣ : ٧٥ ، وقال : « ورأيت له شرح المقامات ، قد صنفها لأهل المغرب ، وقد نقل ألفاظها من نسخة سقيمة فصحف ونجح التصحيف ؛ وسمعت أنه كان ينتدر من ذلك إذا قيل له ، ويقول : هذا أمر أحدثته المجلة وبعد الدار . وذكر صاحب كشف الظنون هنا الشرح وسماه : « التنقيب على ما في المقامات من الغريب » .

قد جرّدوا من شروحهم مختصرات وجيزة ، اقتصروا فيها على إيراد اللغات ، فخذوتُ حظّهم في مختصرٍ أوردتها فيه على الكمال ، ووفّيتها حقها من رفع الغلط وكشف الإشكال ، ولم أخلّ في تصريفها واشتقاقها بوجه من الوجوه ولا حال من الأحوال ، فجاء غاية في هذا الباب ، مغنيا في اللغات الغربية عن كل كتاب ؛ فإن فاتته هذا الأصل بضروب من الإفادات وأنواع من الزيادات ، فلذلك الفرع شُوف الاستيعاب في اللغات ، ومزية الاشتقاق والتصريف والشاهد من الشعر والآيات .

وكلّ ذلك بلطف الله تعالى ، وبسعد مَنْ شَرَفَتْ كتابي بخدمته ، وبنيتُ تأليفي على أداء شكر نعمته ، ونصبت نفسي لأتف ببابه الأعلى ، وأتزيّن بلثم تربته فأنا العبد وهو المولى ؛ عماد الأنام ، والظلّ الممدود على المسلمين والإسلام ، ونعمة الله التي هي من أفضل النعم الجسام ؛ متفق سوق للمعارف ، ومفجّر بحور المنّ والعوارف ، الحجير بفضلّه وعدله من المفاقر الفادحة والخاوف ، سيّدنا خليفة الإمام أمير المؤمنين أبو عبد الله ابن إمام الأئمة الراشدين وولّي عهده سيّدنا الأمير الأجلّ أبو يعقوب ، أيد الله سلطانهم ، وأيد بيضتهم وحزبهم ، وجمع القلوب على الانقياد لهم ، والوجوه على التوجّه قباهم .

وهذا الكتاب وإن كان للمبرّع عن حسنه ، والغاية الملتزمة في فنّه ، والجامع لما افترق في سواه ، وللمبرز بما وشّحه من الزيادات وحلّاه ، فإنه لم يتم جماله ، ولا استوفى احتواءه على الفوائد واشتماله ، إلا ببركة مولانا الخليفة ، واقتران اسمه الكريم باسم ولّي عهده المستحق للتقديم في هذه الصحيفة . فالحمد لله على التوفيق لخدمتهم ، والمعونة على شكر نعمتهم ، والتعرض لخيري الدنيا والآخرة في ظلّ حرمتهم .

وقد بذلتُ في الخدمة جهدي ، وأبرزت من فوائد هذا التّأليف أنفس ماعندي ، ولم أتعاط قياماً بكل الواجب ، ولا وفاء بجميع الحقّ الراجب ؛ فالقول يقصر عن التحصيل ، وليس إلى مطاولة الطود ومكاثرة اليمّ من سبيل .

وقد كنت حين أتممتُ هذا التأليف ، وألقيت عن كاهلي الأعباء التي
له والتكليف ، وجلوته كالحسنة ألفت في المنصة النصيف ، كثرت خطابه
إلى من البلدان ، وتواردت عليه رغبات الاستجادة والاستحسان ، فقلت : حتى
يقشّر بلمّ اليمين العليا ، ويتخصص بقبول إمام الدين والدنيا ، فمن بابه الأسى
يلتقط درّه المنظوم ، ويبركاته يسطع مسكه العقيق^(١) المختوم .

وها أنا أشرع ببركة الله وبركة خليفته المبارك الأهدى ، وبنجله المتقلّد منه
صفة وعهداً ، في شرح الخطبة كلمة كلمة ، وإيضاحها حتى لا أدع لفظة مبهمه ،
ثم أشرح المقامات على الولاء ، وأسلاك الجمع بين الإيجاز والاستيفاء ، ولا حول
ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وآله وسلم
أفضل التسليم .

(١) ط : « العقيق » نصيف ، صوابه من ١ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الصِّدْرُ

اللَّهُمَّ إِنَّا نَحْمَدُكَ عَلَى مَا عَلَّمْتَ مِنَ الْبَيَانِ ، وَأَلْهَمْتَ مِنَ
التَّبْيَانِ ، كَمَا نَحْمَدُكَ عَلَى مَا أَسْبَغْتَ مِنَ الْعَطَاءِ ، وَأَسْبَلْتَ
مِنَ الْغَطَاءِ .

* * *

اللهم إنا نحمدك ؛ اللهم اسم خصصته الميم المشددة في آخره ببناء الباري
سبحانه ، والتزم معها حذف حرف النداء لوقوع الميم خلفاً عنه ، ولحلّ اللام في
أوله ، لأنه لا يلي حرف النداء لام التعريف إلا في قولهم : « يا الله » ؛ لتكون
اللام الزائدة نائبة عن حرف أصلي ، وهي همزة « إله » ، فصارت كالأصلي ،
وفي غير هذا الاسم تنجرد اللام للزيادة في أول الاسم . و « يا » زائدة في أوله
كذلك ، وهما جميعاً لتخصيص الاسم وإزالة إشباع التنكير عنه ، فلما تقاربا في المعنى ،
وتشابهتا في الزيادة ، وطلب كل واحد منهما أن يلى الاسم دون صاحبه ، ترك
استعمال الجمع بينهما في أول الاسم إلا في ضرورة الشاعر لإقامة الوزن . وأما اللام
في قولهم : « يا الله » فلما كانت نائبة عن حرف أصلي خفيت زيادتها ، فلما زادوا
الميم في آخره فضحت اللام وشهرت معنى الزيادة ، فامتنعت « يا » من أوله
إلا عند الضرورة كامتناعها في الرجل والغلام ؛ فلما كانت الميم هي الموجبة لمنع
« يا » حمل الاسم معها معنى « يا » فصار مختصاً بالنداء متمتعاً من غيره .

ونحمدك ، معناه ثنى عليك بآتم وجوه الثناء كلها ، فيدخل تحته الشكر ،

والشكر ثناء يقابل به معروف ، وفي الحديث : « الحمد رأس الشكر فمن لم يحمد الله لم يشكره »^(١) ، والحمد ذكر الرجل بما فيه من صفات جليلة . والشكر ذكره بما له من أفعال جليلة ، من قولهم : دابة شكور ، إذا ظهر بهامن السمن فوق مائتا كل من العلف . ويقال : أشكر من برّوفة^(٢) ، وهي شجرة معروفة تخضب بأدنى مطر ؛ ويؤكد الفرق بينهما أن الحمد في مقابلة الذم والشكر في مقابلة الكفر ، فاختلاف تقيضيهما دليل على اختلافهما في أنفسهما .

البيان : وضوح المعنى وظهوره ، والتبيان : تفهم المعنى وتبينه . والبيان منك لغيرك ، والتبيان منك لنفسك ، مثل التبيين تقول : بينت الشيء لغيري بياناً وتبينته أنا تبياناً ؛ وقد يقع التبيان بمعنى البيان ؛ حكى أبو منصور الأزهري رحمه الله : بينت الشيء تبيناً وتبياناً ، قال تعالى ﴿ تَبَيَّنَا لَكُلِّ شَيْءٍ ﴾^(٣) أى بيّنت لك فيه كل ما محتاج إليه أنت وأمتك من أمر الدين ، فهو لفظ عام أريد به الخاص . وقد يقع البيان لكثرة الكلام ، ويُعدّ ذلك من النفاق ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الحياء والعق شعثان من الإيمان ، والبذاء والبيان شعثان من النفاق » أخرجه الترمذي^(٤) . وقال : « العي قلة الكلام والبذاء الفحش ، والبيان كثرة الكلام » . ألهمت : تبهت عليه وفهمته . وأسبغت : أتممت وكثرت . وأسبلت : أطلت . والغطاء ، أراد به ستر الله على عبده .

* * *

وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ اللَّسَنِ ، وَفُضُولِ الْهَذَرِ ، كَمَا نَعُوذُ بِكَ مِنْ
مَعْرِةِ اللَّكَنِ ، وَفُضُوحِ الْحَصْرِ . وَنَسْتَكْفِي بِكَ الْاِفْتِنَانَ بِإِطْرَاهِ

(١) الجامع الصغير ١ : ٢٦٠

(٢) الميداني ١ : ٣٨٨ ، قال في شرحه : « هي شجرة تخضر من غير مطر ، بل

تلبت بالسحاب إذا نشأ - فيما يقال » .

(٣) سورة النحل ٨٩ .

(٤) نقله في الجامع الصغير ١ : ٢٦١ عن الترمذي وأحمد والحاكم .

الْمَتَادِحِ ، وَإِعْضَاءُ الْمُسَامِيحِ ؛ كَمَا نَسْتَكْنِي بِكَ الْإِتِّصَابَ لِإِزْرَاءِ
الْقَادِحِ ، وَهَذِكِ الْفَاضِيحِ .

* * *

نعوذ، أى نستجير . شرّة: حدة، واللسن: حدة اللسان وإدلاله على الكلام .
فضول: زوائد. الهذر: إكثار الكلام بغير فائدة . معرّة: شدة وصعوبة، والمعرّة:
الغيب والعار . وقيل: هى كل ما يؤذيك ، وفلان يعرّ قومه ، أى يدخل عليهم
مكروها يلطّخهم به ؛ وأصله من القرّة وهى الفعلة القبيحة ، أو من العرّ وهو
الجرب . واللكن: احتباس اللسان عند الكلام . فضوح: شهرة وفضيحة . الحصر:
العنى، وحصر حصراً إذا أعيا واستحيا أو ضاق صدره . واستعاذ من شرّة اللسن
لأنه من اقتدر على الكلام أداه إلى المطاولة فى الجدل وتصوير الباطل فى صورة
الحق ، وفيه إثم على فاعله، وأصل الشرّة التلق والانتشار ، ومنه الشرّ؛ وقد شرّ
يشرّ، ومنه شرّر النار . ثم استعاذ من ضدها وهى المعرّة ، لأن صاحبها لا يتم لفظه
فيشين بذلك نفسه ، ويقصر عن مراده من البيان . ثم قرن بها الحصر لأن من
يعتربه يتوالى عليه الوهل والخجل ؛ فلا يستطيع الكلام ، فيفتضح ويشهر عيبه .
وهذا الفن من الكلام يسمّى فى صنعة البديع المقابلة، وأول من صدّر به كتاباً
عمرو بن بحر الجاحظ فى كتاب البيان^(١)، فقال: اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول،
كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن، كما نعوذ بك
من العجب بما نحسن، ونعوذ بك من السّلاطة والهذر^(٢)، كما نعوذ بك من العنى
والحصر ؛ وقد يما تعوذوا بالله من شرهما، ورغبوا إليه فى السلامة منهما ؛ وقد قال
النّير بن تولب :

(١) البيان والتبيين ١ : ٣ ، مع اختصار وحذف .

(٢) السّلاطة : حدة اللسان والصخب : والهذر : كثرة الكلام فى خطأ .

أَعِزَّنِي رَبٌّ مِنْ حَصَرٍ وَعِيٍّ وَمِنْ نَفْسٍ أَعَالَجَهَا عِلَاجًا
وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عُلُقَمَةَ^(١):

لَقَدْ وَارَى الْمُقَابِرُ مِنْ شَرِيكَ كَثِيرٍ تَحْمَلُ وَقَلِيلٍ عَابِ
صُوتًا فِي الْحَافِلِ غَيْرِ عَيٍّ جَدِيرًا حِينَ يَنْطِقُ بِالصَوَابِ

ثم استرسل في ذكر العيِّ والبيان إلى غاية بعيدة ، واستشهد على النوعين بآيتين ؛ بقوله تعالى : ﴿سَلَقُوا كَمِ بِالسَّنَةِ حَدَادٍ﴾^(٢) ، وفي الضدِّ بقوله تعالى : ﴿أَوْ مِنْ يُلَشَّافِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾^(٣) ؛ فاحتذى الحريري هذا الخذو ، فجاءت تشبيهاته أطبع وأصنع ، وزاد عليه بأن ابتداء بحمد الله على نعمة البيان ، ثم استعاذ بما استعاذ منه الجاحظ ، وبيان المقابلة في كلامه أنه قابل شرّة بمرّة واللّسن بالّكن ، والهدر بالحصر ؛ فإذا تفهّمت مواقعها في كلامه قست عليها ما يشبهها في النظم والنثر . وسئل قدامة الكاتب عن المقابلة ، فقال : هي أن يضع الشاعر أناظا يعتمد التوافق بين بعضها وبعض في المخالفة ، فيأتي في الموافق بما يوافق ، وفي المخالف بما يخالف ، وأنشد في ذلك :

فِيَا عَجَبًا كَيْفَ اتَّفَقْنَا فَنَاصِحٌ وَفِيٍّ وَمَطْوِيٌّ عَلَى الْغِشِّ غَادِرٌ^(٤) !
فَجَعَلَ يُلَازِءُ « نَاصِحٌ » ، « وَفِيٍّ » ، « غَاشًا : غَادِرًا » . ومثله :
فَتَنِيَّ تَمَّ فِيهِ مَا يُسَرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنَّ فِيهِ مَا يَسُوءُ الْأَعَادِيَا^(٥)

نستكفي : معناه نسألك ونطلب منك أن تكفينا الافتتان ؛ وذلك أن تصاب بفتنة الإعجاب ، وأصل الفتنة اختبار النضّة بالنار ، قال تعالى في الاختبار : ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾^(٦) ، أي اختبرناك . والفتين : النضّة المحرقة ، والفتين أيضا : الحجارة المحرقة ، وهي الحجارة تُدَلَّكُ بها الأقدام في الحمام . والإطراء : الاسترسال في مدح

(١) في البيان والتبيين : « محرز بن علقمة » .

(٢) الأحزاب ١٩ .

(٣) الزخرف ١٨ .

(٤) تحرير التجميع ١٨١ — قال : « أحسبه لكثير . وانظر العدة ٢ : ١٤ » .

(٥) للناضج الجعدي ، ديوانه ١٧٤ .

(٦) سورة طه ٢٠ .

الإنسان بحضرة، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد الله ورسوله» .
إغضاء: تجاوز ومسامحة، وأصله أن يبدو لك الشيء فتدني جفنيك وتقصّر نظرك كأنك لم تره . والإغضاء: الإغماض وأغضيت عنه وأغضت، إذا تغافلت عنه . المسامح: الموافق لغرضك، المتجاوز عن عيبك . الانتصاب: الظهور والاعتراض أمام الشيء . إزراء: تقصير وتنقيص . القادح: العائب، وقدحت الدود في الأسنان والشجر: أكلتها، فكان فعل هذا العائب في أعراض الناس فعل الدود في الشجر . والقادح أيضا: الذي يضرب الزند بالحجر ليورى . هتك: شق، وهتك الستر: خرقتة . الفاضح: الذي يشهر عيوبك، وفضحت الشيء: كشفتته .

وَنَسْتَفِرُّكَ مِنْ سَوَقِ الشَّهَوَاتِ إِلَى سَوَقِ الشُّبُهَاتِ ؛ كَمَا نَسْتَفِرُّكَ
مِنْ نَقْلِ الْخَطَوَاتِ إِلَى خَطَطِ الْخَطِيئَاتِ . وَنَسْتَوْهِبُ مِنْكَ تَوْفِيقًا
قَائِدًا إِلَى الرُّشْدِ ، وَقَلْبًا مُتَقَلِّبًا مَعَ الْحَقِّ ، وَلِسَانًا مُتَحَلِّيًا
بِالصِّدْقِ ، وَنُطْقًا مُؤَيَّدًا بِالْحُجَّةِ ، وَإِصَابَةً ذَائِدَةً عَنِ
الرَّيْبِ ، وَعَزِيمَةً قَاهِرَةً هَوَى النَّفْسِ ، وَبَصِيرَةً تُدْرِكُ بِهَا
عِرْفَانَ الْقَدْرِ .

نستفرك: نسألك المغفرة، وهي من غفرت الشيء سترته. الشبهات: جمع شبهة وهي ما يشبه عليك أمره. والخطوات: جمع خطوة؛ وهي ما بين القدمين. الخطط: جمع خطة وهي الطريق يخطه الرجل في الأرض يجعله حدًا للشيء يحوزه ويعتمده . والخطّة، بالضم: المنزلة والمزية. والخطيئات: الذنوب، وهي من الخطأ، وجعل ماساقه

في المقامات كأنه شهوة اشتبهى عملها ، ثم اشتبه عليه : هل في ذلك رضا الله أم سخطه ! فكأنه ساق شهوة إلى سوقٍ يجهل التبائع فيها فلعله فيها خاسر الصفقة ، فلهذا استغفر الله منها. الرشد : الهداية رشده الله رشداً وأرشده هداًه . ورشدهو رُشدًا ورشادا : اهتدى . متحليًا : متصفا ومتزينا . مؤيدا : مُعانا . وأصابني كلامه إصابة : إذا نطق بالصواب ، ورمى فأصاب لم يخطئ ؛ وقوله تعالى : ﴿ رُخَاءٌ حَيْثُ أَصَابَ ﴾^(١) ، أي حيث أراد ، قال القراء : اختلفت أنا وعيسى النخوى في الآية فقلت : ما أحد أعلم بهذا من رؤية ، قال : فسرنا إليه فلقيناه يتوكأ على اثنين ، فقال : أين تصيبان ؟ أي أين تريدان ؟ ، فقلت لصاحبي : كُنَيْتِ السُّؤَالَ^(٢) . ذائدة : دافعة . الزيف : الليل ، وزاغ عن الحق : مال عنه إلى الباطل . العزيمة : الجِدَّ ، وعزم على الشيء : جَدَّ فيه . قاهرة : غالبة . وهوى النفس : ماتحبه وتميل إليه . بصيرةٌ : يقيا ، والبصيرة للقلب ، والبصر للعين . عِرفان القدر ، أي معرفة أقدارنا .

* * *

وَأَنْ تُسْعِدَنَا بِالْهِدَايَةِ إِلَى الدَّرَايَةِ ، وَتَمُضِدَنَا بِالْإِعَانَةِ ۖ عَلَى الْإِبَانَةِ ، وَتَمُصِّمَنَا مِنَ النُّوَايَةِ فِي الرُّوَايَةِ ، وَتَصْرِفُنَا عَنِ السَّفَاهَةِ فِي الْفُكَاهَةِ ؛ حَتَّى نَأْمَنَ حَصَائِدَ الْأَلْسِنَةِ ، وَنُسَكِفِي غَوَائِلَ الزُّخْرَفَةِ ؛ فَلَا نَرِدَ مَوْرِدَ مَأْتِمَةٍ ، وَلَا نَقِفَ مَوْقِفَ مَنْدَمَةٍ ، وَلَا نُرْهَقَ بِتَبِيعَةٍ وَلَا مَعْتَبَةٍ ، وَلَا نُلْجَأَ إِلَى مَعْدِرَةٍ عَنْ بَادِرَةٍ .

* * *

(١) سورة ص ٣٦ .

(٢) الخبر في الكشف ٤ : ٧٤ ، وروايته : « عن رؤية ، أن رجلين من أهل اللغة قصدها لبسلاء عن هذه الكلمة ، فخرج إليهما ، فقال : أين تصيبان ؟ فقالا : هذه ملقنا ؟ ورجما » .

(٢ - شرح المقامات)

الدَّراية: مصدر دَرَيْتُ الشيءَ دِرَايَةً ودَرِيًّا، علمته . تعصُّدنا تَعْوِينَا، وعصده: أعانه وكان له عَصْداً . الإبانة : مصدر أبنت الشيء ، أى بَيَّنَّته . تعصمنا من الغَوَاية ، أى تمنعنا من الضلالة والنساذ ، والغَوَاية : مصدر غَوَى غَيًّا وغَوَاية وغَوَى أيضاً غَوَاية ، وهما ضدَّ رَشَدٍ ورُشْدًا . الرواية : نقل الحديث من صاحبه إلى طالبه . تصرفنا: تزييلنا . السفاهة: الجهل ، والفكاهة : المزاح وماتستريح به النفوس وهى فى الكلام كالفاكهة فى الطعام . حصائد الألسنة : شرَّ كلامها وقطعها فى أعراض الناس، وأراد ماجاء فى حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه ، قال: قلت: يا رسول الله ، إنا لنؤاخذ بما نتكلم؟ فقال: «تكلتك أملك يا معاذ! هل يكُبُّ الناس فى النار على رؤوسهم إلا حصائد ألسنتهم!» فدعا الله أن يتمَّ سعده بأن يؤمِّنَه عادية الألسنة . والحصائد فى الأصل : جمع حصيدة وهى الحزْمة من الزرع المحصود فهى فعيلة بمعنى مفعولة ، والحصيد : الشيء المحصود .

نكفى : نمنع . غوائل : قوائِل ومهلكات ، واحداها غائلة ؛ وغالته المنيَّة أهلكته . الزخرفة : تزيين الباطل ، وأصلها تزيين الشيء بالزُّخرف وهو الذهب . نَرَد: نقصد . مورد مائة : موضع إثم ، والمورد أصله الموضع يُشرب منه الماء . مندمة : ندم . نرهب : نُتَّهِم ونعاب : والزهب : العيب ، وتبعة : خطيئة يتبعه ضرها بعد الموت . معتبة : سخط ، وهى من العتاب ، وهو تقبيح القول على جهة الإشفاق ، وأصله من عتبتُ الأديمَ ، أى رددته إلى الدِّبَّاغ ليصلح ، ومنه: إنما يعاتب الأديمُ ذو البَشَرَةِ^(١) . ويقال: عتب علىَّ فى كذا عتباً فأعتبته ، أى رجعت إلى ما يريد وأرضيته . وباء « تبعة » وتاء « معتبة » يكسران ويفتحان . نلجأ : نُخَوِّج . معذرة : اعتذار . بادرة : سَقَطَه وَزَلَّه ، وقد بدرت الكلمة والفعلة :

(١) الميدانى ١ : ٤٠ قال : « والمعابة : المعاودة ، وبشرة الأديم : ظاهره الذى عليه الشعر ، أى أن ما يعاد إلى الدِّبَّاغ من الأديم ، ما سلعت بشرته » .

خرجت من غير أن يدبر موقعها ، وفلان تخشى بوادره ، أى فلتاته .

اللَّهُمَّ فَحَقِّقْ لَنَا هَذِهِ الْمُنْيَةَ ، وَأَنْلِنَا هَذِهِ الْبُغْيَةَ ، وَلَا تَضْحِنَا عَنْ ظِلِّكَ السَّابِغِ ، وَلَا تَجْعَلْنَا مُضْغَةً لِلْمَاضِغِ ؛ فَقَدْ مَدَدْنَا إِلَيْكَ يَدَ الْمَسْأَلَةِ ، وَبَخَعْنَا بِالْاِسْتِكَانَةِ لَكَ وَالْمُسْكِنَةِ ، وَاسْتَنْزَلْنَا كَرَمَكَ الْجَمِّ ، وَفَضْلَكَ الَّذِي عَمَّ ، بِضَرَاةِ الطَّلَبِ ، وَبِضَاةِ الْأَمَلِ . ثُمَّ بِالْتَّوَسُّلِ عِمَّامِدِ سَيِّدِ الْبَشَرِ ، وَالشَّفِيعِ الْمَشْفَعِ فِي الْمَحْشَرِ ، الَّذِي خَتَمَتْ بِهِ النَّبِيِّينَ ، وَأَعْلَيْتَ دَرَجَتَهُ فِي عِلِّيِّينَ . وَوَصَفْتَهُ فِي كِتَابِكَ الْمُبِينِ ، فَقُلْتَ وَأَنْتَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ ^(١) . اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الْهَادِينَ ، وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ شَادُوا الدِّينَ ، وَاجْعَلْنَا لِهَدْيِهِ وَهَدْيِهِمْ مُتَّبِعِينَ ، وَانْقَعْنَا بِمَحَبَّتِهِ وَمَحَبَّتِهِمْ أَجْمَعِينَ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَبِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ .

الْمُنْيَةُ : مَا يُتَمَنَّى . وَالْبُغْيَةُ : مَا يُطْلَب . أَنْلِنَا : أَعْطَيْنَا . تَضْحِنَا : تَكْشِفُنَا . ظِلُّكَ السَّابِغُ : سِتْرُكَ الْمَدِيدِ ، وَأَصْلُ الظِّلِّ السِّرُّ ، وَالْمَوْضِعُ الَّذِي لَا تَبْلُغُهُ الشَّمْسُ ، وَفِي الْحَدِيثِ « ضَحَا ظِلُّهُ » ، أَيْ عَدَمُ فَانْكَشَفَ مَوْضِعُهُ لِلشَّمْسِ . مُضْغَةٌ : لُقْمَةٌ ، وَكُلُّ مَا يَعْضَغُ لُقْمَةً ، وَالْمَاضِغُ هُنَا : الْعَائِبُ الْآ كُلِّ أَمْرَاضِ النَّاسِ ، وَجَمَلُ الْعَرَضِ حِينَ يَعْصِيهِ مُضْغَةٌ لَهُ ﷺ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَمَّا عُرِجَ

بى مهدتُ بأقوامٍ لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقات :
 مَنْ هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : « هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون
 فى أعراضهم » . المسألة : الحاجة والفقر . نجفنا : أقررنا ، ونجى له بحقه أقرب به ،
 ونجى نفسه : قتلها غيظا ، ومنه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ ﴾ ^(١) فالتمدية بالبلاء غيرُ
 المتعدية بنفسها . الاستكانة : الخضوع . والمسكنة : الفقر والذلة . استنزنا :
 طلبنا أن تُنزل علينا ، والاستنزال السؤال بتلطّف . والجَم : الكثير . فضاك :
 إحسانك . عَمَّ شَمَل . ضراعة : ذلة . البضاعة : المال يُتجر به . الأمل :
 الرجاء ؛ يقول إن تجارتنا التى نحصل بها منك إحسانك ، رجاؤنا توكلنا عليك .
 التوسّل : التقرب . البشر : الخلق ، وهو فى الأصل جمع بشرة ، وهى ظاهرة الجلد ،
 وسَمُوا بشرا ، لظهور أبقارهم خلافا لغيرهم من الحيوان . الشفيع : الطالب
 لغيره . والمشفّع : الذى أُعطيَ الشفاعة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « خُبِرَتْ
 بين الشفاعة وبين أن يدخل شطر أمتى الجنة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى ،
 أترونها للمؤمنين المُتَّقِينَ ! لا ولكنها للمذنبين المتلوثين الخطائين » ^(٢) .

الحشر : موضع اجتماع الناس يوم القيامة ، والحشر أيضا : الحشر وهو
 الأشبه باليوم . ختمت : جعلته خاتمهم ، أى آخرهم . درجته : منزلته . عليّين :
 أعلى الجنة وكأنه جمع عليّة . المُبين : المبين . رسول كريم ، قيل : هو
 جبريل ، وقيل هو محمد صلى الله عليه وسلم . مكين : رفيع المنزلة . ثمّ : معناه
 هناك ، قال الزّجاجى : هى إشارة إلى ما كان متراميا من الأماكن ، والأشهر
 أن المراد به فى الآية جبريل ؛ ولذا رجع الحريرى آخره فأزال الآية من كتابه ،
 واستشهد بما اتفق مشاهير المفسرين على أن المراد به نبينا صلى الله عليه وسلم ،
 وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ^(٣) ، وليس رجوعه عن القول

(١) الكهف ٦ .

(٢) نقله فى الجامع الصغير ١ : ١٨ .

(٣) سورة الأنبياء ١٠٧ .

الريعب ، بل هو حسن ، إذ كان الرجوع عن الخطأ إلى الصواب واجباً ، إلا أن
الثابت عند ابن جهور (إنه لقول رسول كريم) ؛ قال ابن عباس رضى الله
عنهما : هو جبريل وهو الرسول لحمد بالقرآن . ذِي قُوَّةٍ ؛ لأنه قلع بأحد جناحيه
أربع مدائن لقوم لوط ؛ وهى سدُوم ودامورا وصابورا وعمُورا ؛ فى كل
مدينة مائة ألف إنسان سوى ما فيها من الدواب والأنعام . آله ، أى أهله وأصله
«أأل» فأبدلت الهمزة ألفاً ، وأكثر ما تضاف إلى الظاهر ، وقد سُمِعَ إضافتها إلى
المضمر فى الشعر والكلام الفصيح ، خلافاً لأبى جعفر النحاس وأبى بكر
الزُّبَيْدِ ، فإنهما منعاً من إضافتها إلى المضمر ، وأكثرهم على أن هزتها مبدلة من
هاء «أهل» وصوابه أنها أصل فى بابها ، من آل يثول إذا رجع لأنهم يرجعون إليه
ويرجع إليهم . الهادين : المرشدين إلى طريق الخير ، وقد هديته الطريق ، إذا
أرشدته . شادوا : رفعوا وبنوا . هديده وهديتهم : طريقته وطريقتهم ، وقال النبى
صلى الله عليه وسلم «الله الله فى أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً بعدى ، فمن أحبهم
فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن
آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » . جدير : حقيق .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّهُ قَدْ جَرَى بَيْنَهُمُ أُنْدِيَّةُ الْأَدَبِ الَّتِي رَكَدَتْ فِي
هَذَا الْمَضَرِّ رِيحُهُ ، وَخَبَتْ مَصَابِيحُهُ ، ذِكْرُ الْمَقَامَاتِ الَّتِي ابْتَدَعَهَا
بَدِيعُ الزَّمَانِ ، وَعَلَامَةُ هَمْدَانِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى . وَعَزَا إِلَى أَبِي الْفَتْحِ
«إِلْسَكَنْدَرِي نَشَأْتَهَا ، وَإِلَى عَبَّاسِ بْنِ هِشَامٍ رِوَايَتَهَا ، وَكِلَاهُمَا مَجْهُولٌ
لَا يُعْرَفُ ، وَنَكِيرَةٌ لَا تَتَعَرَّفُ .

أندية : مجالس واحدها ندى ، والندى والنادى والمنتدى : مجلس القوم

للحديث ، وقيل هو من الندى وهو الكرم ، لأنهم يُقصدون فيه فيعطون .
 وقيل : هو من النداء الذى هو الصوت لأنه ينادى فيه بعضهم بعضاً ليجتمعوا .
 وقيل : هو من الندى وهو العرق لأن الداخل فيه يحتشم فيعرق . والأدب : معرفة
 الأخبار والأشعار ، وفلان أديب ، إذا كان متفنناً مشاركاً . ركبت : سكنت ،
 والمقامات : المجالس ، واحداها مقامة ، والحديث يُجتمع له ويجلس لاستماعه يسعى مقامة
 ومجلساً ، لأن المستمعين للحدث ما بين قائم وجالس ، ولأن الحدث يقوم ببعضه
 تارةً ، ويجلس ببعضه أخرى ؛ قال الأعمى : المقامة المجلس يقوم فيه الخطيب يحض
 على فعل الخير .

[بديع الزمان الهمداني]

ذكر البديع أبو منصور الثعالبي في يتيمة ، فقال : « بديع الزمان هو أبو الفضل
 أحمد بن الحسين الهمداني ، مفخر همدان ، ونادرة الفلك وبكر عطار ، وفريد
 الدهر ، وغرة العصر ؛ وهن لم يُلف نظيره في ذكاء التريجة وسرعة الخاطر
 وشرف الطبع وصفاء الذهن وقوة النفس ، ولم يدرك قرينه في ظرف النثر وملاحه
 وغرر النظم ونكته ، ولم يُرو أن أحداً بلغ مبلغه من لب الأدب وسرّه ، أو جاء
 بمثل إعجازه وسحره ، فإنه كان صاحب عجائب ، وبدائع وغرائب ، فمنها
 أنه كان يُنشد القصيدة لم يسمعها قط ، وهى أكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها
 كلها ، ويوردها إلى آخرها ، لا ينخرم حرف منها . وينظر في الأربع والخمس الأوراق
 من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ، ثم يعيدها عن ظهر قلبه هذا
 ويسردها سرداً . وكان يُقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى غريب
 وباب بديع ، فيفرغ منها في الوقت والساعة والجواب عما فيها ، وكان ربما يكتب
 الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بأخر سطره ، ثم هلم جرا إلى الأول ، ويخرجه
 كأحسن شيء وأماحه ، ويوشح القصيدة الفريدة من قبله بالرسالة الشريفة من
 إنشائه ، فيقرأ من النظم النثر ، ومن النثر النظم ، ويعطى التوافى الكثيرة ، فيصل

بها الأبيات الرشيقة . ويُقترح عليه كلّ عروض من النظم والنثر فيرتجله في أسرع من الطرف ، على ريق لا يباعه ، ونفس لا يقطعها ؛ وكلامه كله عفو الساعة وفيض اليد ومسارقة القلم ومجاراة الخاطر . وكان مع هذا مقبول الصورة . خفيف الروح ، حسن العشرة ناصع الظرف ، عظيم الخلق ، شريف النفس ، كريم العهد ، خالص الود ، حلوا الصداقة ، مرّ العداوة . فارق همدان سنة ثمانين وثلاثمائة وهو مقتباً الشيبية ، غرض الحداثة . وقد درس على أبي الحسين بن فارس ، وأخذ عنه جميع عنده واستنفذ علمه ^(١) . وورد حضرة صاحب أبي القاسم بن عبّاد ، فتزود من ثمارها ، وحسن آثارها . وورد نيسابور في سنة اثننتين وثمانين وثلاثمائة ^(٢) ، فنشر بها بزرّه ، وأظهر طرزه ، وأملّى أربعمائة مقامة نحاً أبا الفتح الإسكندريّ في الكدبة وغيرها ، وضمّها ما تشهى الأنفس ؛ من لفظٍ أنيق قريب المأخذ بعيد المرام ، وسجع رشيق المطاع والمقطع كسجع الحمام . وجدّ يروق فيملك القلوب ، وهزل يشوق فيسحر العقول ... ^(٣) ثم ألقى عصاه بهراً ، فعاش فيها عيشة راضية وحين بلغ أشده ، وأربى على أربعين سنة ؛ ناداه الله فلباه ، وفارق دنياه في سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة ؛ فقامت نوادب الأدب ، واثلم حدّ القلم ، وبكاه الفضائل مع الأفاضل ، وورثاه الأكارم مع المكارم ؛ على أنه مامات من لم يمت ذكره ، ولقد خلد مَنْ بقي على الأيام نظامه ونثره ؛ والله عزّ وجل يتولاه بعفوه وغفرانه ، ويحييه بروحه وريحانه ^(٤) .

(١) القيمة : « واستنفذ علمه ، واستنزف بحره » .

(٢) في ط : « وولى » ، تحريف ، والمبارة في القيمة : « ثم قدم جرجان ، وأقام بها مدة على مداخلة الإسماعيلية والتعيش في أكتافهم ، والاقتباس من أنوارهم ، واختص بالدهخدا أبي سعد محمد بن منصور أيداه الله تعالى ، ونفقت بضائمه لديه ، وتوفر حظله من عادته المعروفة في إسداء المعروف ، والإنصال على الأفاضل . ولما استقرت عزيمته على قصد نيسابور أعانه على حركته ، وأزاح عنه في سفرته فوافاه في سنة اثننتين وثمانين وثلاثمائة . . . » .

(٣) حذف المؤلف هنا من كلام التتالي ما يزيد عن صفحة .

(٤) قيمة الدهر ٤ : ٢٤٠ - ٢٤٢ .

وذكر الحصري رحمه الله في كتاب الزهر أن الذي سبب للبدیع رحمه الله تألیف مقاماته ، هو أنه رأى أبا بكر بن الحسين بن درید قد أغرب بأربعین حديثاً ، ذكر أنه استنبطها من ینابیع صدره ، وانتخبها من معادن فكره ، على طبع العرب الجاهلیة ، بألفاظ بعيدة حوشیة ، فعارضه البدیع بأربعائة مقامة ، لطيفة الأغراض والمقاصد ، بدیعة المصادر والموارد (١) . انتهى كلامه .

والذى جاء بها ، فيه قلة الإمتاع للسامع من حديثها ، وفيها مقامات لا تبلغ عشرة أسطار ، فجاءت مقامات الحریری أحفل ، وأجزل وأكمل ؛ فلذلك فضلت البدیعة . وقد صرح علماء الأدب فى كتبهم بتفضیل البدیع على نظرائه من أهل زمانه ، ولقبه بالبدیع يدل على قدره الرفیع ، قال :

وَقَلَمًا أَبْصَرْتُ عَيْنَاكَ مِنْ رَجُلٍ إِلَّا وَمَعْنَاهُ إِنْ فَتَشْتَ فِي لِقَابِهِ

وسئل بعض علماء الأدب من أهل عصرنا عن الحریری والبدیع ، فقال : لم يبلغ الحریری أن يسمى « بدیع يوم » ؛ فكيف يقارن بدیع زمان !
وجرى ذكر مقاماته فى مجلس بعض أشياخنا ، وكان حافظاً أديباً ، فقال :
مقامات البدیع يحكى أنها ارتجال ، وأن البدیع كان يقول لأصحابه فى آخر مجلسه : اقترحوا غرضاً نبني عليه مقامة ، فيقترحون ما شاءوا ، فيملي عليهم المقامة
الرتجالا فى الغرض الذى اقترحوه ؛ وهذا أقوى دليل إن صح على فضل البدیع .
قوله علامة : أى كثير العلم ، وهى بذية للمبالغة .

[ذكر همدان]

وهمدان ، بفتح الهم ونقط الذال : بلد بخراسان . وقيل : همدان من كور الجبل . وبلد همدان واسع جليل القدر كثير الأقاليم والكور ، افتتح سنة ثلاث وعشرين ، ويشرب أهلها من عيون وأودية . وقال اليعقوبى : من أراد السير من الدينور إلى همدان سار متنزهاً إلى موضع ، يقال له : أسد أباز مرحطين -

(١) زهر الآداب ٢٦١ .

حومن أسد آباد إلى مدينة همدان مرحلتان - وهي كثيرة البرد . وقال فيها ابن خالويه - وهو همداني ، واستوطن حلب عند بني حمدان :

إذا همدانُ اعتَرَّها البردُ وانقَضَى برغمك أيلولُ وأنت مقيمُ
فعميناك عَمَشَاوانِ وَأُنْفُكَ سَائِلُ ووجهك مسودَّ البياض بهيمُ
بلادُ - إذا ما الصيفُ أقبلَ - جنةٌ ولكنها عند الشتاء جحيمُ

ولبعضهم :

همدانُ متلفةُ النفوسِ ببردِها والزَّمهريرُ ، وحرَّها مأمونُ^(١)
غلب الشتاء مصيفها وخريفها فكأنما تموزها كأنونُ
وكل الرواة يروونها « همدان » بفتح الميم ونقط الذال ، إلا ابن اللبابة فإنه رأيت في شرحه : همدان بسكون الميم ودال غير معجمة ، وهي قبيلة يمانية ، قال فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه :

ولو كنت بواباً على باب جنَّةٍ لقاتِ لهمدان ادخلوا بسلام^(٢)

والرواية الأولى أثبت . قوله : « عزا » أبي نسب يقال : عزيزته عزياً ، وعزوته عزواً : نسبه ؛ واعتزى إلى بني فلان : انتسب إليهم ، وأبو الفتح في البديعية بمنزلة أبي زيد في الحريرية ، وعيسى بمنزلة الحارث . نشأتها : صنعتها . روايتها : إسناد أحاديثها . والتكرة التي لا تتعرف ، هي في غير الأسماء .

فأشار مَنْ إشارَتُهُ حُكْمٌ ، وطَاعَتُهُ غُصْنٌ ، إِلَى أَنْ أَنْشِئَ
مَقَامَاتٍ أَتْلُو فِيهَا تِلْوُ الْبَدِيعِ ، وَإِنْ لَمْ يُدْرِكِ الظَّالِعُ شَأَوُ
الضَّلِيلِ ، فَذَا كَرَّتُهُ بِمَا قِيلَ فِيمَنْ أَلْفَ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ ، وَنَظَمَ

(١) معجم البلدان ٨ : ٤٧٦ ، ونسبها إلى كاتب بكر .

(٢) من مقطوعة له ، أوردها ابن رشيق في الصمد ١ : ٣٤

بَيْتًا أَوْ بَيْنَتَيْنِ ، وَاسْتَقْلَمْتُ مِنْ هَذَا الْمَقَامِ الَّذِي فِيهِ يَحَارُّ الْفَهْمُ ،
وَيَفْرُطُ الْوَهْمُ ، وَيُسْتَبْرُغُ غَوْرُ الْعَقْلِ ، وَتَبِينُ قِيَمَةُ الْمَرْءِ فِي الْفَضْلِ ،
وَيُضْطَرُّ صَاحِبُهُ إِلَى أَنْ يَكُونَ كَخَاطِبِ لَيْلٍ ، أَوْ جَابِ رَجُلٍ
وَخِيلٍ ، وَقَلَمًا سَلِيمًا مِكْثَارًا ، أَوْ أَقِيلَ لَهُ عِثَارٌ .

[السبب في إنشاء الحريرى للمقامات]

غُثْمٌ : غنيمه . وحكى الفنجديهى في شرحه للمقامات : أن الذى أشار عليه بها
هو شرف الدين أنوشروان بن خالد وزير الخليفة ، أمره بإنشاء المقامات وحكم عليه
بها . وقيل : أمره بها صاحب البصرة وواليتها . وقال : سمعت الشيخ الثقة أبا بكر
عبد الله بن محمد بن أحمد بن النُّفُور البزَّار ببغداد يقول : سمعت الشيخ الرئيس
أبا محمد الحريرى يقول : أبو زيد السَّروجى كان شحاذًا بليغًا ، ومكديًا
فصيحًا ، ورد علينا البصرة ، فوقف يومًا في مسجد بنى حرام يتكلم ، ويسأل
شيتًا ، وكان بعضُ الولاة حاضراً ، والمسجد غاصُّ بالفضلاء ، فأعجبهم بفصاحته ،
وحسن صناعته وملاحظته ، وذكر أسرار روم ابنته ، كما ذكرنا في المقامة الحرامية
وهى الثامنة والأربعون ، قال : فاجتمع عندى عشية ذلك اليوم جماعة من معارف
فضلاء البصرة وعلمائها ، فحكيتُ لهم ما شاهدتُ من ذلك السائل ، وسمعت من
لطافة عبارته في تحصيل مُرَادِهِ ، وطرافة إشارته في تسهيل إيرادِهِ ؛ فحكى كلُّ
واحد من جلسائى أنه شاهد من هذا السائل في مسجده مثل ما شاهدت ، وأنه
سمع منه في معنى آخر فصلاً أحسن مما سمعت . وكان يغير فى كل مسجد زِيَّةً
وشكله ، ويظهر فى فنون احتياله ، فمجبوا من جريانه فى ميدانه ، وافتتانه فى
إحسانه ؛ قال الحريرى : فابتدأت فى إنشاء المقامة الحرامية تلك الليلة ، حاذياً ^{بذوه} ،
فلما فرغتُ منها أقرأتها جماعة من الأعيان ، فاستحسنوها غاية الاستحسان ،

وأنهوا ذلك إلى وزير السلطان ، واقترحوا على أخواتها ، والله المستعان .

وهذا الذي ذكر الفنجديهي قد حدثني بنحوه من يوثق به من الطلبة ، بسند متصل بأبي محمد الحريري ، وأن الحريري وفد مع أهل البصرة بغداد ، فوجدوا بواسط أبا زيد السروجي^(١) ، فقال : يا أهل البصرة ، أنتم تزعمون أنكم لا تكادون ولا تُخدعون ، وقد والله مشيت على مساجدكم ومحاضركم ، فما تعذر على فيها موضع لم أجب منافع أهله بضروب من المكر . فلما بلغوا بغداد أخبروا بالقصة وزير السلطان ، فأمر الحريري بجمع المقامات :

لكن الذي ثبت عندنا ، هو ما حدثني به الشيخ الفقيه أبو بكر بن أزهر أن الفقيه الراوية أبا القاسم بن جهور ، حدثه أن الحريري حدثه أن قصة المقامة الثامنة والأربعين حق ، وأن رجلا قام بمسجد بني حرام ، فأظهر التوبة من ذنبه ، وسأل عن الوجه في كفارته ، فقام رجل من بين الناس ، فذكر أسر انتته ، فنظم الحريري القصة وجعلها مقامة ، وأنها أول مقامة أثبتت في الكتاب ، وكان ابن جهور يقول : إن الذي أشار إليه بها في قوله : « فأشار من إشارته حكم » هو المستظهر بالله العباسي ، وكان لهذا المستظهر رغبة في الطلب ، وحظ من الأدب ، وعناية بأهل العلم .

وحدث ابن جهور أنه دخل بغداد في أيامه وبها ألف رجل وخمسمائة رجل حامل علم ، وكلهم قد أثبت أسماءهم السلطان في الديوان ، وأجرى على كل واحد من المال بقدر حفظه من العلم . وكان ابن جهور يحدث أن الحريري ألف المقامات كلها على الركاب ، وذلك أن المستظهر بالله لما أمره بصنعها ، أخرج كالحافظ على العمال ، فكان يخرج في الأبردين يتمشي في ضفتي دجلة والفرات ، ويقتل خاطره بنظر الخصرة والمياه ، فلم ينقض فصل العمل إلا وقد اجتمع له

(١) السروجي ، بفتح السين : منسوب إلى سروج : بلدة قريبة من حران واسم أبي زيد السروجي المطهر بن سلال اللغوي ، وأحد من اشتغل بالتحقيق في البصرة ، ذكره القفطي في إنباء الرواة ٣ : ٢٧٦ .

مائتا مقامة ، فخلص منها خمسين وأتلف البواقى ، وصدر الكتاب ، ورفعه إلى السلطان ، فبلغ عنده أسنى المراتب .

قوله : « فذا كرتة بما قيل فيمن ألف بين كلمتين ونظم بيتاً أو بيتين » ، قال أبو عمرو بن العلاء : الإنسان فى فسحة من عقله ، وفى سلامة من أفواه الناس ، ما لم يضع كتاباً أو يقل شعراً .

وقال العتاتى : من صنع كتاباً فقد استشرف للمدح والذم ، فإن أحسن فقد استهدف للحسد والغيبة ، وإن أساء فقد تعرض للشتم بكل لسان .

غيره : من صنف فقد جعل عقله على طبق يعرضه على الناس . وقال حسان :
وإنما الشعر عقل المرء يعرضه على البرية إن كيساً وإن حُفّاً^(١)
وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقاً

واستقلت : طابت الإقالة . المقام : موضع القدمين وأنت قائم . يحار : تتحير : يفرط : يسبق . الوهم : الفلط . يُسبر غور العتل ، يختبر قدره ومنتهاه ، وأصله فى الجراحات يُختبر غورها ، أى بعد قمرها . والمسبار : الحديدة التى يقاس بها مقدار غور الجراحة ، وسبرها : قاسها به ، يفعل ذلك الطبيب للقصاص أو للدواء ، ويقال لحديدته : السبار والمسبار والمسبر والمكحل والميل والمروود والجراف . تبين : تتبين . يضطر : يُلجأ . حاطب ليل : جامع الخطب بالظلام ، وهذا مثل لأكثم بن صيفى حكيم العرب ، ذكره أبو عبيد فى الأمثال^(٢) ، وقال : إنما شبهه بحاطب الليل لأنه ربما نهشته الحية أو لسعته العقرب فى احتطابه ليلاً ، فكذلك المهذار ربما أصابه فى إكثاره بعض ما يكره ، قال التززدق :

كحتطب ليلاً أسود هضبة أتاه بها فى ظلمة الليل حاطبة^(٣)

وأبين من تفسيره أن حاطب الليل لا يصير ما تحتطب ، فهو يؤلف بين الخطب الكبير والصغير ، والقوى والضعيف ، والجيد والردى ، فكذلك المكثار

(١) ديوانه ٢٩٢ . (٢) فصل المغال ٢٥ ، ولفظ المثل فيه : « المكثار كحاطب الليل » .

(٣) ديوانه ٥١

يأتي بالضعيف من الكلام والقوى والجيد والردى، فشبهه لذلك بالحاطب، وأراد: بـ «جالب رجل وخيل» ما أراد بحاطب الليل، لأن الرجل ضعيف والفارس قوى. والمكثار: الكثير الكلام، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كَثُرَ كلامه كَثُرَ سَقَطُهُ، وَمَنْ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ، وَمَنْ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ، كَانَتْ النارُ أَوْلَى بِهِ، أَلَا وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لَيْسَكَ»^(١).
أقيل: أقيم ورفع. عثار: انكباب وسقوط، وإقالة العاثر أن ترفعه من سَقَطَتِهِ، ومنه الإقالة في البيع ونحوه.

فَلَمَّا لَمْ يُسْعِفْ بِالْإِقَالَةِ، وَلَا أَغْنَى مِنَ الْمَقَالَةِ، لَبِثَتْ دَعْوَتُهُ تَلْبِيَةَ الْمُطِيعِ، وَبَذَلَتْ فِي مُطَاوَعَتِهِ جُهْدَ الْمُسْتَطِيعِ، وَأَنْشَأَتْ - عَلَى مَا أَعَانِيهِ مِنْ قَرِيحَةٍ جَامِدَةٍ، وَفُطْنَةٍ خَامِدَةٍ، وَرَوِيَّةٍ نَاصِبَةٍ، وَهُمُومٍ نَاصِبَةٍ - خَمْسِينَ مَقَامَةً، تَحْتَوِي عَلَى جِدِّ الْقَوْلِ وَهَزْلِهِ، وَرَقِيقِ اللَّفْظِ وَجَزْلِهِ، وَغَرَرِ الْبَيَانِ وَدُرَرِهِ، وَمُلَحِّ الْأَدَبِ وَنَوَادِرِهِ، إِلَى مَا وَشَّحَتْهَا بِهِ مِنَ الْآيَاتِ، وَتَحَامُسِ الْكِنَايَاتِ، وَرَصَعَتِهِ فِيهَا مِنَ الْأَمْثَالِ الْعَرَبِيَّةِ، وَاللَّطَائِفِ الْأَدَبِيَّةِ، وَالْأَحَاجِي النَّحْوِيَّةِ، وَالْفِتَاوَى اللَّغَوِيَّةِ، وَالرِّسَائِلِ الْمُبْتَكِرَةِ، وَالْخُطَبِ الْمُحْبِزَةِ، وَالْمَوَاعِظِ الْمُبْكِيَةِ، وَالْأَصَاحِيكِ الْمُلِمَّةِ، بِمَا أُمْلِئَتْ جَمِيعَهُ عَلَى لِسَانِ أَبِي زَيْدٍ السَّرُوجِيِّ، وَأُسْنَدَتْ رِوَايَتُهُ إِلَى الْحَارِثِ بْنِ هَمَّامٍ الْبَصْرِيِّ.

يُسْعَفُ: يُوَاقِي وَيَنْبِلُ الرِّغْبَةَ، وَأَسْعَفَتِ الرَّجُلَ بِمَطْلَبِهِ: سَاعَدَتْهُ عَلَيْهِ.

(١) الجامع الصغير ٢: ٣١٤.

والإسعاف المصدر ، وساعفته مساعفة : قضيت إرادته . ولا أعنى من القالة ، أى لم يُعنى من كلامه وإلحاحه ، وأعفيت : الرجل وعافيته : أزلت عنه ما يشق عليه ، وأصله التَّرك ، ومنه إعفاء اللحية . وهو أن يتركها على حالها ، ومنه : عفا الله عنك . لنيت : أجبت وقلت : لبيك . أنشأت : ابتدأت وأخذت أفعل . أعانيه : أعالجه ، وأصلها من العناء وهو التعب . قريحة : ذهن ، وأصلها ماء البئر النابع عند حفرها ، ومنه القُرحة للجراحة ، لأن أصلها مادة وشبهه الذهن بذلك لما يتولد عنه من المعانى . فطنة : ذكاء ، والفطن : الذكى . خادمة : ساكنة ، وخمدت النار : سكن لها . روية تدبر ، وروأت الأمر ، تدبرت كيف تصنع ، وأصل الروية الهمز واستعملت بغير همز . ناضبة : جافة ، ونضب الماء : غار في الأرض . ناضبة : متعبة ، وهم ناصب على معنى النسب ، أى ذو نصب ، ولو جاء على انقباس لقليل : منصِب ، لأن فعله أنصبه الهم ، وقال بشر :

تَعَنَّكَ هُمٌّ مِنْ أُمِيمَةٍ مُنْصِبٌ وجاء من الأخبار ما لا يكذب^(١)

ونصب نصباً : أعيا من التعب . جزلة : غليظه ومتينة . غرر : جمع غرة وهى خيار الشيء ومنه غرة الفرس وهو البياض فى جبهته فجعلها للبيان مجازاً . دُرره : جمع دُرّة ، وهى الجوهرة العظيمة ، والكلام الحسن يشبه بالدرر والجواهر . مُلح : جمع مُلحة ، وهى مליح الكلام . نواذره : غرائب . وشحّتها : زينتها . الكنايات : ضرب من الألفاظ ، وأصل الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه ، إما لإبهام على جليستك أو لتعظيم أو لتحقير ، فالإبهام أن تذكر لفظاً يفهم من ظاهره غير مرادك ، مثل قوله تعالى حاكياً عن هود عليه السلام ، حين قال له قومه : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ... ﴾ قال ياقوم كَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ^(٢) ، فليس فى اللفظ زيادة على فى

(١) مطلع قصيدة فى ديوانه ٧ - ١٢ ، ورواية الشطر الثانى فيه :

* كَذَى الشَّوْقِ لَمَّا يَسْأَلُهُ وَسَيَذْهَبُ *

(٢) سورة الأعراف ٦٦ ، ٦٧ .

السفاهة ، وقد تضمن الكلام التكذيب لهم والتعظيم ، مثل كناية الرجل بأبي فلان ، ترك اسمه وعدل إلى كنيته تعظيماً له . والتحقير : أن يكون الشيء خسيئاً فتأنف من ذكره فتذكره بغير اسمه ، مثل قوله تعالى : ﴿ كَانَا يَا كِلَانِ الطَّمَامِ ﴾ ^(١) فكفى عن الحدث بالأكل لما كان يتولد عنه . رصعته : نظمته ، وألصقت بعضه ببعض ، وتاج مرصع : مزين بخرز وجوهر يُنظم فيه . اللطائف : الرقائق والكلمة اللطيفة ، أى الرقيقة المعنى التى تحلّ فى القلب فتلطفه . الأحاجى : ضرب من الألفاظ واحداها أحجية ، وهى قولك لصاحبك : أخرج مافى يدي ولك كذا ، تقول العرب : أحاجيك مافى يدي ؟ وحجّيك مافى يدي ؟ وهى من الحجى ، وهو العقل .

الفتاوى اللغوية ، أراد بها المسائل المائة التى فى الثانية والثلاثين ، والفتيا : إظهار الشيء المستول عنه عند السؤال . المبتكرة : التى لم يسبق إليها ، وبكر وابتكر خرج مبتكرة ، ومنه الباكور وهو المبكر من كل شيء فى الإدراك ، وبكر كل شيء : أوله . الحبرة : الزينة ، وحبرت الشيء تحبيراً زينته ، وأصلها من الحبر ، وهى ثياب تصنع باليمن فيها رقوم وتزيين . أملت : ألقيت ، وأملت على الصبى : ألقيت عليه ما يكتب . أسندت : رفعت .

وَمَا قَصَدْتُ بِالْإِحْمَاضِ فِيهِ ، إِلَّا تَنْشِيطَ قَارِنِيهِ ، وَتَكْثِيرَ سَوَادِ طَالِبِيهِ . وَلَمْ أُودِعْهُ مِنَ الْأَشْعَارِ الْأَجْنَبِيَّةِ إِلَّا يَتَيْنِ فَذَبْنِ ، أَمْسَتْ عَلَيْهِمَا بَنِيَّةُ الْمَقَامَةِ الْخُلُوعَانِيَّةِ وَآخَرِينَ تَوَآمَيْنِ ضَمْنَهُمَا الْمَقَامَةَ الْكَرْجِيَّةَ ^(٢) ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَخَاطِرِي أَبُو عَذْرِهِ ، وَمُقْتَضِبِ حُلُوهِ وَمُرِّهِ .

(١) سورة المائدة ٧٥ .

(٢) ١ ، ط : «خواتم المقامة الكرجية» ، وما أنبتة من ج .

هَذَا مَعَ اعْتِرَافِي بِأَنَّ الْبَدِيعَ رَحِمَهُ اللَّهُ سَبَّاقُ غَايَاتٍ ، وَصَاحِبُ
آيَاتٍ ، وَأَنَّ الْمُتَصَدِّقَ بَعْدَهُ لِإِنْشَاءِ مَقَامَةٍ ؛ وَلَوْ أُوتِيَ بِبَلَاغَةِ
قُدَامَةٍ ، لَا يَنْعَتِفُ إِلَّا مِنْ فُضَالَتِهِ ، وَلَا يَسْرِي ذَلِكَ الْمَسْرَى .
إِلَّا بِدَلَالَتِهِ .

الإحماض : الانتقال من شيء إلى شيء ، وأصله في الإبل ترعى الخُلة ، وهي .
حُلُو المَرعى فتَمَلَّه فتنتقل إلى الحِمض تأكل منه فيذهب الحمض عن قلبها استيلاءً .
الحلاوة ، فتنشط بذلك على الرعى فيقال : أحض الرجل إحماضاً ، والعرب تقول :
الخُلة خبز الإبل ، والحمض فاكهتها ، فأراد به تنقله في المقامات ، من حكاية فائقة ،
إلى قضية راقية ، ومن موعظة تَبْكِي إلى مَهِية تُسَلِّي ، وفي ذلك تشبُّط وترغيب .
في قراءتها ، وَتَقِي لِلْمَلَلِ وَالْكُسَلِ عَنْ قَارِئِهَا . سواد : أشخاص ، ويسمى الشخص .
سواداً ، لأنه يسود الأرض بظله . أودعه : أضَمَّنْهُ . الأجنبيَّة : التي ليست من شعره ،
والأجنبي : من ليس بينك وبينه قرابة ، من الجنابة وهي البعد . فَذَيْن : منفردين .
هذا من شعر وهذا من آخر . توءمين : أخوين من شعرٍ واحد . أُسِّت :
أَصَلَّتْ ، والأساس أصل الحائط . الخلوانية والكَرَجِيَّة : منسوبتان إلى حُلُوَانِ
والكَرَجِ ، وهما بلدان . ماعدا : ما جاوز . خاطري : ذهني . أبو عُذْرَه ، أى
أول صانع له ، يقال للمرأة : فلان أبو عُذْرَها ، أى أول زوج تزوجها فوجدها عذراء .
فافتضح وأزال عُذْرَها ، أى ما بها من صعوبة . مقتضب . مقطوع . حُلُوهُ ومُرُهُ :
جيدٌ وورديته .

غَايَات : جمع غَايَة وهي طَلَقٌ ^(١) الخيل ، والسَّباق منها الذي يحىء أبداً سَبَّاقاً -

(١) الطلق : الشوط الواحد في جرى الخيل .

المتصدى : المتعرض . بلاغة : فصاحة ، وأصلها أن يبلغ الإنسان من الكلام والحجة ما أراد .

[ذكر قدامة بن جعفر]

قُدَّامة ، هو أبو الوليد^(١) بن جعفر ، كان بليغاً مجيداً عالماً بأسرار صنعة الكتابة ولوازمها ، وله كتاب يعرف بسرّ البلاغة في الكتابة ، وترجمته تدلّ على متضمّنه ، وله تحقيق في صنع البديع يتميز به عن نظرائه ، وتدقيق في كلام العرب يُرَبِّي فيه على أ كفاؤه ، وتحذيق في علوم التعليم أضرم فيها شعلة ذكائه ؛ فلذلك سار المثل ببلاغته ، واتفق المتقدم والمتأخر على فضل براعته .
الفُضالَة : البقية من الماء وغيره ، وهى ما فَضَّلَ عن الحاجة . واغترفها : أخذها بيده . يَسْرِى ذلك السرى : يقصد ذلك المقصد ، وأصل يسرى ، يسير بالليل . دلّالته : تقدّمه وهدايته ، وتفتح دالها وتكسر ، والفتح أكثر . والدليل بالفلاة : الذى يهدى القوم قصدهم .

وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ :

فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً

يُسْعِدَى شَفِيتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّتَدُّمِ

وَلَكِنْ بَكَيْتُ قَبْلِي فَهَيَّجَ لِي الْبُكَاءُ

بُكَاهَا ، فَقُلْتُ : الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

(١) كنيته في معجم الأدباء ١٨ : ١٢ ، أبو الفرج ، واسمه قدامة بن جعفر بن قدامة الكاتب . قال : « كان أحد البلاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء ؛ ومن يشار إليه في علم المنطق » - (٣ - شرح مقامات الحريري)

مبكاه: بكاءها. صَبَابَة : شوقاً هَيَّج : حَرَكَ ، والبيتان لعدى بن الرقاع ، وقبلهما :

وتما شجاني أننى كنت نائماً أعلل من فرط الكرى بالتشم^(١)
إلى أن دعت ورقاء في غصن أَيْكَةٍ تُرَدَّد مَبَكَاها بحسن الترم
فلو قبل مَبَكَاها . . .

[عدى بن الرقاع]

وعدى هو أبو زيد بن مالك ، ينتمى إلى معاوية بن الحارث ، وينسب إلى الرقاع وهو جدُّ جدّه . وكان شاعراً مقدّماً عند بني أمية ، مداحاً لهم ، خاصّاً بالوليد بن عبد الملك ، ومنزله بدمشق ، وهو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم ، وكان من أوصاف الناس للمطّية ، وكذا ذكره صاحب الأغاني^(٢) في ترجمته . وقال نوح بن جرير لأبيه : مَنْ أنسب الناس^(٣) ؟ قال : ابن الرقاع في قوله :
لولا الحياء وأن رأسى قد عسا فيه المشيبُ لزرتُ أمّ القاسم^(٤)
وكأنها بين النساء أعارها عينيهِ أحرور من جاذر جاسم
وسنّان أقصده النعاس فرنقت في عينه سنّة وليس بنائم

* * *

أقرّ الحريرى هنا للبديع بالفضل ، وجعله سبّاقاً للغايات ، وما أحسن هذا الأدب منه ، مع علمه بفضل مقاماته على مقامات البديع ، ومن أدلّ دليل على ذلك أنه منذ ظهرت مقامات الحريرى لم تستعمل مقامات البديع ، ثم إنه طبق استعمالها آفاق الأرض ، إلا أنه أسرّ هنا شيئاً ، لأنه ختم كلامه ، بأن البديع فضله بالتقدّم ؛ وهذا منه مذهب مستحسن ، ألا تراه كيف بدأ بتجريد الفضل للبديع وحده ،

(١) الكامل للمبرد ٣ : ١٢٥ ؛ قال أبو الحسن الأخفش : الصحيح أن الشعر قصيب .

(٢) الأغاني ٩ : ٣١٠ .

(٣) الأغاني : ٣ الشعراء

(٤) الأغاني ٩ : ٣١٣ ، وعسى ، أى اشتد وانتشر .

ثم لم ير لنفسه قدراً في قوله : « وإن لم يدرك الطالع شأوا الضليع » ؛ فجعل نفسه كالفرس الأعرج الذى جريته إذا اجتهد دون مشى الصحيح ، وجعل البديع كالفرس العتيق الكامل القوة . ثم لما بلغ إلى هذا الموضع بعد أسطار صرح في الظاهر للسامع بأن البديع سباق غايات ، وصاحب آيات ، وأومى لمن فطن ، أنه إنما فضله بتقدم الزمان . ثم خلط الكلام في الخفاء بين المتقدمين والمتأخرين ، ثم تناسى ذلك إلى آخر الكتاب في السابعة والأربعين ، وصرح هناك بتفضيل المتأخر على المتقدم وتفضيله نفسه على البديع ، حيث يقول :

إن يكن الإسكندري قبلي فالطلّ قد يبدو أمام الوبل
* والفضل للوابل لا للطلّ *

ولو كان غيره من العلماء المنسوين إلى سوء الأدب ، ورأى فضل مقاماته ، لذم البديع ونقص كتابه فكان ينعكس الذم عليه ؛ وكذا رأينا في الغالب من ادعى لنفسه فضلاً ، وازدري غيره ، أنه قلما يكون إلا ممقوتا ، فلما أظهر الحريرى مدح البديع ، ووقاه قسطه من التفضيل والترفع ، ولم ينظر إلى نفسه إلا بطرف خفى قل من يتفطن له ، ستر الله عليه ورفع صيته ، ووضع لكتابه القبول عند الخاصة والعامة . فشرق حتى لم يجد ذكر مشرقٍ وغرب حتى لم يجد ذكر مغرب^(١) فلا يذم كتابه إلا أحد الرجلين فذين ذكرهما ؛ إما جاهل ، أو حاسد .

[القديم والحديث في الأدب]

ومذهب الناس في تفضيل الحديث على القديم ؛ وأكثرهم على تفضيل القديم ، وقد أحسن حبيب حيث يقول :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول^(٢)

(١) ط : « مغرب ... مشرق » ، والوجه ما أثبتته من ا ، ب .

(٢) ديوانه ٢٥٧ .

كم منزلٍ في الأرض يأنفه الذي وحيته أبداً لأول منزلٍ
وقال :

لَا زِلْتَ مِنْ شَكْرِي فِي حُلَّةٍ لَا بُسْبَا ذُو سَلْبٍ فَآخِرٍ^(١)
يقول من تفرع أسماعه : ما ترك الأول للآخر
وذكر ابن شرف علة ذلك فقال :

أولع الناس بامتداح القديم وبذم الحديث غير الذميمة
ليس إلا لأنهم حسدوا الحى ومالوا إلى العظام الرميمه^(٢)
وللتأخرين شعر كثير في تفضيلهم أنفسهم على المتقدمين ؛ من أحسنه
قول المعري :

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل^(٣)
وقال ابن عمار :

أنا ابن عمار لا أخفى على أحدٍ إلا على جاهلٍ بالشمس والقمر
إن كان آخرنى دهرى فلا عجبٌ فوائداً الكتب يستلحقن في الطرر
والذى ذكر أبو العباس في الكامل هو الحق ، قال : وليس لقدم العهد
يفضل القائل ، ولا لحدائثة العهد يهضم المصيب ، ولكن يعطى كل ما يستحق^(٤)

[القول في الحمام]

وأما بيت عدى في الحمام ، فالحمام قد كثر ذكر العرب لها في أشعارها ، ونلم
هنا بفصل منها ؛ يروى عن علي رضي الله عنه أنه اشتكى إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم الوحشة فقال له : « اتخذ حمامة تؤنسك وتصيب من فراخها ، وتوقظك
للصلاة بتغريدها » .

(١) ديوانه ١٤٣ .

(٢) ألف باء : ١٠٩ ، ٦٠ .

(٣) سقط الزند ٥٢٥ .

(٤) الكامل ١ : ٢٩ .



ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتخذوا الحمام فإنها تلهي الجنَّ عن صبيانكم »^(١) .

وروى جابر رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان يعجبه النظر إلى الحمام الأحمر وإلى الأترج .

وكان إبراهيم بن سيار يعجب بالحمام ، وكان إذا ذكرها يقول : إن الله جمع فيها حسنَ النظر ، وكرمَ الخبز ؛ تكفيك مؤنتها ، وتكثر لذيك معونتها ؛ فهي للطارق عُدَّة ، وللمستوطن لَذَّة ، تطعم في الصحراء ، وتعود عليك بالسَّراء ، ويأنس الوحيد بحركاتها ، وتُغْنِيهِ عن الأوتار بنغماتها ؛ وغيرها من الطير يستعجم وهي ناطقة ، وينفر عنك وهي داجنة ، وفي طباعها سكونٌ إلى الناس واستئناس بهم ، وهي طير عفيف ، يبقى الذَّكر بعد الأنثى مفرداً ، والأنثى مثل ذلك ، مع شدة اتفاقهما على المحبة ، إن طارا طارا معاً ، وإن وقعا وقعا معاً ، لها سرعة طيران ، لا تكاد تصيدها سباع الطير إلا بحيلة .

ولم تزل العرب تستحسن تسجيع الحمام وتفريد البلبل والورشان ، وقد ذكرت العرب من رقة تسجيعة ما يبعث التذكر ، ويولد الشجون ، ويهيج الأسى ، ويجدد رقة القلب ؛ حتى يجعل البكاء فرضاً معها ، والتصابي لازماً لأجلها ، وأعراب وادى القرى إذا ظفروا بشراب الطائف ، أتوا حواط النخل عند استعلاء الظهيرة ، إذا صارت الوراشين والفواخت إلى تلك الظلال ، فيشربون ويأنسون بتفريدهنَّ ، ويقىمون ترجيع أصواتهنَّ مقام المزامير والأوتار . وأنا أسوق من المنظوم ما يوافق هذا النثر ، كقول أبي صخر الهذلي :

ولمَّادعتْ غَوْرِيَّةُ الأَيْكَمَ سَجَّعَتْ فسَجَّعَ دمعِي يستهلُّ ويستشْرِى^(٢)

(١) الجامع الصغير ١ : ٩ ، ولفظه : « اتخذوا هذه الحمام المقاصيس » .

(٢) زيادات شرح أشعار الهذليين ١٣٢١ ، عن الشريشي .

يذكرني شجوي دعه حمامةً ويبعث لوعات الصبابة في صدري
بكت حزناً رزء الهديل وشفني فراق حبيب ضاق عن فقد صبري
وأنشد الأصمعي فقال :

أيها الببل المرفد في النخل غريباً عن أهله حيراناً
أفراقاً تشكوه أم ظلت تدعو فوق أفنان نخلة ورشانا !
هاج لي صوتك المرفد شجواً رب صوت يهيج الأحراناً
وقال آخر :

أحن إلى حوائط ذات عرق لتغريد الفواخيت والحمائم^(١)
ألم بها بكل فتى كريم من الفتيان مخلوع الزمام
وقال آخر :

إذا غنت على الأغصان ورق أجبنها بإعمال المدام
وقال آخر :

سيفنيك عن مزمار آل محرق وسربهم تغريد تلك الحمام
بأيكه أطيار تجاوبن بالضحي على باسقات مائلات نواعم
وأنشد أبو علي عفا الله تعالى عنه :

ومن بستان إبراهيم غنت حمامٌ بينها فن رطيب^(٢)
فقلت لها وقيت سهام رام ورقط الريش مطعمها الحبوب
كما هيبت ذا حزن معني على أشجانه فبكي الغريب
وقال نصيب :

لقد هتفت في جنح ليل حمامةً تبكي على إلف وإني لنائم^(٣)

(١) ذات عرق : مهل أهل العراق . وهو الحد بين نجد وتهامة - ياقوت .

(٢) البيت الأول في معجم البلدان ٢ : ١٧٠ ، وقال : « وأنشد الأبيوردی لهم »
وبستان إبراهيم في بلاد أسد .

(٣) من أبيات أربعة في ديوان المهنون . وكذا نسبها صاحب تار الأزهار ٧٥ .

كذبتُ وبيت الله لو كنتُ عاشقاً لكما سبقتني بالبكاء الحمايمُ
 وأنشد أبو العباس لمحمد بن ثور :
 وما هاجَ هذا الشوقَ إلاَّ حمامةٌ دعت ساقَ حرٍّ ترحَةً وترنماً^(١)
 مُحَلَّاةٌ طوقٍ لم يكن من تيممةٍ ولا ضربَ صَوَاغٍ بكفيه درهما
 تَفَنَّتْ على غصنٍ عِشاءٍ فلم تَدَعْ لنائحةٍ في نوحها متلوّما
 إذا حَرَكَتهُ الريحُ أو مالَ ميلةً تَفَنَّتْ عليه مائلاً ومُفَوّما
 عَجِبْتُ لها أُنّى يكون غناؤها فصيحاً ولم تَفْغَرْ بمنطقها قَما
 فلم أَرِ مثلي شاقه صوتُ مثليها ولا عَرَبِيّاً شاقه صوتُ أعجما
 وقال حبيب :

لتضعضت عبراتُ عينك أن دَعَتْ ورقاه حين تضعض الإظلامُ^(٢)
 لا تشجَيْنَ لها فإن بكاءها ضحك وإنَّ بكاءك استغرامُ
 هنَّ الحمام ، فإن كسرت عِيافَةً من حائِنٍ فإنَّهنَّ حِمامُ
 وسمع حبيب بخراسان غناءً بالفارسية ، فلم يدر ما هو ، غير أنه شوقه فقال :
 حَمْدُكَ لَيْلَةٌ شَرُفَتْ وطالتُ أقام سهادُها ومضى كَراها^(٣)
 سمعتُ بها غناءً كان أولى بأن يقتادَ نَفْسِي مِنْ عَناها
 ومسمعةٌ يحارُ السمعُ فيها ولم تصمِمْه لا يصمُّ صَداها

(١) الكامل ٣ : ١٢٤ ، قال : « أما قول حميد : دعت ساق حرٍّ ؛ فإنما حكى صوتها » . وفي شرح الديوان : هو ذكر القمارى . وبمده في الكامل :

إذا شئتُ غَنَّتْني بأجزاء ييشةٍ أو النخل من تثليث أو بيللها
 مطوقة خطبائه تسجعُ كُلمًا دَنَا الصَّيْفُ وانجاب الربيعُ فأنجمًا
 انجال : ألقم . وانظر ديوان حميد ٢٤ - ٢٧ .

(٢) ديوانه ٢٧٩ وروايته « انحدرت » .

(٣) ديوانه ٤٦٧ ، وروايته :

شَكَرْتُكَ لَيْلَةً حَسَنَتْ وطلبتُ أقام سرورها ومضى كَراها

ولم أفهم معانيها ولكن ورت كبدى فلم أجعل شجاءها
وظلت كأنتى أعمى معنى يحب الغانيات ولا يراها
يعنى بهذا الأعمى بشاراً حيث يقول :

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحياناً^(١)
قالوا بمن لا ترى تهذى! فقلت لهم: الأذن كالعين توفى القلب ما كانا^(٢)

* * *

صدرة

وَأَرْجُو أَلَّا أَكُونَ فِي هَذَا الْهَذَرِ الَّذِي أَوْرَدْتُهُ ، وَالْمَوْرِدِ
الَّذِي تَوَرَّدْتُهُ ، كَالْبَاحِثِ عَنْ حَتْفِهِ بِظُلْفِهِ ، وَالْجَادِعِ مَارِنِ
أَنْفِهِ بِكَفِّهِ ، فَالْحَقِّ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَمِيْعُهُمْ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا .

* * *

قوله : « الهذر الذى أوردته » ، أى الإكثار الذى أتيت به ، وقد تقدم
المورد^(٣) . وتورّدته : اقتحمته . الباحث : المفتش ، والظلف : البقر والغنم كالخافر
للخيل والحير . وهذا مثل للعرب : وذلك أن ماعزة كانت لقوم ، فأرادوا ذبحها
فلم يجدوا شفرةً ، فنبشت بظلفها فى الأرض ، فاستخرجت منها شفرة ، فذبحوها
بها ، وقالوا : بحثت عن حتفها بظلفها ، فسارت مثلاً . وقال الشاعر :
وكانت كعنز السوء قامت بظلفها إلى مديته تحت الثرى تستثيرها^(٤)

(١) الأغاني ٣ : ٢٣٨ .

(٢) صفحة ١٨ من هذا الجزء

(٣) توفى ، أى تبلغ .

(٤) للفرزدق ، ديوانه ٧١ ، وروى أبو عبيد قبله :

وكان يُجير الناس من سيف مالك فأصبح يبنى نفسه من يجيرها

وقال أبو الأسود :

فلا تكُ مثل التي استخرجت بأغلافيها مُدِيَّةً أو بِفِيهَا^(١)
فقامَ إليها بها ذابحٌ ومن يدعُ يوماً شعوباً يحييها^(٢)
ولفظ المثل عند أبي عبيد « كالعنز تبحث عن المدية »^(٣) والجادع : القاطع
الأنف . وللمارن : طرف الأنف ، وأراد به قصيراً مولى جذيمة الأبرش . وقد ذكرنا
قصته في شرح الرابعة والعشرين . ورجا المصنف ألا يدركه من الضرر ما أدركا^(٤)
من الضرر حين جنياً على أنفسهما وانتفع غيرهما . ضلَّ سعيهم : خابت أعمالهم ،
وأصل ضلَّ ، تحير فلم يدر أين يتوجه ، وأصل السعي المشي بسرعة . سمع أعرابي
رجلاً يقرأ ﴿ قُلْ هَلْ أَنْبَأُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴾ ، فقال : أنا أعرفهم ، قيل له :
ومن هم ؟ قال : الذين يبرّدون ويأكل غيرهم .

عَلَى أَنِّي وَإِنْ أَغْمَضَ لِي الْقَطِنُ الْمُتَغَابِي ، وَنَضَحَ عَنِّي
الْمُحِبُّ الْمُحَابِي ، لَا أَكَادُ أَخْلُصُ مِنْ غُمْرِ جَاهِلٍ ،
أَوْ ذِي غُمْرِ مُتَجَاهِلٍ ، يَضَعُ مِنِّي لِهَذَا الْوَضْعِ ، وَيَتَدَدُّ بِأَنَّهُ
مِنْ مَنَاهِي الشَّرْعِ .

وَمَنْ نَقَدَ الْأَشْيَاءَ بِعَيْنِ الْمَقُولِ ، وَأَنعمَ النَّظَرَ فِي مَبَانِي
الْأَصُولِ ، نَظَمَ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ ، فِي سِلَكِ الْإِفَادَاتِ ، وَسَلَكَهَا
مَسَلَكَ الْمَوْصُوعَاتِ ، عَنِ الْمَجْمَآوَاتِ وَالْجُمَادَاتِ .

(١) ديوانه ٢٢ (ضمن مجموعة نقائس المطبوعات) .

(٢) رواية الديوان : « ومن يدع يوماً شعوباً » ، والشعوب : علم على النية .

(٣) فصل القل ٢٨٨ . (٤) كذا في ا و ف ط : « أدركما » .

أغمض : سامح وسدّ عينيه عمّالم يرض . والفطن : الذكي . المتغابي : المتجاهل
عن الشيء وهو عارف به ، وهو مما يُحمد به الرجل ، قال حبيب :
ليس الغبيّ بسَيِّد في قومه لكنّ سيّد قومه المتغابي^(١)

ونَصَحَ بالماء : غسل . الحبابي : الذي يفضّلني على غيره ، وحبابي : اختصّني
بالعطية ، وأصل حاباه أن تعطيّه ويعطيك ، وقد يكون في معنى «حَبَاه» . الغمر :
الجاهل ذي غمر : صاحب عداوة . متجاهل : مستعمل للجهل وهو على خلافه ؛
يقول : إن سدّ عينيه عن عيبي فطن ذو عقل ، أو تغابي حين يبصر لي خطأ ، أو رأى
لي ذلك العيب محبّ ، فجعل يفسله عنّي لمحبتة لكلامي ؛ فلا أخلص مع ذلك ،
إمّا من جاهل يعيب ما لا يفهم ، أو من عارف يُظهر لي عداوة وحسداً ، فيردّ حسني
قبيحاً ، وهو عارف بحسني ؛ فيشيع في الناس أنّ المقامات أكاذيب ، وهو
عارف بنصائها وما قصد بها .

[من أقوالهم في الحقد مدحا وذمّا]

والغمر : الحقد ، وصاحبه مذموم ، ولا أعرف من تعرّض من الفصحاء
لمدح حامله سوى مايحكي أن عبد الملك بن صالح جاء به إلى الرشيد في
قيوده ، فقال له ابن خالد - وأراد أن يبيّته : بلغني أنك حتود ، فقال عبد الملك :
أيها الوزير ، إن كان الحقد هو بقاء الخير والشر ؛ إنهما لباقيان في صدرى -
وفي رواية أخرى : إنما صدرى خزانة تحفظ ما استودعت من خير أو شرّ -
فقال الرشيد : والله ما رأيت أحدا احتجّ للحقد بمثل ما احتجّ به عبد الملك ،
ففتح الباب لابن الروميّ ، فقال يخاطب بعض من عابه بالحقد :

لئن كنتُ في حفظي لما أنا مودّعٌ من الخير والشرّ انتحيت على عرقى

(١) ديوانه ، الورقة ١٥٤ مخطوطة دار الكتب رقم ١٢٩ - أدب

لَمَّا عِبْتَنِي إِلَّا بِفَضْلِ أَمَانَةٍ وَرَبِّ أَمْرٍ يُزْرِي عَلَى خُلُقٍ بَحْضٍ^(١)
 وَلَوْلَا الْحَقُّودُ الْمَشْكَنَاتُ لَمْ يَكُنْ
 لِيَنْقُضَ وَتَرَا آخَرَ الدَّهْرِ ذُو نَقْصٍ
 وَمَا الْحَقْدُ إِلَّا تَوْعَمُ الشُّكْرِ فِي الْفَقَى
 وَبَعْضُ السَّجَايَا يَنْتَسِبُ إِلَى بَعْضٍ
 فَخَيْثُ تَرَى حِقْدًا عَلَى ذِي إِسَاءَةٍ
 فَمِمَّ تَرَى شُكْرًا عَلَى حَسَنِ الْعَوْضِ
 ثُمَّ رَجِعْ إِلَى الطَّرِيقَةِ الْمِثْلَى، فَانْتَعِلِ الْمَذْهَبَ الْأَعْلَى، وَقَالَ بَعْضُهُ، ضَارِبًا بِسَهْمِ
 الْبَلَاغَةِ فِي الْوَجْهِينِ :

يَا مَادِحَ الْحَقْدِ مَحْتَالًا لَهُ شُبُهَاءٌ	لَقَدْ سَلَكَتَ إِلَيْهِ سُلُوكًا وَعَنَاءً ^(٢)
يَادَافِنُ الْحَقْدُ فِي ضِغْنٍ جَوَانِحِهِ	سَاءَ الدَّهْنُ الَّذِي أَضْحَتَ لَهُ جَدَثًا
الْحَقْدُ دَاءٌ دَوِيٌّ لَا دَوَاءَ لَهُ	يَرَى الصَّدُورَ إِذَا مَا جَمَرَهُ خُرْتُ
فَاسْتَشْفِيْنُهُ بَصْفَحٍ أَوْ مُحَادَّةٍ	فَإِنَّمَا يُبْرِأُ الصَّدُورَ مَا نَفَثَا
إِنَّ الْقَبِيحَ إِذَا أَصْلَحَتْ ظَاهِرُهُ	يَعُودُ مَا لَمْ مِنْهُ مَرَّةً شَعْنًا
كَمْ زَخَرَفَ الْقَوْلَ ذُو زُورٍ وَلَبَّسَهُ	عَلَى الْعُقُولِ وَلَكِنْ قَلَا لَبَا

قوله: « يَضَعُ مَنِي » أي يَحِطُّ مِنْ مَنَزَلَتِي . الوضع : السَكَاتُ . يَنْدَدُ : يَشْهَرُ
 الْعَيْبَ، وَنَدَّدَ بِهِ، إِذَا أَسْمَعَهُ الْمَسْكُورَهُ . نَدَّ الْأَشْيَاءَ : فَتَشَّ وَبَحَثَ عَالِمَهَا . الْعُقُولُ =
 الْعَقْلُ . أَنْعَمَ : بَالِغٌ . وَأَصْلُ النَّظْمِ جَعْلُ حَبَّاتِ الْجَوْهَرِ فِي خَيْطِهَا وَضَمُّهَا فِيهِ لَغَيْرِهَا ؛
 ثُمَّ تُسَمَّى بَيْتُ الشَّعْرِ نَظْمًا، لِأَنَّ الْكَلَامَ فِيهِ مُلْتَصِقٌ بِبَعْضِهِ بِبَعْضٍ كَحَبِّ الْجَوْهَرِ .

(١) الديوان : ٥ . إِلَّا بِمَا لَيْسَ عَائِي . . . وَكَمْ هَاهِلُ يُزْرِي .

(٢) ديوانه الورقة ٤٥ ، مخطوطة دار الكتب ١٢٩ - أدب .

والبيت يضمه كالخيط ، والسلك : خيط الجوهر . والإفادات : الفوائد . سلك : قصد . الموضوعات : الكتب المؤلفة ، أى أدخلها مدخل هذه الكتب . المعجوات : البهائم ، وسميت واحدها عجماء لأن صوتها لا يفهم منه معنى . والمجادات : ما عدا الحيوان ، وأراد ما أُلّف من الكتب مما لا حقيقة له فى الظاهر ، وقد مُنِنَ الحكم الشافية فى الباطن ، مثل كتاب كليله ودمنة وغيره مما أُلّف على السنة كـ ما لا عقل له ولا روح . وكذلك المقامات ، وإن كان ظاهرها كذباً فالقصد بها تمرين الطالب وتهذيبه وتذكية عقله ، وأن يكتسب تجارب الدنيا من حكايات السَّروحيّ ، فيكون متنبهاً لما يطرأ عليه من التَّوازل ، فتؤمن على عقله الغفلة α والخديعة ، إلى ما ينضاف إليه من تعليم صنعة الكتابة والشعر ، فإنها أعون شئ عليها .

[مما روى من الحكم على السنة البهائم وغيرها]

ومما يحكى على السنة البهائم ما جاء فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بينا راع فى غنم إد عدا عليها الذئب ، فأخذ شاة منها ، فطلبه الراعى منه حتى استنقذها ، فالتفت إليه الذئب وقال : من لها يوم السَّبع ، يوم ليس لها راع غيرى ! « (١) .

بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها ، فالتفت إليه البقرة فكلمته فقالت : أنا لم أخلق لهذا ، وإنما خلقت للحرث ، فقال الناس : سبحان الله ! تعجبا وفزعاً ؛ أبقرة تتكلم ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإنى مؤمن بذلك أنا وأبو بكر وعمر » (١) .

السَّبع ، بسكون الباء : أرض الحشر والسبع : الفزع .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى تقتاتوا اليهود وحتى يختبئ اليهودى وراء الحجر فيمتول الحجر : يا عبد الله ، يا مسلم هذا يهودى مورائى فاقته » (٢) .

(١) صحيح مسلم ١٨٥٧ ، ١٨٥٨ (٢) صحيح مسلم ٢٢٣٩

قالوا: خرج أسد وذئب وشعاب يتصيدون، فاصطادوا حمار وحش وغزالاً وأرنبا، فقال الأسد للذئب: اقسم بيننا هذا، فقال: الحمار للملك، والغزال لى، والأرنب للشعاب؛ فرفع الأسد يده فضربه ضربة، فإذا هو مجدل بين يديه. ثم قال للشعاب: اقسما، فقال: الحمار يتغذى به الملك، والغزال يتعشى به، والأرنب بين ذلك، فقال الأسد: ويحك ما أقضاك! مَنْ علمك هذا القضاء؟ قال: رأس هذا الذئب. وحدث الشعبي، قال: صادر رجل قبرة، فقالت: ماتريد أن تصنع بي؟ قال: أذبحك وآكلك، فقالت: والله ما أشبع من جوع، وخير لك من أكلى أن أعلمك ثلاث خصال: واحدة وأنا فى يدك، والثانية وأنا على الشجرة، والثالثة وأنا على الجبل؛ قال: هاتى: قالت: لا تلهفن على مافات، نخلى سبيلها، فلما صارت على الشجرة قالت: لا تصدقن بما لا يكون أنه سيكون، فلما صارت على الجبل قالت له: يا شقى لو ذبحتنى أخرجت من حوصلتى درّتين، كلّ واحدة عشرون مثقالاً، قال: فعضّ الرجل على شفته تأنّهاً، ثم قال: هاتى: الثالثة، فقالت: أنت قد نسيت اثنتين فكيف أخبرك بالثالثة! ألم أقل لك: لا تلهفن على مافات، ولا تصدقن بما لا يكون أنه سيكون! أنا ولحمى ودمى وريشى لا يكون فى عشرون مثقالاً، فكيف يكون فى حوصلتى درّتان كلّ واحدة عشرون مثقالاً! ثم طارت وذهبت. وأمثال هذه الملاح أكثر من أن تحصى.

* * *

وَلَمْ يُسْمَعْ مِنْ نَبَأِ سَمْعُهُ عَنْ تِلْكَ الْحِكَايَاتِ ، أَوْ أَتَمَّ رُؤَايَاهَا
فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ .

ثُمَّ إِذَا كَانَتْ الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَبِهَا انْعِقَادُ الْعُقُودِ الدِّيْنِيَّاتِ ،
فَأَيُّ حَرْجٍ عَلَى مَنْ أَنْشَأَ مُلْهَاحًا لِلتَّنْصِيهِ ، لَا لِلتَّمْوِيهِ ، وَنَحَا بِهَا
مَنْحَى التَّهْدِيْبِ ، لَا إِلَّا كَازِيْبٍ ! وَهَلْ هُوَ فِي ذَلِكَ إِلَّا بِمَنْزِلَةِ مَنْ

اَنْتَدَبَ لِتَعْلِيمٍ ، اَوْ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ !
 عَلَى أَنِّي رَاضٍ بِأَنْ أَجِلَ الْهَوَى وَأَخْلَصَ مِنْهُ ، لَا عَلَى وَلَا لِيَا
 قوله : « نبا سمعه » أى ارتفع ، وأصله فى السَّيْفِ إذا ارتفع فلم يمتص فى الضربة .
 أَيْمٌ : جعلهم أصحاب إِيْمٍ . انعقاد العقود ، أى ارتباط العقائد . حرج : إِيْمٌ ، وأصل
 التحريج التضيق . للتنبيه ، أى لينبه به الغافل الذهن فيجعله حاضر الخاطر . نَحَا
 منحنى : قصد متصداً . التهذيب : التاخيص ، وهذبت الطالب : أخرجته وخلصته ،
 ورجل مهذب : مخلص من العيوب . ويروى : ندب وانتدب ، فندب دعا ، وانتدب
 أجاب . وهدى : أرشد . صراط مستقيم : طريق معتدل ، وَمَنْ فعل ما ذُكِرَ
 مأجور غير آئِمٍ ، لكنه مع هذا رضى أن يخلص ممن يتكلم فى كتابه بتعيب ،
 وأن يخرج من هذا الكتاب كفاً لا أجر ولا وزر ؛ بل نرجو له الأجر على تبة
 الإفادة والتعليم ، إن شاء الله تعالى .

وَبِاللّٰهِ اَعْتَصِدُ ، فِيمَا اُعْتَمِدُ ، وَاعْتَصِمُ بِمَا يَصِمُ .
 وَأَسْتَرْشِدُ ، إِلَى مَا يُرْشِدُ ؛ فَتَا الْمَفْزَعُ إِلَّا إِلَيْهِ ، وَلَا
 الْإِسْتِعَانَةَ إِلَّا بِهِ ، وَلَا التَّوْفِيقُ إِلَّا مِنْهُ ، وَلَا الْمَوْئِلُ
 إِلَّا هُوَ ؛ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ ، وَهُوَ
 نِعَمَ الْمُعِينُ !

أعتضد : أستعين . أعتمد : اقتصد . أعتصم : أمتنع . يصم ، يعيب . أسترشد :
أستهدى . يرشد : يهدى ويدلّ على الخير . والمفرع : الملجأ ، وكذلك الموثل .
وتقول : فرعتُ إلى فلان ، إذا لجأت إليه واستعنت به ليحميك ويمنعك ، وفرعت
منه : خفته ، والمفرع الذى ذكره مصدر بمعنى الفرع . وتقول : وأت من ذلك ،
إذا نجوت منه ، وأنت موثلى منه ، أى الذى تنجيتى منه . والمفرع : الموثل
والحصن ، تفرع إليه فينجيك من طالبك . أنيب : أرجع . والإنابة : الرجوع
إلى الله تعالى والتوبة إليه .

المقامة الأولى وهي الصنعانية

حدث الحارث بن همام قال : لما افتتحت غارب الاغتراب ،
وأنا نتي المتربة عن الأتراب ، طوحت بي طوائج الزمن ، إلى
صنعاء اليمن ، فدخلتها خاوي الوفاض ، بادى الإنقاض ؛ لا أملك
بلغة ، ولا أجدي جرابي مضغة .

* * *

إن قيل : لأى معنى اختار الحريرى حارثاً وهاماً وأبا زيد ، دون غيرهم من
الأسماء ؟ فالجواب أنه إنما قصدهم لأنهم أصدق الأسماء ، قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم فى الحديث المرفوع : « تَسَمَّوْا بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَحِبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ
عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَامٌ ، وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمِرَّةٌ » (١) .
وصدقهما أنه ليس أحداً إلا وهو يحتر ، أى يحاول النكسب أو يهجم بحاجته .
وأما أبو زيد ، فإن صدق أنه إنسان بعينه كما تقدم فى الصدر وقع الاكتفاء
به ، وإن لم يصدق فقد حكى أهل اللغة أنه كنية الكبر ، وأنشد ابن قتيبة :
أعار أبو زيد يميني سلاحه وحده سلاح الدهر للمرء كالم (٢)
و كنت إذا ما الكلب أنكر أهله أفدى ، وحين الكلب جذلان نائم
سلاحه : العصا . وإنكار الكلب أهله ، إذا لبسوا السلاح . وجذلان نائم ، فى
الجدب إذا ماتت المواشى فيشبع من لحومها وينام . وقال ابن الأعرابي : يقال للشيخ
الكبير : أبو زيد وأبوسعيد . والمروجى فى الغالب إنما يصفه بالكبر والمهرم .

(١) نقله فى الجامع فى الصغير ١ : ٢٢٤

(٢) ما يؤول عليه ، مصورة مكتبة المجمع النفوس الورقة ٢٠١ .

فوقعت التسمية لغوية، وإنما عني بالحارث بن همام نفسه، لأنه يصفه بأشياء لاتليق إلا بالدهر، مثل قوله :

وكل سرح فيه ذنبي عائثُ حتى كأني للأُنام وارثُ

* سامهم وحامهم وياثُ *

ومثل قوله :

ووترت أربابَ الأرا نك والدّرانك والسجوفِ

وهي كثيرة، وفي الحسين له كلام لا يليق إلا بالدهر، فجعل أخذ الحارث من أبي زيد، كناية عن علم الحريري بما جرب من صروف الدهر.

قوله : «اقتعدت» أي ركبت، وأصله اتخذت قعدة أو قعوداً، وهما اسمان للبعير يقعد عليه راكبه . والفارب : مقدم سنام البعير . والاغتراب والغربة : التحول في البلدان والبعد عن الأوطان، وسيأتي ما أصلهما، وأراد : لما اتخذت ظهر الغربة قعوداً. أنا تني : أبعدتني . المتربة : الفقر . الأتراب : الأصحاب على سنن واحد . طوّحت : رمت .

وطوايح : نوايب ؛ تقول : طوّحت بالرجل ، إذا رميت به إلى الهلاك ، وقياس الطوايح المطاوح لأنك تقول : طوّحت فهي مطوّحة والجمع مطوّحات ومطاوح . قال أبو عبيد : جاءت الطوايح على حذف الزيادة ، وردّ الفعل إلى أصله ، فإنه من طاحت فهي طائحة ، والجمع طوايح ، قال أبو عمرو الشيباني : جاءت على النسب ، مثل لابن وتامر ، أي ذو لبن وذو تمر وذات تطويح ، قال الشاعر :

(٤ - شرح مقامات الحريري ١)

لَيْبِكَ يَزِيدُ ضَارِعُ خُصُومَةٍ وَغَتِطَ مِمَّا تُطِيعُ الطَّوَائِحُ^(١)

ومثله ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾^(٢) : تقديره ملاقيح ، لأنك تقول : أَلْفَحَتِ الرِّيحُ السَّحَابَ إِذَا جَمَعَتْهُ وَأَلْقَتْهُ . وضارع مرتفع بمضمر تقديره : يبكيه ضارع ، وهو الدليل .

* * *

[مدينة صنعاء]

صنعاء ، بلد باليمن ، وأضافها إلى اليمن ، لأنَّ ثَمَّ صنعاء أخرى ، وهي قرية بدمشق . وكان اسم صنعاء في التديم « أزال » ، قال ابن الكلبي والشرقي^(٣) : ولما وافقها الحبشة قالوا : نعم ، فسَمِيَ جبلها نعم^(٤) أى انظر ، فلما نظروا إلى مدينتها ورأوها حصينة مبنية بالحجارة قالوا : هذه صنعاء ، وتفسيرها هنيئة ، فسميت صنعاء^(٥) .

وحكى الهمداني قال : وأهل صنعاء يقولون في الإسلام : إثمها القرية المحفوظة ، وأنهم سمعوا هاتماً يقول في بعض أيام مَنْ حاربهم : كلُّ عليك يا أزال ، وأنا أتمحن عليك !

وأقدم قصور اليمن وأنبهها ذكراً ، وأبعدها صيناً عُمدان وقصر أزال ، وهي صنعاء .

(١) لنهشل بن حري ؛ في مريثة له ؛ وهو من شواهد الكتاب على أن الفعل المستند إلى ضارع « حذف جوازا ، أى يبكيه ضارع . خزنة الأدب للبغدادي ١ : ١٤٧ .

(٢) سورة الحجر ١٥ .

(٣) هو الشرقي بن القمطاي ، واسمه الوليد والشرقي لقب له .

(٤) في ياقوت : « نعم ، أحد حصون اليمن » .

(٥) في ياقوت : « قالوا : هذه صنعة ، ومعناها حصينة » .

والذى أسس عُمدان وابتدأ بنيانه، واحتفر بئرهُ الذى هو اليوم سِقاية لمسجد جامع صنعاء، سامٌ بن نوح عليه السلام، على ما يذكره علماء صنعاء واليمن، وذلك أَنَّهُ لما مات نوح اجتوى بعده السكنى فى الأرض الشماليَّة، فأقبل طالعاً فى الجنوب يطلب أطيب البلاد، حتى صار إلى الإقليم الأوَّل، فوجد اليمن أطيبه مسكناً، وصنعاء أطيبَ اليمن، فوضع مقراته — وهى الخيط الذى يقدر به البناء ويبنى على حدّه — فوضع الأساس فى ناحية فُجَّ عُمدان فى غربىَّ الجبل، وهو اليوم معروف بصنعاء، فلما ارتفع بعث الله طائراً، فاخطف المقرأة فطار بها، وتبعه سام، لينظر أين يقع؛ فأَمَّ بها جنوب النعم من سفح نعم، فوقع بها، فلما اتبعه طار بها، وطرحها على حَرَّة عُمدان، فلما قَرَّت، علم سام أَنَّهُ قد أَمَرَ بالبناء هنالك؛ فأسس عُمدان، واحتفر بيده بئرهُ المسقى كرامة، ويُسْتَقَى منها إلى اليوم لكنها أجاج^(١).

خاوى الوفاض: فارغ المزاد، ويقال: خَوَّى الرَّجُل، إذا سجد فترك بين جسده وبين الأرض خواء، وخَوَّى البعير: بَرَكَ على هذه الحال. والوافاض: جمع وَفْضة وهى شبه الجراب، وهى أيضاً كنانة السهام إذا كانت من جلد لا من خشب، فإن كانت من خشب مجلّد أو غير مجلّد فهى كنانة أو جُعْبَة.

ابن سيده فى المحكم: الوفضة خريطة يَجْمَلُ فيها الراعى أَدانته وزاده. والوفضة: جُعْبَة السهام. قال أبو منصور الأزهريّ معنى قول النبی صلى الله عليه وسلم « أَنَّهُ أمر بصدقة [أن] توضع فى الأوافاض »:^(٢) إنهم أخلاط الناس. قال الفراء: هم أهل الصُّفَّة. أبو عبيد: هذا كلّه عندنا واحد؛ لأنَّ أهل الصُّفَّة أخلاط من قبائل شتى، ويمكن أن يكون مع كلِّ واحدٍ منهم وَفْضة، فعلى هذا مَنْ قُضِرَ الوَفْضة

(١) معجم البلدان ٤ : ٣٨٦ .

(٢) النهاية لابن الأثير ٥ : ٢١٠ ، قال فى شرحه : « دم الفرق والأخلاط من الناس » .

على الجُعبَة ، وخطأ الحريرى بأن الزاد لا يكون في الجُعبَة ، فهو المخطئ والجاهل باتساع اللغة . بادى الإنفاض : ظاهر الفقر ، وقد أنفض ، إذا فنى زاده . وأنفض الجراب إذا انتفض وسقط ما فيه من بقية الزاد ، ومنه قولهم : الأنفاض يُقَطَّرُ الجَلَبُ ^(١) ، أى فناء زادهم يحمل إبلهم قطاراً ، أى مربوطة بعضها خلف بعض ، تساق إلى السوق فتباع ، فيأكلون ثمنها ، قال الهذلى :

لَه ظَبْيَةٌ وَلَهُ عُكَّةٌ إِذَا أَنْفَضَ الْقَوْمَ لَمْ يَنْفُضِ ^(٢)

ظبية : جريب صغير من جلد ظبي . مُبلغة : زاد للسافر يبلغ به من يومه إلى غده . الجراب : وعاء من جلد يصنع للزاد . مُضفة : لقمة .

* * *

فَطَفِقْتُ أَجُوبُ طُرُقَاتِهَا مِثْلَ الْهَائِمِ ، وَأَجُولُ فِي حَوْمَاتِهَا
جَوْلَانَ الْهَائِمِ ، وَأُرُودُ فِي مَسَارِحِ لَحَاتِي ، وَمَسَايِحِ غَدَوَاتِي
وَرَوْحَاتِي ، كَرِيماً أَخْلَقُ لَهُ دِيْبَاجَتِي ، وَأَبُوحُ إِلَيْهِ بِمَحَاجَتِي ،
أَوْ أَدِيْبًا تَفَرِّجُ رُؤْيَتَهُ غُمَّتِي ، وَتُرْوِي رِوَايَتَهُ غُلَّتِي ؛ حَتَّى
أَدْنِي خَاتِمَةَ الْمَطَافِ . وَهَدَنِي فَاتِحَةَ الْإِلَاطَافِ ^(٣) ، إِلَى نَادِرِ رَحِيْبٍ ،
مُخْتَوٍ عَلَى زَحَامٍ وَنَحِيْبٍ ، فَوَلَجْتُ غَايَةَ الْجَمْعِ ، لِأَسْبِرَ مَجْلِبَةَ
الدَّمْعِ ، فَرَأَيْتُ فِي بُهْرَةِ الْخَلْقَةِ ، شَخْصاً شَخَّتَ الْخَلْقَةَ ، عَلَيْهِ

(١) مثل ، ذكره صاحب اللسان ، وقال في شرحه : « يقول : إذا ذهب طعام القوم أو ميرتهم قطروا لابلهم التي كانوا يضمنون بها ، فجلبوها للبيع فباعوها واشتروا بئسهم ميرة » .
(٢) لأبى المثلم الخزاعى . شرح ديوان الهذليين ٣٠٥ . العكَّة : النعير الصغير .
وأنفضوا : ذهب ما عندهم .

(٣) متن المقامات : « الألفاظ » ، بفتح الهمزة .

أَهْبَةُ السَّيَّاحَةِ ، وَلَهُ رَنَّةُ الْإِيَّاحَةِ ، وَهُوَ يَطْبَعُ الْأَسْجَاعَ بِجَوَاهِرِ
لَفْظِهِ ، وَيَتَرَعُّ الْأَسْمَاعَ بِزَوَاجِرِ وَعْظِهِ ، وَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ أَخْلَاطُ
الزُّمَرِ ، إِحَاطَةً الْمَالَةِ بِالْقَمَرِ ، وَالْأَكْثَامَ بِالثَّمَرِ ، فَدَلَفَتْ إِلَيْهِ لِأَقْتَبَسَ
مِنْ فَوَائِدِهِ ، وَالتَّقِطَ بَعْضَ فَوَائِدِهِ ، فَسَمِعَتْهُ يَقُولُ حِينَ خَبَّ فِي
مَجَالِهِ ، وَهَدَرَتْ شَقَاشِقُ ارْتِمَالِهِ :

طفقت : أخذت وجعلت ، ومعناها ابتداء الفعل والدخول فيه . أجوب :
أقطع وأخرق ، وجوب الأرض : قطعها بالمشى . الهائم : الحيران . أجول : أتصرف .
حوماتها : جهاتها . الحائم : الطائر العاطش يحوم حول الماء ، أى يدور به . أروء :
ألتبس المسارح : مراعى البهائم . لَمَحَاتِي : نظراتي ، يريد المواضع التى يسرّح عينيه
فيها بالنظر . مسايح : مسالك ، أراد طُرُقَهُ التى يسير فيها بالمشى بالغدو والعشى ،
والسَّيْح : الماء الجارى على وجه الأرض ، وتكون المسايح أيضا جمع مَسِيحَةٍ أو
مَسْحَةٍ ، وهى الطَّوْفَةُ ، من قولك : مسحت البيت ، أى طفت به ، فيكون على هذا
«فعائل» ميمها أصلية ، وعلى الأول «مفاعل» . أُخِلِقُ : أهين . ديباجتى : جلدة وجهى ،
بريد أنه يخلق وجهه بالمسألة كما يخلق الثوب ، وهذا من قول النبي صلى الله عليه
وسلم : «المسألة كدوح وخدوش فى وجه صاحبها» ، وقوله صلى الله عليه وسلم : «لا تزال
المسألة بالرجل حتى يلقى الله عز وجل ، وما على وجهه مَزْعَةٌ لحم» ، أى قطعة . أبوح :
أذكر . حاجتى : فقرى . تفرّج : تزيل . غمّتى : غمى وما يضيق نفسى . غلّتى :
عطشى . أدتنى : أوصلتنى . خاتمة المطاف : آخر المشى . هدتنى : دلتنى . والإلطاف :
حسن السؤال وفتحته ، أراد به سؤاله من تلقى فى الطريق إذا دخلت بلدا غريبا ،
فإذا سألت بتلطف أُرشدت بسرعة ، فسؤالك هو الذى فتح لك الطريق . ويقال :

لَطْف سؤال الرجل ، إذا رَقَّ لفظه ولم يكن فيه جفاء ، فتقبله القلوب ، وألطف الرجل سؤاله ، إذا سألك بحنان وتلطّف ، واللطف الرفق ، وألطفك أيضا: برّرتك وأكرمك ، فالإلطاف مصدر ألطف ، ويروى : «الألطف» جمع لُطف وهو الرفق ، يقال : لطف الله بالعباد لُطفًا ، رَفَقَ بهم رفقًا ، وهو راجع إلى الأوّل . ناد : مجلس . رحيب : واسع . محتو : مشتمل . نحيب : بكاء . ولجت : دخلت . غابة الجمع : وسط الناس ، وأصل الغابة الشجر الملتف يغيب فيه مَنْ يدخله . لأسبر : لأفتش ، وأراد دخلت بين الناس لأجرب وأعرف ما الذى أبكاهم وجلب دموعهم . ويروى ، «مَحَابَة» بالحاء ، وهى من الحلب ، يقال : انحلبت عينه ، إذا سالت بالدمع . بُهْرَة : وسط . شَحَتْ : دقيق ورقيق ، والشَّحَتْ : الحطب الرقيق . أهبة السباحة : آلة العبادة ، وهى مثل العصا وركوة الماء وثياب الصوف وغير ذلك . يطبع الأسجاع ، أى يرتبها ويصنعها ، تقول : طبعت الدرهم والسيف إذا صنعتها ، وطبعت الكتاب إذا ختمته ، وكانت اللوك تسكتب فى فصوص خواتمها « لا إله إلا الله » و« الملك لله » وتطبع بذلك كتبها ، وهذا المعنى أليق بطبع الأسجاع ، أى يرتبها ويختتمها بجواهر كلامه ، ومن روى « لجواهر » باللام فعلى « يصنعها » لا غير ، والتفسير على الروایتين أخذته عن أبى ذرّ . والأسجاع الكلام المفقر ، له قافية . كقافية الشعر ، وكان من كلام الكهان ، وهذه الموعظة التى فى المقامة من الأسجاع ، وسجعت الحمامة ، إذا غنّت على طريقة واحدة . يقرع : يضرب . الأسماع : الأذان . زواجر : نواير ، وزجره : نهاه وانتهره . أحاطت : خلقت : أخلاط : أصناف مختلطون . الزَّمَر : الجماعات . الهالة : الدارة حول القمر من نوره ، والطفافة : الدارة حول الشمس ، والساهور : هو غلاف القمر الذى يستتر فيه ما نقص منه . الأكام : جمع كَم ، وهو الغلاف الذى ينشق عن الثمر ويحيط به . وسمى كَمًا لأنه يستتر ماتحته ، والأكام : جمع قایل ، والكثير كَام . والثمر حمل الأشجار . دلقت : قربت ، ودلف الشيخ فى مشيته ، إذا أسرع من ضعف فقارب خطوه . اقتبس من فوائده :

التمس وطلب أخذها واكتسابها . والفرائد : شذور الذهب تفصيل ما بين الجوهر .
 خبّ في مجاله : أخذ في كلامه ، والخبّ عدو سهل ، وهو الذي تسميه العامة السير ،
 وفرس مسيار . والمجال للخيال : موضع تصرفها وجريها . هدرت : صوتت .
 شقاشق : جمع شقشقة ، وهي النفاخة يخرجها خلّ الإبل من حلقه عند هياجه ورغائه ،
 ويرجع فيها هديره ؛ شبه صوت الواعظ حين يرفعه ويذكر به الناس بصوت البعير
 يهيج ويتابع الهدير ، قال الأخطل :

إِذَا هَدَرْتُ شَقَاشِقَهُ وَنَشَبْتُ لَهُ الْأُظُنَّارَ تُرِكَ لَهُ الْهُدَارُ^(١)
 أراد: نَشَبْتُ وَتُرِكَ ، فَنَخَفَ .

أَيُّهَا السَّادُّ فِي غُلَوَائِهِ ، السَّادِلُ ثَوْبَ خَيْلَانِهِ ، الْجَامِحُ
 فِي جَهَائَاتِهِ ، الْجَانِحُ إِلَى خَزَائِنِهِ . . . إِيَّامَ تَسْتَوْرُ عَلَى غَيْكَ ،
 وَتَسْتَمْرِى مَرْعَى بَنِيكَ ! وَحَتَّامَ تَنْتَاهِي فِي زَهْوِكَ ، وَلَا تَنْتَهِي
 عَنْ لَهْوِكَ !

السَّادِر : الراكب هواه ، لا يردّه شيء استطالةً وبغياً ، ويقال للذي يطيل
 الجلوس في الشمس حتى يتغير بصره : قد سدر فهو سادر . في غلوائه : في ارتفاعه
 للشّرّ ولجأه فيه ، وهو من غلا يغلو في الأمر ، إذا جاز الحد ؛ فيقول : يَا أَيُّهَا الْأَعْمَى
 الْكَثِيرُ اللَّجَاجِ فِي رُكُوبِ الْمَعَاصِي ؛ هَلَّا نَفَرْتَ بَعِينَ الْبَصِيرَةِ ، وَرَجَعْتَ عَمَّا أَنْتَ
 عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ ! السَّادِل : المرخي . خَيْلَانُهُ : كِبَرُهُ . الْجَامِح : الجارى إلى غير

(١) ملحق ديوانه ٣٥٨ مما نقله عن الشريشنى .

غاية ، وقد جمح الفرس إذا أكب رأسه، وجرى في غير قصد ، فيريد أنه أكثر الفساد حتى جرى منه في غير طريق . الجامح : المائل . الخزعبلات : الأباطيل ، وهو ما يتراءى للإنسان في نومه من الخيال . تستمر : تدوم في زورك . غتيك : ضلالك . تستمرى : تستطيب من المرىء ، وهو ما يلتذبه من الطعام . بغيك : ظلمك . تنهاى : تبلغ النهاية ، ونهاية الشيء ، آخره . زهوك : كبرك وعجبك . اللهو : ما يشغل عن الخير من أنواع الطرب .

[نبذ من أقوال الشعراء في ذم الكبر]

وقال القاضي أبو جعفر^(١) بن عمر في ذم الكبر وما يتعلق به :

وَلَا تُنْسَبْ إِلَى كِبَرٍ فَهَذَا أَبُوكَ التُّرْبُ يَخْفِضُكَ انْتِسَابًا
وَلَا تَصْحَبْ أَخَا كِبَرٍ وَقَدِّمْ عَلَى النَّفْسِ الْأَعَادِي وَالصَّحَابَا
وَلَا تَحِبْ مَحَابَّةً بِمَدْحٍ كُنَى بِالرَّءِ حُوبًا أَنْ يُحَابَى
وَحَازِرُ أَنْ تُرَى فِي الْقَوْمِ رَأْسًا وَلَا تَنْسِ الذُّنُوبَ وَكُنْ ذُنَانِي^(٢)
تَرَابًا كُنْ هُنَا فَمَسَاكُ الْأَلَا تَعْنَى أَنْ تَكُونَ عَدَا تَرَابًا
وقال أبو نواس :

حَذَرْتُكَ الْكِبَرَ لَا يَفْشَاكَ مِيسَمُهُ فَإِنَّهُ مَابَسُ نَارَعَتَهُ اللَّهُ^(٢)
يَابُوسَ جَلِدِ عَلَى جَوْفٍ مُجَوَّفُهُ يَحْوِي مَقَاذِيرَ إِنْ كَلِمَتُهُ تَاهَا^(٣)
يَرَى عَلَيْكَ لَهُ فَضْلًا بَيِّنَ بِهِ إِنْ نَالَ فِي الْعَاجِلِ السُّلْطَانَ وَالْجَاهَا
إِنِّي لِأَمَقْتُ نَفْسِي عِنْدَ نَحْوَتِهَا فَكَيْفَ آمَنُ مُقْتَ اللَّهِ إِيَّاهَا

(١) ط : « أبو حفص » ، وما أثبتته من « (٢) الدنابي : أذنب الناس .

(٣) رواية الديوان ١٩٧ :

يَابُوسَ جَلِدِ عَلَى عَظْمٍ مَحْرَقُهُ فِيهِ الْخُرُوقُ إِذَا كَلِمَتُهُ تَاهَا

وقال أبو العتاهية :

عجبتُ للإنسان في فخره وهو غداً في قبره يُقبرُ^(١)
ما بال من أوله نطفةٌ وجيفةٌ آخره يفخرُ !
أصبح لا يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذرُ

تبارزُ بمصيدتك ، ممالك ناصبتك ، وتجترى بفتح
سيرتك ، على عالم سيرتك ، وتتوارى عن قريبك ، وأنت بمرأى
رفيقك ، وتستخفي من مملوكك ، وما تخفي خافيةً على مليكك .
أتظن أن ستدفعك حالك إذا آن ارتعالك ! أو ينقذك مالك ،
حين توبقك أعمالك ! أو ينجي عنك ندمك ، إذا زلت قدمك !
أو يعطف عليك معشرك ، يوم يضمك محمرك !

قوله: «تبارز»، أى تكاشف وتقابل. والبارز: الظاهر المنكشف. والناصية:
شعر مقدم الرأس. تجترى: تقدم وتشجع. والجرىء: الشجاع المقدام. سيرتك:
عادتك ، وجمعها سير وهي ما يعامل به الناس من خير أو شر ، وتقول : سرت
سيرة من خير أو شر ، إذا أحدثتها فعمل بها الناس بعدك ، فصارت عادة لهم ،
ولذلك فسرنا السيرة بالعادة حيث وقعت ، وأصل السيرة هيئة عمل السير ، وذلك
أنك تقول : جلس فلان جلسة بالفتح ، وهي المرة الواحدة من جلوسه ، فإذا

(١) قوله: «يُقبرُ» أى: يُدفن.

(٢) قوله: «يضمك» أى: يضمك.

(٣) ديوانه ١، ٣ ، ورواية صوره فيه : « ما احق الإنسان في فخره » .

كسرت الجيم فهي هيئة جلوسه، ومثله ركب ركبة، والركبة هي ثقل كوبه، وتقول :
 سار هذا الفل سيرة، والسيرة بالكسر : هيئة سيره في الناس من حسن أو قبح
 أو صواب أو خطأ، وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم : هيئة أفعاله حيث كانت .
 تتواري : تستتر . بمرأى من رقيبك ، أى بمنظر ربك أو بحيث يراك ، ورقيب
 الشيء : حافظه وحارسه . ملكك : مالكك ، وأراد أن الإنسان إذا خلا بريبة ،
 استتر بها عن أخيه وعبدته حياءً منهما ، ولا يستحي من ربه الذى يطالع على
 معاصيه ، ولا يخفى عليه خافية، وأشار إلى قوله تعالى : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ
 وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ... ﴾ الآية ، وقال عمر بن عبد العزيز
 رضى الله عنه :

إن كنت تعلم أن الله ياعمرُ يرى ويسمع ما يأتى وما تذرُ
 وأنت فى غفلةٍ من ذلك تركب ما نهاك عنه ، فأين الخوف والحذر !
 تجاهر الله إقداماً عليه ، ومن حثالة الناس تستحي وتعتذر
 وقال نابغة بنى شيبان :

إن من يركب الفواحش سراً حين يخلو بسرّه غير خال^(١)
 كيف يخلو وعنده كتاباه شاهداه وربّه ذو الجلال !^(٢)
 وقال أبو نواس :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل إذا ما خلوتُ ، ولكن قل على رقيب^(٣)
 ولا تحسن الله بفعل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيب
 لهونا لعمر الله حتى تراكمتم^(٤) ذنوبٌ على آثارهن ذنوبُ

(١) ديوانه ٦٤ .

(٢) الديوان : « ذو الحال » .

(٣) ديوانه ٢٠١ .

(٤) رواية الديوان : « لهونا بعمر طال حتى ترادفت » .

حالك : عزتك ومالك . آن : حان وقرب . ارتحالك : انتقالك . تو بقك : تهلكك ، يقال : أوبقته الذنوب ، أهلكته فوبق ، أى هلك ووبق أيضاً .
وقال أعشى همدان :

أستغفرُ الله أعمالي التي سلفتُ مِنْ عَثْرَةٍ إِنْ يَعاقِبْنِي بِهَا أُبِقُ
زَلَّتْ : زلقت . معشرك : قومك . محشرك : موضعك الذي تحشرك إليه .

* * *

هَلَّا انْتَهَجْتَ حَجَّةَ اهْتِدَائِكَ ، وَعَجَلْتَ مُعَالَجَةَ دَائِكَ ،
وَفَلَّتْ شِبَاةَ اعْتِدَائِكَ ، وَقَدَعْتَ نَفْسَكَ فِيهِ أَكْبَرُ
أَعْدَائِكَ !

أَمَّا الْحَمَامُ مِيعَادُكَ فَمَا إِعْدَادُكَ ! وَبِالنَّشِيبِ إِنْذَارُكَ ، فَلَا
أَعْدَارُكَ ، وَفِي اللَّحْدِ مَقِيلُكَ ، فَمَا قِيلُكَ ! وَإِلَى اللَّهِ مَصِيرُكَ
فَمَنْ نَصِيرُكَ ! طَالَمَا أَتَقَطَّكَ الدَّهْرُ فِتْنَاعَسْتَ ، وَجَذَبَكَ
الْوَعْظُ فِتْنَاعَسْتَ ، وَتَجَلَّتْ لَكَ الْعِبْرُ فِتْنَاعَسْتَ ، وَحَصَّصَ
لَكَ الْحَقُّ فِتْمَارَيْنِ ، وَأَذْكَرَكَ الْمَوْتُ فِتْنَامَيْنِ ، وَأَمَّا كُنْكَ
أَنْ تُوَاسِيَ فَمَا أَسَيْنْتَ .

* * *

انتَهجت : ركبت . والنَّهْجُ المَنْهَجُ والنَّهْجُ : الطريق الواضح . حَجَّةٌ : طريق ،
مِنْ حَجَّةٍ يُحَجُّهُ ، إِذَا قَصَدَهُ . اهْتِدَائِي : استقامتك . مُعَالَجَةٌ : مداواة . فَلَّتْ :
كسرت . شِبَاةٌ : حد . اعْتِدَائِي : جورك وظلمك . قَدَعْتُ : كفت

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس عدوك الذى إن قتلتك كان لك نوراً ، وإن قتلك دخلت الجنة ، ولكن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك » . قال الأصمعى : كنّا بطريق مكة فى بعض المنازل ، إذ وقفت علينا أعرابية فقالت : أطعمونا نأتمّا أطعمكم الله ، فناولها بعض التوم شيئاً فقالت له : كُتبت الله لك كل عدو لك إلا نفسك .

قوله : « أما » : حرف إخبار^(١) واستفتاح كالأ . الحمام : الموت ، من حمّ الأمر ، قضى . اليعاد : الموعد . ما إعداك : ما استعددت له ، والإعداد مصدر أعدّ للأمر إذا هيأ له ما يحتاج إليه من عُدّة ، يقول : الموت هو الذى وُعدت به أن يأتيك ولا بدّ ، فاستعدّ له من أفعال البر .

وللفقيه الزاهد أبى عمران موسى بن عمران :

يا صاح فى الموت لنا حكمة بالغة لو أننا ننتفع
فأعمل له قبل مفاجاته ويحصد الزارع ما قد زرّع
لا حيلة تُنجيك منه ولا ذو ورر عنه به يتمنع
كم أمم أفتأهم قبلنا وشمل قوم شته فأنصدع
ولحبيب :

فقد أيقنت بالموت نفسى لأننى رأيت المنايا يختر من حياتيا^(٢)
فيا ليت أنى بعد موتى ومبعثى أكون رفاتاً لا على ولا ليا
المشيب : الشيب ، يقال : شاب رأسه شيباً أو مشيباً . إنذارك : إعلامك ، هو أنذرك : أعلمك مما تحذر وخوفك منه ، وأراد قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾^(٣) ،
هو أنظر هذا المعنى فى الحادية والأربعين مستوفى نظاماً ونثراً .

(١) قوله : « أما » : حرف إخبار ... الظاهر أن هذا استفهام تقريرى — حاشية ط .

(٢) ديوانه ٤٨٤ . (٣) سورة فاطر ٣٧ .

أَعذارك: جمع عذر ، والإعذار بكسر الهمزة مصدر أعذر في طلب الحاجة إذا بالغ فيها . قال ابن السبتي وجنس قوائمه :

الشَّيْبُ في مفرقٍ حَلَا وعَقْدَ عهدِ الملاحِ حَلَا
وكانَ كالأَبْنوسِ رَأْسِي فاحْتَلَّه عَاجُهُ حَلَا
وَحَرَمْتُ وُضْلي الفَواني وَقُلْنَ قَتْلُ العَميدِ حَلَا

الحد : حفرة في جانب القبر ، وليحد الميت وألحده : شق له في جانب القبر .
وأصل اللفظة الميل . ومقيلك : مقامك ، وأصله النوم في القائلة . قيلك : حديثك
المقول وحجتك الواضحة ، والقول مصدر كالطحن والدبح ، والقيل : اسم للمقول
كالطحن بالكسر : اسم للدقيق المطحون ، والدبّح اسم للمذبوح . يعقوب : قال
والقيل اسمان لا مصدران . ابن سيده : القيل في الأصل مصدر ، وحكى الفارسي
قاله قولاً وقيلاً ، مثل ذكره ذكرًا ، والقال يجوز أن يكون مصدرًا ، فإن سيويوه
حكى : ذامه ذامًا وعابه عابًا ، إلا أنه لم ينص على القول . مصيرك : رجوعك . نصير :
معدول عن ناصر للمبالغة . تناعست ، أى أظهرت أنك ناعس . جذبك :
قادك بعنف ، ويقال : جذب ، وجبذوهى أقل من الأولى ، وصحفت العامة هذه الثانية
وقالوا : «جبد» بدال غير منقوطة . تناعست : تأخرت وتضعبت وتشبهت بالأعفس ؛
وهو الذى دخل ظهره وخرج صدره ، أى قادك الوعظ إلى الخير فلم تنقذ له ،
والعرب تقول : عزة قعساء كأنها تنقّس عن الذلة . تجأت : ظهرت . والعبر :
ما يُتخوّف ويُتّعظ به عند رؤيته . حصحص : تبين ، من الحصّ وهو ذهاب الشعر
فيقتين ما تحته ، والحاء الثانية مبدلة من صاد ثالثة ، وإذا اجتمع الأمثال في مثل
هذا ، أبدلت العرب من الحرف الأوسط حرفًا من جنس الحرف السابق ، ومثله
حششت ورقرت ، أصلهما حششت ورقرت ؛ هذا قول الكوفيين ، وقال البصريون :

هما لغتان تقاربتا ، إذ لا يبدل الحرف إلا من مثله أو من مقاربه في الخروج ، وهذه الحروف متباعدة لا يصح إبدالها . ماريت : شككت : تواسى : تعطى .

* * *

تَوْثُرُ فَلَسًا تَوْعِيهِ ، عَلَى ذِكْرِ تَعِيهِ ، وَتَخْتَارُ قَصْرًا تُعْلِيهِ ،
عَلَى بَرٍّ تُولِيهِ ، وَتَرْغَبُ عَنْ هَادٍ تَسْتَهْدِيهِ ، إِلَى زَادٍ تَسْتَهْدِيهِ ،
وَتُغْلِبُ حُبَّ ثَوْبٍ تَشْتَهِيهِ ، عَلَى ثَوَابٍ تَشْتَرِيهِ .
يُوَاقِفُ الصَّلَاتِ ، أَعْلَقُ بِقَلْبِكَ مِنْ مَوَاقِفِ الصَّلَاةِ ، وَمُعَالَاةِ
الصَّدَقَاتِ ، آثَرُ عِنْدَكَ مِنْ مُوَالَاةِ الصَّدَقَاتِ ، وَصِيحَافُ الْأُلُوانِ ،
أَشْهَى إِلَيْكَ مِنْ صَحَائِفِ الْأَذْيَانِ ، وَدُقَابَةُ الْأَقْرَانِ ، آسُ لَكَ
مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ .

* * *

تَوْثُرُ : تَفْضُلُ . تَوْعِيهِ : تَجْعَلُهُ فِي وَعَاءٍ . بَرٌّ : إِحْسَانٌ . تُولِيهِ : تَعْطِيهِ
وَتُلَاصِقُهُ بِمَنْ تَبَرَّهُ . هَادٍ : مَرشِدٌ لَطِيقٌ الْخَيْرِ . تَرْغَبُ عَنْهُ ، أَيْ تَتْرَكَهُ .
تَسْتَهْدِيهِ ، أَيْ تَسْتَرْشِدُهُ وَتَسْأَلُهُ أَنْ يَهْدِيكَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَتَسْتَهْدِيهِ الثَّانِيَّةُ : تَطْلُبُ
أَنْ يَهْدِيَ لَكَ هَدِيَّةً . يَقُولُ : تَتْرَكَ مَنْ يَهْدِيكَ إِلَى طَرِيقِ الْخَيْرِ ، فَلَا تَسْأَلُهُ
الْهَدَايَةَ ، وَتَقْصِدُ أَعْرَاضَ الدُّنْيَا مِنَ الْأَطْعَمَةِ وَغَيْرِهَا ، وَتَرْغَبُ أَنْ تَعْطَى مِنْهَا
هَدِيَّةً ، قَالَ الزَّاهِدُ ابْنُ عِمْرَانَ :

تَوْثُرٌ وَحَازِرٌ مِنْ قَبُولِ هَدِيَّةٍ	وَإِنْ جَاءَكَ فِيهَا الْحَدِيثُ الْمَرْغَبُ
فَقَدْ حَدَّثْتُ بَعْدَ الرَّسُولِ حَوَادِثُ	تَحَذَّرْنَا مِنْهَا ، وَعَنْهَا تَرْغَبُ
وَكُنْتُ هَدِيَّاتُ الْأَوَائِلِ قَبْلَنَا	تَوَلَّفُ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَتَحَبُّبُ
فَعَادَتْ بَلَايَا يُسْرِعُ الْمُنُّ نَحْوَهَا	تَهْرَقُ فِيمَا بَيْنَنَا وَتَحَبُّبُ

وله في مثله :

احذَرْ هَدَايَا النَّاسِ تَأْمِنَ الْمَنَ بِهَا أَوْ قَوْلَ وَاشِ يَشِي
فَقُلْ مَنْ يَهْدِيكَ إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ رَغْبَةٍ أَوْ رَهْبَةٍ قَدْ خُشِيَ
التَّبَسُّ الْأَمْرَ فَلَا تَقْدَمَنَّ وَأَخْشَ مَقَامَ اللَّهِ فَيَمُنَ خَشِي
كَانَتْ هَدَايَا ثُمَّ عَادَتْ رِشَاً وَفِي الرِّشَا الْهَلَكُ لِمَنْ يَرْتَشِي
حَذَرْنَا مِنْهَا نَبِيَّ الْهُدَى إِذْ لَعَنَ الرَّاشِيَّ وَالْمُرْتَشِيَّ
الثواب : المكافأة على العمل ، وأراد به ما يجازى الله به عباده على إحسانه
من الأجر ، وهو من ثاب يشوب إذا رجع ، وأثبت الرجل : أعطيته الثواب ،
وهو المكافأة على فعله . قوله « يواقيت » : أى جواهر . الصَّلَات : العطايا .
أعلق : ألصق . موافيت : أوقات ، وهى جمع ميقات .

* * *

[من لطائف التجنيس]

ومما يستحسن من تجنيس الصَّلَات والصَّلَاة ، حكاية أحمد بن المديبر - وكان
إذا مدحه شاعر ولم يرض شعره ، قال لعلامه : امض به إلى المسجد فلا تفارقه حتى
يصلّى مائة ركعة ، ثم خلّه ، فتحمامه الشعراء إلا الأفراد المجيدين - فجاء الحسين بن
عبد الرحمن البصرى المعروف بالجلّ ، فاستأذنه في النشيد ، فقال : أعرفت الشرط ؟
قال : نعم ، وأنشد :

أرْذَنَّا فِي أَبِي حَسَنٍ مَدِيحاً كَمَا بِالْمَدْحِ تُنْتَجَعُ الْوَلَاةُ
قَطَنًا أَكْرَمُ الثَّقَلَيْنِ طُرّاً وَمَنْ كَفَاهُ دِجْلَةٌ وَالْفُرَاتُ
قَالُوا يَقْبَلُ الْمَدْحَاتِ لَكِنْ جَوَائِزُهُ عَلَى الْمَدْحِ الصَّلَاةُ
قُلْتُ لَهُمْ : وَمَا تُغْنِي صَلَاتِي عِيَالِي ، إِنَّمَا تُغْنِي الزَّكَاةُ !

فَأَمَّا إِذْ أَبَى إِلَّا صَلَاتِي وَعَاقَتْنِي الْمَمُومُ الشَّاعِلَاتُ
فِيَأْمُرُ لِي بِكَسْرِ الصَّدَادِ مِنْهَا لَعَلِّي أَنْ تَنْشُطَنِي الصَّلَاتُ
فِيَصْلَحُ لِي عَلَى هَذِي حَيَاتِي وَيَصْلَحُ لِي عَلَى هَذِي الْمَاتُ

فضحك واستظرفه، وأمر له بمائة دينار، وقال : من أين أخذت هذا ؟ قال :-
من قول أبي تمام :

هَنَّ الْحِمَامُ فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَافَةً مِنْ حَائِنٍ فَإِنَّهُمْ حِمَامٌ^(١)

* * *

قوله : «مغالة الصدقات» ، أى الزيادة فى المهور ، وغاليت : زدت فى ثمن
السَّلعة ورددتها غالية ، والصدقات واحدها صدقة وهى الصدق ، قال النبى صلى الله
عليه وسلم : «من يُمن المرأة تيسر صداقها وخطبتها» ، قال عروة : وأنا أقول :
من أول شوئها ن يكثر صداقها . آثر : أفضل وأكثر أثره . موالاة : متابعة .
صحائف : جمع صحيفة ، وهى الورقة يكتب فيها من الرق والقرطاس . دُعابة : مزاح ،
وفى فلان دُعابة ، وتداعب الرجال : تمارحاً ، وفى الحديث : «كانت فيه صلى الله عليه
وسلم دُعابة» ، وفى حديث جابر رضى الله عنه : «هَلَّا بَكَراً تَدَاعَبَهَا وَتَدَاعَبَكَ !» .
الأقران : الأصحاب والأمثال . تلاوة : قراءة ، وتلوته : قرأته ، واختلفوا فى
اشتقاق القرآن ، فقال أبو عبيدة : سُميَ قرآنًا لأنه يجمع السور ويضمها ، قال الله تعالى :
﴿إِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾^(٢) أى إذا جمعنا لك شيئاً فضمه واعمل به ، وقال قطرب :
سُميَ قرآنًا لأن القارئ يُظهره ويبينه ويلقيه من فيه ، من قول العرب : ما قرأت
الناقة سلاقطاً ، أى مارمت به . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : «إن القلوب لتصدأ
كما يصدأ الحديد» ، قالوا : يا رسول الله . ما جلاؤها ؟ قال : «قراءة القرآن» .

(١) دهرانه ٢٧٩ .

(٢) نقله فى النهاية لابن الأثير ٢ : ١١٨ .

(٣) سورة القيامة ١٨ .

تَأْمُرُ بِالْعُرْفِ وَتَنْتَهِكُ حِمَاهُ ، وَتَخْشِي عَنِ النُّكْرِ وَلَا تَتَحَامَاهُ ،
وَتُزْجِرُ عَنِ الظُّلْمِ ثُمَّ تَنْشَاهُ ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ
تَخْشَاهُ . ثُمَّ أَنْشَدَ :

تَبًّا لِطَالِبِ دُنْيَا نَنَى إِلَيْهَا انْصِبَابُهُ
مَا يَسْتَفِيقُ غَرَامَا بِهَا وَفَرَطَ صَبَابُهُ
وَلَوْ دَرَى لَكَفَاهُ مِمَّا يَرُومُ صَبَابُهُ

* * *

العرف ، أى المعروف . تنتهك : تبالغ فى تناوله بما لا يجوز . حياه :
ما حوى منه ، ومنع ، وأصل الحى موضع العشب يحميه الرجل لإبله . وانتهاكه :
استئصال عشب بالرعى ، ونهكت الجلد وانتهكته ، إذا أخذته بشفرة حتى يرق ويضعف .
النكر : المنكر . تتحماه : تتباعد عنه . تُزجِرُ عن الظلم : تُنحِى عنه غيرك
وتزيهه . وتنشاه : تأتبه وتبشره . تخشى : تخاف . وقال ذو الرمة فى هذا المعنى ،
وهو أحسن شعرٍ قاله :

يَارَبِّ قَدْ أَسْرَفْتُ نَفْسِي وَقَدْ عَلِمْتُ عِلْمًا يَقِينًا لَقَدْ أَحْصَيْتَ آثَارِي
يَا مَخْرَجَ الرُّوحِ مِنْ نَفْسِي إِذَا احْتَضَرْتُ وَفَارَجَ الْكَرْبَ زُحْرِي عَنِ النَّارِ^(٢)
دعا لنفسه أن يكون من الفائزين ، لقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ زُحْرِي عَنِ النَّارِ
وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾^(١) .

قوله : « تَبًّا » ، أى خسراناً وهلاكاً ، وتبت يده : خسرت . قال تعالى :
﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾^(٣) ، أى غير خسار وهلاك ، قال الشاعر :

لَيْسَ بِخَسَارٍ مَنْ خَسِرَ دُنْيَا

وَنَجَّى نَفْسَهُ مِنَ الْخَسَارِ

وَمَنْ خَسِرَ دُنْيَا وَنَجَّى نَفْسَهُ

فَإِنَّهُ لَمْ يَخْسِرْ شَيْئًا

(٥ - شرح مقامات الحريري ١)

(١) ملحق ديوانه ص ٦٦٧

(٢) سورة آل عمران ١٨٥ .

(٣) سورة هود ص ١٠١ .

عَرَادَةٌ مِنْ بَقِيَّةِ قَوْمٍ لَوْطٍ أَلَا تَبَا لِمَا عَمَلُوا تَبَا بَا! (١)

ثَنَى : عطف وردّ . انصبابه : جريه . يستفيق : يستريح ، وأفارق من المرض : استراح . غراماً : شدة حب لازم له غير مفارق ، ومنه سُمِّيَ الغريم لملازمته التقاضى وإلحاحه فيه ؛ قال تعالى : ﴿ إِنِّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ (٢) أَيْ مُلِحًّا دَائِمًا ، ومنه ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ (٣) ، وفلان مغرم بالنساء : يحبهن ويلازمهن ، وقال حاتم :
فَمَا أَكَلَتْهُ إِنْ نَلَّتْهَا بِغَنِيمَةٍ وَلَا جُوعَةٌ إِنْ جَعَتْهَا بِغَرَامٍ
أَيُّ بَهْلَاكِ وَمِلَازِمَةٍ .

فَرَطُ صَبَابَةٍ : شدة شوق ومجاوزة حدّ في ذلك . يروم : يطلب . صبابه . بَقِيَّةُ الْمَاءِ .

[نبذ من الأشعار في ذم الدنيا]

وهذا الشعر مستحسن التوافق ، ومثله في ذلك قول الزاهد ابن عمران (٤) ،
وكثيراً ما كان يستمدّ في شعره من أدب المقامات :

تَبَا لِذِي جَهْلٍ دَعَا لِمَبْرَةٍ وَأُجِبْتُهُ بِرًّا بِهِ فَأَذَاعَهَا
مَنْنًا وَقَدْ كَا فَاتُهُ بِهَبَاتِهِ وَذَخَرْتُهَا عِنْدِي لَهُ ، فَأَضَاعَهَا
فَأَقْلُ اللَّثَامِ مِنَ الرِّجَالِ وَلَا تَجِبُ مَهْمَا دَعَاكَ وَجَنَّتْ أَوْ ضَاعَهَا
وقال آخر :

(١) لجرير ، ٨٣ ؛ وهو عرادة النهمري راوية الراعي ، وقبله :

أَتَانِي عَنْ عَرَادَةٍ قَوْلُ سَوْءٍ فَلَا وَأَبَى عَرَادَةَ مَا أَصَابَا

(٢) سورة الفرقان ٦٥ .

(٣) سورة الواقعة ٦٦ .

(٤) هو أبو عمران موسى بن عمران المارتنى الإشبيلي ، ذكره ابن سعيد في المغرب

١ : ٤٠٦ ، وأورد بعض شعره .

يامن يَضِيعُ مُعْمَرُهُ مَتَادِيًّا فِي الْأَنْهَارِ أُمْسِكُ
واعلم بأنك لا محال لَهْ ذَاهِبٌ كَذَاهِبِ أُمْسِكُ
ولنصور الفقيه في الشعر المردف (١) :

إِذَا كُنْتُ تَزْعُمُ أَنَّ الْفِرَاقَ فِرَاقُ الْحَيَاةِ قَرِيبٌ قَرِيبٌ
وَأَنَّ الْقَدَّمَ مَا لَا يَفُوتُ عَلَى مَا يَفُوتُ مُصِيبٌ مُصِيبٌ
وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ لَا تَرْعَوِي فَأَمْرُكَ عِنْدِي عَجِيبٌ عَجِيبٌ
وقال القاضي أبو حفص عمر في معنى شعر الحريري في ذم الدنيا :

بَارَا كَيْضًا فِي طَلَابِ دُنْيَا لَيْسَ لِمَنْ تَصْرَعُ انْتِعَاشُ
لَمْ تُخَشِ نَارَ هَوَى لَظَاهَا بَيْنَ لَهُ نَحْوَهَا انْحِيَاشُ
أَعْذِرْ مِنْكَ الْفِرَاشَ حَالًا عَلِمْتَ مَا يَجْهَلُ الْفِرَاشُ
نَظْمَهَا لَا تَنَامُ عَيْنُ عَنْهَا وَلَا يَسْتَقِرُّ جَاشُ
مَنْ لَكَ بِالرَّيِّ مِنْ شَرَابٍ يَشْتَدُّ مِنْ شَرْبِهِ الْعَطَاشُ
دَعَهَا فَطَلَّابُهَا رِعَاغُ طَاشَتْ بِأَلْبَابِهِمْ فَطَاشُوا
لَمْ يَرِدُوهَا فَبِهِمْ رِوَاءُ وَوَارِدُوهَا هُمُ الْعِطَاشُ
فَاطْمَأَنَّا لَتَرَوِي، وَكُنْ كَقَوْمٍ سَقُوا بِهَا غَبَّةً فَعَاشُوا (٢)
كَأَنَّ آمَانَنَا ظُبَاءُ وَنَحْنُ مِنْ حَيْرَةٍ خِدَاشُ
إِنْ لَأَمَانَنَا انْبَسَاطًا بِهِ لِأَعْمَارِنَا انْكَشَاشُ
كَأَنَّ آجَالَنَا صَقُورٌ وَنَحْنُ مِنْ تَحْتِهَا خَشَاشُ

ولابن الرومي رحمه الله :

لَعَمْرُكَ مَا الدُّنْيَا بُدَارٌ إِقَامَةٌ إِذَا زَالَ عَنِ الْعَيْنِ اللَّيْبُ غَطَاؤُهَا

(١) الردف في الشعر: حرف ساكن قبل حرف المد . واللين يقع قبل حرف الروي ، ليس بينهما شيء ، فإن كان الهمزة لم يجز معها غيرها ، وإن كان واوًا جازمه الياء . وانظر اللسان .
(٢) ب : « مانوا بها عفة فعاشوا » .

فكيف بقاء الناس فيها وإنما يُنال بأسباب الفناء بقاؤها !
وقال آخر :

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره فسوف لعمري عن قريب يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة وإن أقبلت كانت كثيراً همومها
ولا بن سارة رحمه الله تعالى :

بُنُو الدُّنْيَا بِجَهْلِ عَظُمُوهَا فَجَلَّتْ عَنْهُمْ وَهِيَ الْحَقِيرَةُ (١)
يُهَارِشُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَيْهَا مَهَارِشَةُ الْكِلَابِ عَلَى الْعَقِيرَةِ

ثُمَّ إِنَّهُ لَبَدَّ عَجَاجَتَهُ ، وَغَيَّضَ مُجَاجَتَهُ ، وَاعْتَضَدَ شَكْوَتَهُ . وَتَأَبَّطَ
هَرَاوَتَهُ . فَلَمَّا رَأَتْ الْجَمَاعَةُ إِلَى تَحْفُزِهِ ، وَرَأَتْ تَاهِبَهُ لِمَزَايِلَةِ مَرْكَزِهِ ،
أَدْخَلَ كُلُّ مِنْهُمْ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ ، فَأَفْعَمَ لَهُ سَجَلًا مِنْ سَبِيهِ ، وَقَالَ :
اصْرِفْ هَذَا فِي تَفَقُّتِكَ ، أَوْ فَرَّقْهُ عَلَى رُفَقَتِكَ . فَقَبِلَهُ مِنْهُمْ مُفْضِيًا ،
وَأَنْتَنَى عَنْهُمْ مُشْنِيًا ، وَجَعَلَ يُوَدِّعُ مَنْ يُشِيئُهُ ، لِيَخْفَى عَلَيْهِ مَهْيَعُهُ ،
وَلِيَسْرُبُ مَنْ يَنْبَعُهُ ، لِكَيْ يُجْهَلَ مَرْبَعُهُ .

قوله : « ثُمَّ إِنَّهُ لَبَدَّ عَجَاجَتَهُ » ، أى سَكَّنَ غَبْرَتَهُ المرتفعة حتى لصقت بالأرض .
غَيَّضَ : جَفَفَ . الْمُجَاجَاةُ : مَا يُبْقَى مِنْ فِيهِ . وَقَدْ مَجَّ الرَّجُلُ رَيْقَهُ ، إِذَا سَالَ مِنْ
حَقِّ أَوْ كِبَرٍ . وَأَرَادَ بَلْبَدَ عَجَاجَتَهُ ، قَطَعَ كَلَامَهُ الَّذِي كَانَ قَدْ اسْتَرْسَلَ ، وَأَخَذَهُ
مِنْ قَوْلِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَقَدْ تَكَلَّمَ وَفَدَّ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَلَمْ يَصْنَعُوا شَيْئًا ،

(١) قلائد العقيان ٣٠١ .

وتكلم بعدهم رجل قبيح المنظر فأبلغ ، فقال سليمان : كأن كلامه بعد كلامهم
سجابة لبّدت عجاجا .

وأراد بـ « قبيح مُجَاجته » ما كان يسيل من عينيه وأنفه عند البكاء .
اعْتَصَدَهَا : جعلها تحت عَصْدِهِ . والشكوة : ركوة الماء تُصْنَع من جلد الثور
أو الخروف . وتأبّطها : جعلها تحت إبطه . هراوته : عصاه . رنت : نظرت . تحفزه :
تهيؤه وعجلته للانصراف ، وتحفّز وانحفز ، إذا كان جالسا على عقبه متهيئا
للقيام . تأهبه : استعداده . مزايله : مفارقه . مركزه : موضعه الذي قام به . أفعم :
ملا ، ونعمت الشيء فعما : ملأته . سجلا : دلوا . سيبه : عطاؤه ، معناه وهب له
نصبيا من عطاؤه . رفقتك : أصحابك . مفضيا : مستحيا ، وأصل « أغضي »
كفت بصره وضمّ جفنيه . اثني : رجع وانعطف عن طريقه . مهيه : طريقه
البين . يسرب : يفرّق ، فكأنه « تفعل » من السرب وهو الطريق ، كأنه يردّهم عن
تشييعه في طرق مختلفة ، أو يكون من لفظ السرب ، وهو الجحر ، فكأنه يقيهم
عنه حيث يقصد تعمية طريقه عليهم ، أو يكون من لفظ السارب وهو الذاهب
في الأرض ، وقد سرب سروباً ، فكأنه يذهبهم في كلّ ناحية ليجهل مكانه .
مربعه : منزله في الربيع خاصة . والمربع : المنزل في كل وقت ؛ من ربت
بالمكان ، أقت به .

قال الحارث بن همام : فاتبعتهُ موارياً عنه عياني ، وفقوتُ
إثره من حيث لا يراني ؛ حتّى انتهى إلى مغارة ، فأنساب فيها
على غرارة ، فأمهلتُهُ ريثما خلعت ثعلبيه ، وغسل رجلّيه ، ثم هجّمتُ
عليه ، فوجدته مُحاذياً لِثعلبيّ ، على خبز سَمِيدٍ ، وجرى حَنِيذٍ ،

وَقُبَّالَتْهُمَا خَايَةً نَبِيذٍ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا هَذَا ، أَيْكُونُ ذَلِكَ خَبْرَكَ ،
وَهَذَا مَخْبَرَكَ !

موراباً : ساتراً . عياني : شخصي ، أى تبعته مستخفياً بحيث لا يرانى .
قفوته : اتبعته من جهة قفاه . انساب : دخل ، وأصل الانسياب ، جَرَى الحَيَّة على
وجه الأرض ، أو جَرَى الماء كذلك ، ولا يكون الانسياب إلا على وجه الأرض ،
لا يقال : انساب فى الجحر ؛ حدثنى به بعض مَنْ لقيت من أصحابنا ، وكان
أَضْبَطَ النَّاسَ لِّلْسَانَ الْعَرَبِ ، قال : وقول الحريري : « انساب فيها » وهم منه ، ولو قال :
« انشام فيها » لكان أمثل ، يشبهه بالسيف إذا وُضِعَ فى غمده . غَرَارَةٌ : غفلة .
رَيْثٌ : قدر . هجمت عليه : دخلت عليه فجأة ، ومنه هجم عليه الحر ، وهجمت
عينه : دخلت فى رأسه . محاذياً : ملاصقاً أو جالساً بجذائه . تلميذ : متعلم الصنعة .
حَنِيزٌ : مشوى ، وحنذ اللحم حَنْذًا : شواه بججارة محمّاة . نبذ ، أراد به
خمرًا . خبرك ، أراد به أمرك الذى أنت عليه . مخبرك ، أى باطنك وما يختبر
منك .

[أبو نواس فى مجالس الوعظ]

ومما ينتظم فى هذا النمط حكاية أبى نواس حين رُئِيَ فى مجلس منصور
ابن عمار يبكى ، فظنَّ الناس أنه قد نَسَكَ ، فجعلوا يهشونهُ ، ويقولون : نرجو لك
من الله الخير ، فقال : أنا أهون على الله من ذلك ؛ وليس كما تظنون ، ولكن
أبكى لبكاء ذلك الغزال - و غلام بالمجلس يبكى من وعظ منصور - ثم قال :
لم أبك فى مجلس منصورٍ شوقاً إلى الجنة والخورِ

لكن بكائي لبكا شادين تقيهِ نفسي كلَّ محذورٍ
تنسب الألسن في وصفهِ إلى مدى عجزٍ وتقصيرٍ

وحضراً أيضاً مجلس بعض القصاص ، فقالوا له : لعل الله قد أقبل بك ! فقال :
إنما حضرت لأجل هذا الغزال ، ثم قال :

خلياني والمعاصي ودعا ذكرَ القصاصِ
واسقياني الخمرَ صرفاً في أباريقِ الرصاصِ
وعلى وجه غزالٍ طائعٍ ليس بعاصي
بين فتیانِ كرامٍ قد تواصلوا بالمعاصي
وعلى الله - وإن أفد - سرطت في الذنب خلاصي

* * *

ففرز زفرة القنيطر ، وكاد يتميز من القنيطر ؛ ولم يزل يحمق
إلى ، حتى خفت أن يسطو علي . فلمّا أن خبت ناره ، وتوارى
أوارهُ ، أنشد :

لبستُ الخبيصةَ أبني الخبيصة
وأنشبتُ شعبي في كلِّ شبيصة
وصيرتُ وعظي أحبَّ ولة
أريغُ القنيصَ بها والقنيصه
والجاني الدهرَ حتى ولجـ
تُلفِ احتيالي على الأنيث عيصه

عَلَى أَنَّنِي لَمْ أَهَبْ صَرْفَهُ
وَلَا نَبَضْتُ لِي مِنْهُ فَرِيصَةً
وَلَا شَرَعْتُ بِي عَلَى مُورِدٍ
يُدَنِّسُ عِرْضِي نَفْسٌ حَرِيصَةٌ
وَلَوْ أَنصَفَ الدَّهْرُ فِي حُكْمِهِ
لَمَا مَلَكَ الْحُكْمَ أَهْلَ النَّقِيصَةِ

* * *

قوله: « فزفر زفرة القيظ »، الزفرة: تنفس المجهود أو الملتاظ، والقيظ: شدة الحر، شبه ما أبداه من شدة الفَيْظ بوهج الحر. يتميز: يتقطع ويتفرق. يحملق: يحد النظر، والحلقة: نظر الفضبان، والحلاق: باطن الجفن. يسطو: يصل ويبتناولني بالمكرهه، يقال: سطا عليه وبه، يسطو سَطَوًا وسطوة، إذا قهره وأذله. خبت ناره: سكنت حدة غيظه. توارى: تغطى واستتر. أواره: لهبه ونار غيظه. والأوار: وهج النار. الخبيصة: كساء فيه خطوط. وقال يعقوب وأبو عبيد: الخبيصة: كساء مربع أسودله علمان. الخبيصة: نوع من الحلواء، وتسميه عامتنا الخبيز، بالزاي، وكبني به عن لذة العيش. الشص: حديدة معوجة يصاد بها الحوت، وتسمى الصنارة. شيصة: ثمرة رديئة؛ ومن ملح قصاص البلدان، أن أبا عبد الله الخواص كان يقول في قصصه: إنما الناس مثل التمر، فيهم الشيص والبرني، يارب اجعلنا برنيًا ولا تجعلنا شيصًا. وقال قاص آخر: إن في الجنة لحم جدى ولحم خروف، ولحم كل شيء بلا عظم مثل الشيص في بلادنا بلا نوى، يريد أنه لا يحترق شيئًا؛ فكل ما اتخذ له أخذه. أحبولة: آلة يصاد بها. أريغ: أطلب ملصعب أخذه، كأنه يروغ من كذا، وأصل راغ من كذا، أى عدل عنه ورجع، وهو يخنى رجوعه. قلل الفرء: لا يقال للذي يرجع: راغ يروغ، إلا أن يكون مخفياً

لرجوعه، قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبُ الْبَالِمِينَ﴾^(١)، أى رجع إليهم يضر بهم مخفياً لرجوعه، ومعنى «بالمين» أى يمينه الذى حلف فى قوله تعالى: ﴿وَتَأْتِيهِمْ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾^(٢)، أو يريد بالمين القوة، وقال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ﴾^(٣)، أى رجع إليهم فى إخفاء منه لرجوعه. القنيص والقنيسة: الذكر والأنثى مما يصاد من الوحش، وهذا مثل، وإنما أراد ما يأخذه من الناس بالحيل. ألجأنى: أحوجنى. ولجت: دخلت. لطف: رقة وتلطّف. عيصه: بيته، وأصله الشجر الملتف. والليث: الأسد. أهب: أخفّ. صرفه: تقبّله. نبضت: تحركت. فريضة: بضعة فى آخر الكتف تتحرك عند الفزع. شرعت: دخلت. وعلى: بمعنى «فى» نحو قولك: كان ذلك على عهد فلان، أى فى عهده. مورد موضع الماء. يدنس: يوسخ ويعيب. عرّضى: ذكرى. نفس حريضة: كثيرة الرغبة والطعم. النقيصة: الخصلة القبيحة يفعها الرجل فينقص بها.

وقال بعضهم:

غَضِي عِيونَكَ يَا عِيونَ النَّرْجِسِ	مِنْكَ اسْتَحْيْتُ بَأْنَ أَقْبَلَ مُؤْنِسِي
نَامَ الْحَبِيبُ تَدَبَّلَتْ أَجْفَانُهُ	وَعِيونُكَ شَوَاخِصٌ لَمْ تَنْفَسِ
فَأَجَانِي تَفْلَحَ صَفْحَةُ خَدِهِ	بِفَصَاحَةٍ مِنْ أَلْسِنٍ لَمْ تُخْرِسِ
قَبْلُ حَبِيبِكَ مَا اشْتَهَيْتَ فَإِنْ مِنْ	عَادَاتِنَا كَبْتَانِ سِرِّ الْجِمَاسِ
يَارَبِّ إِنْ قَدَّرْتَهُ لِمَقْبَلٍ	غَيْرِي فَلِلْمَسْوَكَ أَوْ لِلْأَكْوَسِ
وَلَنْ قَضَيْتَ لَنَا بِصَحْبَةِ ثَالِثٍ	يَارَبِّ فَلْتَكُ شَمْعَةً فِي الْجِمَاسِ

ومن أحسن ما قيل فى الدهر، قول تميم بن المعز:

(١) سورة الصافات ٩٣

(٢) سورة الصافات ٩٣

(٣) سورة الأنبياء ٥٧

يا دهرُ ما أقساک من متلون
أترُوح للنکس الجهول متهذاً
وإذا صفوت کدرت شيمة باخلٍ
لا أرتضیک وإن کرمت لآنتی
زمنٌ إذا أعطى استردَّ عطاءه
ما قام خیرک یا زمان بشره
فی حالتیک وما أقلک مُنصفاً^(١)
وعلى اللیب الحر سيقاً مرهفاً!^(٢)
وإذا وفیت نقضت أسباب الوفا
أدری بأنک لا تدوم على الصفا
وإذا استقام بدا له فتحرفاً
أولى بنا ما قلّ منك وما کفی
إدریس بن الیمان^(٣) :

ماذا أقول لدنيا لو ظنرتُ بها
شجاً من أقذية الأيام برح بي
أدبها غضباً للعلم والأدب
بل بالعوالى وبالهندية القضب

ثم قال لي : اذنُ فكلُ ، وإن شئت فقمُ وقلُ .
فالتفتُ إلى تلميذه وقلتُ : عَزَمْتُ عَلَيْكَ بِمَنْ تَسْتَدْفِعُ بِهِ
الأذى ، لتخبرني مَنْ ذا ؟ فقال : هَذَا أَبُو زَيْدٍ السَّرُوجِيّ ، سِرَاجُ
العُرَبَاءِ ، وَتَاجُ الأَدْبَاءِ .

فانصرفتُ مِنْ حَيْثُ أَنْبِئْتُ ، وَقَضَيْتُ الْعَجَبَ مِمَّا رَأَيْتُ !

قوله : « اذن » ، أى اقرب . قل ، أى قل ماشئت . التلميذ : الخادم ، والجمع

(١) ديوانه ٢٧٤

(٢) النكس : الرجل الضعيف القصر عن غاية النجدة والكرم .

(٣) هو أبو علي إدریس بنه اليماني العبدي الأندلسي ، صاحب الأملح الكثيرة
للكلوك الطوائف ، ذكره صاحب المغرب في ١ : ٤٠٠ .

التلاميذ ، قال لبيد^(١) :

* يَجْلُو التَّلَامِيذُ لَوْلَا قَشِبًا *

أى يجلو التلاميذ لَوْلَا جديداً ، وطالبة العلم : تلاميذ شيخهم . الأذى : الضرر . سراج : مصباح ، يريد أنه للغرباء مصباح يفخرون به ويهتدون بحيلته ، وللأدباء تاج يترينون به ويضعونه فوق رؤوسهم . انصرفت : رجعت . قضيت العجب ؛ أى أتممته ، كأنه قال : قضيت حاجتى مما رأيت . ويقال : قضى نجبه من كذا ، أى بلغ مراده ، وقضى عليه القاضى ، أى قطع عليه ، والقاضى : القاطع للأمور المحكم لها ، وقوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾^(٢) ، أى قطعهن وأحكم خلقهن ، ويكون « قضى » بمعنى « عمل » .

(١) ديوانه ٣١ وسدره :

* فإلما يَجْلُو مَتُونَهُنَّ كَمَا *

(٢) سورة فصات ١٢ .

المقامة الثانية وهى الحلوانية

حكى الحارث بن همام قال : كَلِفْتُ مُذْ مِيطَتْ عَنِّي
 التَّمَامُ ، وَنِيطَتْ بِي أَعْمَامُ ، بَأَنْ أَغَشَى مَعَانَ الْأَدَبِ ، وَأَنْصِي
 إِلَيْهِ رِكَابَ الطَّلَبِ ، لِأَغْلِقَ مِنْهُ بِمَا يَكُونُ لِي زِينَةً بَيْنَ الْأَنَامِ ،
 وَمُزْنَةً عِنْدَ الْأَوَامِ . وَكُنْتُ لِفِرْطِ اللَّهْجِ : قِتْيَاسِهِ ، وَالطَّمَعِ فِي
 تَقَمُّصِ لِبَاسِهِ ، أَتَبَاحِثُ كُلَّ مَنْ جَلَّ وَقَلَّ ، وَأُسْتَسْقَى الْوَبَلِ
 وَالطَّلَّ ، وَأَتَمَلُّ بِعَاسَى وَلَعَلَّ .

كَلِفْتُ ، أى اشتدَّ حَجِّي ، والكَلَفُ : شدة الحبِّ والمبالغة فيه ، وفلان كَلِفْتُ
 بفلان ، أى مبالغ فى محبته . وَمِيطَتْ وَأَمِيطَتْ : أزيلت . التَّمَامُ : الأحرار .
 نِيطَتْ : عَلَّقَتْ ، وإذا بلغ الصبى الحلم عند العرب أزلوا الأحرار عن عنقه ، وألبس
 العمامة والإزار ، وقُلِّدَ السيف ، فأراد : أُحِبِّيتْ مَذْبَلَتُْ الحلم مجالس الأدباء . أَغَشَى :
 أقصد وأدخل .

المعان : المنزل . أبو عبيد ، يقال : البصرة معانٌ مِنَّا ، أى منزل منا ،
 قال المعري :

معانٌ من أحببتنا معانٍ^(١)

فالأول اسم موضع معلوم جنس به ، وجعله منزل أحبابه . وقال بعضهم :

(١) سقط الزند ١٧٢ ، والبيت مطلع قصيدة له ، ووقته :

* تُحِيبُ الصَّاهِلَاتِ بِهِ الْقِيَانُ *

سُمِّيَ معاناً لمعاينة الناس فيه بعضهم بعضاً ، أو لأنّ فيه أعيانا . أنضى : أهزل
الركاب : الإبل ، وجعل للطلب إبلا مجازا ، وإنما يريد : أتعبت نفسي فرحلت
إلى طلبه على الإبل . لأعاق منه : لأحصل منه على فائدة أتعاق بها . الأنام : الخلق .
مُرنة : سحابة . الأوام : شدة العطش ؛ يريد أنه يتعب نفسه في طلب الأدب ليتزيّن
به بين الناس ، ويعيش به إذا احتاج إليه . فرط اللّجج : شدة الحب ، يقال : قد
لجج بالشئ إذا أكثر الحديث به لحبه فيه ؛ وحرصه عليه . ولهج الفصيل بالرضاع ،
إذا لجّ فيه . اقتباسه : اكتسابه . التقمص : لبس التميمص . لباسه : ثيابه ،
أى أطمع أن ألبس من ثيابه قميصاً . أباحث : أسائل . جلّ : عظم . قلّ :
حقّر . أستسقي الوبل والطلّ ، أى أطلب منه السقى ، والوبل : أشدّ المطر والطلّ :
أضعفه ، ويقال : الرّكّ أضعف من الطلّ ، ومنه قيل للدنيء : ركيك . أتعلّل :
أشغل نفسي وأطعمها . والعلالة : الشئ اليسير . وعسى ولعلّ : معناهما الرجاء
والطمع ؛ يريد أنه يسائل الجليل في العلم والحقير ، ومنّ كثر علمه وكان كالوبل ،
أو قلّ وكان كالطلّ ، وإذا فقد من يؤخذ عنه العلم رجا نفسه بوجوده وأطعمها .
والتعلّل : قطع الزمان بالعيش اليسير ، وقد تعلّل بشرابه ، إذا أخذ منه قليلا قليلا ؛
فغنى «أتعلّل بعسى ولعلّ» ، أذهب علّة وجدي بالرجاء والطمع .

فَلَمَّا حَلَلْتُ حُلُوانَ ، وَقَدْ بَلَوتُ إِخْوَانَ ، وَمَسَبَرْتُ
الْأَوْزَانَ ؛ وَخَبَرْتُ مَاشَانَ وَزَانَ ، أَلْفَيْتُ بِهَا أبا زَيْدٍ السَّرُوجِيَّ
يَتَقَلَّبُ فِي قَوَالِبِ الْإِنْسَابِ ، وَيَخِيطُ فِي أَسَالِيبِ الْاِكْتِسَابِ ؛
فَيَدَّعِي تَارَةً أَنَّهُ مِنْ آلِ سَاسَانَ ، وَيَتَعَزَّى مَرَّةً إِلَى أَقْيَالِ غَسَّانَ ،
وَيَبْزُ طُوراً فِي شِعَارِ الشُّعْرَاءِ ، ثُمَّ يَلْبَسُ حِيناً كِبَرَ الْكِبَرَاءِ .

[ذكر حلوان]

حلت : نزلت . وحلوان : بلدة بينها وبين مدينة بغداد أربع مراحل ، وهي من كُور الجبل ، وسميت باسم بانيها ، وهو حلوان بن علي بن الحاف بن قضاة ، وهي مدينتان بينهما نهر عظيم مقداره فرسخ ، وهي مقابلة لطبرستان . وهي جبلية سهلية بحرية لها زيتون ونخيل ، وبها قصب السكر وافتتحت في زمن عمر .

* * *

بلوت : جربت . الإخوان : الأصحاب . سبرت : فتشت . الأوزان : أقدار الناس . خبرت : جربت وعرفت . شان : عاب ، وزان : زين ؛ يريد أنه دخاها وهو مجرب عارف بالناس . ألفيت : وجدت . يتقلب : يتنوع . قوالب : جمع قالب ، وقالب كل شيء : قياسه وما يُصنع عليه . يخبط : يمشي ، والخبط : المشي في الأرض على غير قصد كمشي الأعمى . أساليب : طرق ، واحدها أسلوب . آل ساسان : ملوك الفرس . يعتزى : ينتسب . أقيال : ملوك . غسان : قبيلة باليمن كان منها ملوك . وغسان : ماء كان شرباً لولد مازن بن الأزد بن العوث فسُموا به . يبرز : يظهر . طوراً : حيناً . شعار : ثياب ، والشعار ثوب يلي الجسد . كبر : تكبر ، يريد أنه لقي أبا زيد بحلوان يتنوع بذلك في أحوال المسكدين ، ويحجى بذلك في طرق اكتساب المعيشة فيدعى أنه من آل ساسان .

[شعار الكدية]

وأصل هذا أن الفرس كان فيهم الملك ، وكانت العرب تحت حكم ملوكهم ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم للمكهم بكتابه يدعوهم به إلى الإسلام ، مزقوه ، فدعا الله عليهم أن يُمزقوا كل مُمزق ، فأوقع بهم المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد حروب شديدة معظمها بالقادسية ، فلم يبق لهم في الملك رسم ، وصاروا في خلافة عثمان رضي الله عنه تحت حكم المسلمين ، وكانوا أهل دهاء وجراءة وحروب

ورماية، فسكن من بقى منهم الأمصار، واستعربوا وتنفقوا، فكان منهم من نزع الله به المسلمين، وكان منهم أهل أهواء وبدع، ونشأت منهم هذه الطائفة الخبيسة، أهل الكدنية، فكانوا يطوفون على البلدان، ويقولون: نحن من بنى ساسان، فينتسبون إلى ملوكهم، ثم يتدللون في السؤال، ويذكرون تلاعب الدهر وانقلاب حال الملوك إلى السؤال، فيمتع الإشفاق عليهم، والميل بالرزق لهم، حتى شعر الناس بمكرهم وخديعتهم، فطردوا، وصار الناس إذا رأوا سائلاً متمسكاً قالوا: ساساني. وقيل: إن ساسان اسم رجل معين، وهو أول من أسس الكدنية، فنسبوا إليه، كما أن الطنيلي منسوب إلى رجل اسمه طويل وهو أول من تطفل. فأراد أن أبا زيد كان يتنوع في أحواله، فيتمسكن تارة ويدعى أنه من ساسان، ويتعاطم أخرى فينتسب إلى غسان، ويبرز مرة في أحلاس الشعراء المكدين، ويظهر ثانية في ثياب فاخرة، لباس الكبراء المثريين.

* * *

يَبْدَأُ أَنَّهُ مَعَ تَلَوْنِ حَالِهِ ، وَتَبَيُّنِ مُحَالِهِ ، يَتَحَلَّى بِرُوءٍ وَرَوَايَةٍ ،
وَمُدَارَاةٍ وَدِرَايَةٍ ، وَبَلَاغَةٍ رَائِعَةٍ ، وَبِدِهَةٍ مُطَاوِعَةٍ ، وَآدَابٍ
بَارِعَةٍ ، وَقَدَمٍ لِأَعْلَامِ الْمُلُومِ فَارِعَةٍ ، فَكَانَ لِمَحَامِنِ آلَاتِهِ ،
يُبْلِسُ عَلَى عِلَاتِهِ ، وَلِسَعَةِ رَوَايَتِهِ ، يُضَيِّ إِلَى رُؤْيَتِهِ ، وَلِخَلَابَةِ
قَارَضَتِهِ ، يُرْغَبُ عَنْ مُعَارَضَتِهِ ، وَلِإِذْوَاقَةِ إِرَادِهِ ، يُسَعَفُ بِجُرَادِهِ ،
فَتَمَلَّقَتْ بِأَهْدَابِهِ ، لِإِخْصَائِصِ آدَابِهِ ، وَنَافَسَتْ فِي مُعَافَاتِهِ ،
لِنَفَائِصِ صِفَاتِهِ .

فَكُنْتُ بِهِ أَجْلُو مُمَوِّجِي وَاجْتَلِي
زَمَانِي طَلَقَ الْوَجْهَ مُلْتَمِعِ الضُّيَا

أَرَى قُرْبَهُ قُرْبِي وَمَنْعَاهُ غَيْبَهُ وَرُؤْيَتُهُ رِيًّا ، وَمَنْحِيَاهُ لِي حَيًّا

قوله : « بَيِّدْ أَنَّهُ » ، أى غير . مُحَالَه : باطله ، والمُحال ما لا يمكن أن يُتصوَّر ، وهو « مفعل » من حال الشيء ، إذا تغير ، كأنه زال عن وجهه . يتحلَّى : يتزين . رواء : نظافة وحسن منظر . مداراة : حسن سياسة في صُحْبَتِهِ ، وأصلها المخادعة . دراية ودَرْيَة : مصدر دَرَيْت . بلاغة : فصاحة . رائعة : معجبة ، وَمَنْ شاهدها ارتاع وتعجَّب . والبدية والبداهة : الأخذ في الكلام من غير فكرة ، وهى الارتجال . مطاوعة : مُنْقَادَة . بارعة : فائقة تفضل غيرها . أعلام : جبال . فارعة : طائلة قد علمتها ، واللام فى قوله : « لأعلام » زائدة ، وزيادتها إذا تقدَّمت أحسنُ منها إذا تأخرت ، مثل ضربت زيداً ولزيد ضربت . آلاته : عدده ، وأراد به هذه الأنواع التى قدَّمها التى تحلَّى بها . يابس : يصاحب ويخالط . عِلَّاتِهِ : عيوبه التى ذكر من أنواع الغربة . سَعَة روايته : كثرة علمه وما يرويه . يُضَيِّى : يمال . خلابة : خداع ، وقد خلبه خلباً وخلابة : خدعه . عارضته : قوة كلامه . معارضته : مقابلاته ومناقضة كلامه ، وتقول : رغبت عن الشيء تركته وتزهدت فيه ، ورغبت فيه ، إذا أحببته ، فيريد أنه لقوة كلامه وصلابته لا يتعرَّض أحد لجداله ، فهو يخادع به الناس حتى لا يعترَض له فيما يقول ، وقيل : معنى فلان شديد العارضة ، إذا أفحش وأسمع المكروه ، ورجل شديد العارضة ، أى لا تقرب ناحيته . إيراده : أخذه فى الكلام . يسعف : يساعد . أهدا به : أطراف ثوبه . وخصائص الشيء : ما يختص به ، أى ينفرد . نائست : زائدت وغاليت . مصائنه : مصاحبتة . نئاس : جمع نفيس ، وهو الرفيع من كل شيء يسقى نئاساً ، من النَّفْس وهى العين ، حتى كأنه لرفعته تتعلق به العين ، وقد قال المعرى :
فالعَيْنُ يَسْلُمُ مِنْهَا مَا رَأَتْ فَتَبَتْ عَنْهُ وَتَلَحُّقُ مَا تَهْوَى مِنَ الصُّوَرِ (١)
قوله : « أجلو » ، أى أكشف . أجتلى : أنظر . طلق الوجه : مستبشرا ، والطلاق

آلة يمزج بها المشروب الصعب الامتزاج . الإملاق : الفقر من المَلَقَة وهي الصخرة
الملساء ، فأملق ، كأنه صادف مَلَقَة لاتنبت شيئاً ، ولم يصادف خصباً بعد أن كان
في ترفهٍ وغنى . أغراه : حرّضه .

والعراق ، اختلفوا فيه ، فقال صاحب العين : العراق : العظم بلا لحم ، فإن
كان عليه لحم فهو عَرَق .

ابن قتيبة ، يقال للعظم الذي عليه اللحم عَرَق ، وللخالي من اللحم عَرَق .
أبو عبيد ، العراق : القاعة من اللحم . أبو زيد ، قول العامة : ثريده العراق
خطأ ؛ إذ كان العراق العِظام ، وأنشد لرجل يطرد الطير عن زَرَعه في
عام جذب :

عَجِثْتُ من نفسي ومن إشفاقها ومن طرادى الطَّيْر عن أرزاقها

في سَنَةٍ قد كشفت عن ساقها حمراء تَبْرِي اللحم عن عُرْاقها

ابن الأنباري ، قول أبي عبيد هو الصواب ؛ لأن العرب تقول : أكلت
العراق ولا تقول : أكلت العظم ، وفي حديث أم إسحاق الغنوية^(١) : فجعلت
لا آكل العراق ولا أضعه ، فقولها : « لا آكل » يدل على أن العراق لحم مفرد
أو لحم على عظم .

الأصمعي ، قيل لأعرابي : أي الطعام أطيب ؟ قال : ثريده دَكْناء من
الفلفل ، رَقْطاء من الحمض ، ذات حفافين من البضع ، لها جناحان من العراق ، قيل :
كيف أكلك لها ؟ قال : أصدع بهاتين — يعني السبابة والوسطى — وأسند بهذين —
يعني الإبهام والخنصر — وأجمع ما شذ منها بهذه — يعني البنصر — وأضرب
فيها ضرب ولّى السوء في مال اليتيم . فهذا يدل على أن العراق قطع اللحم إذ كانت
العرب لاتصف الثريد والأطعمة بكثرة العظام .

والعراق في البيت : الأكل ، تقول : عرقت العظم عراقاً ، أكلت ما عليه
من اللحم ، والعظم معروق ، وهو بمنزلة سكت سكاتاً .

(١) اللسان : « الغنوية » .

العراق : قال صاحب العين : هو شاطئ البحر ، وبه سُمِّيَتِ العراق ، لأنها على شاطئ دجلة . ابن الأعرابي ، سمي عِرَاقًا لأنه سَفُلٌ عن نجد ، ودنا من البحر ، أخذ من عراق القرية ، وهو الخرز في أسفلها . قطرب ، سُمِّيَ عِرَاقًا لأنه دنا من البحر ، وبه يُنَاخ وينجد .

ويقال : استعرت إبلهم ، إذا أتت ذلك الموضع . لَفَظَتْهُ ، أى رمته . ومعاوز : جمع مَعَوَز ، والمعوز هو العوز نفسه ، والمعوز بالكسر : الثوب الخلق وجمعه معاوز . الإرفاق ؛ مصدر أرفقته ، إذا أوصلت إليه نفعًا يَرْتَفِقُ به ، ورقيقته بمعناه ، فأراد بمعاوز الإرفاق فَقَدْ ما يَرْتَفِقُ به . والمفاوز : جمع مفازة وهى الصحراء ، سُمِّيَتِ مفازة على التفاؤل ، لأنَّ الرجل إذا قطعها فاز ونجا . والآفاق : نواحي الأرض . نظمه : ضمه وجمعه . سلك : خيط . الرفاق : جمع رُفْقَةٍ ، وعنى بسلك الرفاق الطريق الذى ينتظمون فيه إذا أخذوا فى السير ، لأنهم يمشون فيه واحدًا بعد واحد ، فنظمهم الطريق ، وصار لهم كالسلك . خنوق : اضطراب ، وقد خفق خَفَقًا وخُفُوقًا ، والإخفاق : الخيبة ، ويقال : غدا فأخفق ، إذا خاب ، ومثله فى الصائده : صاد فأروق . شحد : حدّ وسنّ ، وشحد الرجل سيفه ، إذا ألحّ عليه بالتحديد ، ومنه قولهم للملح فى المسألة : شحاذ ، والعامّة تصحّفه فتقول : شحات ، بالتاء . غَرَار : حدّ . وأراد أنه لما عزم على الارتحال حدّ عزمته ، أى عوّل على السفر بحدّ . والعزمة : مصدر عزم إذا جدّ ، وجعل لها حدًّا ، مبالغة فى تعجيل السفر . ظعن : ذهب وارتحل . أزمّة : جمع زمام ، وهو حبل من جلود يشدّ به فى حلقة مجموعة فى وتد أنف البعير ، فجعل تعلق قلوب أصحابه به عند فراقه ، وحينئذٍ إليه ؛ كأنه قد ربطها بأزمّة وقادها معه ، فمن روى « القلوب » عادت الهاء من « أزمته » على السروجيّ ، ومن روى « القلب » عادت على القلب أو على السروجيّ ، والقلب لابن همام .

قوله : « راقنى » ، أى أعجبني ، وقد راق الشيء يَرُوق رَوَقًا فهو رائق ، إذا أعجب . لاقنى : لصق بى وصحبى .

شاقى : شوقى . ساقى لوصاله : دعانى لصحبته . لاح : ظهر . ندّ : فرّ وشرد .
 ندّ : مثل ، والجمع أُنْدَاد . خلال : جمع خُلّة بالضم ؛ وهى الصداقة ، خلاله :
 جمع خُلّة بالضم أيضاً ، وهى الخصلة . وهذا النمط فى وصف الصديق وغيبته بارع .
 ولابن عمران فى ذلك :

يَا مَرْحَبًا بِصَدِيقٍ لَسْتُ أَبْصِرُهُ إِلَّا تَجَدَّدَ لِي أَنْسٌ بِمِرَّاهُ
 وَإِنْ تَغَيَّبَ عَنْ عَيْنِي فَلَمْ أَرَهُ فَلَ فَوَادٍ بظَهْرِ الْغَيْبِ يَرَعَاهُ

* * *

وَاسْتَسْرَّ عَنِّي حِينًا ، لَا أَعْرِفُ لَهُ عَرِينًا ، وَلَا أَجِدُ عَنْهُ مَبِينًا .
 فَلَمَّا أَتَيْتُ مِنْ غُرَبَتِي ، إِلَى مَنْبِتِ شُعْبَتِي ، حَضَرَتْ دَارَ كَتَبِهَا الَّتِي
 هِيَ مُنْتَدَى الْمُتَأَدِّينَ ، وَمُلْتَقَى الْقَاطِنِينَ مِنْهُمْ وَالْمُتَغَرِّينَ ، فَدَخَلَ
 ذُو لِحْيَةٍ كَثَّةٍ ، وَهَيْئَةٍ رَثَّةٍ ، فَسَلَّمَ عَلَى الْجُلَاسِ ، وَجَلَسَ فِي
 أُخْرَيَاتِ النَّاسِ .

* * *

استسّر : غاب واختفى ، وأصله من سِرار الهلال فى آخر الشهر ، وهو
 يستسر ليلة لا يظهر أو ليلتين . والعرين : بيت الأسد وماواه . مبيّنًا : معلّمًا به
 يبيّن لى أين استقر . أبت : رجعت . منبت شعبتى ، أى بلدة قرابتى التى نبتوا
 فيها ، يريد البصرة . والشعبة : القرابة . دار كتبها : مدرسة العلم . منتدى : مجتمع .
 القاطنين : الساكنين ، وقطن بالمكان : أقام فيه . كثّة : كثيرة الأصول من
 غير طول .

[مما قيل فى اللحية]

ويقال للحية إذا قصر شعرها وكثر : إنها لكثّة ، وقد كُثّت تكث كثّة
 وكثوثة ، ورجل كث اللحية ، ولحية كُثُمة ، إذا كُثّت وقصرت وجُعِدّت ،

«ورجل كُثِّمُ اللحية . وإذا عظمت وكثر شعرها قيل : إنه لذو عُشْنون ، وإنه
 كَهْلُوف ، فإذا كانت اللحية قليلة في الذقن ولم تكن في العارضين فذلك السَّنُوط
 والسَّنَاط ، ورجل سُنَاط : بَيْنَ السَّنَط ، فإذا لم يكن في وجهه كثير شعر ، فذلك
 الشَّطَط ورجل ثَطَّ ، ورجال ثِطَاط . والسَّيْلَة : مَقْدَمُ اللحية ، ورجل مَسِيل ، وفلان
 خفيف العِذارين ، وهما ما اتصل من شعر اللحية بالصدغ ، وهما العارضان ، وهما
 ما نبت في الخدين من الشعر على عوارض الأسنان ، قال رؤبة في حلية حرب بن قطن :
 هَلَوْفٌ كَأَنَّهَا جُوالِقُ نَكَدَاهُ لَا بَارِكُ فِيهَا الْخَالِقُ
 لَهَا فَضُولٌ وَلَهَا بَنَائِقُ إِذَا الرِّيحُ الْعَصْفُ السَّوَابِقُ
 طَيْرُهَا طَارَتْ لَهَا عَقَائِقُ إِنْ الذِّي يَحْمِلُهَا لَمَائِقُ
 وأنشد أبو علي :

وأنت امرؤ قد كثأت لك لحية كأنك منها قاعد في جُوالِقِ
 وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «من سعادة المرء خفة لحيته» . وكانت عائشة
 رضي الله عنها تقسم فتقول : « لا والذي زين الرجال باللحي » ، تقول : إنه قسم
 للملائكة .

قال الأحدب الصوفي : سمعت مطيار بن أحمد يقول : رأيت النبي
 صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقلت : يا رسول الله ، أشتهي لحية كبيرة ، فقال لي :
 « لحيتك جيدة ، وأنت محتاج إلى عقل تام » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اعتبر واعقل الرجل في ثلاث : في طول لحيته ،
 ونقش خاتمه ، وكنيته » .

أنى رجل طويل اللحية معاوية فقال له : أمّا اللحية فلا نسأل عنها ،
 فما نقش خاتمك ؟ فقال : ﴿ وَتَمَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِي لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنْ
 الْعَائِبِينَ ﴾ ^(١) ، قال : فما كنيستك ؟ فقال أبو الكوكب الدرّمي ، قال : كمل الرجل .

وكان صلى الله عليه وسلم يأخذ من لحيته من طولها وعرضها بالسواء .
 وكان عبد الله بن عمر يقيض على لحيته ، ويأخذ ما زاد منها على قبضته .
 الحسن بن المنثى : إذا رأيت رجلاً له لحية طويلة ، ولم يتخذ لحية بين لحيتين ،
 كان في عقله شيء .

وكان المأمون جالساً مع ندائه ببغداد ، مشرفاً على دجلة وهم يتذاكرون
 أخبار الناس ، فقال المأمون : ما طالت لحية إنسان قط إلا ونقص من عقله بمقدار
 ما طال من لحيته ، وما رأيت عاقلاً قط طویل اللحية . فقال له بعض جلسائه ، ولا
 يردّ على أمير المؤمنين : قد يكون في طول اللحية أيضاً عقل ؛ فبينما هم يتذاكرون في
 هذا ، إذ أقبل رجل كبير اللحية ، حسن الهيئة ، فاخر الثياب ، فقال المأمون :
 ما تقولون في هذا الرجل ؟ فقال بعضهم : رجل عاقل ، وقال آخر : يجب أن
 يكون هذا قاضياً ، فقال المأمون لبعض الخدم : على بالرجل ، فلم يلبث أن أضعده
 إليه ووقف بين يديه ، فسلم فأجاده السلام ، فأجلسه المأمون ، واستنطقه فأحسن النطق ،
 فقال المأمون : ما اسمك ؟ فقال : علوية ، قال : فما الكنية ؟ قال : أبو حمدويه ،
 فضحك المأمون ، وغمز جلساءه ثم قال : ما صنعتك ؟ قال : فقيه أجيد الشرع
 في المسائل ، فقال له : نسألك مسألة ! فقال الرجل : سل عما بدا لك ، فقال له
 المأمون : ما تقول في رجل اشترى شاة من رجل ، فلما تسلمها المشتري ، وقضى
 الثمن ، ضرطت ، ونخرج من استها بعة ففقت عين رجل ؛ على من تجب دية
 العين ؟ قال : فنسكت بإصبعه في الأرض طويلاً ، ثم قال : تجب على البائع دون
 المشتري ، فقال المأمون : وما العلة التي أوجبت الدية عليه دون المشتري ؟ قال :
 إنه لما باعها لم يشترط أن في استها منجنيقاً ، قال : فضحك المأمون حتى استلقى على
 قفاه ، وضحك كل من حضره من الندماء . وأنشد المأمون يقول :

ما أحدٌ طال له إحيه فزادت اللحية في حليته

إلا وما ينقص من عقله أكثر مما زاد في لحيته
وقال آخر :

إذا عظمت للفتي إحيية فطالت فصارت إلى سرته
فإنقصان عقل الفتي عندنا بمقدار ما زاد في لحيته
وأنشد أبو علي :

لا تفخرن بأحيية
يهوى تفرقهما الريا
قد يدرك الشرف الفتي
وقال : الحسيلة العجلة .

وأنشد أبو العباس رحمه الله :
كل امرئ ذى لحية عثولية
وما الفضل في طول السبال وعرضه
عثولية : كبيرة .

نظر يزيد بن مزيد الشيباني رحمه الله إلى رجل ذى لحية عظيمة ، وقد
تلففت على صدره ، وإذا هو خاضب ، فقال له : إنك من لحيتك في مثونة ، فقال :
أجل ، ولذلك أقول :

لعمرك لو يعطى الأمير على اللحي
إذا لشتني لحي من عصاية
لها درهم للدهن في كل جمعة
ولولا نوال من يزيد بن مزيد
لأصبحت قد أيسرت منذ زمان^(١)
لهم عنده ألف ولى مائتان
وأخر للحناء يتدركان
لصوت في حافاتهما الجلمان

(١) الأبيات في اللسان (حسل) من غير نسبة .

(٢) الكامل للمبرد ٢ : ١٢٨

فأمر له بمشرة آلاف درهم . والجلمان : المقصّر ، ويسمى الجالِم .

وقال إسحاق بن خلف يصف رجلاً بالقصر وطول اللحية :

ما سرّني أنني في طولِ داودِ وأنني علّم في التّأسِ والجودِ^(١)
 ماشيتُ داودَ فاستضحكتُ من عجبِ كأنني والدّ يمشي بموؤدِ
 ما طولُ داودَ إلّا طولُ لحيته يظلُّ داودُ فيها غيرَ موجودِ
 تكنه خصلة منها إذا نفحت ريح الشمالِ ، وجفّ الماء في العودِ
 أجدي وأغني من الخزّ الصّفيق ومن بيض القطائف يوم القرّ والشودِ

وأشدّ إفراطاً منه قول ابن الرومي :

ولحيةٍ يحملُها مائتُ مثل الشّراعين إذا شرعاً
 تقوده الرّيح بها طامعاً قوداً عنيفاً يتعب الأخذعاً
 وإن عدا والريح في وجهه لم ينبعث في مشيه إصبعا
 لو غاص في اليمّ بها غوصةً صاد بها حيتانه أجمعا

وأشدّ إفراطاً منه قول الآخر :

يا لحيّة الشّيخ الأزب تميم أهديت للأقوام عرف الثّوم
 لو أنها دون السماء غمامةً ضاقت مسالكُ دعوة المظلوم
 أو صبّها في الماء ثم سما بها قامت مقام العارضِ المركوم

ولابن سارة :

ولحيةٍ لست أدري كيف أنعتها فضول أشعارها أودت بأشعارِ
 كأنها ويمينُ الرّيح تنشرُها مذبةٌ وقعت في عود بيطانِ

(١) الكامل للبرد ٢ : ١٢٨

وقال آخر :

أبصرتُ شيخاً ذاهباً جائياً ذا لحيةٍ قد كبرتُ في اتساعِ
عرضاً وطولاً وهو من خلفها كأنه ناشرُ ثوبٍ يُباعِ
وقال آخر :

لقد كانتْ مجالسُنا فِساداً فضيقتُها بلحيتهِ ربّاحِ
مُقلّبةُ الأسافل والأعالي لها في كلّ زاويةٍ جناحِ
وقال آخر :

يأيّها الناس خذوا حذرَكُمْ قد برزتْ إحييةٌ مُهنولِ
فطولها الفرسخُ في فرسخِ وعرضها ميلٌ إلى ميلِ
لو ضمّ ما يقطر من دهنها أسرج منه ألفُ قنديلِ
ولو سها الحجام عن قصّها لحالطت ما في السراويلِ

ذكر هنا أبو محمد لحية السروجيّ أنّها كتّة، وكل صفة يصف بها السروجيّ في المقامات ، فتلك كانت صفة الحريري . وذكر ابن جهور أنّ الحريري كان قليل اللحية لا خلقة ، وإنما كان مولعاً بنفثها ، كانت يده رحمه الله لا تفارق لحيته . وهذا على كثرته قليل فيما قيل في اللحية .

قوله «رئة» ، أي خلقة بالية . أخريات : أطراف ، وهي جمع أخرى .

* * *

ثم أخذَ يُبدي ما في وطابه ، ويُنجبُ الحاضرينَ بفصلِ خطابه ،
فقالَ لمن يليه : ما الكتابُ الذي تنظرُ فيه ؟ فقال : ديوانُ
أبي عبادة ، المشهود له بالإجادة .

* * *

أتى طاحه رضى الله عنه مجلس قوم ، فجعلوا ينادونه من كلّ جانب : هاهنا

يا صاحب رسول الله ! قال: فجلس في أدنى المجلس ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّ مِنَ التَّوَّاضِعِ لِلَّهِ الرِّضَا بِالذُّونِ مِنْ شَرَفِ الْمَجْلِسِ » .

وطابه : زِقَاقَ لَبْنِهِ ، أراد أنه يظهر ما عنده . يعجب : يجعلهم يتعجبون .
بفصل خطابه : يريد بفصل كلامه وجودة بلاغته ، وقوله تعالى : ﴿ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴾ ^(١) هو قول الخطيب : « أما بعد » . يليه : يلصق به .

[البحتريّ وبعض أخباره وشعره]

أبي عبادة . قال البكريّ : هو الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد ، من بني بختر بن عتود بن عُنَيْنِ ابن سَلَامَانَ بن ثَعْلَ بن عمرو بن الغوث بن جلهمة ، وهى طيء . شاعر مقدّم لا يُعدّل به أحد ، يفضّل على حبيب ، والناس في تفضيلهما على اختلاف .

قال أبو الفرج الأصبهانيّ : كان البحتريّ شاعراً فصيحاً ، حسن المذهب نقيّ الكلام ، خُتم به الشعراء المحدثون ، وله تصرف في ضروب الشعر ، سوى الملهاء ، وإنّ بضاعته فيه نزرّة .

قال البحتريّ : وكان أول أمرى أنّي سرت إلى أبي عامر بحمص ، فمرضت عليه شعري - والشعراء يعرضون عليه أشعارهم - فترك من حضر وأقبل عليّ ، فقال لي حين تفرّقوا : أنت أشعر من أنشدني ، فكيف حالك ؟ فشكوت خلّة ، فكتب إلى أهل معرّة النعمان ، وشهد لي بالحدق في الشعر ، وشفع لي إليهم ، وقال : امتدحهم . فسرت إليهم ، فأكرموني بكتابه ، ووظّفوا لي أربعة آلاف درهم ، فكانت أول مالٍ أصبته ^(٢) .

وحدث أبو الفرج ، قال : حدثني أبو الغوث البحتريّ ، عن أبيه ، قال : أول

(١) سورة ص ٢٠ .

(٢) الأغاني ١٨ : ١٦٧ ، ١٦٩ .

أمرى أنى دخلت على أبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى ، فأنشدته قصيدة أولها :

* أأفاق صبٍّ من هوى فأفياً *

فسرَّ أبو يوسف بها ، وقال : أحسنت والله يافتى وأجدت - وفى مجلسه رجل رفيع نبيل قريب المجلس منه ، فوق كل من حضر ، تكاد تمس ركبته ركبته ، فأقبل على ، ثم قال : أما تستعجى منى ! هذا شعرى تنتحله وتنشده بحضرتى ! فقال له أبو سعيد : أحقاً ما تقول ؟ قال : نعم ، وإنما علقه منى وسبق به إليك ، وزاد فيه . ثم اندفع فأنشد أ كثر القصيدة ، حتى شككتنى - علم الله - فى نفسى ، وبقيت متحيراً ، فقال لى أبو سعيد : يافتى ، قد كان لك فى قرابتك منى ما يغنيك عن هذا ! فجعلت أحلف بكل محرّجة من الأيمان أن الشعر لى ، ماسمعه منه ، ولا انتحلتته . فلم ينفع ذلك شيئاً ، وأطرق أبو سعيد ، وقطع بى حتى تمنيت أن يساخ بى فى الأرض ، فقامت منكسف^(١) البال ، أجزّ رجلى ، فما بلغت باب الدار حتى ردّنى الغلام ، فأقبل على الرجل وقال : الشعر لك يابنى ، والله ماقلته قط ، ولا سمعته إلا منك ؛ ولكننى كنت ظننت أنك تهاونت بموضعى ، فأقدمت على الإنشاد بحضرتى ، تريد مضاهاتى ، حتى عرفتنى الأمير نسبك ، ولوددت ألا تلد طائفة إلا مثلك ، ودعانى وضمّنى إليه ، وعانقنى ، وأبو سعيد يضحك ، فلزمته بعد ذلك وأخذت عنه ، واحتذيت فنه^(٢) .

وعن أبى الفوت عن أبيه قال : ، قال لى أبو تمام : بلغنى أن بنى حميد أعطوك مالا جليلاً ، فبم مدحتهم ؟ فأنشدنى شيئاً منه ، فأنشدته ، فقال لى : كم أعطوك ؟ قلت : كذا ، فقال لى : ظلموك ، والله ماوفوك حقك ، فلم استكثرت ما أعطوك ! والله لبيت منها خير مما أخذت . ثم أطرق قليلاً وقال : لعمرى لقد استكثرت ذلك لك مات الكرام ، وذهب الناس ، وغاضت المكارم ، وكسدت

(١) الأغاني : « منكسر » .

(٢) الأغاني ١٨ : ١٦٩

أسواق الأدب ، أنت الله يابني أمير الشعراء غداً بعدى ، فقامت فقبت رأسه ويديه
ورجليه ، وقلت : والله لهذا القول أسر لي مما وصل إلى منهم .

قال البحتري : أنشدت أبا تمام يوماً شيئاً من شعري ، فأنشدني
بيت أوس :

وإن مُقَرَّمٌ مَنَّا ذَرَّاحِدُنَابِهِ تَمَخَّطَ فِينَا نَابُ آخِرِ مُقَرَّمٍ^(١)

ثم قال : يابني ، نَعَيْتَ إِلَى نَفْسِي : فقلت : أعيذك بالله من هذا ! فقال لي :
إن عمري ليس بطول ، وقد نشأ مثلك لطيفاً ، أما علمت أن خالد بن صفوان
المنقري رأى شبيب بن شبة ، وهو من رهطه يتكلم ، فقال . يابني ، نعى نفسي
إلى إحسانك في كلامك ؛ لأننا أهل بيت ، مانشأ فينا قط خطيب إلا مات من قبله .
قال : فمات أبو تمام بعد سنة من قوله هذا ، ومات البحتري سنة ثلاث
وثمانين ومائتين .

المبرد : ذكرت للمتوكل المنازعة التي جرت بيني وبين أبي الفتح في
تأويلات ،^(٢) فبعث إلى عامله بالبصرة أن يحملني إليه مكرهاً ، فوردت سر من
رأى ، فأدخلت على المتوكل ، وفي المجلس البحتري وأبو العنبر الصيمري ،
فأنشده البحتري قصيدة أولها :

عن أيّ ثغرٍ تبسمُ وبأيّ طرفٍ تَحْتَكِمُ^(٣)
حَسَنٌ يَصْنُ بِحُسْنِهِ وَالْحَسَنُ أَشْبَهُ بِالكَرَمِ

حتى بلغ :

قل للخليفة جعفر المتوكل بن المعتصم

(١) وذرا حد نابه : انكسر ؛ كذا فسره صاحب اللسان ، واستشهد بالبيت .

(٢) ج : « تأويلاته » ومى ساقطة من السعودي ولابناه الرواة .

(٣) ديوانه ١٩٩٨ .

المرتضى ابن المجتبى والمنعم ابن المنتقم
أما الرعية فهي من أمنات عدلك في حرم
يابانى المجد الذى قد كان قووض فانهدم
اسلم لدين محمد فإذا سالت فقد سلم
نلنا الهدى بعد العمى بل والغنى بعد العدم^(١)

ثم مشى القهقرى للانصراف ، فوثب أبو العنابس ، وقال : يا سيدي «
تأمر برده ! فقد والله عارضته ، فأخذ ينشد في ذلك :

في أى سلعٍ تنتظم وبأى كفٍ تلتئم
أدخلت رأس البحتريّ أبى عبادة في الرّحم

ووصله بما يشبهه من الشعر . فضحك المتوكل حتى استلقى ، وقال : يُدفع
إلى أبى العنابس عشرة آلاف درهم ، فقال أبو الفتح : يا أمير المؤمنين ، والبحتريّ
الذى هُجِيَ وأُسمع المكروه ينصرف خائباً ؟ قال : ويُدفع إلى البحتريّ
عشرة آلاف درهم ، قال : يا سيدي ، وهذا البصريّ الذى أشخصناه من بلده ،
ألا يشركهم فيما حصلوه ؟ قال : ويُدفع له عشرة آلاف : قال . وانصرفنا كلنا
في شفاعة الهدى ، ولم ينفع البحتريّ جدّه وحذقه .^(٢)

وأما أبو الفرج ، فقال : حدثني جحظة عن أبى العنابس الصيمريّ ، قال :
كنت عند المتوكل والبحتريّ ينشده :

* عن أى ثغرٍ تبتسم *

وكان البحتريّ من أبغض الناس إنشاداً ، يتشادق ويتزاور في مشيه مرة
جانباً ، ومرة القهقرى ، ويهزّ رأسه مرة ومنكبّيه أخرى ، ويشير بكفيه ، ويقف
عند كل بيت ، ويقول : أحسنتُ والله ! ثم يقبل على المستمعين ، ويقول لهم :
مالكُم لا تقولون : أحسنت ! هذا والله ما لا يحسن أحدٌ أن يقول مثله ، فضجر

(١) الديوان : « بك والغنى » .

(٢) الخبر برواية البرد في مروج الذهب ٢ : ٣٧٢ ، ٣٧٣ وإنباء الرواة ٣ : ٤٤٤ .

المثوكل من ذلك ، وأقبل على فقال : أما تسمع يا صيمري ما يقول ؟ فقلت :
يلي ياسيدي ، فمر فيه بما أحببت ، فقال : بحياتي اهبطه على هذا الروي ،
فقلت على البديهة :

أدخلت رأسك في الرَّحِمِ	وعلمت أنك تنهزم ^(١)
يا بحتري حذارٍ ونح	ك من قضاقة ضُعم
فلقد أسلت بواديي	ك من الهجاسيل العرم
فبأي عرض تعتصم	وبهتك جف القلم
والله حلفه صادق	وبقبر أحمد والحرم
ووحق جعفر الإمام	م بن الإمام المعتصم
لأصيرنك شهرة	بين المسيل إلى العلم
يا بن الثقيلة والتقي	ل على قلوب ذوي النعم
وعلى الصغير مع الكب	ير من الموالى والحشم

وبعد هذا ما يقبح ذكره ؛ فغضب البحتري ، وخرج يعدو ، وجعلت
أصبح به :

أدخلت رأسك في الرَّحِمِ وعلمت أنك تنهزم
والمثوكل يضحك ، ويصفق حتى غاب عنه .^(١)

ومدح البحتري بعض الولاة ، فتوانى في حقه ، فأنشده :

إن الأمير أطل الله مدته يُعطى من العرف ما لم يُعطه أحد^(٢)
ينسى الذي كان من معرفه أبداً إلى العباد ، ولا ينسى الذي يعد
فأعطاه خمسين ألف درهم ، وقال : البيتان خير من القصيدة .

وقال الهذلي : قيل للبحتري : أيما أشعر ؟ أنت أو أبو تمام ؟ قال : جيده خير
من جيدي ، وردئي خير من رديته . وصدق ، أبو تمام لا يتعاقى به أحسن في

(١) الأغاني ١٨ : ١٨٣ ، وأخبار البحتري للصولي ٨٧

(٢) ملاحق ديوانه ٢٥٤٥ .

بقي جيده ، وربما اختل لفظه لامعناه، والبحترى لا يخل لفظه .
وقيل له : قد عثرت باحتذائك أبا تمام في شعرك! فقال: أيعاب على أن أتبع
أبا تمام ، وما علمت بيتاً قط حتى أخطر شعره ببالي !
وذكروا معنى تعاوره البحرى وأبو تمام ، فقال المبرّد للبحترى: أنت في هذا
أشعر من أبي تمام ، فقال : لا والله ، ذلك الرئيس الأستاذ ، والله ما أكلت
الخبز إلا به .

وقال عبد الله بن الحسن : سألت المبرّد عن أبي تمام والبحترى أيهما أشعر ؟
فقال : لأبي تمام استخراجات لطيفة ، ومعانٍ ظريفة ، وجيّد أجود من شعر
البحترى ومن تقدّمه من المحدثين ، وشعر البحرى أحسن استواء من شعره ، لأنّ
البحترى يقول القصيدة كلّها ، فتكون سليمة من طعن طاعن ، وأبو تمام يقول
البيت النادر والبارد ؛ وهذا المعنى كان أعجب إلى الأصمعيّ ، وما أشبهه إلا
بغائص يُخرج الدرّة المخشّبة - وهى زجاجة توضع مكان الدرّة - ثم قال : لأبي
تمام والبحترى من المحاسن ما لو قيس بأكثر شعر الأوائل ما وجدوا فيه مثله ،
ثم قال : والبحترى ختم الشعر، وله بيتان لو وضعا إلى شعر زهير لجازا فيه؛ وهما :

فأسفهُ السّفِيه وإن تعدّى بأنجمَ فيك من حِلْمِ الحليم^(١)
متى أحفظتَ ذا كرمٍ تخطّى إليك ببعض أفعال اللّثيم

وذكر المبرّد في هذا المجلس شعراً له ، وقدمه على نظرائه :

وإذا ذكرتُ محاسنَ ابني صاعدي أدت إليك مخائِلَ ابني مُخلدي^(٢)
كالفرّقدَيْن إذا تأملَ ناظرٌ لم يعلُ موضعُ فرقدٍ عن فرقدٍ

وقوله :

مَنْ شَاكَرْتُ عَنِّي الْخَلِيفَةَ لِلَّذِي أولاه من فضلي ومن إحسانِ^(٣)

(٢) ديوانه ٤١٠

(١) ديوانه ٢٠٧٩

(٣) ديوانه ٢٢٥٥ .

حَتَّى لَقَدْ أَفْضَلْتُ مِنْ إِفْضَالِهِ وَرَأَيْتُ نَهْجَ الْجُودِ حَبْتُ رَأْيِي
وبعدهما :

أَغْنَتْ يَدَاهُ يَدِي وَشَرَّدَ جُودُهُ بُخْلِي ، فَأَقْرَنِي كَمَا أَغْنَانِي
وله أيضاً في الفتح بن خاقان ، وقد نزل إلى الأسد فقتله :

حَمَلْتُ عَلَيْهِ السَّيْفَ عَطْفَكَ مَا انْتَنَى ، وَلَا يَدُكَ ارْتَدَّتْ وَلَا حَدُّهُ نَبَأٌ (١)
فَأَحْجَمَ لَنَا لَمْ يَجِدْ فِيكَ مَطْمَعًا وَصَمَّ لَنَا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَبًا
وله فيه :

وَمَا مَنَعَ الْفَتْحُ بَنَ خَاقَانَ نَيْلَهُ وَلَكِنَّمَا الْأَيَّامُ تُعْطَى وَتَحْرِمُ (٢)
سَحَابٌ خَطَانِي جَوْدُهُ وَهُوَ مَسْبِلٌ وَبَحْرٌ عَدَانِي فَيْضُهُ وَهُوَ مَنَعَمٌ
وَبَدْرٌ أَضَاءَ الْأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا وَمَوْضِعُ رَجُلِي مِنْهُ أَسْوَدُ مُظْلَمٌ
أَأَشْكُو نَدَاهُ بَعْدَ أَنْ وَسَّعَ الْوَرَى وَمَنْ ذَا يَذِمُّ الْفَيْثَ إِلَّا مَذَمَّمٌ !

وله أيضاً في انتقاض صلح بين عشيرته :

إِذَا مَا الْجَرْحُ رَمَّ عَلَى فُسَادٍ تَبَيَّنَ فِيهِ تَفْرِيطُ الطَّيِّبِ (٣)
وَلَسَّهْمُ السَّدِيدِ أَشَدَّ حُبًّا إِلَى الرَّامِي مِنَ السَّهْمِ الْمُصِيبِ
ومن جيد شعره :

وَلَمَّا التَّقِينَا وَاللَّوَى مَوْعِدٌ لَنَا تَبَيَّنَ رَأْيِي الدَّرَّ حَسَنًا وَلَا قِطْعَةً (٤)
فَمَنْ لَوْلُو تَجْلُوهُ عِنْدَ ابْتِسَامِهَا وَمَنْ لَوْلُو عِنْدَ الْحَدِيثِ تَسَاوِطُهُ
والبحتري مكثر جداً ، وديوان شعره نسخ مختلفاً بالزيادة والنقص ؛ لأنه
شعره لا ينضبط لكثيرته .

(٢) ديوانه ١٩٨٠

(١) ديوانه ٢٠٠ ، ٢٠١ .

(٣) ديوانه ١٩٠ .

(٤) ديوانه ١٢٣٠ .

[وصية أبي تمام للبحترى]

قال البحتري: كنت أروم الشعر في حدائقى، وكنت أرجع فيه إلى الطبع، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضائه، حتى قصدت أبا تمام، وانتهجت فيه إليه، واتسكنت في تعريفه عليه، فكان أول ما قال لى: يا أبا عبادة، تحيّر الأوقات وأنت قليل الهموم، صفر من الغموم. واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصدها الإنسان لتأليف الشيء، أو حفظه في وقت السّحر، وذلك أن النفس تكون قد أخذت بحظها في الراحة، وقسطها من النوم، فإن أردت التشبيب، فاجعل اللفظ رقيقاً، والمعنى رشيقاً، وأكثر فيه بيان الصّباية، وتوجّع الكتابة، وفاق الأشواق، ولوعة الفراق؛ فإذا أخذت في مدح سيّد [ذى أياذ^(١)]، فأشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وأبن معالنه، وشرف مقامه، ونضد المعانى، واحذر المحتمل^(٢) منها. وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ المهجينة^(٣)، وكن كأنك خياط تقطع الثياب على مقادير الأجسام، وإذا عارضك الضّجر فأرح نفسك، ولا تعمل شعراً إلا وأنت فارغ القلب. واجعل شهوتك إلى قول الشعر الذّريعة إلى حسن نظامه، فإن الشهوة تجمع النفس^(٤). وجلة الحال أن تعتبر شعرك بما سبق من شعر الماضين، فما استحسن العلماء فأقصده، وما تركوه فاجتنبه؛ ترشد إن شاء الله تعالى.

قال: فأعملت نفسى فيما قال، فوقفت على السياسة^(٥).

* * *

فقال: هل عثرت له فيها لمخّته، على بديع امتّملخّته؟ قال: نعم، قوله:

(١) من زهر الآداب

(٢) زهو الآداب: «الرديئة» . (٣) زهر الآداب: «نم المين» .

(٤) زهر الآداب ١١٠، ١١١، العدد ٢: ١١٤ .

(٥) (٧ - شرح مقامات الحريري ١)

كَأَنَّمَا يَبْسِمُ عَنْ لَوْلُو مُنْضِدٍ أَوْ بَرْدٍ أَوْ أَقَاحٍ
فَإِنَّهُ أَبْدَعَ فِي التَّشْبِيهِ، الْمُوَدَّعِ فِيهِ .

* * *

قوله : « هل عثرت » ، معناه اطلعت . لحته : نظرته . بديع : معنى لم يسبق
غيره إليه من تشبيه أو تجنيس وشبههما بما ذكر من صنع البديع في [المقامة]
الثالثة والعشرين . والبِدْع : إحداث الشيء قبل أن يكون أولاً ، والبِدْعَة : ما ابتدع
من الدين ، والبديع : الحدث العجيب ، وأبدع الرجل : أتى ببديع من قول أو فعل ،
وأبدع الله الأشياء وابتدعها : خلقها بلامثال . استملحته : وجدته مليحاً . ييسم :
يبدي بعض أسنانه عند الضحك . لؤلؤ : جوهر شبه به الأسنان . وهذا البيت
من شعره ، وقبله :

بَاتَ نَدِيمًا لِي حَتَّى الصَّبَاحِ أَغْيَدُ مَجْدُولُ مَكَانِ الْوِشَاحِ^(١)
فَبَتَ أَفْدِيهِ وَلَا أُرْعَوِي لَمْ يَنْهَى نَاهٍ عَنْهُ أَوْ لَمْ يَخِي لَاحِ
أَمْزُجُ كُلِّ بَحْتِي رِبْقِهِ وَإِنَّمَا أَمْزُجُ رَاحًا بِرَاحِ
كَأَنَّمَا يَبْسِمُ الْبَيْت .

وبعده :

سَحَرُ الْعُيُونِ النَّجْلِ مُسْتَهْلِكٌ لُبِّي ، وَتَوْرِيدِ الْخُدُودِ الْمَلَاخِ
قُلْ لِأَبِي نُوحٍ شَقِيقِ الْعَلَا وَمَعْدِنِ الْجُودِ ، وَتَرْبِ السَّمَاحِ^(٢)
أَعُوذُ بِالْفَضْلِ الْجَمِيلِ الَّذِي عَوْدَتِي ، وَالنَّائِلِ الْمُسْتَمَاحِ
مَنْ أَنْ تَصُدَّ الطَّرْفَ عَنِّي وَأَنْ أَخِيبَ فِي جِدْوَاكَ بَعْدَ النَّجَاحِ
أَشْمَتَ حُسَّادِي وَأَخْرَجْتَنِي عَنْ سَيْبِكَ الْمُغْدَى عَلَى الْمَرَاخِ
فَهَلْ لَأَنْسِي بَانَ مِنْ عَوْدَةٍ أَمْ هَلْ لِحَالٍ فَسَدَتْ مِنْ صَلَاحِ

(١) ديوانه ٤٣٥ .

(٢) هو أبو نوح عيسى بن موسى المدوح .

لستُ على سخطك جَدَّ التوى وَلَا عَلَى هجرِكَ شَاكِي السَّلَاحِ
قوله : « المودع » : المضمّن ، وأودع الشيء : صيّره وديعةً .

* * *

فَقَالَ لَهُ : يَا لَلْعَجَبِ ، وَلِضِيَمَةِ الْأَدَبِ ! لَقَدْ اسْتَسَمَنْتَ ذَا وَرَمَ ،
وَنَفَخْتَ فِي غَيْرِ ضَرَمٍ ! أَيْنَ أَنْتَ مِنَ الْبَيْتِ النَّذِرِ ، الْجَامِعِ
مُشَبَّهَاتِ الثَّغْرِ ! وَأَنْشَدَ :

نَفْسِي الْفِدَاءُ لِثَغْرِ رَقٍ مَبْسُومُهُ
وَزَانَهُ شَنْبٌ نَاهِيكَ مِنْ شَنْبِ
يَفْتَرُّ عَنْ لَوْلُوٍ رَطْبٍ وَعَنْ بَرَدٍ
وَعَنْ أَقَاحٍ وَعَنْ طَلْعٍ وَعَنْ حَبَبٍ

* * *

استسمنت : حسبته سميناً وطلبت السمانه من هزيل . وَرَمَ : دُمْل ، والمعنى
أنه يرميه بسوء الفهم ، وقد بين هذا أبو الطيّب المتنبي فقال :

أَعِيدُهَا نَظْرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسِبَ الشَّخْمَ فَيَمِنْ شَحْمُهُ وَرَمٌ^(١)
وَمَا انْتَفَاعُ أَخِي الدُّنْيَا بِنَظَرِهِ إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلُمُ

ونفخت في غير ضرم ، مثل لطلب الشيء في غير موضعه ، ولفظ المثل^(٢) :
« نفخت » أو « تنفخ » ، والضرم : النار . النذر ، والنادر : الغريب . الثغر :
الأسنان ، مبسمه : موضع ابتسامه ، يعني الفم .

(١) ديوانه ٣ : ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

(٢) لفظ المثل في جبهة الأمثال ٢ : ٣٠٨ : « نفخت لوتنفخ في فم » ، والفهم :
الجر الطافي .

الشَّنبُ : الماء القليل الجارى على الأسنان . الجرمى : سمعت الأصمعى يقول :
الشَّنبُ بَرْدُ الأسنان والفم ، قلت : أصحابنا يقولون : حدّتها حين تطلّع ، فيراد
بذلك حدّاتها وطراءتها ، لأنها إذا أتت عليها السنون تغيّرت ، فقال : ما هو إلا
بَرْدُها . ابن سيده : قال الأصمعى : سألت رؤبة عن الشَّنب ما هو ؟ فأخذ حبة
رمان فأومأ إلى بصيصها .

ناهيك : كافيك ، وتقول : ناهيك بفلان ! أى قد انتهى الأمر فيه إلى الغاية
ونَهِيَ الرَّجُلَ من اللحم وأنهى ، إذا شبع منه واكتفى ، والنَّهْيُ : الغدير
لأنه ينتهى إليه ماء الوادى . يفتَرّ : يكشف ويبيس . رطب ، أى طرى كما
أخرج من أصدافه ، وفى اللؤلؤ إذا ذاك رطوبة وسطوع بياض ، فإذا أصابه الهوى
ودام عليه صَلْبٌ ، وإذا تداولته الأيدي باللمس وقدم تغيّر بياضه . الطّامع :
أول حمل النخلة ، وهو الفرخ فإذا انشق فهو الضحك ، وبه تشبّه الأسنان
فى بياضه ، ثم الإغريض إذا افترق حبه ، وإنما شبه الأسنان بالطلّع ، وهو الفرخ ،
لأنه إذا شقّ وجد ما فيه من حمل النخلة فى غاية البياض ، ويقال له : الوليع ،
قال الشاعر :

وتبسم عن لؤلؤ كالوليم تشقق عنه الرقاة الجفوفاً^(١)

الجفوف جمع جُفَفَ وهو قشر الفرخ ، ويقال له القيقاء والببلّة ، وهو طيب
الريح ، والرقاة : الراقون إلى أعلى النخل .

والحبّ : تنضد الأسنان ، وقيل : طرائق تظهر فى الحمر عند مزجها بالماء ،
فأما الفقايع التى تعلو الحمر عند المزج فهى الحباب ، بزيادة الألف ، قال المتلمس^(١) :
عُقَارُ أَعْتَقَتْ فى الدنّ حَتَّى كَانَّ حَبَابُهَا حَدَقُ الْجَرَادِ^(٢)

(١) اللسان - ولع ، جفف ، من غير نسيب .

(٢) شعراء النصرانية ٣٤٢ . والعقار : الحمر ؛ سميت عقارا لأنها هائرت الآن .
والحمر المبيقة : القديمة .

وقال آخر :

حَمْرَاءُ قَانِيَةٌ إِذَا مَا شَعَشَعَتْ يَنْزُو إِلَى وَجْهِ النَّدِيمِ حَبَابُهَا

فَاسْتَجَادَهُ مَنْ حَضَرَ وَاسْتَحْلَاهُ ، وَاسْتَعَادَهُ مِنْهُ وَاسْتَمْلَاهُ ،
وَسُئِلَ لِمَنْ هَذَا الْبَيْتُ ، وَهَلْ حَتَّى قَائِلُهُ أَوْ مِثْلُهُ ؟ فَقَالَ : أَيْمُ اللَّهِ ،
لَلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ ، وَلَلصِّدْقِ حَقِيقٌ بَأَن يُسْتَمَعَ ؛ إِنَّهُ يَأْقَوْمُ ،
لَنَجِيَّتِكُمْ مُنْذُ الْيَوْمِ . قَالَ : فَكَأَنَّ الْجُمَاعَةَ ارْتَابَتْ بِرِزْوَانِهِ ،
وَأَبَتْ تَصْدِيقَ دَعْوَتِهِ . فَتَوَجَّسَ مَا هَجَسَ فِي أَفْكَارِهِمْ ،
وَفَطَنَ لِمَا بَطَنَ مِنْ اسْتِنكَارِهِمْ ، وَحَازَرَ أَنْ يَفْطُرَ إِلَيْهِ ذِمٌّ ، أَوْ
يَلْحَقَهُ وَهْمٌ ، فَقَرَأَ ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ . ثُمَّ قَالَ : يَا رُؤَاةَ
الْقَرِيضِ ، وَأَسَاةَ الْقَوْلِ الْمَرِيضِ ، إِنَّ خُلَاصَةَ الْجَوْهَرِ نَظْهُرٌ بِالسَّبْكِ ،
وَيَدُ الْحَقِّ تَصْدَعُ رِذَاءَ الشَّكِّ ، وَقَدْ قِيلَ فِيمَا غَبَرَ مِنَ الزَّمَانِ : عِنْدَ
الْامْتِحَانِ يُبَكِّرُ الْمُرءُ أَوْ يُهَانُ ، وَهَذَا أَنَا قَدْ عَرَضْتُ خَبِيَّتِي ^(١)
لِلْاخْتِبَارِ ، وَعَرَضْتُ حَقِيقَتِي عَلَى الْاِعْتِبَارِ .

قوله : «استعاده» ، أى قال : أعده على . استملاه : طلب أن يكتبه . أيم الله :
يمين يحلف به . نجيتكم : محذتكم - بمعنى نثسه . ارتابت : شككت والرتب : الشك .
برزوته : بنسبته ، أى بنسبته إلى نفسه . دعوته : ادعاؤه أنه من قوله . والدعوة
بكسر الدال في النسب ، وفتحها في الطعام . فتوجس : أى أحسّ وسمع .
هجس : وقع وخطر . فطن : شعر . فطن : خفي ، يريد أنه فهم منهم أنهم لم

(١) من اللغات : • جيني • .

يصدّقوه في أن الشعر له ، وأنكروا أن يقول مثله . حاذر : خاف . - يفرط : يسبق . القريض : الشعر . أساة : أطباء ، واحدهم آسي . القول المريض : الضعيف من قبل راويه . خلاصة : ما خلص منه . وجواهر الأرض ، مثل الحديد والنحاس وغيرهما ، فإذا عرض الجوهر على النار ، فما كان منه خالصاً زاد صفاءً وجودةً ، وما لم يكن خالصاً فضحته النار وأظهرت عيبه . السبك : الاختبار بالنار . تصدع : تشق . غير : مضى هنا ، ويستعمل كثيراً بمعنى « بقي » وهو من الأضداد ؛ يقال : غير الشيء غبوراً إذا بقي ، قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا أَمْرًا تَهُ كَانَتْ مِنْ الْغَائِبِينَ ﴾ ^(١) ، أي الباقين . الامتحان : الاختبار والبحث ، وهذا المثل من أمثال الفرس ، ولهذا أبعد مدته حيث قال : غير من الزمان . خبتي : مكتومي ، وما خباته من علمي ، وأصل « خبتي » الهمز ، فقلبت همزته ياء وأدغمت فيها الياء ، كما قلبت في « خاسية » . وتقول : عرضت الشيء على البيع وعرضته للبيع ، إن أتيت بعلی خففت الرأء ، وإن أتيت باللام شددتها . والحقيية : وعاء يجعله الرأكب خلفه ، والاعتبار والاختبار واحد .

* * *

فَابْتَدَرَ أَحَدُ مَنْ حَضَرَ ، وَقَالَ : أَعْرِفُ نَيْتًا لَمْ يُنْسَجْ عَلَى مِنْوَالِهِ ،
وَلَا مَمَحَتْ قَرِيحَةٌ بِمِثَالِهِ ، فَإِنْ آثَرْتَ اخْتِلَابَ الْقُلُوبِ ، فَاَنْظِمِ
عَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ :

فَأَمْطَرَتْ لُؤْلُؤًا مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَّتْ

وَزَدَا وَعَصَّتْ عَلَى الْعُنَابِ بِالْبَرْدِ

* * *

قوله : «ابتدر»، أى سبق بالكلام وبادر به . والمُنوال : خشبة الحائك ؛ يريد أن البيت رفيع الصنعة فى الشعر لم يُصنع بيت مثله ، لأن الثوب أنواع ، وصنعة الشعر تشبه نسيج الثوب . سمحت : جادت . قريحة : ذهن . آثرت : فضلت . اختلاب القلوب : إمامتها إليك بتصديقك وانخداعك بما تبديه ، وهو من الخلب وهو من غشاء القلب . وعن أبى عبيدة وغيره قال ثعلب : الخلب : الذى بين الزيادة والكبد^(١) ، يقال : خلبنى حب فلان ، أى وصل حبه إلى خلبي ، وفلان خلّب نساء ، أى تخلّب النساء ، وخالّب : يخلّب الناس ، أى يذهب بقلوبهم ، وخبّل جمعه خلبة ، وكلّه من الخلب ، قال أعرابي :

مَنْ كَانَ لَمْ يَذْرِمَا حُبٌ جُمِعَتْ لَهُ أَوْ كَانَ فِي غَفْلَةٍ أَوْ كَانَ لَمْ يَجِدْ
فَالْحُبُّ أَوَّلُهُ رَوْعٌ وَآخِرُهُ مِثْلُ الْحَرَارَةِ بَيْنَ الْخَلْبِ وَالْكَبِدِ
[انظم : قل شعرا منظوما . والأسلوب : الطريقة]^(٢) .

لولؤأ : درأ . النرجس : نوار أصفر فى نوره انكسار وفتور لا يكاد يرى ، له ورقة قائمة ، تشبه به العينان إذا كان فى نظرها فتور .

[ذكر النرجس وما قاله الشعراء فى تشبيه العيون به]

وقد تبادى إنكار أدباء وقتنا تشبيه العين بهذا النوار الأصفر المعروف عندنا بالنرجس ، فأكثرهم ينكر أن يكون يقع به تشبيه لأجل صفرته ، وإن ذكرته لأحد قال : وأى صفرة فى العين إلا أن يكون بصاحبها علة اليرقان ! ويستهمجن موضع التشبيه جداً .

وقد سألت عنه بعض أشياخى فى صغرى ، وأنا أقرأ عليه كتاب «الجل» وكان أديباً شاعراً ، فأنكر وقوع التشبيه بهذا النور الأصفر ، وقال لى : النرجس عندهم

(١) من ج ٢ .

(٢) فى اللسان : الخلب ، بالكسر : حجاب الكبد ، وقيل : هو حجاب بين القلب والكبد

بالمشرق نور يشبه نوار الفول . وأكثر من لقيته يستبعد التشبيه بهذا الأصفر ، لأجل لونه ، وذلك لقلة تحصيلهم معرفة كلام العرب وتشبيهاتها ، والعرب توقع تشبيهاتها على الصورة دون المعنى ، وعلى المعنى دون الصورة ، وعليهما جميعاً ؛ وهو أكل وجوه التشبيه . وانظر أقسام التشبيه في الثالثة والعشرين تقع على علم هذا وغيره بإذن الله تعالى .

وتشبيه العيون بالسيوف والسهام ، إنما المراد به المضاء والقطع ، ولا يلتفت في ذلك إلى اللون ، وكذلك تشبيه العيون بالنرجس الأصفر إذا قصد ما فيه من الفتور واقع متمكن في التشبيه ، ألا ترى ابن المعتز التفت إلى الفتور وحده حين قال :

وَسَنَانُ قَدْ خَدَعَ الْمُعَاسُ جَفُونَهُ خُكَيَّ بِمَقْلَتِهِ ذِبُولَ النَّرْجِسِ ^(١)
والنرجس الذي يشبه به أهل المشرق العيون ، هو نبات له قضبان خضر في رءوسها أقماع ، يخرج منها نور ينبسط منه على الأقماع ورق أبيض ، في وسط البياض دائرة قائمة من ورق صغير . هذه الصفة التي تقع في أشعارهم إذا ذكروا النرجس ، وبذلك وصفه كسرى أنوشروان ، فقال : النرجس ياقوت أصفر ، بين دُرٍّ أبيض على زمرّد أخضر ، أخذه بعضهم نقال فيه :

وياقوتة صفراء في رأس دُرَّةٍ مركبة في قائم من زبرجد
كأن بهي الدر عقد نظامها فريد أنيق قد أطاف بعسجد
وأشده أبو عون الكاتب في كتاب التشبيه له ، فقال : من جيد ما قيل في النرجس ما أشده المبرّد رحمه الله تعالى :

(١) ديوانه ١ : ٦٨ .

تَرْجِسَةً لَاحِظِي طَرَفُهَا تَشْبِيهُ دِينَارًا عَلَى دِرْهِمٍ^(١)
وقال عبيد الله بن عبد الله فيه :

تَرْنُو بِأَبْصَارِهَا إِلَيْكَ كَمَا تَرْنُو إِذَا خَافَتِ الْيَعَافِيرُ^(٢)
مثل اليواقيت قد نَظْمَنَ عَلَى زَمَرْدَ فَوْقَهُنَّ كَافُورُ
كَأَنَّهَا وَالْعَيُونُ تَرْمُقُهَا دَرَاهِمُ وَسَطَهَا دَنَائِيرُ
وقال أبو نواس :

لَدَى نَرْجِسٍ غَضُّ الْقَطَافِ كَأَنَّهُ إِذَا مَا مَنَحْنَاهُ الْعَيُونَ عَيُونُ^(٣)
مُخَالَفَةً فِي شَكْلِهِنَّ وَصَفْرَةٌ مَكَانَ سَوَادٍ وَالْبَيَاضُ جُفُونُ
أَجَادَ التَّشْبِيهَ ، وَكَشَفَ بِذِكْرِ الْمُخَالَفَةِ قَنَاعَ الشَّبْهَةِ ، وَبَيَّنَ مَوَاقِعَ التَّشْبِيهِ
غَايَةَ الْبَيَانِ .

وقال أبو عبد الملك بن فرج في كتاب الحاسِّ والحسوس ، له : وَأَحْسَنُ بَيْتٍ
أُتِّشَدْنِيهِ أَبُو جَعْفَرُ الْبَغْدَادِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ :

مَدَاهِنُ دَرٍّ بَيْنَ أَوْرَاقِ فِضَّةٍ عَلَى تَيْسٍ شَبْرٍ أَخْضَرٍ كَالزَّبَرَجَدِ
وقال أبو الفرج البغدادى :

وَنَرْجِسٍ لَمْ يَعُدْ مُبَيِّضُهُ إِلَّا كَكَّاسٍ وَلَا أَصْفَرُهُ الرَّاحَا^(٤)
تَخَالُ أَحْقَاقُ لَجَيْنٍ حَوَتْ مِنْ أَصْفَرِ الْعَسْجَدِ أَقْدَا حَا
كَأَنَّمَا يُهْدَى الْحَيِّ بِهَ لَطْفًا إِلَى الْأَرْوَاحِ أَرْوَاحَا

(١) كتاب التشبيه ١٩١ ، نهاية الأرب ١١ : ٢٣٥ .

(٢) كتاب التشبيه ١٩١ ، نهاية الأرب ١١ : ٢٣٤ ، واليعافير : جم يعفور ، وهو الظبي بلون التراب

(٣) نهاية الأرب ١١ : ٢٣

(٤) بئيمة الدهر ١ : ٢٢٨

يفنى عن الورد إذا مارنا ويخلف الورد إذا فاحا
وقال ابن المعتز :

كأن عيون النرجس الغضّ بيننا مداهنُ درّ يذهن عقيق^(١)
إذا بلّهن القطر خلت دموعه بكاء عيون كحلّهن خلوق
وقال النّاشئ :

أخصّ الصفات التي تناولها من كتب
عيون بلا أوجبه لها حدق من ذهب
وقال ابن الرومي :

يانرجس الدّنيا ترى أبداً للإفتراج ودائم النّخب
ذهب العيون إذا مثّلن لنا درّ الجفون زبرجد القصب
وهذه الصفة التي أثبتتها أهل المشرق للنرجس، هي التي يصف بها أهل المغرب
البهار، قال ابن أبي عامر في جارية اسمها بهار :

حدق الحسان تقرّ لي وتغار وتظلّ في صفة البهار تحار
طلعت على قضبي عيون كأمي مثل العيون تحفها الأشفار
وأخصّ شيء بي إذا شبهتني درّ تمنطق سلكه دينار^(٢)
أهدى لنا قصب الزبرجد ساقه وحباه أنفاس عطره العطار
أنا نرجس حقاً بهرت عقولهم ببديع تركيبي فقيل بهار
يبيّن أن البهار عندنا، هو الذي تسميه أهل المشرق نرجساً .

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٣٤ .

(٢) كذا في ج ، و فط : « سلكه ويسار » .

وقال أبو جعفر بن برد :

تأمل فقد شقَّ البهار مفاساً كماثمه عن نوره الخضيل الندي^(١)
مداهنٌ تبر في أنامل فضيه على أذرع مخروطه من زبرجد
وقال القسطلي^(٢) :

بهارٌ يروقُ بمسكٍ ذكيٍّ وصنعٌ بديعٍ وخلقٌ عَجَبُ
غصون الزبرجد قد أوزقت بها فضة نورَت بالذهب
وقال القاضي أبو الحسن بن لبّال :

وبهارٍ يحكي كنوسَ الجُنينِ حملتها أناملٌ من زبرجد
سأمرتها الكواكب الزهرحتى سمّرت وسطها كواكبُ عسجد
وأنشدني بعض أشياخنا :

انظرُ إلى حُسنِ البهارِ وغُنْجِه يرنو إليك بمقلتي وسنان
فكأنما هي راحةٌ من فضةٍ قد ضُمَّنتُ كأساً من العقيان
وكانَ نشرَ نسيمه غبَّ الندى يأتيك بالأنفاسِ مِنْ بَغْدَانِ

والذي تسميه أهل المغرب نرجساً يسميه أهل المشرق بهاراً ، ولذلك قال
الحريري في العاشرة : « وورّدتني بالبهار » ، دعا فيها على الفلام بالحمى ، وأن
ينعكس حمرة خذه صفرة ، وقال حبيب في ذلك :

إنَّ وجهَ الحمى لوجهٌ صفيقٌ حين تسطو به نهراً جَهَاراً^(٣)
لم تشنْ ورْدَ وجنتيه ولكن صيرتَ ورْدَ وجنتيه بهاراً^(٤)

(١) الذخيرة ٢ : ٤٩

(٢) هو ابن دراج ، ديوانه ٣٨ .

(٣) ديوانه ٤٤١

(٤) الديوان : « لم تشن وجهه اللبح » .

وبلون النرجس يشبه أهل الأندلس المريض .

وقال أبو بكر الأبيض :

ياشاكيا صدقني عن مسه ألى طال اشتياقي به ليلاً فلم أنم
تضال الدهرُ إشفاقاً على قرٍ رقيبهِ في سماء المجدِ والكرمِ
لم أرضَ قلبي مكاناً إذ حلت به حتى خلطتك في سوادئهِ برمي
أنت البهار ولا أدري متى خلعتُ عليك أيدي الليالي نرجس السقمِ

ولابن الزقاق :

وغزال ذى اعتدالٍ شفّه بعد ما شقّ هَواه الأنفَسا^١
جارت الحمى على وجنته فاستحال الوردُ منه نرجساً

فثبت بما قدمناه، أن نرجسهم بهارنا، وأن بهارهم نرجسنا . وآكد ما يدلّ على صحته اشتراك البيت الذي أنشده أبو الفرج دلي النرجس مع بيت ابن بُرد في لفظٍ واحدٍ ، أخذ ابن بردٍ منه صفة النرجس ، فقلبه لاسم البهار حين نظمه .

واعلم أن تشبيه العين بنرجسهم أبين لتعلقهم بالصورة ، وأن تشبيهها بنرجسنا أدون لتعلقه بالمعنى ، وهو مع ذلك متمكّن في باب التشبيه ، وأن اسم النرجس لا بد فيه من صفة .

وقد قال شاعر من المشرق ، وهو أحمد بن يونس الكاتب في مناقضة ابن الرومي

في تفضيله النرجس على الورد :

-(١) ديوانه ٢٩٣ .

إِنْ كُنْتَ تَنْكَرُ مَا ذَكَرْنَا بَعْدَ مَا قَامَتْ عَلَيْهِ دَلَائِلُهُ وَشَوَاهِدُهُ^(١)
 نَاظِرًا إِلَى الْمَصْنَعِ لَوْ أَنَّ مِنْهُمَا وَافِطِنٌ فَمَا يَصْنَعُ إِلَّا الْخَاسِدُ
 نَلُولًا مَا ذَكَرْنَا مِنْ أَشْعَارِهِمْ ، لَحَكْنَا بِهَذَا الْبَيْتِ ، عَلَى أَنْ نَرْجِسَهُمْ هُوَ
 نَرْجِسُنَا ، وَمَذْهَبُ ابْنِ الرَّومِيِّ^(٢) تَفْضِيلُهُ عَلَى الْوَرْدِ ، وَهُوَ الْقَائِلُ :
 وَأَحْسَنُ مَا فِي الْوُجُوهِ الْعِيُونَ وَأَشْبَهُ شَيْءٍ بِهَا النَّزْجِسُ
 وَالذُّنُوسُ تَتَشَوَّقُ إِلَى رُؤْيَا نَرْجِسِهِمْ ، لِأَنَّا لَمْ نَعْلَمْ نَرْجِسُنَا غَيْرَ هَذَا الْأَصْفَرِ ،
 حَتَّى نَعْلَمْ بِمَا ذَكَرْنَاهُ أَنَّهُ هُوَ النُّوَّارُ الْمَعْرُوفُ ، وَهُمْ أَيْضًا يَتَشَوَّقُونَ
 لِنَظَرِ نَرْجِسُنَا .

وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ حِكَايَةُ الْقَاضِي الْفَقِيهِ أَبِي الْحَسَنِ بْنِ لُبَّالٍ ، قَالَ : خَرَجْتُ
 عَشِيَّةً خَارِجَ إِشْبِيلِيَّةٍ أَيَّامَ حَدَائِقِي وَقَرَأْتُ فِيهَا ، فَجَلَسْتُ فِي وَسْطِ وَاذِيهَا ، وَبِيَدِي
 كِتَابٌ أَنْظَرُ فِيهِ ، وَإِذَا رَجُلٌ يُحْمَلُ حَوَالِيَّ ، فَإِذَا نَظَرْتُ فِي الْكِتَابِ يَأْخُذُ وَيَنْشُدُ
 لِلْأَشْعَارِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِينَا نَظَائِرُ مِنْ بَدِيعِ الشَّعْرِ ، فَذَا كَرْتَهُ فَوَجَدْتَهُ بِحَرَ أَدَبٍ ،
 فَسَأَلْتُهُ عَنْ مَحْوَظِهِ ، فَقَالَ : أَحْفَظُ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفَ بَيْتٍ مِنَ الشَّعْرِ ، فَسَأَلْتُهُ : هَلْ
 تَنْظُمُ شَيْئًا ؟ فَأَنْشَدَنِي فِي وَصْفِ فَرَسٍ ، وَزَعَمَ أَنَّهُ الْقَائِلُ :

(١) أورد النويري في نهاية الأرب ١١ : ٢٣٤ من شعر ابن الرومي أبياتاً منها :

خَجَلْتُ خَدُودُ الْوَرْدِ مِنْ تَفْضِيلِهِ خَجَلًا تَوَرَّدُهَا عَلَيْهِ شَاهِدُ
 لَمْ يَخْجَلِ الْوَرْدُ الْمَوَرَّدُ لَوْنَهُ إِلَّا وَنَاحِلُهُ الْقُضِيَّةَ عَانِدُ
 لِلنَّجْسِ الْفَضْلُ الْمُبِينُ وَإِنْ أَبِي أَبِي ، وَحَادَ عَنِ الطَّرِيقَةِ حَائِدُ
 فَضْلُ الْقُضِيَّةِ أَنْ هَذَا قَائِلُهُ زَهْرُ الرَّبِيعِ ، وَأَنْ هَذَا طَارِدُ
 شَتَانٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ : هَذَا مَوْعِدُ بَتَسْلُبِ الدُّنْيَا ، وَهَذَا وَاعِدُ

منع الحوافر أن تطين به التّرى فكأنه في جريه متمسّق
وكأن أربعة توافق طرفه فتكاد تسبقه إلى ما يرمى

فاستعدت بيته ، وراجعت في قوله : « تطين » ، فقلت له : إنما هو « تطآن » ، فلم يعرف اللفظ ، وإنما تكلم بلا همر على لحن عامته ، فجزّيته في غيره ، فوجدت شعره من جهة الطبع وكثرة الحفظ ، لا من جهة العلم ، فسألته عن بلاده ، فقال : أنا من العراق ، فقلت له : فما السبب الذي جاء بك إلى الأندلس ؟ فقال لي : لأرى النرجس الأصفر المذكور في أشعاركم عياناً . ودعاني إلى الإطالة في ذكر النرجس رغبةً أن أرفع عن غيري حيرة الشبهة التي أقمت فيها زماناً طويلاً ، لا أجد من يرفعها عني .

[ذكر الوأواء الدمشقي وبعض شعره]

والبيت الذي اقتضى النظم على أسلوبه هو لأبي الفرج الفسّاني الدمشقي ، المعروف بالوأواء ، ذكره أبو منصور الثعالبي في يتيّمته ^(١) ، فقال : أبو النرج من حسان الدهر ، وصاغة الكلام ^(٢) .

ومن عجائب أمره أنه كان منادياً بدار البيطّيح بدمشق ينادي على الزواكه ، وما زال يشعر حتى جاد شعره ، ووقع له ما يروق ، ويشوق ويفوق ، حتى تعلق بالعيوق ^(٣) .

وقال الفتح بن خاقان : إني انصرفت البارحة من مجلس أمير المؤمنين ، فلما

(١) يتيمة الدهر : ٢٣٦ وما بعدها .

(٢) اليتيمة : « من حسنات الشام ، وصاغة الكلام » .

(٣) اليتيمة : « حتى يعلو العروق » ، والمعروق : نجم أحمر مضى وطرف الهجرة الأيمن أو الثريا لا يتقدمها .

دخلت مجلسي لقيت خلافة^(١) جاريتي ، فلم أتمالك أن ، قَبَّيْتُهَا ، فوجدت ما بين شفتيها هواء ، لو رقد المحموم فيه لأفاق . وهذا مستظرف من كلام الفتح ، فقال الوأواء ملأاً به^(٢) :

سَقَى اللهُ لَيْلاً طَابَ إِذْ زَارَ طَيْفُهُ فَأَنْفَيْتُهُ حَتَّى الصَّبَّاحِ عِنَاقًا^(٣)
بَطِيبٍ نَسِيمٍ مِنْهُ يُسْتَجْلَبُ الْكَرَى فَلَوْ رَقَدَ الْحُمُومُ فِيهِ أَفَاقًا^(٤)
وله أيضاً :

بِاللهِ رَبِّكَما عُوْجًا عَلَى سَكَنِي وَعَاتِبَاهُ ، لَعَلَّ الْعَتَبَ يَعْطِفُ^(٥)
وَعَرَضًا بِي وَقَوْلًا فِي حَدِيثِكَا مَا بَالُ عَبْدِكَ بِالْهَجْرَانِ تُتْلِفُهُ !
فَإِنْ تَبَسَّمَ قَوْلًا فِي مِلَاطِفَةٍ^(٦) مَا ضَرَّ لَوْ بَوَصَالَ مِنْكَ تُسَعِّفُهُ !
وإن بدا لكِأَمِنْ سَيِّدِي غَضَبٌ فَعَالِطَاهُ ، وَقَوْلًا : لَيْسَ نَعْرِفُهُ
وله في النحول :

وَمَا أَبْقَى الْهُوَى وَالشَّوْقُ مَنِي سِوَى رُوحٍ تَرَدَّدُ فِي خِيَالٍ^(٧)
خَفِيتُ عَنِ الْعَوَازِلِ أَنْ تَرَانِي^(٨) كَأَنَّ الرُّوحَ مَنِي فِي مُحَالٍ

(١) اليقظة : « استقبلتني فلانة — يعني جارية له — فلم أتمالك أن قبلتها » .

(٢) اليقظة : « فكان هذا مما يسعسن ويستظرف من كلام الفتح » .

(٣) ديوانه ١٦٤

(٤) الديوان : « ولو رقد المحموم » ، وبعده هناك :

تَمَلَّكَنِي لَمَّا تَمَلَّكَ مُهْجَتِي وَفَارَقَنِي لَمَّا أُمِنْتُ فِرَاقًا
(٥) ديوانه ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٦) الديوان : « في ملاطفة » .

(٧) ديوانه ١٨٩ .

(٨) الديوان : « عن النوائب » .

وله في الزرقة :

يَا مَنْ هُوَ الْمَاءُ فِي تَكْوِينِ خَلْقَتِهِ وَمَنْ هُوَ الْخُرُّ فِي أَعْمَالِ مُقْلَتِهِ ^(١)
وَمَنْ بَزُرُقَةُ سَيْفِ اللَّحْظِ طَلَّ دَمِي وَالسَّيْفُ ، مَا فَخَّرُهُ إِلَّا بَزُرُقَتِهِ
عَلِمْتَ إِنْسَانٍ عَيْنِي أَنْ يَعُومَ فَقَدْ جَادَتْ سَبَاحَتُهُ فِي بَحْرِ دَمْعَتِهِ

وله أيضاً :

تَمَلَّكَتْ يَا مَهْجَتِي مَهْجَتِي وَأَسْهَرَتْ يَا نَاطِرِي نَاطِرِي ^(٢)
وَمَا بَكَانَ ذَا أَمَلِي يَا مَلُولُ ^(٣) وَلَا هَجَسَ الْهَجْرُ فِي خَاطِرِي ^(٤)
فَجُدْ بِالْوَصَالِ فَدَتْكَ الْنَفْسُ فَلَسْتُ عَلَى الْهَجْرِ بِالْقَادِرِ
وَفِيكَ تَعَلَّمْتُ نَظْمَ الْقَرِيضِ فَلَقَيْتَنِي النَّاسُ بِالشَّاعِرِ

وله من قصيدة :

يَقِمْ لَنَا بَرَقَ الثُّغُورِ أَدَلَّةً إِذَا مَاضَ لَنَا فِي ظِلَامِ الذَّوَابِ ^(٥)

قال : ومن بديع تشبيهاته قوله :

فَأَمْطَرَتْ لَوْلُؤًا مِنْ تَرْجِسٍ ... الْبَيْتِ ^(٦) .

(١) ديوانه ٦٥ ، وبعده :

وَمَنْ خَامَتْ عِذَارِي فِي هَوَايَ لَهُ وَمَنْ تَهَتَّكَ سِتْرِي فِي مَحَبَّتِهِ

(٢) ديوانه ٩٩ ، مع اختلاف في ترتيب الأبيات .

(٣) الديوان : « يا ظلوم »

(٤) الديوان : « ولا خطر الهجر » .

(٥) من قصيدة مدح بها سيف الدولة ، وأولها :

قَفُّوا مَا عَلَيْكُمْ مِنْ وَقُوفِ الرِّكَابِ لِنَبْذِلَ مَذْخُورَ الدُّمُوعِ السُّورِ كَبِ

(٦) ديوانه ٨٤ .

ثم قال : هذا البيت ضمنه خمسة تشبيهات بغير أداة التشبيه ، وذكر المتنبي منها أربعة فأجاد ، وهي ما ضمنها قوله رحمه الله :

بَدَتْ قَرَأً ، وَمَالَتْ خُوطَ بَانٍ ، وَفَاحَتْ عُنْبَرًا ، وَرَنْتُ غَزَا لَا (١)

وللفقيه أبي محمد بن حزم خمسة تشبيهات في بيت واحد ، ولا يقدر أحد على أكثر منه ، إذ لا يحتمل العروض ولا أبنية الأسماء أكثر من ذلك ، قال :

خَلَوْتُ بِهَا وَالْكَأْسُ ثَالِثَةٌ لَنَا وَجُنْحُ ظَلَامِ اللَّيْلِ قَدْ مَدَّ وَاتَّاجَ (٢)
فَتَاةٌ عَدِمْتُ الْعَيْشَ إِلَّا بِقَرِيبَا وَهَلْ فِي ابْتِغَاءِ الْعَيْشِ وَمِنْ حَرَجٍ !
كَأَنِّي وَهِيَ وَالْكَأْسُ وَالْخَمْرُ وَالذُّجَى تَرَى وَحْيًا وَالدَّرَّ وَالتَّبْرَ وَالسَّبَجَ
وقبل بيت الوأواء :

إِنْ سَيَّةٌ لَوْ بَدَتْ لِلشَّمْسِ مَا طَلَعَتْ لِلنَّاظِرِينَ وَلَمْ تَقْرُبْ عَلَى أَحَدٍ
قَالَتْ وَقَدْ فَتَكَتْ فِينَا لَوَاحِظُهَا : مَا إِنْ أَرَى لِقَتِيلِ الْحَبِّ مِنْ قَوْدٍ (٣)
فَأَمْطَرَتْ لَوْ لَوْأُ مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ وَرَدًّا وَعَضَّتْ عَلَى الْعُنَابِ بِالْيَرَدِ
ثم استمرت وقالت وهي ضاحكة :

قَوْمُوا انظُرُوا كَيْفَ فَعَلُ الظَّنِّي بِالْأَسَدِ ! (٤)

وأول القصيدة :

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى صَدْرِي يَدًا لِيَدٍ وَصَحْتُ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلَامِ مَا كَبِدِي ! (٥)

(٢) طوق الحمامة ١٥ .

(١) ديوانه ٣ : ٢٢٤ .

(٣) الديوان : ٥ كم ذا أما .

(٤) سقط هذا البيت من رواية الديوان ، وموضعه هناك :

كأنا بين غابات الجفون لها أسد الحمام مقيات على الرصد

(٥) لم يرد هذا البيت في الديوان .

(٨ - شرح مقامات الحريري ٩)

وقال أيضاً :

أَتَانِي زَائِرًا مَن كَانَ يُبْدِي لِي الْهَجَرَ الطَّوِيلَ وَلَا يَزُورُ^(١)
 قَالَتِ النَّاسُ لَمَّا أَبْصَرُوهُ لِيَهْنِكَ زَارَكَ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ
 قُلْتُ لَهُمْ وَدَمْعُ الْعَيْنِ يَجْرِي عَلَى خَدِّي لَهُ دُرٌّ نَثِيرُ
 وَلَوْ نَصَبُوا رَحًا يُلْزَأُ عَيْنِي لَكَانَتْ مِنْ مَدَامِعِهَا تَدُورُ^(٢)

* * *

فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا كَلَمَحِ الْبَصْرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، حَتَّى أَنْشَدَ
 فَأَغْرَبَ :

سَأَلْتُهَا حِينَ زَارَتْ نَضُو بُرْقِعِهَا أَلَا
 قَانِي وَإِدَاعَ سَمْعِي أَطِيبَ الْخَبَرِ
 فَزَحَزَحَتْ شَفَقًا غَشَى سَنَا قَمَرِ
 وَسَاقَطَتْ لَوْلَا مِنْ خَاتَمِ عَطْرِ

* * *

قوله: «لمح البصر» ، يعني نظر العين إلى الشيء بسرعة ثم تغيب عنه بسرعة ،
 وأصل البصر الإدراك بالعين . أغرب : أتى بغريب . نضو : كشف . الثاني :
 الأحمر . إيداع سمعي : إعطاء أذني ، كأنه جعله ودیعة عنده . زحزحت : أزلت .
 الشفق : حمرة الشمس بعد الغروب . غشى : غطى . سنا : ضوء . عطر : قواح
 طيب للتنفيس . وبيت الحريري في صنعة البديع فائق ، وإن لم يأت بعد تشبيهات
 بيت أبي النرج ، وبيانه أن أبا الفرج يصف امرأة باكية ، فيقول : إنها نثرت
 دموعها على مَنْ قتل من عشاقها ، فسقطت على خدّها فبلّته ، وبقيت

(٢) الديوان : « من تحدره » .

(١) ديوانه ١١٠ .

على أصابعها المصبوغة بالحِنَّاءِ، فجعل البيت كَلَّةً استعارة ، فقال : « فأمطرت
لؤلؤاً » ، وهو يريد : بكتُ دمعاً ، وذكر نرجساً وورداً ، وهو يريد عينا وخذاً ،
وذكر عُنَّاباً وبردًا ، وهو يريد أنامل وأسنانا ، فضمَّن تحت ألفاظه هذه للمعاني ،
وزاد فائدة التشبيه ؛ وهذا يفعله أهلُ القدرة على الشعر ، فقابل الحريريّ هذا
بقوله : « نزعحت شفقاً » ، وهو يرى ثقاباً أحمر ، وذكر « سناقر » وهو يريد
ضوء وجهها ، وذكر لؤلؤاً من خاتم ، وهو يريد كلاماً من فم . والبيت الثاني في
مقابلة بيت أبي الفرج ، والأول توطئة له ، وهو يصف امرأة زارته متنقبة فسألها ،
أن تكشف عن وجهها وتحدثه ، فأزالت ثقابها ، وأسمعته كلاماً حسناً من فم عطر .

[مما ورد من تشبيه الأشياء باللؤلؤ]

واللؤلؤ تشبه به الأسنان في مثل قوله :

* كأنما يبسم عن لؤلؤ رطب *

وقوله :

* يفتر عن لؤلؤ رطب وعن برد *

ويشبه به الكلام في مثل قول البحتريّ :

* ومن لؤلؤٍ عند الحديث تساقطه ^(١) *

وقول الحريريّ :

* وساقطت لؤلؤاً من خاتمٍ عطرٍ *

ويشبه به الدمع ، كقول الواواء : « فأمطرت لؤلؤاً » ، وهو كثير .

ومن أحسنه قول الشاعر :

ولما وقفنا للوداعِ ودَمْعُها ودَمْعِي مُبْشِرُ ان الصَّبَابَةِ والوجدَا
بكت لؤلؤا رطباً فاضت مدامعي عَقِيقاً ، وصار الكل في نحرها عَقْدَا

وقال ابن عبد ربه :

وكأنما غاص الأسى بحفونها حتى أتاك بلؤلؤ منشور

(١) ديوانه ١٢٣٠ ، صدره :

* فمن لؤلؤٍ تجلوه عند ابنسَامِها *

فأخذه الرمادى فحسّنه فقال :

ولم أرَ أحلى من تبسم أعين
غداة اللوى عن لؤلؤ كان كامنًا
قال : فوقعت استعارة التبسم للعين موقعاً لطيفاً ، وإنما هو للشعر بسبب
توسط اللؤلؤ . والحدّاق يتحيّلون فى أخذ المعانى بترك القافية والوزن ، كقول
ابن شهيد :

ولما فشا من دمعنا بعض سِرِّنا إلى كاشحينا والقلوب كواتمُ
أمرنا بإمساك الدُموع جُفُوننا ليشجى بما يطوى عذول ولائمُ
أبى دمعنا يجرى مخافة شامتِ فنظامه بين الحاجر ناظمُ
وراق الهوى منّا عيونٌ كريمة تلهّج حتى ما تروق المبتائمُ

[من قولهم فى الامتحان]

وقال ابن شهيد فى الامتحان فأحسن :

ونبتت أقواماً تجيش صدورهم على وأنى منهم فارغ الصدرِ
أصاحوا إلى قولى نأسمتُ صمهم وغاصوا على سرى ذأعيامهم أمرى
فقال فريق: ليس ذا الشعرُ شعره وقال فريق كئيمُ الله ما ندرى
فمن شاء فليخبر فإنى لحاضر ولاشئ أجلى للشكوك من الخبرِ

وينظر فى هذا الامتحان ونسبة شعره فيه إلى الانتحال ، إلى قصة أبى بكر
ابن بَقَّ^(١) حين استهدى بعض إخوانه أقلاما ، فبعث إليه بثلاث من القصب ،
وكتب معها :

خذها إليك أبا بكر الملاء قصباً كأنما صاغها الصّواغ من ورقه
يزهى بها الطرس حسناً ما ثرت به مسك المداد على الكافور من ورقه

(١) هو أبو بكر بن بَقَّ ، ذكره أبو الفتح بن خافان فى القلائد ٣٢٢ ضمن من ذكرهم
من الأدباء .

فأجابه أبو بكر بن بَقَّ فقال :

أرسلت نحوى ثلاثاً من قنأ سلب مَيَّادة تَطْعَن القِرْطاسَ في وَرْقِهِ
فالخطُّ ينكرها والخطُّ يعرفها والرقَّ يخدمها بالرقَّ في عُنُقِهِ
فسدده عليها بعض مَنْ سمعها ، ونسبه إلى الانتحال ، فقال أبو بكر يَخاطب
صاحبه الأول :

وجاهلٍ نسب الدَّعْوَى إلى كَلْبِي لَمَّا رماه بمثل النَّبْلِ في حَدَقِهِ
فقلت مِنْ حَنَقِي لَمَّا تَعَرَّضَ لِي : مَنْ ذَا الَّذِي أَخْرَجَ الْيَرْبُوعَ مِنْ نَفَقِهِ !
ما ذمَّ شعري وَائِمْهُ اللهُ لِي قَسْمٌ إِلَّا امرؤُ ليسْتَ الأشعارُ مِنْ طُرُقِهِ
الشَّعر يشهد أَنِّي في كَواسِكِهِ بل الصَّباح الذي يَنْشَقُّ في أَفْقِهِ

[بديهة السَّلامى]

وخرج السَّلامى^(١) إلى الموصل وهو صبيّ حين راقى البلوغ ، فوجد بها أبا عثمان
الخالديّ وأبا الفرج البَغْفاء وأبا الحسن التَّلَعْفُريّ وشيوخ الشعراء ، فلما رأوه عجبوا
منه ، وآتهموه في شعره ، فقال الخالديّ : أنا أَكْفِيكُمْ أَمْرَهُ . فاتخذ دعوة ، وجمع
الشعراء والسَّلامى معهم ، فلما توسَّطوا الشراب ، أخذ في التفتيش عن قَدْرِ
بضاعته ، ثمّ لم يلبثوا أن جاء مطرٌ شديد وثليج وبرْدٌ عَمَّ الأرض كثرة ، فألقى
أبو عثمان الخالديّ نارنجاً بين أيديهم على ذلك البرْد ، وقال : يا أصحابنا ، هل لكم
في أن نصف ذلك ؟ فقال السَّلامى ارتجالاً :

لله دَرّ الخالديّ الأَوْحد النَّدْبُ الخَطِيرُ
أهدى لَماء المُرَبِّ عنْد جودِهِ نارَ السَّعِيرِ
حتى إذا صَدَرَ العِتا ب إليه من حَنَقِ الصَّدُورِ^(٢)

(١) هو محمد بن عبد الله بن محمد السَّلامى ، نسبة إلى مدينة السلام ، أشعر أهل العراق في
عصره ، ومن ترجم لهم الثعالبي في البيعة ٤ : ٣٦٤ - ٣٩٨ ، والخبر في ترجمته في ابن
خاسكان ١ : ٥٢٤ .

(٢) ابن خلكان : « من حر الصدور » .

بعثت إليه بـعذرهِ من خاطري أوفى الشُّرورِ
لا تـمـذُّوهُ فإنَّنا أهدى الخـلـود إلى الثُّغورِ
فأمسكوا عنه عند ذلك ، واعترفوا له بالفضل ، إلَّا التَّلعفريّ ، فإنه أقام على
قوله فيه ، حتى قال السَّلاميّ فيه :

يا شاعراً بشعوره لم يشعُرِ ما كنتَ أوَّلَ طالبٍ لم يظفِرِ
لو كنتَ تعرفُ والدًا تسمو به لم تنسبْ صفةً إلى تلعفِرِ
تاه ابنُ فائقةِ الفسوقِ على الورى بقذالِ صَفْعانٍ ونكهةِ أبحرِ
وبلادةٍ في الشعرِ تـلم أنه تيسُّ ولو نُصِرتْ بطبعِ البُحترِ
وقال فيه :

سما التلعفريّ إلى وصالي ونفس الكلب تكبر عن وصاله
ينافي خلقه خلقي وتأبى فعلى أن تضاف إلى نعاله
فصنعتي اللطيفة في لساني وصنعتُه الخسيسة في قذالة
فإن أشعرَ فما هو من رجالي وإن يُضفَعْ فما أنا من رجالة

[من نواذر صاعد بن الحسن الربعمي]

وكان المنصور بن أبي عامر قد أثبت عنده الحسدة ، أنَّ صاعداً^(١) اللغوي
متَّهم في كل ما يورده من حديث أو شعر ، فأدخلت عليه يوماً با كورة ورُد لم
تفتح أكامها ، فقال فيها صاعد ارتجالياً :

أتتك أبا عامرٍ وردةً يذكرك المسكُ أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصرٌ ففطتُ بأكامها رائحتها

فسرَّ بذلك المنصور . وكان ابن العريف حاضراً فحسده وقال : إن هذين

(١) هو صاعد بن الحسن بن عيسى الربعمي ، وفد على المنصور بن أبي عامر بغداداً ،
وله معه أخبار ونواذر مشهورة في الأدب واللغة ، ابن خلكان ١ : ٢٢٩ .

البيتين لغيره ، [وقد أنشدنيهما بعض البغداديين بمصر لنفسه ، وهما عندي على ظهر كتاب بخطه ، فقال له المنصور : أرنيه ، فخرج ابن العريف ، وركب وجعل بحث ، حتى ^(١) أتى مجلس ابن برد - وكان أحسن أهل وقته بديهة - فوصف له ما جرى فقال :

عشوتُ إلى قصر عَبَّاسِيَّةٍ وقد صرَّعَ التَّوْمُ حَرَّاسَهَا ^(٢)
أبياتًا ضَمَنَ فيها البيتَين ، فكتبها ابن العريف بخطَّ بَصْرِيَّ ^(٣) ، وصار بها إلى المنصور . فاشتدَّ غَيْظُهُ ، وقال : غداً أمتحنه ، فإن فضحه الامتحان لم يبق في موضع لي فيه سلطان . ^(٤) ثم أخذ طبقاً فيه ضروب من الأنوار ، وعليه جوارٍ باسمين ^(٥) على بركة ماء حصباؤها الدرّ والجوهر . ودعاه في مجلس حافل ، وقال له : هذا طبق فيه شيء ما توهمت أنه قدَّم بين يديّ لك قبلي ، فصفه فقال على البديهة :
أبَاعَ امرئٌ هَلْ غَيْرُكَ جَدُوكَ وَاكْفُ وَأعجب ما يلقاه عندك واصف ^(٥) !

(١) من الذخيرة .
(٢) بعده كما في الذخيرة :
فألقىَها وهي في خدرها وقد صرَّعَ السَّكْرُ أناسَهَا
فَقَالَتْ : أسارٍ على هَجْمَةٍ ؟ قُتِلَتْ : كَلَى ، فَرَمَتْ كَاسَهَا
وَمَدَّتْ يَدَهَا إلى وَرْدَةٍ بِحَاكِي لَكَ الطَّيْبُ أنفاسَهَا
كَعُذْرَاءٍ أَبْصَرَهَا مَبْصَرٌ ففَطَّتْ بِأَكْمامِها رَاسَهَا
وَقَالَتْ : خَفَ اللهُ لا تَفْضَحَنَّ في ابْنَةِ عَمِّكَ عَبَّاسَهَا
فَوَلَّيْتُ عَنْهَا على عَفْوَةٍ وَمَا خَفْتُ نَاسِي ولا نَاسَهَا
(٣) الذخيرة . « مصري » .
(٤-٤) الذخيرة : « وقد أعد طبقاً فيه سقائف من ضروب النواوير ، ووضع على السقائف جوارى باسمين » .
(٥) الذخيرة :

* وهل غير مَنْ عَادَاكَ في الأَرْضِ خَائِفُ *

وبعده :

يسوق إليك الدهرُ كلَّ عجيبةٍ وأعجب ما يلقاه عندك واصفُ

وشائعُ نَوْرٍ صاغها هامرُ الحيا حُلِيًّا فَمِنْهَا عَبَقَرُ ورفارفُ
ولما تنافى الحسن فيها تقابلتْ عليها بأنواع الملاهي الوصائفُ
كمثل الظباء المستكنة كُنَسًا تظللها بالياسمين السَّقايفُ
فلم ترعيني في البلاد حديقةً تنقلها في راحتين المناصيفُ^(١)
والحكاية بطولها في القسم الرابع من الذخيرة.^(٢)

وخرج معه إلى أرض الزاهرة^(٣)، فمد يده إلى شيء من الترنجان يبعث به،
ورمى به إلى صاعد معرضاً بأن يصفه، فقال :

(١) بعده في الذخيرة :

وأعجب منها أنهن نواظِرُ إلى بركة ضُمَّتْ إليها الظرائِفُ
حصاها اللآلى ، سابجٌ في عُبابِها من الرُّقش مسموم اللعابِينِ راجِفُ
ترى ما تشاء العينُ في جنباتِها من الوحش حتى بينهم السلاحِفُ

قال في الذخيرة بعد هذا البيت :

فاستغربت له يومئذ تلك البديهة ، وكتبها المنصور بخطه ، وكان إلى ناحية سفينة فيها جارية
تجذب بمجناف ذهب ، لم يرها صاعد ، فقال له المنصور : أجدت إلا أنك لم تصف هذه الجارية ،
فقال :

وأعجبُ منها عادة في سفينةٍ مكَلَّلة تصبو إليها المهايفُ
إذا راعها موجٌ من الماء تتَّقَى بسكَّانها ما أنذرتة العواصفُ
متى كانت الحسناء ربَّان مركب تصرف في يميني يديها المجاذِفُ
فلم ترعيني في البلاد حديقةً تنقلها في راحتين المناصِفُ
إلى آخر الأبيات .

(٢) الذخيرة ٤ : ٨ - ١١ .

(٣) الذخيرة : « إلى رياض زاهرة » .

لم أذرِ قبلَ ترنجانٍ عبثتَ بهِ أنَ الزُّمردَ قضبَانِ وأوراقُ^(١)
 من طيبه سَرَقَ الأترجَ نكتهُ يَاقومَ حتَّى من الأشجارِ سُرَّاقُ!
 كأنما الحاجبَ المنصورَ علَّه فعلَ الجليلِ فطابت منه أخلاقُ
 مَن ليس يقعه عن سُوددِ كرمٍ ولا يقومَ له في سوءةِ سَاقُ
 وله أيضاً :

بعثت إليك من خيري داري محزّمة كألوانِ العقيقِ^(٢)
 توكّلُ بالعُكوفِ على التّصابي^(٣) وتصدّد الخلعِ من الطريقِ

* * *

فحارَ الحاضرونَ لبداهتهِ ، واعترفوا بنزاهتهِ . فلما آنسَ
 استثناسهمُ بكلامه ، وانصبأبهمُ إلى شعبِ إكرامه ، أطرقَ كطرفةِ
 العينِ ، ثم قال : ودونكمُ يَتَيْنِ آخَرَيْنِ ، وأنشد :
 وأقبَلتَ يَوْمَ جَدِّ البَيْنِ في حُبْلٍ
 سُودٍ تَعَضُّ بنانَ النَّادِمِ الحَصْرِ
 فَلَاحَ لَيْلٌ عَلَى صُبْحٍ أَقْلَمَا
 غُضْنٌ وَضَرَّتِ البِلُورَ بالدَّرَرِ
 فحينئذٍ استسنى القومُ قيمتهُ ، واستغزروا ديمتهُ ، وأنجلوا
 عشرتهُ ، وجملوا قشّرتَه .

* * *

(٢) الذخيرة ٤ : ٤٨ .

(١) الذخيرة ٤ : ١٢ .

(٣) الذخيرة : «بالزوف عن التصابي» .

قوله: «لبداهته» ، أى لارتجاله وإنشاده من غير فكرة ، ويقال : بدهه بَدْهًا وبديهة وبْدَاهَة ، إذا فجأه . وبده فى كلامه : إذا لم يتفكر فيه ، وفلان حسن البديهة والبْدَاهَة ، أى الارتجال .

[مما قيل فى البديهة الحاضرة]

والقول من غير تفكير وهو عندهم مما يمدح به ، وإن كانت الإصابة غالباً فى الروية وإطالة الفكرة ، كما قال عبدالله بن وهب الراسبي للخوارج حين عقدوا له : دَعُوا الرَّأْيَ حَتَّى يَخْتَمِرَ ، فلا خير فى الرَّأْيِ الْفَاطِرِ ، والقول القصير . وقال المنصور لسكراته : لا تبرم أمراً حتى تفكر ، فإن فكرة العاقل مرآته تزيه حسنه من قبيحه . وقال أيضاً : الحكمة نور الفكرة ، والصواب فرع الروية ، والتدبير فرع المهمة .

قال ابن الرومي :

نَارُ الرُّوْيَةِ نَارٌ جَدَّةٌ مَنْضُجَةٌ وللبدية نَارٌ ذَاتُ تَلَوُّجٍ^(١)
وقد يفضِّلها قومٌ لِعَاجِلِهَا لكنه عاجل يمضى مع الريح

وقال أشجع فى جعفر بن يحيى :

يُرِيدُ الْمَلُوكُ مَدَى جَعْفَرٍ ولا يصنعون كما يصنع^(٢)
وليس بأوسعهم فى الفنى ولكن معروفه أوسع
بداهته مثل تفكيره متى تلقه فهو مستجقع^(٣)

وقال فيه :

بديهته وفكرته سواء إذا التبتت على الناس الأمور

(١) بدائم البداهته ٦

(٢) من قصيدة له فى الأغاني ١٧ : ٣٧ .

(٣) الأغاني : « بديهته متى رمته » .

وقال إبراهيم بن العباس الصولي في الفضل بن سهل :

يقضى الأمور على بديهة وتريه فكرته عواقبه
فيظل يوردها ويصدرها فلنعم حاضره وغائبه

ودخل المأمون يوماً بعض دواوينه، فرأى غلاماً جميل الصورة، على أذنه قلمٌ فقال: من أنت يا غلام؟ فقال: أنا يا أمير المؤمنين الناشئ في دولتك، والمتقلب في نعمتك، والمؤمل بخدمة منك؛ الحسن بن رجاء خادمك. فقال للمأمون: أحسنت يا غلام، وبالإحسان في البديهة تفاضلت العقول. ثم أمر أن تُرفع مرتبته في الديوان.

* * *

قوله: «بزاهته» أي برفعته وبعده من التهمة بسرقة الشعر. آنس: أبصر. استثناسهم: أنسهم وتركهم الإنكار. طرفة: نظرة، قد طُرف يطرف طرفاً، إذا حرك جفنيه بعد النظر. دونكم: إغراء، ومعناه خذوا حذرکم واسمعوا. جد: تحقق. البين: الفراق. بنان: أصابع. الحصر: المنقطع عن الكلام عيًّا. ليل: أراد به نقاباً أسود. صبح: وجه. أقالهما: رفعهما. غصن: قد. ضرست البلور: الأصابع. الدرر: الأسنان.

[نقد شعر الحريري]

والظاهر من سياق هذين البيتين أنه قصد أن يزيدهم استثناساً بأنه غير مدع في الشعر، ودل على هذا ظاهر الكلام قبل البيتين وبعدهما، وهو قد أخرج معنى زائداً في البيت ولم يصرح به لما عليه في ذلك من التقصير عن درجة غيره، وذلك أنه لما لم يستوفِ مقابلة بيت أبي الفرج مرةً بيتيه المتقدمين، استوفاهما في هذا البيت الثاني، لأنه قابل «أمطرت» بساقطت، واللؤلؤ باللؤلؤ، والنجس بالنجس، وهما العين والنم، وحرمة بالحد بسنا القمر، وبقي عليه زائد من قول أبي الفرج: «وعضت على العناب بالبرد»، فقابله في هذا البيت بقوله: «وضرست

البلور بالدرر ، وجعلها تعضّ على أصابعها وهي بيض ، لانه يصف امرأة شعرت
بفراق أحبابها ، فتركت الزينة واستعمال الحنّاء ، فلهذا حان وقت فراقهم ، لبست
ثياب الحزن ، وأقبلت تودّعهم تأنّفاً وتندماً على فراقهم ، ووصف الأصابع
باللّين والصّبع ، وذلك مذكور في العاشرة ، وجعلها لابسة السواد ، لأنّ أهل
المشرق يلبسونه لحزنهم ، وأهل الأندلس يلبسون البياض لحزنهم ، قال الشاعر :

ألا يا أهل أندلسٍ فظنتمْ بلطفكم إلى أمرٍ عجيبِ
لبستمْ في ما تمكم بياضاً وجثتم منه في زِيٍّ غريبِ
صدقتم فالبياضُ لباسُ حزنٍ ولا حزنٌ أشدُّ من المشيبِ

وأنشد أبو عثمان الأشنانداني في أبيات المعاني له :

أرعتْ مراتع مدرّاهها على عجلٍ صنوين إن أفردا لم يرعيّا أبداً
واستبدلتْ من رياض الحزن موقّةً تنوّب الأمير الذي في مُلكه قعداً

عني بمراتع مدرّاهها شعّرها ، وبصنوين مقصّاً حلقته به ، وبرياض الحزن
ثياباً ملوّنة ، وبثوب الأمير ثوباً أسود ، لأن ملوك بني العباس لبسهم السواد .

وعارض ابن لبّال^(١) الحريري في أبياته فقال :

ودّعتهُا ومدامعي تنهلّ بالدّمع الطّليقِ
فبكتْ فأذرتْ أدمعاً في صفحة الخلد الأنيقِ
ومضتْ تعضّ بناتها بين التلّيف والشّهيقِ
ورأيت مبيضّ اللّج بين يعضّ محرّ العقيقِ

وكما عارض بيت الحريري عارض قول البحترى المتقدم :

(١) ابن لبّال ، واسمه على ابن أحمد بن علي ، من قضاة الأندلس وشعرائها وأدباؤها ؛ وله

كتاب في شرح المقامات . الغرب ١ : ٣٠٣

يا بآبي ظبيّ إذا مارنا أنحن قلبي وفؤادي جراح
يفترّ عن طلعٍ وعن جوهرٍ وفضّة أو حبّ أو أقالح
فزاد عليه بوصفين .

من أقوالهم في الفراق

ومما يناظر ما تقدّم من البكاء عند الفراق قول محمد بن يوسف :

وكأنما أثر الدموع بخدّها طلّ تساقط فوق ورْدٍ يانعٍ
عذبَ الفراقُ لنا قبيلَ وداعِنا ثم اجترعناه كسَمِّ ناقِعٍ
وقال ابن الروميّ :

لو كنتَ يومَ الوداعِ شاهدنا وهنَّ يُطفئن غلّةَ الوجْدِ
لم ترَ إلّا دموعَ باكيةٍ تسفح من مُقلّةٍ على خَدٍ
كأنّ تلكَ الدموعَ قطرُ ندَى يقطر من نرجسٍ على ورْدٍ

وقال النّاشي :

بكيتُ الفراقَ وقد راعني بكاء الحبيب لبعد الديارِ
كأنّ الدموعَ على خدّها بقيّة طلٍّ على جُلنارِ

وقال أبو نواس :

قولُ غداةَ البين إحدى نسايمهم لي الكيدُ الحَرّى فيسرَ وَلَك الصبرُ^(١)
وفد غلبتها عبْرَةُ فدموعها على خدّها جَمْرٌ وفي نحرها صفرُ

يقول: لون خدها أحمر، فتشككت الدمعة به جراً، ولون نحرها أصفر عاجي
كما قال ذو الرمة :

كَأَنَّهَا فِضَّةٌ قَدْ مَسَّهَا ذَهَبٌ فَصَارَ فِيهَا لَوْنُ الدَّمْعِ صُفْرَتُهُ
وقيل للعباس بن محمد: ما لون الماء؟ فقال: لون إنائه.

ولما ذكر الحريريّ الحلل السود على الجارية، تذكّرت ما قال أبو عثمان
الناجم^(١) في جارية رأى عليها ثوباً أزرق:

مَا تَعَدَّتْ قَبُولُ حِينَ جَلَتْ زِيّاً شَبِيهاً بِوَجْهِهَا ذِي الضِّيَاءِ
لَبَسْتُ أَزْرَقاً فُجِئْتُ بِوَجْهِهِ يَشْبَهُ الْبَدْرَ فِي أَدِيمِ السَّمَاءِ

ولأبي حفص بن برد في غلام بدا له في ثوب لازوردي، فقال:

لَمَّا بَدَأَ فِي لَازُورٍ دَى الْحَرِيرِ وَقَدْ بَهَرَ^(٢)
كَبَّرْتُ مِنْ فِرطِ الْجَا لٍ وَقُلْتُ مَا هَذَا بَشَرُ
فَأَجَابَنِي لَا تَنْكَرُ ثُوبَ السَّمَاءِ عَلَى الْقَمَرِ

وقال ابن المعتز في غلام عليه ديباج بنفسجي:

وَبِنَفْسَجَى الثُّوبِ قَدْ لَ مِنْ حَالِهِ^(٣)
الآن صرّت البدر إذ أُلْبِسَتْ ثُوبَ جَمَالِهِ

قوله: «استسنى»، أي استعظم، وقد سُنُو الرجل، وسنا: شرف وعظم. ديمته:
كلامه بالشعر وهو دائم غير منقطع، أو يريد بها فطنته التي تمدّه بما شاء من

(١) هو سعد بن الحسن بن شداد المعروف بالناجم الشاعر الأديب، صاحب ابن الرومي
ورواية شعره. معجم الأدباء ١١ : ١٩.

(٢) الذخيرة ٢ : ٣٧

(٣) يرد البيان في ديوان المطبوع، وهما في الذخيرة ٢ : ٣٧، مع رواية مخالفة

الشعر، وأصل الديمة المطر الدائم . واستغزروها : استكثروها ووجدوها غزيرة .
أجلوا عشرته، أى أحسنوا صحبته وعاشروه بالجميل . جملوا قشرته ، أى حسنوها ،
من لفظ الجلال ، أو يكون معناه: جملوا من جملة الحساب وأجلته ، أى جمعته ،
فكانهم جمعوا له شيئاً وكسوه . وقشرته : ثوبه ، لأنه قدم أن هيئته كانت رثة ،
فاحتاجوا أن يكسوه .

قال المخبر بهذه الحكاية : فَلَمَّا رَأَيْتُ تَلْمَبَ جَذْوَتِهِ ، وَتَأَلَّقَ
جَلْوَتِهِ ، أَمَمْتُ النَّظَرَ فِي تَوَشُّمِهِ ، وَسَرَّخْتُ الطَّرْفَ فِي مِدْسِمِهِ ،
فَإِذَا هُوَ شَيْخُنَا السَّرُوجِيُّ ، وَقَدْ أَقْمَرَ لَيْلُهُ الدَّجُوجِيَّ ، فَهَنَّتْ نَفْسِي
مَمُورِيهِ ، وَابْتَدَرْتُ اسْتِلَامَ يَدِهِ ، وَقُلْتُ لَهُ : مَا الَّذِي أَحَالَ صِفَتَكَ ،
حَتَّى جَهَلْتُ مَمْرِفَتَكَ ، وَأَيُّ شَيْءٍ شَبَّ لِخَيْتِكَ ، حَتَّى أَنْكَرْتُ
حِلْيَتَكَ ! فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

وَقَعُ الشَّوَائِبِ شَيْبَ وَالذَّهْرُ بِالنَّاسِ قُلُوبَ
إِنْ دَانَ يَوْمًا لِشَخْصٍ فِي غَدٍ يَتَغَلَّبُ
فَلَا تَثِقْ بِوَمِيضٍ مِنْ بَرْقِهِ فَهُوَ خَلَبُ
وَاصْبِرْ إِذَا هُوَ أَضْرَى بِكَ الْخُطُوبَ وَأَأْبُ
فَا عَلَى التَّبْرِ عَارٌ فِي النَّارِ حِينَ يُقَلَّبُ

ثم نهض مفارقاً موضعه ، ومُستَصحِباً القلوبَ معه .

تأهب جذوته : اشتعال جمرته واتقادها ؛ وأراد حدة ذهنه ، والجذوة : النار في طرف العود . تألق : لمعان . جلوته : ما جلاه وكشفه من وجهه ، وتقول : جلوت العروس جلوة ، إذا أزلت نقابها ، وأظهرت وجهها ، والجلوة بالكسر : هيئة جلوه حين يحلّى ، وأراد بتألق جلوته بريق وجهه . أمعنت : بالغت وأدّمت النظر ، وأصله من أمعن في الأرض إذا أبعده الذهاب فيها . توسمه : نظر سماته ، وهي علامته التي بُرّف بها ، ويريد أنه أدام النظر في نعوته . سرّحت الطرف : أرسلت العين بالنظر ، وأصل الطرف تحرك العين عند النَّظَر ، تقول : طرفت العين طرفاً . والعين : الجارحة ، والبَصَر : ما تدركه بنظرها ، ثم تُسميت العين طرفاً لذلك . وميسمه : علامته . أقر : ابيضّ ، فصار مثل لون القمر . الدَّجوجي : الشديد السواد ، وأراد نبات شعره الأسود .

قوله : « بمورده » ، أي بقدومه وإتيانه ، تقول : ورَدَ علينا فلان ، إذا قدم عليك من بلد آخر ، والمورد : مصدر ورَدَ ، وهو بمعنى الورد ، لأنه قدّم أنه غاب عنه مدّة لا يعرف له موضعاً ، ولا يجد عنه مخبراً ؛ حيث قال : « واستتر عني حيناً » ، فلما رآه ببلده بالبصرة فرح بقدومه وهنأ نفسه على ذلك .

استلام : تبجل اليد . ابن الأنباري : استلم الحجر ، معناه أخذه ومسه بيده ، واستلم ، افتعل ، من المسألة . يريد أخذ الحجر وضمة إليه ، أو يكون استفعل ، من اللأمة وهي السلاح ، يريد أنه حصّن نفسه بمسّ الحجر من العذاب ، لأن السلاح إنما يابس ليُمتنع به ويتحصّن . أحوال : غير . حليتكَ : صنتك ، ولذلك احتاج أن يعمّن النظر لمّا تغيرت صفاته التي كان يعرفه بها من الفتوة والشبيبة ، فلما رآه قد شاب شعره ، وتغيّرت صفاته لم يعرفه إلا بعد طول تأمل . وقال الحلواني القيرواني :

ولربّ باكيةٍ رأت في مِلَّتِي وخزّ المشيب تألّقت ضحكاته

قالت : أغصنًا قد علاه فلا أرى زهر الرّياض ونورت ورقاته
فأجبتها : قارعتُ في جنبِ الهوى صرف الزّمان ، وهذه نكباته

ولا بن الجدّ :

نكرتُ محوّل وهو من فرط الأسى لفراق إخوان على كرام
وتعجبتُ للشّيب لا تتعجّبي هذا غبار وقائع الأيام
قوله : « فأنشأ يقول » أى ابتدأ ، وأنشدوا :

أنشأت. تطلب ما تغيّر ر قد تناشبت الأظافر

أى ابتدأت تطلب . الشوائب ، أصله ما يقع في الماء البصافي من الأقذاء .
فيكدره ، فأراد أن أنكاد الدهر شيئته . وقُلب : كثير التقلب ، فيحوّل من
حال إلى حال . دان : طاع واثقاد . يتقلب : يتحوّل عن الطاعة . وميض :
لمع خفيّ . خُلب : خداع ، لا ماء فيه ، وأراد : لا تنق بالدهر ، إذا ما كسبت
فيه شيئًا من المال فإنه يحوّل عنك ولا يترك لك منه شيئًا . أضرى : أغرى
وألصقها بك ، وأصل « أضرى » من ضراوة الكلب ، تقول ضَرَى الكلب
بالصيد ؛ إذا تعلّم الصيد ، وأضرّيته أنا بمعنى عرّضته للصيد . والخطوب :
الأمور الشداد . وألب : حشد ، أى اصبر للشدائد إذا أضرّاه الدهر بك
وحشدها ، فما عليك في ذلك عيب ، كما أن الذهب يُسبك بالنار وهو مع ذلك
عزّز القدر . والتبر : الذهب قبل سبكه ، وانظر هذا المعنى عند قوله في
السابعة والأربعين :

وطالما أصليّ الياقوت جمر غطّى ثم انطلقا الجمر والياقوتُ ياقوتُ

(٩ - شرح مقامات الحريري ١)

وزاد الآخر في المعنى فقال :

إني أنا الذهبُ المحمى ومخبره يزيد في السَّبكِ للدينارِ ديناراً

وأشدوا :

اضبرْ على نُوبِ الزَّما ن فهكذا مضتِ الدُّهورُ
فرَحَّ وحُزْنٌ تارةً لا الحزن دَامَ ولا الشُّرورُ

المقامة الثالثة وهي الدنيارية

رَوَى الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ : نَظَمَنِي وَأَخْدَانَا لِي نَادٍ ، لَمْ يَخْبُ
فِيهِ مَنَادٍ ، وَلَا كَبَابٌ قَدَحُ زَنَادٍ ، وَلَا ذَكَتُ نَارُ عِنَادٍ ؛ فَبَيْنَا نَحْنُ
نَتَجَاذَبُ أَطْرَافَ الْأَنَاشِيدِ ، وَتَتَوَارَدُ طُرَفُ الْأَسَانِيدِ ، إِذْ وَقَفَ بِنَا
شَخْصٌ عَلَيْهِ سَمَلٌ ، وَفِي مِشْبَتِهِ قَزَلٌ .

نَظَمَنِي ، أَيُّ جَمْعِي . أَخْدَانَا ؛ أَيُّ أَصْحَابَا . نَادٍ : مَجْلِس . مَنَادٍ : مُتَكَلِّم .
كَبَابٌ : شَحٌّ وَلَمْ يَبْدُ نَارًا . قَدَحٌ : ضَرْب . زَنَادٌ : حَدِيدَةُ النَّارِ ، وَزَنَادُ الْعَرَبِ
مِنْ خَشَبٍ ، وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ مِنَ الْمَرْخِ وَالْعَقَارِ ؛ وَإِنَّمَا هُوَ أَنْ يُؤْخَذَ عُودٌ
قَدْرُ شِبْرِ ، فَيُثْقَبُ فِي وَسْطِهِ ثَقْبٌ لَا يَنْفُذُ ، وَيُؤْخَذُ عُودٌ آخَرُ قَدْرُ ذِرَاعٍ ، فَيُحْدَقُ
طَرَفُهُ ، وَيُجْعَلُ ذَلِكَ فِي الثَّقْبِ ، وَقَدْ وَضَعَهُ رَجُلٌ بَيْنَ رِجْلَيْهِ ، فَيُدِيرُهُ وَيَقْتُلُهُ ،
فَيَبْدُو النَّارَ ، فَالْأَعْلَى زَنْدٌ وَالسُّفْلَى زَنْدَةٌ ، وَالزَّيْنَادُ جَمْعُ زَنْدٍ . قَوْلُهُ : « ذَكَتُ » ، أَيُّ
اشْتَعَلَتْ . عِنَادٌ : خِلَافٌ ، يُرِيدُ أَنْ هُوَ لَاءُ الْأَصْحَابِ لِحَسَنِ أَدْبِهِمْ وَمَنَاظَرَتِهِمْ
لَيْسَ بَيْنَهُمْ خِلَافٌ ، وَهُمْ عُلَمَاءٌ لَا يَسْقُطُ مِنْ كَلَامِهِمْ شَيْءٌ ، وَلَيْسَ فِيهِمْ جَاهِلٌ ،
فَيَكُونُ كَلَامُهُ قَلِيلَ الْإِسَابَةِ . وَالْأَنَاشِيدُ : مَا يُتَنَاشَدُونَهُ مِنَ الْأَشْعَارِ بَيْنَهُمْ ، كَأَنَّ
وَاحِدَهَا أَنْشُودَةٌ . وَتَجَاذَبُ أَطْرَافُهَا ، يُرِيدُ الْمَشَارَكَةَ فِي إِنْشَادِهَا ، أَيُّ إِذَا أُنْشِدَ
أَحَدُهُمْ شِعْرًا لِيُغَرِّبَ بِهِ شَارِكُوهُ فِي إِنْشَادِهِ لِحَفْظِهِمُ الْأَشْعَارَ ، فَكَأَنَّهُمْ تَجَاذَبُوهُ كَمَا
يُتَجَاذَبُ بِأَطْرَافِ الثُّوبِ . وَالْأَسَانِيدُ : الْأَخْبَارُ الْمُسْنَدَةُ إِلَى أَهْلِهَا . وَأَصْلُ التَّوَارِدِ ،
مُزَاحِمَةُ الْإِبِلِ عَلَى شَرْبِ الْمَاءِ ، فَجَعَلَ مِشَارَكَتَهُمْ فِي ضَبْطِ غَرَائِبِ الْأَخْبَارِ

كتوارد الإبل على الماء، والطَّرف: الغرائب، والطَّرْفَة: الشيء العجيب من كل شيء، الذي لا يوجد له نظير. سَمَل: ثوب خلق، وأكثر ما تقول العرب: ثوب أَسْمَال وأَخْلَاق، فيوصف بالجمع لأنه قُطِعَ متفرقة. وسَمَل: قایل، وفي تبذل اللباس روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب المتبذل الذي لا يبالي بما لبس». قَزَل: عرج.

* * *

فقال: يا أخير الذخائر، وبشائر العشاير، عموا صباحاً، وأنعموا اضطباحاً، وانظروا إلى مَنْ كَانَ ذَا نَدَى وَنَدَى، وَجِدَّةٍ وَجَدًا، وَعَقَارٍ وَقَرَى، وَمَقَارٍ وَقَرَى، فَمَا زَالَ بِهِ قُطُوبُ الْخُطُوبِ، وَحُرُوبُ الْكُرُوبِ، وَشَرَّزُشْرُ الْحُسُودِ، وَاَنْتِيَابِ الثُّوبِ الشُّودِ، حَتَّى صَفَرَتِ الرَّاحَةُ، وَقَرِعَتِ السَّاحَةُ، وَغَارَ الْمَنْبَعُ، وَنَبَا الْمَرْبَعُ، وَأَقْوَى الْمَجْمَعُ، وَأَقْضَى الْمَضْجَعُ، وَاسْتَحَالَتِ الْحَالُ، وَأَعْوَلَ الْعِيَالُ، وَخَلَّتِ الْمَرَابِطُ، وَرَحِمَ الْغَايِطُ، وَأَوْدَى النَّاطِقُ وَالْعَصَامِيتُ، وَرَثَى لَنَا الْحَاسِدُ وَالشَّامِيتُ.

* * *

قوله: «يا أخير الذخائر»، الأخير: جمع أخير، كما يقال: أكبر وأكابر، والمستعمل خير وشر، ولا يقال: أخير ولا أشتر إلا شاذاً، وإن كان هو الأصل، لكنه رفض استعماله وجاء الجمع على الأصل، لأنه يرد الشيء إلى أصله وقال رؤبه:

* بلال خيرُ الناسِ وابنُ الأخيرِ *

فنطق بالمستعمل لشهرته ، وبأصله وهو قليل ، فإذا تعجبوا من ذلك قالوا :
 ما أخيرَ فلاناً ، وما أشرَ فلاناً . والذخائر : جمع ذخيرة ؛ وهي الشيء النفيس الغالي
 يصونه الإنسان ويعتده لزمانه . البشائر . جمع بشارة ، وقد بشرت الرجل بشارة
 إذا أدخلت عليه السرور . والعشائر : جمع عشيرة ، وهي قرابة الرجل من قبيلته ،
 يقول : أنتم أرفع الذخائر ، وخيرها ، وأنتم يستبشرون لقيمكم برويتكم ، وبتيامن
 بلقائكم ، ويعلم أنكم تصلونه وتكرمونه ؛ ليستعطفهم بهذا الكلام . عموا
 صباحا : دعاء لهم بالنعمة في الصباح ، أى جعلكم الله تنعمون فى صباحكم .
 وعموا : أمر من وعم يعم ، وهى فى معنى نعيم ينعم . وأنعموا اصطباحا ، أى طاب
 شربكم فى الصبح وتنعمتم به ، والاصطباح : أن يُصبحوا وهم يشربون . ندى :
 مجلس اجتماع ، أى هو شريف يُقدو ويجتمع عنده . ندى : كرم . جدى : عطية .
 العقار : المال الذى لا ينتقل كالنخل والدور والأرضين . قرى : جمع قرية .
 مقار : جفان يُقرى فيها الأضياف ، أى يطعمون فيها . والقرى : طعام الضيف .
 قُطوب . عبوس . الخطوب : الشدائد . الحروب : القتال . الكروب : الهموم ،
 قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مما أعلم أنه لا يقوله مكروب إلا فرّج الله عنه ، كلمة
 أخى يونس : ﴿ فَنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت ... ﴾ الآية » .

ومن كلام ابن المعتز : الحوادث الحضة مكسبة لحظوظ جزيلة ، وثواب مدخر ،
 وتطهير من ذنب ، وتنبيه من غفلة ، وتعريف بقدر النعمة ، ومرور على مقارعة
 الدهر ، وإذا استرجع الله مواهب الدنيا كانت مواهب الآخرة .

غيره : لولا حوادث الأيام ﷻ لم يعرف صبر الكرام ، ولا جزع

الناس .

وقال أبو تمام :

والحادثاتُ وإن أصابَكَ بُؤْسُهَا فهو الذى أُنْبَاكَ كيفَ نعيمِهَا^(١)

الحسود : التمتعى إهلاك مالك ، وإذا رأى لك خيراً تمنى إزالته ، يريد أن الحسود اتبع ماله بالعين حتى أهلكه ، وقَلَّمَا يُوجد الذى يرمى بالعين إلا حسودا . انتياب : نزول وقصود . الثوب : النوازل . قوله ، « صفرت » ، أى خلت من الدراهم الراحة : باطن الكف . قرعت : خلت من المال وصارت قرعاء . والساحة : فناء الدار ، والساحة عند العرب : الرَحْبَة التى تُحلق بها البيوت ، وأراد أنها خلت من الإبل والبقر والغنم وغير ذلك . غار المنبع : جفَّ الماء النابع ، والمنبع : موضع النّبع . المربع : المنزل فى الربيع . ونبا : بأهله : وجد نبوة ، أى ارتقاها غير وطىء فلم تمكن الإقامة فيه . أقوى : خلا . الجمع : موضع الاجتماع . أقض : حَشُن وصار فيه القَضَض ، وهى الحجارة . والمضجع : موضع رقاذه ، وأخذه من قول أبى ذؤيب :

أَمْ ما لجنبِكَ لا يلائِمُ مَضْجَعًا إِلَّا أَقْضَى عَلَيْهِ ذَاكَ الْمَضْجَعُ^(٢)

وكفى بهذه الألفاظ عن تغير الأحوال وذهاب الملل .

وساق الكلام مساق حكايات الأعراب ؛ منها أن أعرابياً وقف بقوم ، فقال : أشكو إليكم أيُّها الملا زماناً أناخ على بكلِّكـله بعد نعمة من البال ، وثروة من المال ، وغبطة من الحال ، أضمَّانِي جديدها بنبـل مصائبه ، عن قِسمي نوائبه ، فاترك لى راغية أجتدى ضررَها ، ولا ناغية أرتجى نفعها ، فهل فيكم من معين على صرفه ، أو مُعْذِر على حتفه !

(١) ديوانه ٣١٠

(٢) ديوان الهمذليين ٢ .

وقد ذكرنا منها جملة في الثالثة والثلاثين . وحكى أبو عليّ في نوادره حكاية عن أبي زيد اللغويّ على لسان أعرابيّ يشبه كلام الحريريّ هنا في سياقه وكثير من الألفاظ ، فيقول : إنّ المنبع الذي كنا نعيش به نحن وأموالنا قد ذهب ، فهل كنا بذهابه . والمربع : وهو موضع الخصب ، صار نبوة لا ينبت شيئاً ، فلم تجد الإبل ما ترعاه فهلك ، وإذا هلك المال هلك صاحبه ، والمجالس التي كنا نجتمع فيها ، هلك أهلها فخلّت ، ومضجعنا الذي كان موطاً بالفُرَش أفضّ فامتنع من الإضجاع عليه .

قوله : « استجالت ، تغيّرت » . وحال الرجل : ما هو عليه من خير أو شرّ أو غنى أو فقر ، والحال أيضاً : المال . أعول : بكى ، وعيال الرجل : من يفتقر إليه في مؤنته ونفقتة ، واحدهم عيّل . الرابط : الموضع التي تربط فيها الخيل وتُخبَس . الغابط : الذي يتميّ مثل مالك ولا ينقص منه شيء . أودى : هلك . الناطق : المال من الحيوان مثل الإبل والبقر والغنم ، وكلّ ما يملك من ذى روح ؛ سميت بذلك لأصواتها ، والناطق كل حيوان له صوت . والصامت : الذهب والفضة والمتاع . رثى : بكى . وأشفق الشامت : الذي يُسرّ بمصيبتك ، ومنه تسميت العاطس ، وهو إدخال السرور عليه بالدعاء ، وقد شمت به شماتاً وشماتة ، فهو شامت إذا سرّ ببلاء ينزل به . والحاسد ، هو الحسود .

[فصل في الحسد وما قيل فيه]

والحسد أوّل ذنب عصى الله به في السماء والأرض ، أما في السماء فحسد إبليس آدم ، وأما في الأرض فحسد قاييل هابيل .

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالْإِنْسِ﴾^(١): إنهما قابيل وإبليس ، فالحسد حمل إبليس على الكفر ، وحمل قابيل على قتل أخيه .

وقال علي رضي الله عنه : لا راحة لحسود ، ولا أخ للول ، ولا محب لسيئ الخلق .

وقال رجل لخالد بن صفوان : إني أحبك ، قال : وما يمنعك ، ولست لك بجارٍ ولا أخٍ ولا ابن عمٍّ ! يريد أن الحسد موكل بالأدنين .

الحسن البصري : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلومٍ من حاسد بنفسٍ دائم ، وحزن لازم ، وغيره لا تنفذ .

معاوية : كل الناس أقدر على أن أرضيهم إلا حاسد نعمة ، فإنه لا يرضيه إلا زوالها .

المبرد : حدثنا الزبدي ، قال : يقال : ستة لا تحطهم الكتابة : فقير حديث عهد بغنى ، ومكتر يخاف على ماله التلف ، والحسود ، والحقود ، وطالب مرتبة فوق قدره ، وخليط أهل الأدب وليس منهم .

قال الأصمعي : اجتمع ثلاثة حساد ، فقال أحدهم لصاحبه : ما بلغ من حسدك ؟ قال : ما شتهيت أن يفعل بمسلم خير قط ، فقال الثاني : أنت رجل صالح ، ولكني ما شتهيت أن يفعل بي خير قط ، فقال الثالث : ما في الأوض خير منكما ، ولكني ما شتهيت أن يفعل أحد بأحد خيراً قط .

قال : وأنشد الشاعر :

كلّ العداوة قد تُرجى مودتها إلا عداوة من عاداك من كبد

وقال حبيب :

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ
طُوبِتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودٍ^(١)
لَمْ يَلَا شَتَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ
مَا كَانَ يُعْرِفُ طَيْبُ عَرَفِ الْعُودِ

وقال القاضي ابن عمر :

نَهَانِي حِلْمِي فَمَا أَظْلِمُ
وَعَزَّ مَكَانِي فَمَا أَظْلِمُ
وَلَا بَدَّ مِنْ حَاسِدٍ قَلْبُهُ
بَنُورِ مَا ثَرْنَا مُظْلِمُ
رَحِمْتَ حَسُودِي عَلَى أَنَّهُ
يَعَذِّبُ بِي ثُمَّ لَا يُرْحَمُ
أَتَانَا الْحُسُودَ وَلَسْنَا كَمَا
يَقُولُ وَلَكِنْ كَمَا يَعْلَمُ

وقال البائي :

إِنِّي لَأَرْحَمُ حَاسِدِي لَقَرُطَ مَا
ضَمَّتْ صُدُورُهُمْ مِنَ الْأَوْغَارِ
نَظَرُوا صَنِيعَ اللَّهِ بِي فَعَيُونُهُمْ
فِي جَنَّةٍ وَقُلُوبُهُمْ فِي نَارِ
لَا ذَنْبَ لِي قَدْ رُمْتُ كَثْمَ فَوَاضِلِي
فَكَأَنَّمَا بَرَقَتْهَا بَنَاهَارِ

قوله : «رثي لنا الحاسد والشامت» : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ارحموا
ثلاثاً : غنى قوم افتقر ، وعزيز قوم ذل ، وفقير يابى به الجهال » .

قال الشافعي : خمسة مرحومون : عزيز ذل ، وغنى قل ، وحبيب مل ، وفصيح
كل ، وفقير ضل .

وقال الشافعي : ومن حديث وائلة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« لا تُظهِرِ الشَّمَاتَةَ بِأَخِيكَ ، فَيَعَايِهِ اللَّهُ وَيَتَأْتِيكَ » ، وأخذه الحريري من قول الآخر :

لَمْ يَبْقَ إِلَّا نَفْسٌ خَافَتْ
وَمُغْرَمٌ تَوَقَّدُ أَحْشَاوُهُ
بِالنَّارِ إِلَّا أَنَّهُ سَاكِتٌ
رَقَّ فَمَا فِي جِسْمِهِ مَفْصَلٌ^(٢)
إِلَّا وَفِيهِ سَقَمٌ ثَابِتٌ

(١) ديوانه ٨٥٠

يرثي له الشامتُ مِمَّا بِهِ يَؤْيَحُ مَنْ يرثي له الشامتُ !

* * *

وآل بنا الدهرُ الموقِعُ ، والفقرُ المذقِعُ ، إلى أن احتذينا الوجي ،
واغتذينا الشجَا ، واستبطننا الجوى ، وطوينا الأخشَاءَ على الطوى ،
واكتحلنا السُّهَادَ ، واستوطننا الوهَادَ ، واستوطننا القِتَادَ ، وتناسينا
الأقْتَادَ ، واستبطننا الحينَ المَجْتَاخَ ، واستبطننا اليومَ المَتَاخَ ، فهل
من حُرٍّ آسٍ ، أو سَمَحٍ مواسٍ ! فوالذى استخرجنى من قَيْلَةٍ ،
لقد أُمْسِيتُ أختًا غَيْلَةً ، لا أملكُ بيتَ لَيْلَةٍ .

قال الحارث بن مَهْمَمٍ : فَأَوَيْتُ لِمَفَاقِرِهِ ، وَلَوَيْتُ إِلَى اسْتِنْبَاطِ
فَقَرِهِ ، فَأَبْرَزْتُ دِينَارًا ، وَقُلْتُ لَهُ اخْتَبَارًا : إِنْ مَدَحْتَهُ نَظْمًا ، فَهُوَ
لَاكَ حَتْمًا ، فأنبرى مِينَشِدُ فِي الْحَالِ ، مِنْ غَيْرِ انْتِحَالٍ .

* * *

قوله : « آل بنا » أى رجع بنا ، وقد آل بثيل ويثول ، أى رجع . الموقِعُ :
المهلك ، من أوقع به ، ويحتمل أن يريد بالموقع الذى يحمله على الوقوع ، ورجل موقع
إذا اشتكى ألم رجليه . المدقع : الملتصق بالدقما ، أى التراب ، أى لم يترك للإنسان
شيئًا يبسطه غير التراب . احتذينا : اتعلمنا . الوجي : توجع باطن القدمين من الحفا ،
يريد أنه لبس مكان النعال الحفا حتى توجعت قدماه . الشجى : ما يعرض فى
الخلق ، وكفى بهذا عن سوء الحال ، لأن الشجى ليس بغذاء إنما هو مَقْتَعَةٌ وتعب .
ولكن بالغ فى وصف سوء حاله ، فقال : إنه يَنْتَعِلُ مالا يُنْتَعِلُ ، ويعتدى ما ليس .

بغذاء ، أى ليس ثمَّ انتعال ولا غذاء . استبطنا ، أى جعلناه فى بطوننا . الجوى : فساد الجوف . والأحشاء : مافى الجوف وماحشى به . الطوى : الجوع ، وقد طوى يَطْوَى ؛ لأن الأحشاء إذا امتلأت من الطعام انتشرت ، وإذا فرغت منه انطوى بعضها على بعض . والشهاد : امتناع النوم ، من قول الشاعر :

ما لِعَيْنِي كُجِلَتْ بِالشَّهَادِ وَلَجَنِي نَابِيًا عَنْ وَسَادِي

استوطنا : سكننا واتخذناه وطنًا . الوهاد : ما انخفض من الأرض . استوطنا : وجدناه وطينا . القتاد : شجر له شوك شديد يستوى عندنا حمض الأمير . الاقتاد : خشب الرِّحال ، يريد أنهم نسوا ركوب المطايا لبعدهم بها ورجعوا الآن يمشون على الشوك فيجدونه وطينا . الحين : الموت . المحتاح : من لفظ الجوائح ، يريد به المستأصل للأموال . استبطنا : وجدناه بطىء الحياء . المتاح . المقدَّر ، يريد أن يوم موتهم تمتوه لشدة ما قاسوا ، وأبطأ عليهم . آس : طيب يطب علة الفقر والجمع الأساة . ممح : كريم . والمواسى : المعين . وذكر عاصم فى شرح قوله : « يواسى فى كريهته أخاه » ، أن معناه ، جعله أسوة نفسه ، فواسى من الأسوة ، كأنه يشاركه فى ماله . ويقال : آسيته ، والأصل الهمز .

المفضل : معنى فلان يواسى فلانا ، يشاركه ، والمواساة المشاركة ، وآساه : شاركه فيما هو فيه .

مؤرَّج : ما يواسيه ، أى ما يصيبه بخير أصلا .

غيره : معناه يعوضه من مودته وقربته شيئا ، من الأوس وهو العوض . قال الشاعر :

فَلَا زِمَيْتَكَ مِشْقَصًا أَوْسًا أَوْيسُ مِنَ الْهَبَالَةِ^(١)

(١) اللسان- هبل ، ونسبه إلى أسماء بن قحارة ؛ وفيه أن الهباله اسم ناقة أسماء بن قحارة . ورواية اللسان : « لأحشأنك » .

والهبالة: اسم ناقة ، أى أرميك بسهم يكون عَوْضًا عن الناقة . وَكَأَنَّ أَصْلَهُ
يؤاوسه ، فقدموا السين وهى لام الفعل ، وأخروا الواو وهى عينه ، فصار « يؤاوسه »
فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، فهو من المقلوب ، وإن جعلته من أسوتُ
الجرح ، إذا أصاحته فلا قلب فيه .

قوله : « فوالذى استخرجنى من قبيلة » ، قبيلة هى أمّ الأوس والخزرج ، وهى بنت
الأرقم الغسانية ، وانتسابه لها كانتسابه قبل إلى أقيال غسان . أخت عَيْلَة : صاحب
فقر ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ ^(١) ، أى فقراً ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أعود
بك من القسوة والغفلة والعيلة والمسكنة » . بيت ليلة : قوت بيت عليه ليلة .

أويت : أشفقت وحننت . مفارقة : جمع فقر على غير قياس - ومثله مذا كبر
الرجل جمع ذَكَر : محاسنه ومساويه . لويت : انعطفت . استنباط : استخراج .
الفقر فى النثر : فواصله ، وهى مثل القوافى فى النظم ، والفقر : ما تقدّم فى المقامة من
الكلام المفقر . أبرزت : أطهرت . حمًا : واجبًا ، يريد أنه قصد إلى أن يحقّق
ما تقدّم من الفصاحة فى فقره إن كانت له أو انتحلها ، فقال ليختبره : امتدح هذا
الدينار بشعر . فأنبرى ، أى اعترض وتقدّم . انتحال : ادّعاء منه فى شعر غيره ،
يقال : انتحل كذا ، أى ألزمه نفسه ، وجعله كالملك ، من النحلة ، وهى المِبة
والعطية .

* * *

أَكْرِمَ بِهِ أَصْفَرَ رَأَتْ صُفْرَتَهُ	جَوَابَ آفَاقٍ تَرَامَتْ سَفْرَتَهُ
مَأْثُورَةً سَمِعْتُهُ وَشَهْرَتُهُ	قَدْ أودِعَتْ سِرَّ الْغِنَى أَسْرَتَهُ
وَفَارَنْتَ نَجْحَ الْمَسَاعِي خَطَرَتُهُ	وَحُبِّبْتَ إِلَى الْأَنَامِ غُرَّتَهُ
كَأَنَّمَا مِنَ الْقُلُوبِ نُقِرَتُهُ	بِهِ يَصُولُ مَنْ حَوْنُهُ خُمُرَتُهُ

(١) سورة التوبة ٢٨ ،

وَأِنْ تَفَافَتْ أَوْ تَوَانَتْ عِزَّتُهُ يَا حَبِذَا نُضَارُهُ وَنُقْرَتُهُ
وَحَبِذَا مَغْنَمَاتُهُ وَنُصْرَتُهُ كَمْ أَمْرٍ بِهِ اسْتَنْبَتَ إِمْرَتُهُ
وَمُتَرَفٍ لَوْلَاهُ دَامَتْ حَمْرَتُهُ وَجَيْشٍ هَمٍّ هَزَمَتْهُ كَرَّتُهُ
وَبَذْرِ تَمٍّ أَنْزَلَتْهُ بَذْرَتُهُ وَمُسْتَشِيطٍ تَتَلَطَّى جَهْرَتُهُ
أَسْرًا نَجْوَاهُ فَلَانَتْ شِرَّتُهُ وَكَمْ أَسِيرٍ أَسْلَمَتْهُ أَمْرَتُهُ
أُنْقَذَهُ حَتَّى صَفَتْ مَسَرَّتُهُ وَحَقُّ مَوْلَى أُبْدَعَتْهُ فِطْرَتُهُ
* لَوْلَا التَّقَى لَقُلْتُ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ *

قوله: «اكرِّم به»، معناه مأكرمه. راق. أعجبت. جواب آفاق :
قطاع بلاد. ترامت سفرته : بعدت غيبته، وسى السفر سفراً، لأنه يسفر عن
أخلاق الرجال، أى يكشفها ويوضحها، أخذ من قولهم : سقرت المرأة عن
وجهها، إذا كشفته وأظهرته، ويقال للمكنسة : مسفرة، لأنها تسفر التراب
عن الموضع، وسفر بيته، كنسه. مأثورة : محدث بها. سمعته : ذكره المسموع.
أودعت : ضمنت. أسرته : خطوط وجهه، أراد نقشه، وأن بين أسطاره سر-
الغنى، فمن ملكه ملك الغنى. فارنت : ساوت : النجح : ضد الخيبة. المساعى :
المشى فى طلب الحوائج. الأنام : الخلق. غرته : وجهه ؛ قيل لأبى الزناد : مالك
تحب الدراهم وهى تدنيك من الدنيا ! قال : إنها وإن أدنتنى من الدنيا ، فقد
صانتنى عنها . والنقرة : القطعة المسبوكة من الذهب والفضة ، قبل أن يطبع منها
الدراهم والدنانير ، وأراد : كأنما قطعت نقرته من قلوب الناس لشدة حبهم
فيه . والنقرة ، إنما تستعمل من الفضة ، واستعملها فى الذهب لقرب ما بينهما ،
وأخذه من قول البحترى :

فكَلَّ قلبٍ إليه منصرفٌ كأنَّه من جميعها خُلِقًا (١)
أو من قول ابن الرومي :

به أُمست الأهواء يجمعها هوى كأنَّ نفوسَ النَّاسِ في حَبِّه نفسُ
أو من قول المتنبي :

في خَطِّه من كلِّ قلبٍ شهوةٌ حتَّى كأنَّ مداده الأهواء (٢)

يصول : يقهر ويفلب ، وصال الشجاع على قِرْنِه ، والفحل على إبله ، والحمار
على أنَّه صَوْلًا ، إذا قهر وعلا وصاح بها . الصَّرة : الخرقة تصرُّفها الدراهم . حوته :
ضَمَّتْه ، يريد أنَّ مَنْ مَلَكَ الدينار صال به على زمانه . تَفَانَتْ : هَلَكَتْ . تَوَانَتْ :
أَبْطَأَتْ وضعفت عن نصرته . عِترته : قرابته الأَدْنَوْنَ . نضاره : ذهبه . نضرته :
حسنه . مغناته : منابه ، يقال فلان يغني مغناتك ، أى ينوب منك ، ويقوم مقامك ،
يريد أنه ينوب عن الإنسان في المضايق وينصره . استتَبَّتْ : تَمَّت واستقامت ،
والمستتب : الطريق البين ، قال الشاعر :

* على مستتب كالجِرة تعمل *

إمرته : ولايته . مُتَرَف : منعم . حسرتة : تفجعه ، وحزنه . كَرَّتْه : رجعتة ،
وبدريتم : القمر ليلة الكمال ؛ ويريد به شخصاً يشبه البدر في حسنه ورفعته ، فإذا
بعثت في طلبه الدينار أنزلته عن مرتبته وتملكته ، والبُدرة : عشرة آلاف درهم .
مستشيط : غضبان : تتلظى : تتأهب . جمرته : شدة غيظه . أسر : أخفى . نجواه :
حديثه سرّاً . شِرتَه : حدته وغضبه ، يقول : كم من غضبان شديداً الفيط ، مثل

(١) فلحق ديوانه ٢٦١٥ .

(٢) ديوانه ١ : ٢٠ ، والأهواء : جمع هوى ، مقصور ، وهو المحبة .

حَاكِمٌ يَصُولُ بِصَاحِبِ جَنَایَةِ وَيَهْدِدُهُ ، فَإِذَا رُشِيَ بِالْدينَارِ وَبُعْثَ إِلَيْهِ سِرًّا أُرْأَلُ
غَضَبُهُ ، وَسَكَنَتْ حِدَّتُهُ . أَسْلَمْتَهُ ، تَرَكَتَهُ . أَسْرَتَهُ : قَوْمَهُ . مَسْرَتَهُ : فَرَحَهُ .
أَبْدَعْتَهُ : أَوْ جَدَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ . فَطَرْتَهُ : خَلَقْتَهُ . التَّقَى : الْخَوْفَ . جَلَّتْ : عَظُمَتْ .

* * *

ثُمَّ بَسَطَ يَدَهُ ، بَعْدَ مَا أَنْشَدَهُ ، وَقَالَ : أَنْجَزَ حُرٌّ مَا وَعَدَ ،
وَسَجَّ خَالٌ إِذَا رَعَدَ . فَنَبَذْتُ الدِّينَارَ إِلَيْهِ ، وَقُلْتُ : خُذْهُ غَيْرَ مَأْسُوفٍ
عَلَيْهِ ، فَوَضَعَهُ فِي فِيهِ ، وَقَالَ : بَارِكِ اللَّهُمَّ فِيهِ ، ثُمَّ شَمَرَ لِلانْتِثَاءِ ،
بَعْدَ تَوْفِيَةِ الثَّنَاءِ .

* * *

[قصة المثل : أنجز حرٌّ ما وعد]

قوله : «أنجز حرٌّ ما وعد» ، هذا مثل ، قاله الحارث آكل المرار - وهو جدُّ
امرى القيس - لصخر بن نهشل بن دارم ؛ وذلك أن الحارث قال : يا صخر ، هل أدلك
على غنيمة على أن لي خمسها ؟ قال نعم ، فدلّه على قوم من العرب ، فأغار عليهم صخر
بقومه فظفروا وغنموا ، فحملهم صخر على أن يعطوا الحارث الخمس ، فأبوا ؛ وكان
طريقهم على شجعات - وهى ثنية متضايقة - فلما دنوا منها صار إليهم صخر حتى
قعد على رأسها ، ومنعهم الجواز أو يعطوا الحارث الخمس ، فقال حمزة اليربوعي :
والله لا نعطيهِ من غنيمتنا شيئاً ؛ ومضى فى الثنية ، فحمل عليه صخر فقتله . فلما
رأى ذلك الجيش أعطوه الخمس ، ففى ذلك يقول نهشل بن حرّى بن منجز
ابن نهشل بن دارم :

وَنَحْنُ مَنَعْنَا الْجِيْشَ أَنْ يَتَأَوَّبُوا
عَلَى شَجَعَاتٍ وَالْجِيَادِ بَنَاتِجِي
حَبْسَانَهُمْ حَتَّى أَقْرَوْا لِحَكْمِنَا
وَأَدَّى أَثْقَالَ الْخَمِيسِ إِلَى صِخْرِ

فمعنى «أنجز حرث ما وعد»^(١) أحضر وهياً. وقد نجز الشيء إذا حضر، ولفظه لفظ الخبر، ومعناه الأمر، أراد لينجز حرث ما وعد.

* * *

سَحَّ: صبَّ وأمطار. خال: سحاب يحيل لك أن المطر فيه. رعد: صوت؛ يقول لابن همام: إن السحاب إذا سمع الرعد سَحَّ بالمطر، وأنت قد أسمعني ذكر الدينار، ووعدتني به، فأُنجز لي وعدى.

نبذت: رميت. مأسوف: محزون. باريك: أى ضع البركة فيه، وقولهم: تبارك الله، أى تقدس وتطهر، وقيل: هو «تفاعل» من البركة، أى البركة تنال بذكر اسمك. الانثناء: الرجوع. توفية الثناء: كمال الشكر والمدح.

[مما قيل فى وصف الدينار]

ومما قيل فى وصف الدينار ومدحه :

وَمُقَسَّمِ الْوَجَنَاتِ يَبْرِقُ وَجْهَهُ بَادٍ عَلَى وَجَنَاتِهِ عِبَادُ
جُبَلِ الْأَنَامِ عَلَى حُبَّةِ حَسَنِهِ فَكَأَنَّهُ رَبٌّ وَهُمْ عِبَادُ
وفى مقامات البديع فى وصفه .

يَاحْسَنَهَا فَاقْعَةُ صَفَرَاءِ مَشْرَقَةٌ مَنقُوشَةٌ قَوْرَاءِ^(٢)
يَكَادُ أَنْ يَقْطَرَ مِنْهَا الْمَاءُ قَدْ أَثْمَرَتْهَا هَمَّةٌ عَلَيْهِ
يَاذَا الَّذِي بَغِيَتْهُ الثَّنَاءُ مَا يَنْقُضِي بِقَدْرِكَ الْإِطْرَاءُ

* امض عَلَى اللَّهِ لَكَ الْجَزَاءُ *

* * *

(١) جهرة الأمثال ١ : ٣٠ ، فصل المقال ٧٩ ، الفاخر ٦١ .

(٢) مقامات البديع ٩٢ ، وفيها : « ممشوقة » بدل « مشرقة » .

[فصل في الوعد ومذاهب الناس فيه]

وإذا قد فرغت من شرح ألفاظه في إنجاز الوعد في المثل ، وما اتصل به ، فلنذكر مذاهبهم في ذلك .

فأكثرهم على إنجاز الوعد ، وقد ذكر فيما هو مستقبل :

* وبع آجلاً منك بالعاجِلِ *

وقال : وإذا خُيِّرَ بين ذرّة منقودة ، وذرّة موعودة فَمِلْ إلى النقد .

وقال جرير :

إِنِّي لأَرْجُو مِنْكَ خَيْراً عاجِلاً وَالنَّفْسُ مَوْلَعَةٌ بِحُبِّ الْعَاجِلِ (١)

قال آخر :

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْخَيْرَ مِنْكَ سَجِيَّةٌ وَلَكِنْ خَيْرُ الْخَيْرِ عِنْدِي الْمَعْجَلُ

وقال آخر :

أَتَى زَائِراً مِنْ غَيْرِ وَعْدٍ وَقَالَ لِي : أَجَلُّكَ عَنْ تَعْذِيبِ قَلْبِكَ بِالْوَعْدِ

وبعضهم يرى أن يكون بين الوعد والإنجاز مهلة ؛ ومنه أن منصور بن زياد كَلَّمَ يحيى بن خالد في حاجة رجل ، فقال له : عدّ عني قضاءها ، فقال منصور بن زياد : وما يدعوك إلى العِدَّة مع القدرة ! فقال : هذا قول مَنْ لَا يَعْرِفُ مَوْقِعَ الصَّنَائِعِ مِنَ الْقُلُوبِ ، إِنَّ الْحَاجَةَ إِذَا لَمْ يَتَقَدَّمْهَا وَعْدٌ يُنْتَظَرُ بِهِ نَجْحُهَا ، لَمْ تَتَحَدَّثِ النَّفْسُ بِسُرُورِهَا ؛ إِنَّ الْوَعْدَ مَطْعَمَ وَالْإِنْجَازَ طَعَامَ ، وَلَيْسَ مِنْ فَاجَأَةٍ طَعَامُ كَمَنْ وَجَدَ رَأْتَمَتَهُ وَطَعْمَهُ ثُمَّ طَعِمَهُ ، فَدَعِ الْحَاجَةَ تَحْتَمِرُ بِالْوَعْدِ ، لِيَكُونَ لَهَا عِنْدَ الْمَصْطَنِعِ حَسَنٌ مَوْقِعٌ وَلَطْفٌ مَحَلٌّ .

(١) ديوانه ٤٩٥ ، من قصيدة له في مدح عمر بن عبد العزيز .

(١٠ - شرح مقامات الحريري ١)

قال ابن الكلبي لهشام بن عبد الملك : يا أمير المؤمنين ، لاتصنع إلى معروفًا حتى تعدني به ، فإنه لم يأتني منك سب على غير وعد إلا هان على قدره ، وقل مني شكره ، فقال له : لِمَ قلت ذلك ، وقد قال سيد قومك أبو مسلم الخولاني : إن أنجح المعروف في القلوب ، وأبرده على الأكباد معروف غير منتظر بوعده لا يكدره مَطل .

ووعده المهدي^(١) عيسى بن دأب جارية ثم وهبها له ، فأنشده عبد الله بن مصعب الزبيري [قول مضرس الأسدي]^(٢) :

ولا تياسن من صالح أن تناله وإن كان قدمًا بين أيدي تبادره
فقال : يُدفع لعبد الله جارية أخرى ، فقال الزبيري :
وأنجز خير الناس من قبل وعده أراحك من مَطل ومن طول كده
فقال له عيسى بن دأب : ما صنعت شيئًا ! هلاً قلت :
حلاوة الفضل بوعده ينجز لا خير في العرف كنهب يُنهز
فقال المهدي :

الوعد أحسن ما يكو ن إذا تقدمه ضمان
وقال بعض البلغاء : دع الوعد يركض ثلاثًا ، فإن كثير العطاء قبل الوعد قليل ، وجليله حقير .

وقال يحيى بن خالد : من لم يبت مسروراً بوعده ، لم يجد للصنعة مطعمًا وفيه بقول أبو قابوس النضراني :

رأيت يحيى أتم الله نعمته عليه يأتى الذى لم يأتِه أحد
ينسى الذى كان من معروفه أبدًا إلى الرجال ولا ينسى الذى يعد

(٢) من معجم الأدباء

(١) ط : « المستهدى » تحريف .

(٣) الخبر في معجم الأدباء ١٦ : ١٥٤

وقال الحارثي :

وما رَوْضَةٌ دَارِيَّةٌ أَسَدِيَّةٌ مَنَّمَةٌ زَهْرَاءُ ذَاتُ ثَرِيٍّ صَعْدِ
يَأْحَسَنَ مِنْ حُرٍّ تَضْمَنَ حَاجَةً لِحُرٍّ ، فَأَوْفَى بِالنَّجَاحِ مَعَ الْوَعْدِ

وقال ابن رشيق :

أَحْسَنْتَ فِي تَأْخِيرِهَا مِنَّةً لَوْ لَمْ تَتَوَخَّرْ لَمْ تَكُنْ كَامِلَةً^(١)
وَكَيْفَ لَا يَحْسَنُ تَأْخِيرُهَا بَعْدَ يَقِينِي أَنَّهَا حَاصِلَةٌ !
وَجَنَّةُ الْفَرْدَوْسِ يَدْعَى بِهَا أَجَلَةٌ لِلْمَرْءِ ، لَا عَاجِلُهُ

وقال رجل لأبي عمرو بن العلاء: وعدتني بأمر فلم تنجزه ! فقال أبو عمرو :
من أُولَى مِنَّا بالعتب ؟ أنا وإلا أنت ! قال : أنا ؛ قال أبو عمرو : لا والله بل
أنا ، قال : وكيف ؟ قال : لأنني وعدتك وعداً فأنت تفرح بالوعد ، فبئت ليلتك
جذلاً نَ مسروراً وبئت أنا بهم الإنجاز ، فبئت ليلتي منكراً مغموماً بما عاق الدهر
من بلوغ الإرادة فيه ، فلقمتني مدلاً ولقمتك مستعجياً .

واعتذر بعض الرؤساء لأبي عليّ البصريّ من تأخر وعد ، فقال : في شكر
ما تقدّم من إحسانك شاغل عن استبطاء ما تأخر منه .

فَنَشَأْتُ لِي مِنْ مُكَاهَنَةِ نَشْوَةِ غَرَامٍ ، سَهَّلْتُ عَلَى اتِّنَافِ
اغْتِرَامٍ ، فَجَرَّدْتُ دِينَارًا آخَرَ وَقُلْتُ لَهُ : هَلْ لَكَ فِي أَنْ تَذُمَّهُ ، ثُمَّ
تَضُمَّهُ ؟ فَأَنْشَدَ مُرْتَجِلاً ، وَشَدَّ آعِجَلاً :

قوله : «فتشأت»، أى ظهرت وبدت. فكلّاهة: مزاح. نشوة غرام: سكرة شوق، والغرام: الحبّ المعبّد للقلب. ائتفاف: استقبال. اغترام: غرّم. ثم ذكر أن يذمه ثم يضمّه، وقد نظمهما الزاهد بن عمران فى قوله :

إنّ المؤنة والحسابَ كلّاهما قرنا بهذا الدرهم للذمِّ مومـ
كف الأنام بذمه وبضمِّه فتعجّبوا للذمِّ مضمومـ

وقال ابن شرف فى الدينار والدرهم :

ألا ربّ شئ فيه من أحرف اسمه نواه لنا عنه وزجر وإنذار
فئتنا بدينار وهمنّا بدرهم وآخر ذاهم، وآخر ذا نار
وقال ابن رشيق :

صحفت دالين من دينة ار يلوح ودرهم
فقال لى ذلكم «ذى نار» وذاقال: «ذرهم»

وابن رشيق وابن شرف أديبا القيروان، يجمعهما البلد والزمان، وكانا مرّة يتصاحبان، ومرّة يتباغضان.

وقال ابن رشيق فى مدح الدينار والدرهم :

صديق المرء كالدينار طبعاً وكيف يفارق المرء الطباعاً !
تراه إذا أقام يقيمُ جاهاً وإن فارقتَه أجدى انتاعاً
أخذه من قول كُشاجم :

ومريد من أباه ومهين من أجَله^(١)
فهو كالدينار لا يُكـ -رُم إلا من أذله

وقال آخر :

النارُ آخر دينارٍ نطقتَ به والهمَّ آخر هذا الدرهم الجارى
والمرء ما لم يفد من غيره ورعاً مقسم القلب بين الهمِّ والنارِ

قوله : «مرتجلاً» ، أى من غير تفكير . شدا : ابتدأ الفناء وطرب بنشيد

* * *

تَبَّأَ لَهُ مِنْ خَادِعٍ مُمَازِقٍ أَصْفَرَ ذِي وَجْهَيْنِ كَأَلْمَانِقٍ
يَبْدُو بِوَصْفَيْنِ لِعَيْنِ الرَّامِقِ زِينَةُ مَعْشُوقٍ وَلَوْنُ عَاشِقٍ
وَحُبُّهُ عِنْدَ ذَوِي الْحَقَائِقِ يَدْعُو إِلَى أَرْكَابِ سُخْطِ الْخَالِقِ
لَوْلَاهُ لَمْ تُقْطَعْ يَمِينُ سَارِقٍ وَلَا بَدَتْ مَظْلَمَةٌ مِنْ فَاسِقٍ
وَلَا اشْمَازٌ بِاخِلٍ مِنْ طَارِقٍ وَلَا شَكَا الْمَطُولِ مَطْلَ الْعَائِقِ
وَلَا اسْتَعِيدَ مِنْ حَسُودٍ رَاشِقٍ وَشَرُّ مَا فِيهِ مِنَ الْخَلَائِقِ
أَنْ لَيْسَ يُغْنِي عَنْكَ فِي الْمَضَائِقِ إِلَّا إِذَا فَرَّ فِرَارَ الْآبِقِ
وَاهَا لِمَنْ يَفْضِدُهُ مِنْ خَالِقٍ وَمَنْ إِذَا نَجَّاهُ نَجْوَى الْوَاقِقِ
قَالَ لَهُ قَوْلَ الْحَقِّ الصَّادِقِ : لَا رَأْيَ فِي وَصْلِكَ لِي فَفَارِقِ

* * *

تَبَّأَ : أى خسرأ . مُمَازِقٍ : لا ينفو وده لصاحبه ، وقد مذق وده ، إذا لم يخلصه ، ومذق اللبن : خلطه بالماء ، والمذيق : الخلوط . أَصْفَرَ ذِي وَجْهَيْنِ ، قال

أبو هريرة رضى الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «شرّ الناسِ دوّ الوجهين، يأتى هؤلاء بوجهٍ، وهؤلاء بوجهٍ».

ووقع هذا في نثر البديع، قال في مخاطبة أبي الفتح عيسى^(١): أظعنّا تريد؟ قلت: إى والله، قال: أخصّب رائدك، ولا ضلّ قائدك، فمتى عزمت؟ قلت: غداً غدٍ، فقال:

صباحُ الله لا صبحُ انطلاقٍ وطيرُ الوصل لا طيرُ اقراقٍ
وقال السَّعد لا يعدوك دأباً يصاحبكم إلى يومِ التَّلَاقِ^(٢)

فأين تريد؟ قلت: الوطن، قال: بُلّغت الوطن، وقضيتَ الوطر، فمتى العود؟ قلت: القابل، فقال: طويتَ الرِّيط^(٣)، وثنيت الخيط، فأين أنت من الكرم؟ قلت: بحيث أردت، فقال: إذا رجعت الله سالماً من هذا الطريق؛ فاستصحب لى عدوّاً في ثياب صديق، من نجار الصُّفَر، يدعو إلى الكفر، ويرقص على الطُّفَر، كدارة العين، يحطّ ثِقَل الدُّنْى، وينافق بوجهين. فعملت - أنه يلتمس ديناراً، فقلت: ذلك لك نقداً، ومثله وعداً، فأنشأ يقول:

رأيتُك ممّا خطبتُ أَعلى لا زلتَ للكرُماتِ أهلاً
صَلَبْتَ عوداً، ودمتُ فرداً^(٤) وطبتُ فرعاً وطبتُ أصلاً
يا واحدَ الدهرِ والمعالى لا لقيَ الدهرُ منك تُكلاً

قوله: «عدوّاً في ثياب صديق» من قول أبي نواس:

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفتْ له عن عدوٍّ في ثياب صديق^(٥)

قوله: «الرامق» أى الناظر، ورمقت الشيء رمقاً أتبعته النظر إليه. وزينة

(١) عيسى بن هشام صاحب البديع الهمداني في المقامات ص ٢٢، ٢٣

(٢) هذا البيت ساقط من المقامات (٣) الريط: جمع ريطه، ومى الملاوة

(٤) المقامات: «جوداً»

(٥) ديوانه ١٩٢.

المعشوق التي في الدينار : نقشه وتزيينه ، ولون العاشق : صفته ، فالناظر في الدينار يرى في الظاهر زينته فيهواه ، فيقع على ما وقع عليه باطن العاشق من العذاب والغرام ، ويدلّ على ذلك صفته الظاهرة عليه . وقال ابن ظفر : زينة المعشوق غرور مدعاة إلى التهور في الغرام ، ولون العاشق وهو الأصفر دليل على ما أسرّ من شاغف الكاف ، فالغافل ينظر من الدينار مثل زينة المعشوق مجردة عن عاقبتها ، فيصيده الهوى ، والعامل ينظر منه إلى لون العاشق ، فيستدلّ على باطن الجوى . ذوى الحقائق ، يعنى أهل الرشد والعلم ، والذين ينظرون إلى ما في الدنيا بعين الحقيقة .

ثم لولا حب الدنيا ما سرق السارق ، فيستوجب قطع يده ، أو بعض أعضائه ، واليد يجب قطعها برّبع دينار ذهب . ومن مَنّاح السرقة أن الجاحظ حكى أن رجلين كان أحدهما أيمن ، والآخر أعسر ، فكان الأيمن يفخر على الأعسر ، فأخذا في سرقة ، فقطعت أيماهما ، فكان الأعسر يعمل بيساره أعماله كلها ، والأيمن لا يستطيع أن يعمل بيساره شيئاً ، ففخر الأعسر عليه بذلك ، فقال له الأيمن : ما غلّمت أن للأعسر فضيلة إلا أن يسرق فيؤخذ فتقطع يمينه .

الفاسق : الخارج عن الطاعة إلى ركوب المعصية أو عن الإيمان إلى الكفر ، أخذ من نسقت الرطوبة ، إذا خرجت من قشرها . وقال قوم : الفاسق الجائر ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ (١) ، أى جار ، عنه قال رؤبة :

يهوئين في نجدٍ وغورٍ غائرا فواسقاً عن قصدها جوائر^(٢)

(١) سورة الكهف .

(٢) الفائق ، اللسان - فسق

اشمأزَّ : انقبض . باخل : شحيح ، وبخيل أكثر من باخل . طارق : قاصد بئيل . المَطل : تأخير الحق الواجب ، وأصله من مَطل القين الحديد في النار ، إذا مدَّه وطوَّله . العائق : الحابس ، وقد عاقبه عن الشيء إذا حبسه . راشق : عائن ، وأصله الراعى ، فجعله للذى يضيب الناس بعينه . واستعيد : قرى عليه المعوذتان ، وهما : « قل أعوذ برب الفلق » ، و « قل أعوذ برب الناس » . الخلائق : الطبائع ، واحدها خَلِيقَة . الآبق : الهارب ، وأبق العبد يَأْبِقُ إِبَاقًا : زال عن مولاه . وفي معنى فراق الدينار قول الأخطل :

ومعشوق يرقص كلَّ يوم ترى في وجهه أبداً كلاماً^(١)
إذا فارقته أجداك خيراً ولا يحدى عليك إذا أقاما
وهذا من قول الحسن البصري ، وقد رأى رجلاً يَلْبُ درهماً ، فقال له :
أتحب درهمك هذا ؟ قال : نعم ، قال : فإنه ليس لك حتى يخرج من يدك .
واهاً : تعجيب ، معناه ما أعجب من يقذفه . حالق : جبل أملس مُنيف .
ناجاه : حدّثه سرّاً . الوامق : الحب ، وقد ومق يَمِيقُ مِقَّةً . الحق : القائل الحق .

فَقُلْتُ لَهُ : مَا أَغْزَرَ وَبَلَكَ ! فَقَالَ : وَالشَّرْطُ أَمْلَكَ ،
فَفَتَحْتُهُ بِالْدينَارِ الثَّانِي ، وَقُلْتُ لَهُ : عَوِذُهَا بِالْمِثْلَانِي ، فَأَلْقَاهُ
فِي فَمِهِ ، وَقَرَنَهُ بِتَوْنِهِ ، وَأَنْكَفَأَ بِحَمْدِ مَغْدَاهُ ، وَيَمْدَحُ
النَّادِي وَنَدَاهُ .

قوله : « ما أغزر وملك » ، أى ما أكثر بلاغتك . وأملك : ألزم وأحق ،
يريد أن شرطك الذى شرطت من إعطائي ديناراً آخر إن ذهمت ، قد ألزمك

(١) لم أجدها في ديوانه .

بذمّي له. والشرط أملك مثل^(١)، وأول من قاله الأفعى الجرهمي، وكان حكيماً للعرب، فتحاكم إليه خصمان، فاشترط أحدهما وأراد ألا يلتزمه، فقال الأفعى: الشرط أملك، وتقديره الشرط أملك لأمرك منك.

نفحته: رميته. عودهما: رقاها. والثاني: أم القرآن، سميت بذلك لأنها تنثني في الصلاة، واحتصتها لأنه أشار عليه أن يحمد الله على أخذ الدينار، فكأنه قال: اقرأ الحمد لله رب العالمين، شكراً لله عليهما وتعويذاً لهما.

وهذا كما قال ابن رشيق في غلام جميل:

معتدل القامة والقَدَّ مورّد الوجنة والحدَّ
لو وضع الوردُ على خدّه ما عرف الحدَّ من الوردِ
قل للذي يعجب من حُسْنِه اقرأ عليه سورة الحمدِ

وله في مثله:

شكوت بالحبِّ إلى ظالمى فقال لى مستهزئاً: ما هو!
قلت: غرام ثابت، قال لى: اقرأ عليه «قل هو الله»

وقال أبو عبيد: الثاني في كتاب الله ثلاثة أشياء: القرآن، سمّاه الله الثاني في قوله تعالى: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾، وسمّى الفاتحة «مثنائي» في قوله: ﴿سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي﴾ وروى عثمان وابن عباس وابن مسعود عنه صلى الله عليه وسلم: «إن المثنائي من السور ما دون المئين»، كأنها جعلت مبادئ والتي تليها مثنائي.

قوله: «بتوهمه»، أى بأخيه، يعنى الدينار الأول. انكفأ: انقلب وولى، معناه بكوره وسيره في الغدوّ. النادى ونداه: المجلس وكرم أهله.



[فصل في مدح الشيء وذمه]

ونريد أن نأتى بفصل في مدح الشيء وذمه على حكم ما مدح الحريري الدينار وذمه ، ونبين مذهب العرب وأهل الأدب في ذلك ، فقد ألف ابن رشيق فيه كتاباً جابت في هذا الكتاب عيونهم .

قال أبو عثمان الجاحظ: العربي يعاف الشيء ويهجو به غيره ، فإن ابتلي به فخر به ، ولكنه لا يفخر به لنفسه من جهة ما هجا به غيره ، فافهم هذا ؛ فإن الناس يغلطون على العرب ، ويزعمون أنهم يمدحون بالشيء الذي يهجون به ، وهذا باطل ؛ ليس شيء إلا وله وجهان ، فإذا مدحوا ذكروا أحسن الوجهين ، وإذا ذموا ذكروا أقبح الوجهين .

قال ابن رشيق : وأكثر ما تجرى هذه المادح والمذام على جهة المناقعة ، لا على جهة المناصفة ، ومن باب المساحة لا من باب المشاحنة ، وإلا فالشيء لا يوافق ضده ، فيكون الحسن قبيحاً في حالة واحدة ، والمدح ذماً لمعنى واحد ، لكن لكل شيء - كما ذكر الجاحظ - مساوئ ومحاسن ؛ كما فعل عمرو بن الأهتم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد استشهد الزبرقان بن بدر على ما ادّعاه من الشرف في قومه ، قال عمرو : أجل يارسول الله ، إنه مانع حوزته ، مطاع في أُنديته ، شديد العارضة . فقال الزبرقان : أما والله لقد علم أكثر مما قال ؛ ولكن حسدني شرفي ، فقال عمرو : أما وقد قال ما قال ، فوالله ما علمته إلا ضيق الطعن زمر المروءة^(١) ، لثيم الخلال ، حديث الغنى . فرأى الكراهة في عين رسول الله صلى الله عليه وسلم اتاختلف قوله ، فقال : يا رسول الله ، رضيتُ فقلت أحسن ما علمت ، وغضبتُ فقلت أقبح ما علمت ؛ وما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الثانية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة^(٢) .

وكتب يزيد بن معاوية في صدر كتابه إلى عبيد الله بن زياد - وقد ولّاه محاربة الحسين بن عليّ - رضي الله عنهما - وكان قبل ذلك يسمى الرأي عليه : أما

(١) زمر المروءة: قليها ، وفي ط: «زمن» تحريف . (٢) جهرة الأمثال ١ : ١٣ .

بعد ، فإن المسبوب يوما ممدوح ، وإن المدوح يوما مسبوب .
ويروى أن عيسى عليه الصلاة والسلام لم يعِبْ شيئاً قط ، فمرّ يوماً بكلب مَيّت ،
فقال أصحابه : ما أنتن ربحه ! فقال عيسى عليه الصلاة والسلام : ما أحسن
بياض أسنانه !

وقالت للحضين بن منذر امرأة : كيف سدت وأنت دميم بخيل ! فقال :
لأني شديد الرأي ، شديد الإقدام .

وقال مسلمة بن عبد الملك لأخيه هشام : كيف تطمع في الخلافة وأنت
بخيل ، وأنت جبان ! فقال : لأني حلیم ، وأنا غفیف ؛ فسلم لعائبه ما ادّعاه من
من مساوئه ، وذكر من محاسنه ما لم ينزاع فيه .

صعد خالد بن عبد الله القسريّ منبر مكة يوم الجمعة ، وهو أمير الوليد بن
عبد الملك بن مروان ، فأثنى على الحجاج خيراً ، فلما كانت الجمعة الثانية وقد
مات الوليد ، ورد عليه كتاب سليمان يأمره بشتم الحجاج وذكر عيوبه ، وإظهار
البراءة منه ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن إبليس كان يُظهر
من طاعة الله عزّ وجلّ ما كانت الملائكة ترى له به عليهم فضلاً ، وكان الله قد
علم من غشه ما خفي عن الملائكة ، فلما أراد الله فضيحتَه ابتلاه بالشُّجود
لآدم ، فظهر لهم ما كان يخفيه منهم ، فلعنوه . وإنّ الحجاج كان يظهر من طاعة
أمير المؤمنين ما كُتبانرى له به فضلاً ، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غلّه
وغشه على ما خفي عنّا ؛ فلما أراد فضيحتَه أجرى ذلك على يد أمير المؤمنين .
فالعنوه لعنه الله . ثم نزل .

ومرّ غيلان بن خرشة الضبيّ مع عبد الله بن عامر بنهر أم عبد الله الذي
يشقّ البصرة ، فقال عبد الله : ما أصاح هذا النهر لأهل هذا المصر ! فقال غيلان :
أجل والله أيّها الأمير ؛ يتعلم العوم في صبيانهم ، ويكون لسقايتهم ولسيل مياههم ،
ويأتيهم بمرتهم ؛ ثم عاد ابن عامر فسأير زيادا عليه ، فقال زياد : ما أضرت هذا

التَّهَرُّ لَأَهْلِ هَذَا الْمِصْرِ ! فَقَالَ : أَجَلَ وَاللَّهِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، تَنَزَّ مِنْهُ دَوْرُهُمْ ، وَيُفَرِّقُ فِيهِ صَبِيَانَهُمْ ، وَيَكْثُرُ لِأَجَلِهِ بَعْوَضُهُمْ .

ومدح الجاحظ العروض ، فقال : هو ميزان الشَّعْر ومِيعَارُهُ ، بِهِ يَعْرِفُ الصَّحِيحُ مِنَ السَّقِيمِ ، وَالْعَالِيلُ مِنَ السَّالِمِ ، وَعَلَيْهِ مَدَارُ الْقَرِيضِ وَالشَّعْرِ ، وَبِهِ يُسَلَّمُ مِنَ الْأَوْدِ وَالْكَسْرِ . ثُمَّ ذَمَّهُ فَقَالَ : هُوَ عِلْمٌ مَوْلَدٌ ، وَأَدَبٌ مُسْتَبَدٌّ ، وَمَذْهَبٌ مَرْفُوضٌ ، تَسْتَنْكِرُهُ الْعُقُولُ ، مُسْتَنْفَعَانُ فِعُولٍ ، مِنْ غَيْرِهِ فَائِدَةٌ وَلَا مَحْصُولٌ .
وَكَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَلِيٍّ عَمُّ الْمَنْصُورِ يَأْخُذُ الْكَأْسَ بِيَدِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَمَّا النَّفْسُ فَتُسَمِّحِينَ ، وَأَمَّا الْهَمُّ فَتَقْطُرْدِينَ ، أَفْتَرَاكَ مَتَى تَقْلُتَيْنِ ! ثُمَّ يَشْرِبُهَا .

وَشَكََا أَبُو الْعَنِيَاءِ حَالَهُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ ، فَقَالَ : أَلَيْسَ قَدْ كَتَبْنَا لَكَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَدْبَرِ ! قَالَ : كَتَبْتُ إِلَى رَجُلٍ قَدْ حَصَرَ مِنْ هَمِّهِ طَوْلَ الْفَقْرِ ، وَذُلَّ الْأَسْرِ ، وَمَعَانَاةَ مَحَنِ الدَّهْرِ ، فَأَخْفَفْتُ فِي طَلْبَتِي . قَالَ : أَنْتَ اخْتَرْتَهُ ، قَالَ : وَمَا عَلِمَى أَعَزَّ اللَّهُ الْأَمِيرَ فِي ذَلِكَ ! قَدْ اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا وَمَا كَانَ مِنْهُمْ رَشِيدٌ ، وَاخْتَارَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْنَ أَبِي سَرْحٍ كَاتِبًا فَرَجَعَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ مُرْتَدًّا ، وَاخْتَارَ عَلَى رَضَى اللَّهِ عَنْهُ أَبَا مُوسَى حَكَمًا ، فَحُكِمَ عَلَيْهِ .

قَالَ الْخَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ : فَنَاجَانِي قَلْبِي بِأَنَّهُ أَبُو زَيْدٍ ، وَأَنَّ تَعَارُجَهُ لِكَيْدٍ . فَاسْتَعَدَّتْهُ وَقُلْتُ لَهُ : قَدْ عُرِفْتَ بِوَشِيكَ ، فَاسْتَقِمْ فِي مَشْيِكَ . فَقَالَ : إِنْ كُنْتُ ابْنَ هَمَّامٍ ، فَحُيِّيتَ بِإِكْرَامٍ ، وَحَيِّيتَ بَيْنَ كِرَامٍ . فَقُلْتُ : أَنَا الْخَارِثُ ، فَكَيْفَ حَالُكَ وَالْحَوَادِثُ ؟ فَقَالَ : أَتَقَلَّبُ فِي الْحَالَيْنِ : بُؤْسٍ وَرَخَاءٍ ، وَأَتَقَلَّبُ مَعَ الرِّبْحَيْنِ : زَعَزَعٍ وَرُخَاءٍ . فَقُلْتُ : كَيْفَ ادَّعَيْتَ الْقُرْبَى ، وَمَا مِثْلُكَ مَنْ هَزَلَ ! فَاسْتَسَرَّ بِشَرِّهِ الَّذِي كَانَ تَجَلَّى ، ثُمَّ أَنْشَدَ حِينَ وَلَّى :

تَمَارَجْتُ لَا رَغْبَةَ فِي الْعَرَجِ وَلَكِنْ لَا قَرَعَ بَابَ الْفَرَجِ
وَأَلْقَى حَبْلِي عَلَى غَارِبِي وَأَسْلَكَ مَسْلَكَ مَنْ قَدْ مَرَجَ
فَإِنْ لَا مَنَى الْقَوْمُ قُلْتُ اعْذِرُوا فَلَيْسَ عَلَى أَعْرَجٍ مِنْ حَرَجِ

قوله: «فاستعدته»، أى قلت له أعد على. عرفت بوشيك، أى عرفت بحسن كلامك وتزيينه. استقم: استعدل وأزل عوجك. حُيِّت: طال بقاؤك، والتحية البقاء: حَيِّت: عشت. والحوادث: ما يحدث من الخير والشر. بؤس: شدة العيش. رخاء: لينه وسعته. زرع: ربح شديدة تحرك الشجر وتقلعه. والزعزعة: تحريك الشيء إذا أردت قلعه. رخاء: ربح لينة سريعة، من الإرخاء في السير، وهو عدو فوق التقريب، وناقة مرخاء: سريعة. القزل: أسوأ العرج، وقد قزل قزلاً.

وهزل هزلاً: ترك الجد في قول أو فعل، يقول: كيف تحملت بالعرج ومثلك لا يهزل ولا يقع في هذه النقيصة! فهو يهزأ به، فغضب عند ذلك. استسرّ بشره: زال عنه سماحه وطلاقة وجهه. تجلّى: ظهر. ولّى: ذهب.

قوله: «أقرع»، أى أضرب. الفرج: كشف الهم. ألقى حبل على غاربي: أى أسرح وأمشى حيث أحببت، والعرب تطلق هذا اللفظ، فتقول للمرأة: حبلك على غاربك، أى أنت مسيبة فتوجهي حيث شئت لا مانع لك ولا حابس، والغارب: ما انحدر من السنام، والحبل هو الذى يُعقل به البعير، فإذا سرّحوه حلوا عقاله وألقوه على غاربه، قال ابن الأنباري: أصله أن يلقي على حبل الناقة على غاربها فتفرع، ولا ترعى إذا لم تره على الأرض.

أسلك مسلك، أى أدخل مدخل، والمسلك: الطريق. مرج: خلط الجد بالهزل. حرج: إثم والله تعالى أعلم

المفاهيم الرابعة وهى الدمياطية

أَخْبَرَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ : ظَعَنْتُ إِلَى دِمْيَاطٍ ، حَامَ هِيَاطٍ
وَدِمْيَاطٍ ؛ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ مَرْمُوقُ الرَّخَاءِ . مَوْمُوقُ الْإِخَاءِ ، أَسْحَبُ
مَطَارِفِ الثَّرَاءِ ، وَأَجْتَلِي مَعَارِفَ السَّرَّاءِ . فَرَأَقْتُ صَحْبًا قَدْ شَقُّوا
عَصَا الشَّقَاقِ ، وَارْتَضَعُوا أَفَاقَ الْوِفَاقِ ؛ حَتَّى لَا حُوا كَأَسْنَانِ
الْمُسْطِ فِي الْإِسْتَوَاءِ ، وَكَالْنَفْسِ الْوَاحِدَةِ فِي الشَّامِ الْإِهْوَاءِ . وَكُنَّا مَعَ
ذَلِكَ نَسِيرُ النِّجَاءِ ، وَلَا نَرَحُلُ إِلَّا كُلَّ هَوِجَاءٍ ، وَإِذَا نَزَلْنَا مَنْزِلًا ،
أَوْ وَرَدْنَا مِنْهَلًا ، اخْتَلَسْنَا اللَّبَثَ ، وَلَمْ نُطِلِ الْمُكْثَ . فَعَنَّ لَنَا
إِعْمَالُ الرُّكَّابِ ، فِي آيَلَةٍ فِتْيَةِ الشَّبَابِ ، غُدَافِيَةِ الْإِهَابِ . فَأَمَرَيْنَا
إِلَى أَنْ نَضَا اللَّيْلُ شَبَابُهُ ، وَسَلَّتِ الصُّبْحُ خِضَابُهُ .

قوله : « ظعنت » ، أى رحلت ، والظعن ضد الإقامة .

دمياط : بلد بينه وبين مصر ثلاثون فرسخًا ، وهى على ساحل البحر الملح ،
وإلى دمياط ينتهى ماء النيل ، فيفترق منها فيخرج بعضه إلى بحيرة تنيس ،
وهى بحيرة تجرى فيها السفن والمراكب العظام ، ويخرج بعضه إلى البحر ، وبها
تعمل الشروب ، وقد ذكرنا ذلك عند تنيس .

قوله : « هياط » : صياح ، وتهياط التوم : اجتمعوا ودبروا أمرهم . مياط :
دفاع ، أى كان عام هرج وخلاف . مرموق : منظور إليه . الرخاء : سعة المال .
موموق : محبوب . أسحب : أجر . مطارف : ثياب لها أعلام فى أطرافها .

أَجْتَلَى : أُنْظِر . معارف : وجوه . السراء : الغنى والسرور . راققت : صحبت في السفر . والصَّحْب : الأصحاب . الشَّقَاق : الخلاف ، ومعنى شَقُوا عصاه ، أزالوه وطرحوه ، والعرب تقول : شَقَّ فلان العصا ، إِذَا تركَ الطاعة وخرج مبايناً ، قال أبو عبيد : العصا تُضْرَبُ مثلاً للاجتماع ، وانشقاقها يُضْرَبُ مثلاً للافتراق الذي لا اجتماع بعده . أفأويق : جمع أفواق ، وأفواق جمع فُواق ، وهو ما بين الحلبتين . والوفاق : ترك الخلاف ، وقد وافقته موافقةً ووفاقاً .

قوله : « لا حوا » ، أى ظهروا . والعرب تضرب المثل بأسنان المُشط ، وهو يقع على كل استواء في أى حال كان ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الناس كأسنان المُشط ، وإنما يتفاضلون بالعافية » ، فإن أرادوا الاستواء في الشرّ قالوا : سواسية كأسنان الحمار ، وقال كثير يهجو بني ضمرة :

فسائل بقومى كل أجردَ سامحٍ وسل غمارُ ربى بضمرة أو سَخْلًا^(١)
سواء كأسنان الحمار فلا ترى لذي كِبَرَةٍ منهم على ناشئ فضلًا

التثام : اجتماع واتفاق . الأهواء : جمع هوى ، وهو ما تحبّه وتميل إليه النفس ، فأراد أن أغراضهم متفقة . النّجاء : السير السريع . نرحل : نشدّ عليها الرّحل ونشخص بها . هوجاء : ناقة سريعة ، كأنّ بها هوجاً وهو الحمق ، لسرعة مشيها . وردنا منهالاً : أتينا ماء ننزل عليه ، والنهّل : المشرب الأول ، والعلال الثاني ؛ وذلك أن الإبل تردّ الماء فتشرب منه ، ثم تخرج ترعى ساعة وتستريح ، وتسمى تلك الاستراحة في الرعى التمرّثة ، ثم تردّ مرّة أخرى فتشرب الماء ، فالشرب الأول نهّل ، والثاني علل . والنهّل : موضع النهل . والورود : قصد الماء .

اختلسنا : استرقنا . اللبث : الإقامة . ومثله المَكْث ، أى لا يستقروا بموضع ينزلون فيه إلا قليلاً . والرّكاب : الإبل ، وإعمالها : استعمالها . فتية الشباب : صغيرة السن ، وأراد أنها طويلة سوطاً لا قمر فيها ، لأن شعر الشباب أسود ،

(١) ديوانه ٢ : ١٩ ، عن الشريفي : و «رُبِّي» لغة في : «رُبِّي» .

ويريد أنها أول الشهر ، فهي كالفتية ، والليلة أول الشهر سوداء . غداقية : منسوبة إلى الغداف ، وهو الغراب لسواده ، والإهاب : الجلد ، وأراد لونها . أسرينا : مشينا بالليل ، ويقال : سرى وأسرى . نضاً الليل شبابه ، أى أزال ظلامه ، ونضاً ثوبه : جرّده عنه ، ومثله : سلّت خضابه ، وأراد أن الصبح بيّض الظلام بضوئه ، وسلّت الشيء سلّتاً : أزاله عما علق به ، والمرأة خضابها كذلك ، وسيأتى ذكر الصبح آخر المقامة .

[مما قيل في سواد الليل]

وينظر في سراه مع صحبه في سواد الليل إلى قول ابن شهّاب :
 وَفُتُوْا أُسْرَوْا وَقَدْ عَكَفَ اللَّيْلُ وَأَقْعَى مُنْعَدَدِ الْأَطْنَابِ
 وَكَأَنَّ النُّجُومَ لَمَّا هَدَتْهُمْ أَشْرَقَتْ كَالْعَيُونِ مِنْ أَهْدَابِ
 يَتَفَرَّوْنَ جَوْزَ كُلِّ فَلَاةٍ جُنْحَ لَيْلٍ جَوْزَاؤُهُ مِنْ رِكَابِ
 عَنْ ذِكْرَى لِمَدْحِهِمْ فَتَنَّاوَا مِنْ حَدِيثٍ فِي عَرْضِ أَمْرِ حِجَابِ
 هَمَّةٌ فِي السَّمَاءِ تَسْحَبُ ذَيْلًا مِنْ ذِيُولِ الْعُلَا وَجَدَ الرَّكَّابِ
 ومما جاء في سُرَى الليل قول عبد الصّمد بن المعذل ، وهو من حسن الاستعارة :

أَقُولُ وَجُنْحُ الدُّجَى مُلْبِدٌ وَلَّيْلٌ فِي كُلِّ نَجَجٍ يَدٌ^(١)
 وَنَحْنُ ضَجِيعَانِ فِي مَسْجِدٍ فَاللهُ مَا ضَمَّنَ الْمَسْجِدُ !
 فَيَا لَيْلَةَ الْوَصْلِ لَا تَبْعَدِي^(٢) كَمَا لَيْلَةُ الْهَجْرِ لَا تَبْعَدُ^(٣)
 وَيَا غَدَ إِنْ كُنْتُ لِي رَاحِمًا فَلَا تَدْنُ مِنْ لَيْلَتِي يَا غَدُ

(١) ديوان المعاني ٤٣ . ونسبها إلى ابن أبي فتن .

(٢) ديوان المعاني : « لا تنفدى » (٣) ديوان المعاني : « لا تنفد » .

وقال ابن المعتز :

يا ربَّ ليلٍ حالِكِ الجلبابِ ملتحفٍ خافيتي غرابِ

وما أحسن قول ابن شهيد في وصف الليل :

وبتنا نراعي اللَّيلَ لم نطوِ بُرْدَهُ ولم يحن شيبُ الصبحِ من فرَّعه وَخَطَهُ
تراه كَمَلَكِ الرَّنجِ من فرطِ كِبَرِهِ إذا رام شيئاً في تأخره أَبْطَأَ
مطلا على الآفاقِ والبدرُ تاجُهُ وقد علَّقَ الجوزاءُ في أذنه قُرْطاً

وقال حبيب :

إليك هَتَكْنَا جُنَحَ لَيْلٍ كَأَنَّهُ قَدْ اكْتَحَلَتْ مِنْهُ الْبِلَادُ بِأَمْدٍ^(١)

وقال ذو الرمة :

وَدَوِيَّةٌ مِثْلُ السَّمَاءِ اعْتَسَفَتْهَا وَقَدْ صَبَغَ اللَّيْلُ الْحَصَى بِسَوَادٍ^(٢)

وقال أيضاً :

وليل كجلبابِ القروسِ اذرعته بأربعةٍ والشخصُ في العينِ واحدٌ^(٣)
أحَمَّ غُدَافِيَّ ، وَأَبْيَضَ صَارِمٌ وَأَعْيَسُ مَهْرِيٌّ ، وَأَرْوَعُ مَاجِدٌ^(٤)

(١) ديوانه ١٠٣ .

(٢) ديوانه ١٣٩ ، واعتسفتها : سرت فيها على غير هداية .

(٣) ديوانه ١٢٩ ، وروايته : « دليل كأتناء الرويزي جيته » . والرويزي : طيلسان ، شبه الليل في سواده به . وجيته : قطعه .

(٤) هذا البيت تفسير للأربعة في البيت السابق : أحَمَّ : أسود ، ومثله غدافي . وفي الديوان : « علافي » ، منسوب إلى علاف حتى من العرب يعملون الرجال . والأبيض : سيف صارم قاطع ، والأعيس : الأبيض ، يعني بهيمة . وأشعث ، يعني نفسه . والمهري من الإبل : منسوب إلى مهرة ، حي من عرب اليمن .

(١١) شرح مقامات الحريري (١)

وقال البحرى :

يا خليلي بالهواجر من مَعْنٍ بن عوفٍ وبُختر بن عَتود^(١)
اطلبا ثالثا سواي ، فإني رابعُ العيس والدجى والبيد

وقال السّلامى :

إليك طوى عَرْضَ البسيطة عاجلاً قطارُ المطايا أن يلوح لها القَصْرُ^(٢)
وكنت وعزى في الظّلامِ وصارمى ثلاثة أشباح كما اجتمع النَّسْرُ
وبشّرت آمالي بملكٍ هو الورى ، ودارهى الدنيا ، ويومٍ هو الدهرُ

فالبيت الأوّل والثانى نحو بيت البحرى ، والبيت الثالث نحو بيت ذى الرّمة
فى التقسيم ، وبمثل هذا الكلام يمتدح الملوك والأفلا . ولما مدح عضد الدولة
بلغه به من المكانة الغاية القصوى ، وفُتِنَ بشعره ، حتى كان يقول : إذا رأيتُ
السّلامى فى مجلسى ، ظننت أن عطاردًا نزل من السماء . وسندكر من شعره
ما يحسن .

* * *

فحين ملّنا الشرى ، وملّنا إلى الكرى ، صادفنا أرضاً
مُخضلة الرُّبَا ، مُعتلة الصِّبَا ، فتخيرناها مُناخاً للعيس ، ومَحَطاً
للتغريس ، فلمّا حلّمها الخليطُ ، وهَدَأَ بها الأَطيَطُ والأَظَيطُ ، سمعتُ
صَبْتاً مِنَ الرِّجَالِ ، يَقُولُ لِسَمِيرِهِ فى الرَّحَالِ : كَيْفَ حُكِمَ مُمِيرُكَ ،
مَعَ جِيلِكَ وَجِيرُكَ ؟

* * *

(١) ديوانه ٦٣٣ ، وفيه « ياندعى بالسواجير من ودين معن » والسواجير : نهر فى أعمال
منبج بسوريا
(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧٠

قوله: «السرى»، أى السير بالليل . الكرى: النوم . مخضلة: مبتلة بالندى .
 الرُّبَا: السكدى ، واحدها ربوة . معتلة الصبا ، أى لينة الريح . مناخاً: منزلاً .
 العيس: الإبل يخالط بياضها حمرة . محطاً: منزلاً تحطُّ به الأحمال . التعريس :
 النزول بالليل فى آخره، وهذا التخير الذى ذكر لهذه الأرض ، منتزَع من حديث
 ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا كانت
 أرض مخصبة فتقصّدوا فى السير وأعطوا الركاب حقّها ، فإن الله رفيق يحب الرفق ،
 وإذا كانت مجدبةً فالجّحوا عليها ، وعليكم بالدّجلة ، فإن الأرض تُطوى بالليل ،
 وإياكم والتعريس على ظهر الطريق ، فإنه مأوى الحيات ومدارج السباع » .
 الخليط : الأصحاب . هدأ : سكن . الأطيط : أصوات الإبل ، والغطيط :
 أصوات الناس الثّيام . صيتاً : جهير الصوت . سميره : رفيقه الذى يسمرُ معه
 بالحديث . الرّحال : منازل المسافرين ، سمّيت رحالاً باسم الرّحال التى توضع فيها ،
 والرّحل : اسم لما يحمله البعير من حملة وقتبه ومايوطأ به تحت الحمل . سيرتك :
 عادتك . جيلك : أهل عصرك . جيرتك : جيرانك .

* * *

فقال: أرعى الجّارَ ، ولوّ جارَ ، وأبذل الوصالَ ، لِعمن صالَ ،
 وأحتملُ الخليطَ ، ولوّ أبدى التّخليطَ ، وأودُّ الحميمَ ، ولوّ جرّ عني
 الحميمَ ، وأفضلُ الشّقيقَ ، على الشّقيقِ ، وأفي للعشيرِ ، وإن لم
 يكافئ بالعشيرِ ، وأسْتَقِلُّ الجزيلَ ، للنّزيلِ ، وأعمرُ الزّميلَ ، بالجليلِ .
 أنزلُ مسيرى ، منزلةَ أميرى ، وأحلُّ أنيسى ، محلَّ رئيسى ، وأودعُ
 مَمَارِفى ، عَوَارِفى ، وأولى مُرافقى ، مرافقى ، وألينُ مقالى ، للقالى ،
 وأديمُ تسالى ، عَنِ السّالى ، وأرضى من الوفاء ، باللقاء ، وأقنعُ

(١) السكدى : جمع كدية ؛ ومى الأرض الغايضة .

مِنَ الْجَزَاءِ ، بِأَقَلِّ الْأَجْزَاءِ ، وَلَا أَتَظَلَّمُ ، حِينَ أَظْلَمُ ، وَلَا أُتَقَمُّ ،
وَلَوْ لَدَغَنِي الْأَرْقَمُ .

قوله : « أرعى » ، أى أحفظ . جار : تعدى ومال عن الحق ، قال صلى الله عليه وسلم : « ما زال جبريل يؤصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » . أبذل : أعطى . صال : صاح مخوفاً . الخليط : الصاحب ، ويقع على الواحد والاثنين والجمع بلفظ واحد ، وُسِّمى بذلك لاختلاط الأمر بين الصاحبين . الحميم الأول : الصديق المخلص ، والثانى الماء الحار . الشفيق : الحب . الشقيق : الأخ من الأب ، كأنه شق معك ظهر أبيك ومن الأم كأنه شق معك بطن أمك . أفي للعشير : أعامل الصاحب بالوفاء . يكفى بالعشير : يجازئ بالعشر من فعلى ، والمكافأة المواساة . أستقل ، أراد قليلاً . الجزيل : الكثير . النزيل : الضيف ، والنزل ما يعد للضيف من طعام وغيره . أغمر : أعطى . الزميل : الرديف . الجميل : الأنعال الجميلة . أميرى : الحاكم على . الأنيس : الذى يؤنس بحديثه ، وفلان رئيس قومه : أفضاهم وأعزهم . أودع : أعطى ودیعة . معارفى : من يعرفنى . عورافى : هباتى ؛ واحداً عارفة ، وهى اليد من النعمة . أولى مرافقى : أعطى مصاحبى فى السفر ، ومنه الرقعة لاتفاق بعضهم ببعض ، جمع مَرَقَّة وهى المعونة وما يُرتفق به . القالى : المبعض ، وقليت الرجل قلى ، أبغضته . تسالى : كثرة سؤالى . السالى : الناسى للمودة والتارك لها ، وسلوت عن الشئ أسلو سلواً وسلوة ، إذا تركته . اللفاء : النقصان . وقال أبو على فى الإيضاح : اللفاء ما دُون الحق ، قال أبو زيد الطائى واسمه حَرْملة رحمه الله :

فما أنا بالضعيف فتظلموه ولا حظى اللفاء ولا الخسيس (١)

(١) اللسان - لفاً . وروايته : « فإنا بالضعيف فتزدربنى » .

أَتَقَمَّ : أَرْضَى ، وَالتَّقَاعَةُ الرِّضَا بِالْيَسِيرِ . وَالْجُزْءُ : الْمَكْفَاةُ ، وَجَازِيَتُهُ بِمَا صَنَعَ
بِمِثْلِ كَفَاتِهِ ، وَالْأَجْزَاءُ : الْأَنْصِبَاءُ تَقَسَّمُ عَلَى جَمَاعَةٍ ، وَاحِدُهَا جِزْءٌ ، وَأَقْلَاهَا أَنْقَصُهَا .
أَتَظَلَّمُ : أَشْتَكِي مِنَ الظَّالِمِ . لَا أَنْقَمَ : لَا أَنْتَقِمَ . تَقُولُ : تَقَمْتُ مِنْهُ نَقْمَةً ، أَيْ
عَاقَبْتُهُ ، فَمَعْنَاهُ : لَا أَعَاقِبُ صَاحِبِي ، وَلَوْ بَلَغَ فِي الْإِضْرَارِ مَتْنِي الْغَايَةَ ، وَتَقُولُ
أَيْضًا : تَقَمْتُ الشَّيْءَ وَأَنْقَمَهُ نَقْمًا وَتُقَوِّمًا : إِذَا أَنْكَرْتَهُ ، فَمَعْنَاهُ عَلَى هَذَا :
لَا أَنْكَرُ عَلَى صَاحِبِي وَلَوْ بَلَغَ فِي الْأَذَى ، وَيُقَالُ فِي الْإِنْكَارِ أَيْضًا ، نَقَمَ يَنْقِمُ .

* * *

فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : وَيْكَ يَا بُنَيَّ ! إِنَّمَا يُضْنُ بِالضَّئِنِ ، وَيُنَافِسُ
فِي الثَّمَنِ ؛ لَكِنْ أَنَا لَا آتِي ، غَيْرَ الْمُؤَاتِي ، وَلَا أَسِيمُ الْعَمَاتِي ، بِمَرَاعَاتِي ،
وَلَا أَصَافِي ، مَنْ يَأْبَى إِنْصَافِي ، وَلَا أُوَاخِي ، مَنْ يُبْلَغِي الْأَوَاحِي ،
وَلَا أُمَالِي ، مَنْ يُحَيِّبُ أُمَالِي ، وَلَا أَبَالِي ، بِمَنْ صَرَمَ حِبَالِي ،
وَلَا أَدَارِي ، مَنْ جَهَلَ مِقْدَارِي ، وَلَا أُعْطِي زِمَامِي ، مَنْ يُخْفِرُ
ذِمَامِي ، وَلَا أَبْذُلُ وَدَادِي ، لِأَضْدَادِي ، وَلَا أَدْعُو لِعِمَادِي ، لِلْمُعَادِي ،
وَلَا أَغْرِسُ الْإِيَادِي ، فِي أَرْضِ الْأَعَادِي ، وَلَا أَسْمَحُ بِمُؤَاسَاتِي ، لِمَنْ
يَفْرَحُ بِمَسَاآتِي ، وَلَا أَرَى التَّفَاتِي ، إِلَى مَنْ يَشْمَتُ بِوَفَاتِي ، وَلَا
أَخْصُ بِحِبَابِي ، إِلَّا أَحِبَّائِي ، وَلَا أَسْتَطِيبُ لِدَائِي ، غَيْرَ أَوْدَائِي ، وَلَا
أُمْلِكُ خَلَّتِي ، مَنْ لَا يَسُدُّ خَلَّتِي ، وَلَا أَصْنِي نَيْبِي ، لِمَنْ يَتَمَنَّى
مَنْبِي ، وَلَا أَخْلِصُ دُعَائِي ، لِمَنْ لَا يُفِيمُ وَعَائِي ، وَلَا أَفْرِغُ تَنَائِي ،
عَلَى مَنْ يُفَرِّغُ إِنَائِي .



* * *

قوله : «ويك» معناه التعجب، كأنه قال : ما أعجبك ! أو عجباً لك . وقيل : أراد «ويلك» ، لحذف اللام . إنما يضنّ الضنّين ^(١) ، هذا مثل ؟ ، أوّل من قاله الأغلب العجلى ، وفسره أبو عبيد ^(٢) فقال : معناه : تمسّك بإخاء من تمسّك بإخائك ، وبيانه أن الضنّين البخيل ، ويضنّ : يبخل ، فيقول : إنما تمسّك وأتعاق بصاحب تمسّك بنى وعرف حقّ ، فأنا أبخل به على غيرى أن يشرّكنى فى صحبته كما يبخل بنى هو على غيره ، وقيل : الضنّين فى المثل هو الشئ المضمون به لنفاسته ، فعناه إنما يُبخل بالشئ النفيس الرفيع . المواتى : المساعد الموافق . العاقى المتكبر الصعب الخلق . والمراعاة : الحفاظة للودّ . أسيم : اجعلها سمة ، أى علامة . أصافى : أخلص له ودّى . يأتى : يمنع . إنصافى ، أى إعطائى الحق من نفسه . أواخى : أصير له أخاً وأتخذهُ صديقاً . يلغى : يترك وي طرح . الأواخى : أسباب الود ، واحداها أختية ، وأصل الأختية عروة من حبل تشدّ فى وتدي أو على حجر تحت الأرض ، وتبقى العروة على الأرض فيربط فيها حبل الدابة فيمسكها . أمالى : أعاون ، وأصلها الهمة ، تقول : مالا ته على الأمر أمالته ، إذا عاونته وساعدته ، ومنه : والله ما قتلت عثمان ولا مالات فى قتله ، تخفف الهمة ليوافق آمالى ، وهو جمع أمل ، وهو الرجاء . صرم حبالى : قطع أسباب وصالى ، وهم يكونون بالحبل عن الودّ ، لأن الودّ يربط القلوب ويؤلفها كالحبل فيما يربط . قوله : «أدارى» ، أسوس وأحسن صحبته . والزمام : حبل من جلود يربط فى حلقة فى أنف البعير . يخفر ذمامى : ينقض عهدي ، أى لا أقادمن لأعهده . ودادى : حُبّى ، وهو من وادّه وهو الذى لا يكون إلا من اثنين فوضعه موضع ودّى ، ويقال أيضاً : فى الحلب حُبَاب ، مثل وداد ، قال الشاعر :

* أداء عراني من حُبَابِكَ أم سحرُ *

(١) جبهة الأمثال ١ : ٤٩

(٢) اللسان ، ونسبه إلى أبى عطاء وصدره :

* فوالله ما أدرى وإني لصادق *

أضدادى : أعدائى المناقضين لأفعالى . إيعادى : تهديدى وتخويفى .
 الأيادى : النعم ، وواسيته : مواساةً : جعلته أسوة نفسى فى مالى فقاسمته فيه .
 مساآتى : أحزانى وما يسوءنى . التفاتى : نظرى وانعطافى إلى جهته . يشمت :
 يسرّ : وذاتى : موتى . أخصّ : أفرد . حبائى : عطائى . أحبائى : جمع حبيب .
 أستطبت : أطلب طيبه . خلّتى : صداقتى . يسدّ خلّتى : يصلح فقرى . أخلص :
 أبعده خالصاً . يُنعم : يملأ . أفرغ ثنائى : أصبّ مدحى وأكسوه ، أو يكون
 أفرغه ، أبلغ آخره .

وَمَنْ حَكِمَ بَانَ أَبْدَلٌ وَتَخَزَنَ ، وَأَلَيْنَ وَتَخَشَنَ ، وَأَذُوبٌ
 وَتَجْمَدُ ، وَأَذْكُو وَتَضْمَدُ ! لا وَاللَّهِ ، بَلْ تَتَوَازَنُ فِي الْمَقَالِ ، وَزَنَ
 الْمُثْقَالِ ، وَتَتَحَاذَى فِي الْفَعَالِ . حَذُو النَّعَالِ ، حَتَّى نَأْمَنَ التَّعَابِنَ ،
 وَنُكْفَى التَّضَاغُنَ ؛ وَإِلَّا فَلِمَ أَعْلُكَ وَتُعَلِّنِى ، وَأُقِلَّكَ وَتَسْتَقِلُّنِى ،
 وَأَجْتَرِحُ لَكَ وَتَجْرَحُنِى ، وَأُسْرَحُ إِلَيْكَ وَتُسْرَحُنِى . وَكَيْفَ يُجْتَلَبُ
 إِنْصَافٌ بِضَيْمٍ ، وَأَنْتِ تُشْرِقُ نَفْسُ مَعَ غَيْمٍ ! وَمَتَى أَصْحَبَ وَدٌّ
 بِمَسْفٍ ، وَأَيُّ حُرٍّ رَضِيَ بِخُطَّةٍ خَسَفٍ ! وَلِلَّهِ أَبُوكَ حَيْثُ يَقُولُ :

قوله : «تخزن» ، أى تحبس . أذكو : أضىء ، يقال : خمدت النار ، إذا
 سكن لهبها ، وذكت : انقادت . والمثقال : الصنجة التى يوزن بها ، سميت بذلك
 لأنها تثقل ما يوزن بها فى الكفة الثانية . تتحاذى : تتشابه . والنعال : بفتح
 الفاء : اسم للفعل الحسن أو القبيح ، ولا يقال بكسرهما إلا فى مصدر ناعل ، قال ابن
 الأعرابى : النعال : فعل الواحد من النعل والشر ، والفعل بالكسر : الفعل بين
 الاثنين . حذو : متشابهة ، والعرب تقول فى الشينين يشتهبان : هما حذو النعل

بالنعل، أى كل واحد من النعلين تقطع على قالب أحدها، ومنه قول الهذلي:
وتأمل السَّبْت الذى أخذوكُم فانظُرْ بمثل حذائه فاحذوني^(١)

التغابن: الغبن. نكفى: نمنع. التضامن: العداوة، وتضامن الرجلان:
اعتقد كل واحد منهما لصاحبه ضعفاً وهو الحقد. أعلّك: أسقيك عللاً، أى مرة
بعد أخرى. تعلنى: تمرضنى. أفلّك: أرفعك. تستقلنى: تحقرنى. أجترح:
اكتسب. أسرح: أرفعى عليك، وأجلب عليك الرزق بالغداة والعشي.
تسرّحنى: تهملنى. ضيم: ذلّ. أثنى: كيف. تشرق: تضيء، من أشرقت،
وتشرق تطلع، من شرقت. غيم: سحب. أصحاب: أنقاد. بعسف: يحوّر،
وأصل العسف ركوب الأمر بغير تدبير. والخطّة: المنزلّة والمرتبة، والخسف:
الإذلال والنقصان، ومنه خسف الأرض، والخاسف: المهزول، ويقال: باتوا على
الخسف، أى جياًعاً ليس لهم شيء يتقوّتون به والخسف للدابة: أن تبيت
بغير علف.

* * *

جَزَيْتُ مَنْ أَعْلَقَ بِي وَدَّهْ جَزَاءَ مَنْ يَبْنِي عَلَى أُسِّهِ
وَكَلْتُ لِلْخِلِّ كَمَا كَالِ لِي عَلَى وَفَاءِ الْكَيْلِ أَوْ بَخْسِهِ
وَلَمْ أَخْسِرْهُ وَشَرُّ الْوَرَى مَنْ يَوْمُهُ أَخْسَرُ مِنْ أَمْسِهِ
وَكُلُّ مَنْ يَطْلُبُ عِنْدِي جَنَى فَمَا لَهُ إِلَّا جَنَى غَرْسِهِ
لَا أَبْتَغِي الْغَبْنَ، وَلَا أَتَنِي بِصَفْقَةِ الْمَغْبُونِ فِي حِسِّهِ
وَلَسْتُ بِالْمُوجِبِ حَقًّا لِمَنْ لَا يُوجِبُ الْحَقُّ عَلَى نَفْسِهِ
وَرُبَّ مَذَاقِ الْهُوى خَالِنِي أَصْدُقُهُ الْوُدُّ عَلَى لَبْسِهِ

(١) لبدر بن عامر، ديوان الهذليين ٣ : ٣٦٠

وَمَا دَرَى مِنْ جَهْلِهِ أَنِّي أَقْضِي غَرِيمِي الدَّيْنَ مِنْ حِنْسِهِ
فَاهْجُرْ مَنْ اسْتَفْبَاكَ هَجَرَ الْقَلَى وَهَبَهُ كَأَمَّا لِحُودٍ فِي رَمْسِهِ
وَالْبَسَ لِمَنْ فِي وَصْلِهِ لُبْسَةً لِبَاسَ مَنْ يُرْغَبُ عَنْ أَنْسِهِ
وَلَا تُرْجِ الْوَدَّ مِمَّنْ يَرَى أَنَّكَ مُحْتَاجٌ إِلَى فَلْسِهِ

* * *

قوله: «أعلق»، بمعنى علق، أى ألصق. أسه: أصل بنائه؛ يقول: من علق
يقلبي وده، جعلت ذلك الود أساً بقاى، وبنيت عليه ودى، فإن أسس فى قلبى
وداً سلماً بنيت له عليه مثله، وإن غشنى فى ودٍ غششته، والهاء فى «أسه» ترجع إلى
«من» أى من نصحنى فى صحبتيه نصحته. والخلل: الصاحب. بحسه: نقسه.
أخسر: أنقص. الورى: الخلق من الناس. الجنى: ما يحنى من الثمرة.
أبتغى الغبن: أطلب الخداع: أنشئ: أرجع، وصفقة المغبون: بيعة الخدوع.
حسه: نهمة، والحسن: صوت حركة الحى. والصفقة: فى الأصل مصدر، يقال:
صفق صفقاً إذا ضرب بإحدهما على الأخرى، وكانت صفقة البيع عند العرب
أن يضرب المشتري بيده على يد البائع، فإن رضى البيع قبض على يد المشتري
وانعقد البيع، وإن لم يرض أرسل يده، ثم صاروا يقولون، رضى الصفقة، إذا
رضى البيع، ثم سُمى عقد البيع صفقة. مَذاق: خلأط غير مخلص. الهوى:
الحب. وخالنى: حسبنى. كبسه: تخليطه وتليسه. غريمى: صاحب دينى.
من جنسه: من نوع ما أعطانى. استفباك: استجهلك. القلى: البغض. هبه:
احسبه. الملحود: المدفون. رمسه: قبره، ويمصر إلى يئته قول
ابن الرومى:

مَنْ تَصَدَّى لِأَخِيهِ الْغَنَى فَهُوَ أَخُوهُ

فَإِنْ احتَاجَ إِلَيْهِ رَاءَ مِنْهُ مَا يَسْـوُهُ
يُكْرَمُ الْمُتَرَى فَإِنْ أَمْلَقَ أَقْصَاهُ بَنُوهُ
أَنْتَ مَا اسْتَغْنَيْتَ عَنْ صَا حَبْكُ الدَّهْرِ أَخُوهُ
فَإِنْ احتَجتَ إِلَيْهِ سَاعَةً مَجَّكَ فُوهُ

وَوُجِدَ عَلَى حَجَرٍ مَكْتُوبًا :

كَلَّ مِنْ أَحْوَجِكَ الدَّهْرُ إِلَيْهِ وَتَعَرَّضَتْ لَهُ هُنْتَ عَلَيْهِ

وهذان المذهبان اللذان ذكرهما الحريري مبنيان على آيتين ، من كتاب
الله تعالى ؛ قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ
لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ ، والثانية قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظِلْمِهِ فَأُولَئِكَ
مَاعَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لاخير في صحبة مَنْ لا يرى لك من الحق ،
مثل الذي ترى له » .

[مذاهب الشعراء في العفو أو الانتصاف]

وللشعراء القدماء والحديثين في المذهبين شعر كثير ، قال المقتنع الكندي في
المذهب الأول :

وَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لِمُخْتَلِفٌ جَدًّا^(١)
أَرَاهِمُ إِلَى نَصْرِي بِطَاءٍ وَإِنْ هُمْ دَعَوْنِي إِلَى نَصْرٍ أَتَيْتَهُمْ شَدًّا
وَإِنْ أَكَلُوا الْحِمَى وَفَرَّتْ لُحُودُهُمْ وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتَ لَهُمْ مَجْدًا

(١) حاسة أبي تمام ٣ : ١٧١ - بشرح التبريزي

وإن ضَيَعُوا غَيْبِي حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ وإن هُمُ هَوُوا غَيْبِي هَوَيْتَ لَهُمْ رُشْدًا
وإن زَجَرُوا طَيْرًا بِنَحْسٍ تَمَرُّ بِي زَجَرْتُ لَهُمْ طَيْرًا تَمَرُّ بِهِمْ سَعْدًا
لَهُمْ جَلٌّ مَالِي إِنْ تَتَابَع لِي غَيْبِي وإن قَلَّ مَالِي لَمْ أَكْلِفْهُمْ رِزْدًا
وَلَا أَحْمَلُ الْحَقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمْ وليس يسودُّ القَوْمَ مِنْ يَحْمِلُ الْحَقْدَا

وقال معن بن أَوْسٍ الْمُزَنِّي فِي الْمَذْهَبِ الثَّانِي :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُنْصِفْ أَخَاكَ وَجَدْتَهُ عَلَى طَرَفِ الْهَجْرَانِ إِنْ كَانَ يَعْقِلُ^(١)
وَيَرْكَبُ حَدَّ السَّيْفِ مَنْ أَنْ تَضِيْعُهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنْ شَفْرَةِ السَّيْفِ مَزْخَلُ
وَكُنْتُ إِذَا مَا صَاحِبُ رَامٍ خَطَّتِي وَبَدَّلَ سُوءًا بِالَّذِي كُنْتُ أَفْعَلُ
قَلْبَتُ لَهُ ظَهَرَ الْمَجَنُّ نَلَمَ أَدَمُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا رَيْثَمَا أَتَحْمُولُ

وقال إبراهيم بن العباس الصولي :

أَمِيلَ مَعَ الدَّمَامِ إِلَى ابْنِ عَمِّي وَأَخَذَ لِلصَّدِيقِ مِنَ الشَّقِيقِ^(٢)
وَإِنْ أَلْفَيْتَنِي حُرًّا مُطَاعًا فَإِنَّكَ وَاجِدِي عَبْدَ الصَّدِيقِ
أَفَرَّقَ بَيْنَ مَعْرُوفِي وَبَيْنِي وَأَجْمَعَ بَيْنَ مَالِي وَالْحَقِيقِ
وَكُنْتُ إِذَا الصَّدِيقُ أَرَادَ غِيْظِي وَأَشْرَقَنِي عَلَى شَرْقِ بَرِيْقِي
غَفَرْتُ ذُنُوبَهُ، وَصَفَحْتُ عَنْهُ مَخَافَةَ أَنْ أَعِيشَ بِبَلَا صَدِيقِ

وَكَلَّفَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ بَعْضَ إِخْوَانِهِ مَقَاطِعَةَ صَدِيقٍ فَقَالَ لَهُ :

إِنِّي مَتَى أَحْمَلُ بِحَقْدِكَ لَا أَضُرُّ بِهِ سِوَاكَ^(٣)

(١) حماسة أبي تمام - بشرح التبريزي ٣ ١٣٢

(٢) ديوانه ١٥٤

(٣) ديوانه ١٤٦

ومتى أطعْتُكَ في أخيك أطعْتُ فيكَ غداً أخاك
حتى أرى مستقْسماً يومى لَذَا ، وغداً لَذَاكَ

وقال أبو الفتح البُستى في المذهب الثانى:

فإن تَزَرَّنِي أَرْزُ وَإِذَا تَقَفَ بِيَابِي أَقِفْ بِيَابَكَ
والله لا كنت في حسابى إلا إذا كنت في حسابك

أين هذا من قول البُستى أيضاً وقد خالفه فيه خلافاً شديداً ، ولا نازعه
أحد فيه ، ولا سبقه إليه إذ يقول :

وإني لأختصُّ بعضَ الرجال وإن كان قدماً ثقيلاً عَباً^(١)
فإنَّ الجُبَّينَ على أنه وخيمٌ ثقيلٌ يشهى الطَّعَامَا

ولابن شرف :

بِعْ مَنْ جَفَاكَ وَلَا تَبْخُلْ بِسَلْعَتِهِ واطلب به بدلاً إن رام تبديلاً
وهو كثير ، وبما ذكرت يستدل على الباب .

* * *

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَلَمَّا وَعِيَتْ مَا دَارَ بَيْنَهُمَا ، تَقَتُّ إِلَى أَنْ
أَعْرِفَ عَيْنَهُمَا ، فَلَمَّا لَاحَ ابْنُ ذُكَّامٍ ، وَالْحُفَّ الْجَوُّ الضِّيَاءَ ، غَدَوْتُ
قَبْلَ اسْتِقْلَالِ الرِّكَّابِ ، وَلَا اغْتِدَاءِ الْغَرَابِ ، وَجَمَلْتُ أَسْتَقْرِي
صَوْبَ الصَّوْتِ اللَّيْلِ ، وَأَتَوَسَّمُ الْوُجُوهَ بِالنَّظَرِ الْجَلِيِّ ، إِلَى أَنْ

(١) العبا : الفليط الحاق

لَمَحْتُ أَبَا زَيْدٍ وَابْنَهُ يَتَحَادَثَانِ ، وَعَلَيْهِمَا بُرْدَانِ رَمَّانِ ، فَعَلِمْتُ
أَنَّهُمَا نَجِيًّا لَيْلَتِي ، وَصَاحِبَا رِوَايَتِي .

* * *

قوله : «وعيت» ، أى حفظت . تفت ، أى اشتقت . عنيهما : شخصيهما .
لاح : ظهر . ابن ذُكَاء : هو الصبح ، وذُكَاء هى الشمس ، ويقال للصبح : ابن
ذُكَاء لأنه من ضوءها . ألحف : غطى . الجوّ : الهواء بين السماء والأرض .
أراد أن الصبح غطى نواحي السماء بضوئه .

[ما ورد فى الصبح من الشعر]

ومن حسن التشبيه فى ضوء الصبح قول ذى الرمة :

وقد لاح للسّارى الذى كَمَل السّرى على أخريات الليل فتقّ مشرّ^(١)
كلون الحصان الأبيض البطن قائماً تمايل عنه الجُلّ واللون أشقرّ

شبه اختلاط الضوء بالظلمة بالفرس الأشقر الأبيض البطن .

وقال ابن المعتز :

وساقٍ يجعل المنيديل منه مكان حمائل السيف الطوال
غدا والصبح تحت الليل بادٍ كطُرْفٍ أشقرٍ ملقى الجلال

وقال يوسف الرمادى :

وليلة أنس قد غمرنا ظلامها بأوجهٍ راحٍ تستنير فتشرف
إلى أن بدا ضوء الصباح كأنما تحمّل لقمان ، وأقبل يوسف

قوله : «غدت» ، أى بكرت ^{في} استقلال : ارتفاع وقيام . والركاب : الا.

واحدتها ، راحلة . ولا اغتداء الغراب ، أى ولا مثل اغتدائه ؛ تخذف « مثل »
المنصوبة بلا ، وأقام « اغتداء » مقامها لأن « لا » لا تنصب المعارف ، وأراد أن
اغتدائى كان قبل أن يقتدى الغراب ، والغراب أكثر الطير بكوراً ، وهذا
وما شابهه فى هذا الكتاب مثل قوله : « ولا كيد فرعون موسى » ، « ولا انهلال
السحب » ، « ولا عمرو بن عبيد » ، إذا طلبت حقيقة معناه صار المشبه أقوى من
المشبه به ، ولم يأت هذا إلا عن العرب ، تقول العرب : « فتى ولا كمالك » ، فيريدون
مالكاً أفضل من الفتى ، ومثله « مرعى ولا كالسعدان » أى أن المرعى فاضل فى
طيبه ، ولكن السعدان أفضل منه ، ومثله : « ماء ولا كصداء » ، فصداء
أفضل من ذلك الماء على طيبه ، فهذا مذهب العرب فى ذكر « لا » بين المشبهين .
وأما قول الحريرى : « غدوت ولا اغتداء الغراب » ، فيريد أن غدوى أبكر
من اغتداء الغراب ، وكذلك « ولا انهلال السحب » ، وهو يريد أن جودهم
فوق جود السحاب ، لأن كلام العرب : فلان أبكر من الغراب ، وأجود من
السحاب ، ولا يقولون السحاب أجود من فلان ، ولا الغراب أبكر من فلان ،
ولا فائدة فى ذلك ، فإذا حققت لفظة « ولا » فى تشبيه الحريرى على ما يجب لها فى
كلام العرب انقلب المعنى ، وإنما اللفظ من كلام عامة العراق ، فاستعملها لأنها عندهم
متعارفة وليست بعربية ، ومثل هذا قد جوزه المولدون فى أشعارهم ، وجاء منه
فى مقامات البديع كثير . ويستعمل أهل فاس فى مغربنا لفظة « ولا » فى تشبيهاتهم
كثيراً جداً على حد استعمال الحريرى لها ، ولا يستعملها أهل الأندلس .

وقال الفنجديسى : الرفع فى قوله : « ولا اغتداء الغراب » ، أكثر مبالغة فى
التشبيه من النصب .

قوله : « أستقرى » ، أى أتبع . صوب : جهة وناحية . الليل : الذى سُمي بالليل .
أتوسم . أتعرف وأنظر سمتها . الجلى : البين . لحت : رأيت . بُردان زئنان :

يوبان خَلْقَان . نَجِيًّا لِيَاتِي ، أَى المتحدّثان فيها ، وجعاهما متحدثين مع الليلة مجازاً
لما أوقعا الحديث فيها ، كقوله تعالى : ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾^(١) ولا يمكن أن إنما
يُكْرَفُ فِيهِمَا ، فذهب ذلك المكر إليهما . صاحباً روايتي . أَى اللذان أروى عنهما
هذه القصة .

* * *

فَقَصَدَتْهُمَا قَصْدَ كَلَفٍ بِدَمَائِهِمَا ، رَاثٍ لِرَثَائِهِمَا ، وَأَبْحَثُهُمَا
التَّحْوُلَ إِلَى رَحْلِي ، وَالنَّحْكَمَ فِي كُثْرِي وَقَلِّي ، وَطَفَقْتُ أُسَيِّرُ بَيْنَ
السَّيَّارَةِ فَضْلَهُمَا ، وَأَهْمَزُ الْأَعْوَادَ الْمُثْمِرَةَ لَهُمَا ، إِلَى أَنَّ غُمِرَا
بِالنُّحْلَانِ ، وَاتَّخِذَا مِنَ الْخُلَانِ . وَكُنَّا بِمُعَرَّسٍ نَتَّبِعُنِ مِنْهُ مُنْبِئَانِ
الْقَرْيَ ، وَنَتَنَوَّرُ نِيرَانِ الْقَرْيَ .

فَلَمَّا رَأَى أَبُو زَيْدٍ امْتِلَاءَ كَيْسِهِ ، وَانْجِلَاءَ بُوسِهِ ، قَالَ لِي :
إِنَّ بَدَنِي قَدْ انْسَخَ ، وَدَرَنِي قَدْ رَسَخَ ، أَفْتَأْذَنُ لِي فِي قَصْدِ
قَرِيَّةٍ لَأَسْتَحِمَّ ؟ وَأَقْضِيَ هَذَا الْمِهْمَ ؟ فَقُلْتُ : إِذَا شِئْتَ
فَالسَّرْعَةَ السَّرْعَةَ ، وَالرَّجْعَةَ الرَّجْعَةَ ، فَقَالَ : سَتَجِدُ مَطْلَعِي عَلَيْكَ ،
أَسْرَعَ مِنْ ارْتِدَادِ طَرَفِكَ إِلَيْكَ .

* * *

كِلَفٍ : محبّ . دَمَائِهِمَا : سهولتهما ، والدّماءُ سهولة الأرض ، وكل ما
وطئته وسهّلته وأذلّته بيدك فهو دَمٌ . رَاثٍ : بالكِ مشفق . وَرَثَائِهِمَا : سوء

حالمها . أبجته : جعلته له مباحاً . كُثِرَى وُقِلَى : أى كثير مالى وقليله . طفقت : أخذت . أسيرَ : أمشى . السيارة : القوم الذين يسرون فى الأسنار . أهز الأعواد ، استعاره ، وأراد أنه يستعطف لها أصحاب الأموال فيواسونهم ، فكنى عنهم بالأعواد ، وقد كرّر هذا المعنى نظاماً حين قال :

قصده والشيخ يبنى جنى عودٍ له ما زال مهزُوزاً^(١)

وقال الشاعر فى مثله :

إلّا يَكُنْ ورقٍ غصّاً أراح به المعتفين فإنى لئن العود
أراد إن لا أكن كثير المال فإنى كريم . والورق : المال غير الصامت ، وأراح به : أهتز به ، من الأريحية . وراح الشجر : أتى بورق فى آخر الصيف لأصل له ، ويقال لها الخلفة . قوله : « غمراً » ، أى أعطيا . التحلان : العطايا . الحِلان : الأصحاب . وقوله : « وكنا بمعرس » ، المعرس موضع النزول آخر الليل . تننّور : ننظر النيران . القرى : طعام الضيف . كيسه : وعاء دراهمه ، والكيس : خريطة تسع خمسمائة درهم والبذرة تسع عشرة آلاف درهم ، قال حبيب :
من بعد ما صارت هنيذة صرمةً والبذرة التجلاء صارت كيساً^(٢)

قوله : « انجلاء بوسه » ، انكشاف فقره . درّنى : وسخى . ورسخ الشيء فى الأرض رسوخاً : غاب فيها ، ورسخ العالم فى العلم : دخل فيه . استحمّ : أدخل الحمام ، واستحمّ الرجل : اغتسل بالحميم ؛ وهو الماء الحارّ . أقضى : أقطع وأزيل ، وقضيت الشيء : صنعته . المهمّ : أراد به فرض الصلاة ، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إن أهم أموركم عندى الصلاة ، فمن ضيعها فهو لما سواها أضيع . وقيل :

(١) فى المقامه الأربعين صفحه ٤٤٨ (طبعة الحسينية) .

(٢) ديوانه ١٧٧ ، والهيئدة : اسم المائة من الإبل . والصرمة : ما بين الدهرة إلى هضعة عشر . والتجلاء : الصرمة .

للمهم: الوسخ لأن الأمر المهم ، هو الذى فى القلب منه هم وشغل ، وقد ذكر أن الذى أوجب عليه قصد الحمام هو ما عليه من الوسخ ، فيكون قوله : « وأقضى هذا المهم » من قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ ^(١) ، وقد أهمنى الشئ فهو مهم ، وهذا القول أوفق بمراده .

[نبذت ما قيل فى الحمام شعرا ونثرا]

وللزاهد بن عمران رحمه الله وقد استبطأ فى دخول الحمام :

يا صاح عهدى بالحمام قد بعداً فلا تلمنى فيه إن طلبت مدى
قارعت فيه العدا فى معركٍ لجب دحضتزل به الأقدام قد بعداً
عداً أثرن برأسى حين تُرن به توقدا وأعادت جلده جليداً
فظلت مستأصلاً بالقتل أجمعها فلم أدع والدأ منها ولا ولداً
ثم انثنت معافى ناعماً جذلاً مظفراً أستزيد الواحد الصمداً
ورأى نفسه ممتدأ بين يدى الحكاك ، قال :

أأغتر إن مدّ فى العمر لى وأرجى التاب إلى قابيل
وأغفلُ والموت لى طالبُ حيث كذب النصى القاتل
كأنى بى هكذا ميتاً ^(١) تحكّم فى يد الغاسل
وله أيضاً :

شكرت للدهر حسن ما صنعنا طريد مجدى تحيى رفا
يا حُسن حماننا وقد غرُبت شمس الضحى فيه بعد ما متعا
أيقن أن الهلال راكبه فضاء للناظرين واتسعا
فأنعم أبا عامر بنعمته وأعجب لأمرين فيه قد جمعا

(١) الحج ٢٩ : ١١٢ (٢) ١ كان بى

(١٢) - شرح مقامات الحريري ، ١١

نيرانه من زنادِكُمُ قدِحت وماؤه من بَنانِكُم نبعاً
ولبعضهم في حَمَام كانت مضاوئه من زجاجٍ أحمر ، وفي سماءه حرّة وبياض :
تَحَيَّرْتُ من طيبِ حَمَامِنَا فَخَيَّلَ لِي أن فيه الفلقُ
فمن حرّة فوقنا وابتضاض نلحّد الحبيب إذا ماعرّق
رأى الدهر ماسدً من حُسْنِه فسدَّ كُوى سقْفِه بالشَّقِّ
ودخل الحَمَام أبو جعفر التُّطَيْلِيّ وأبو بكر بن بَقِّ رحمهما الله تعالى ، فقال
أبو جعفر :

يا حُسْنَ حَمَامِنَا وبهجته مرأى من السَّحَر كله حَسَنُ
ماءٍ ونازٍ جواهما كنفٍ كالقلب فيه السرور والحزنُ

ونظر فيه إلى غلام وسيم ، فقال :

هل استمالك ميّال القوامِ وقدّ سالت عليه من الحَمَامِ أُنْدَاهُ
كالفصن بأشَرَ حرّ النار من كَشَبٍ فظلّ يقطر من أعطافه الماء

وقال آخر :

حَمَامِنَا فيه فصل القيظ محتدِّمٌ وفيه للبرد سرٌّ غير ذى ضررٍ
خُذْنا نِعمَ جسم المرء بينهما كالفصن ينعم بين الشمس والمطرِ

وقال ابن رشيق : ومما قلته على عقب وداع :

ولم أَدْخِلِ الحَمَام ساعةَ بينهم لأجل نعيمٍ ، قد رضيت بِبُوسِي^(١)
ولكن لتجرى عَبرَتِي مطمئنةً فأبكي ، ولا يدرى بذلك جليبي

(١) طراز المجالس ١٢٢ .

وقال آخر :

وحَمَامٍ كَانَ النَّارَ فِيهِ مَسْقَرَةٌ بِنِيرَانِ الْجَحِيمِ
دَخَلْتُ أَنَا وَمَنْ أَهْوَاهُ فِيهِ فَعَادَ لَنَا كَجَنَاتِ النَّعِيمِ

وقال آخر في ذم حمام :

وحَمَامٍ سُوءٌ وَخِيمُ الْهَوَا قَلِيلُ الْمِيَاهِ كَثِيرُ الزَّحَامِ
فَمَا لِلْقِيَامِ بِهِ مِنْ قَعُودٍ وَلَا لِلْقَعُودِ بِهِ مِنْ قِيَامٍ
حَنَاتِهِ عَطَفَاتُ الْقِسَى وَقَطَرَاتِهِ صَائِبَاتُ السَّهَامِ

وقال آخر في تعجيل الخروج منه :

خُذْ مِنَ الْحَمَامِ وَاخْرُجْ قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْكَ
حَدَّثَنِي عَنْهُ وَإِلَّا حَدَّثَ الْحَمَامُ عَنْكَ

وقال ابن رشيقي :

مُؤْمَرَتَهُنَّ لَدَى الْحَمَامِ أَضْحَى وَحَالَاهُ لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ
إِذَا سَتَمُوا الْعَذَابَ أَوْ اسْتَغَاثُوا أَغَاثُوهُمْ بِيَابَ الزَّمْهِرِ
كَذَلِكَ حَالُهُ حَرًّا وَبَرْدًا بَيْتِ الْخَوْضِ أَوْ بَيْتِ الطَّهْمُورِ
وَطَالَ بِهِ انتِظَارُ مُوَاعِدِهِ فَقَدْ زَادَ الشَّقَى عَلَى النَّظِيرِ
وَلَهُ أَيْضًا :

سَأَشْكُرُ لِلْحَمَامِ بَدْءًا وَعُودَةً أَبَادَى بَيْضًا مَا لَمْ يَنْبِ
جَلَاكَ عَلَى عَيْنِي عُرْيَانًا حَاسِرًا فَرَحْتَ بِتَطْلُيقِي وَأَنْتَ قَيْنٌ^(١)
وَطَهَّرَ قَلْبِي مِنْ هَوَاكَ بِيَارِدٍ وَسُخِّنَ قَمَرُ الْجَفْنِ وَهُوَ سَخِينٌ

(١) ط : « فَمَيْن » ، وما أنبته من ا ، ب .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الحَمَامُ يَذْكُرُ جَهَنَّمَ ، وَيَنْقَى الدَّرَنَ ..
وقال على رضى الله عنه : بئس البيت الحَمَامُ ! تُكْشَفُ فِيهِ الْعُورَاتُ ، وَتَرْتَفَعُ
فِيهِ الْأَصْوَاتُ ، وَلَا يُقْرَأُ فِيهِ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى .
ودخله بعضُ الأمراء مع الرقاشى فقال له : امدحْه ، فقال : يُذْهَبُ الْقَشَافَةُ ،
ويعقب النظافة ، وَيُفْشَى ^(١) الثُّخْمَةُ ، وَيَطْيَبُ النِّعْمَةُ ، فقال : ذمّه ، فقال : يَهْتِكُ
الْأَسْتَارَ ، وَيُوَلِّفُ الْأَقْدَارَ ، وَيُذْهَبُ بِالْوَقَارِ .

* * *

قوله : « إِذَا شِئْتَ فَالسَّعْرَةُ السَّعْرَةُ » ، يقول : إِذَا شِئْتَ أَنْ تَقْصِدَ الْحَمَامَ
فَالزَّمِ السَّعْرَةَ ، وَعَجَلِ الرَّجْعَةَ ، وَكَرِّرْهَا تَأْكِيداً ، وَالْفِعْلُ النَّاصِبُ لَهَا يَلْزَمُ
إِضْمَارَهُ مَعَ التَّكْرِيرِ ، فَإِذَا أَفْرَدْتَ جازَ إِظْهَارُ الْفِعْلِ ، وَنَظِيرُهُمَا قَوْلُ الْعَرَبِ :
الطَّرِيقُ ، الطَّرِيقُ ، وَالْأَسَدُ الْأَسَدُ وَقَالَ الشَّاعِرُ :

* خَلَّ الطَّرِيقُ ابْنَ يُبْنَى الْمَنَارُ لَهُ *

فلما سقط التكرير ساغ له إظهار الفعل . مَطْلَعِي : مصدر بمعنى طلوعى .
أهل الحجاز يفتحون لامه فى المصدر وغيرهم يكسرها . ارتداد طرفك ، أى
رجوع نظرك .

* * *

ثُمَّ اسْتَنْتَ اسْتِنَانِ الْجَوَادِ فِي الْمَضَامِ ، وَقَالَ لَا بُدَّ : بَدَارِ بَدَارِ !
وَلَمْ نَخْلُ أَنَّهُ غَرٌّ ، وَطَلَبَ الْمَقَرَّ . فَلَمِشْنَا نَرْقُبُهُ رِقْبَةَ الْأَعْيَادِ ،
وَنَسْتَطْلِعُهُ بِالطَّلَائِعِ وَالرُّوَادِ ، إِلَى أَنْ هَرِمَ النَّهَارُ ، وَكَادَ جُرْفُ
النَّهَارِ يَنْهَارُ . فَلَمَّا طَالَ أَمَدُ الْإِنْتَظَارِ ، وَلَاحَتِ الشَّمْسُ فِي
الْأَطْمَارِ ، قُلْتُ لِأَصْحَابِي : قَدْ تَنَاهَيْنَا فِي الْمُهْلَةِ ، وَتَعَادَيْنَا فِي

(١) يقال : فُشَّ الوُطْبُ ، أى أخرج ما فيه من الريح

الرَّحْلَةَ ، إِلَى أَنْ أَضَعَمَّا الزَّيْمَانَ ، وَبَانَ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ مَانَ ،
فَتَأَهَّبُوا لِلظَّنِّ ، وَلَا تَلَوْا عَلَى خَضْرَاءِ الدَّمَنِ .

° ° °

استنَّ استنَّان الجواد : جرى كما يجرى الفرس ، وإنما يقال : استنَّ في كلامه
إذا جرى في غير طريق بتحريف ، ومنه قولهم : استنَّت الفِصال حتى القرعى ^(١) ،
يريدون جرت الفِصال وهي تلعب ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « فاستنَّت
شرفاً أو شرفين » . وقال الشاعر يذكر طعنة خرج دمها في جهة :

بمستنة كاستنَّان الخرو فِ وقد قطعَ الحبلَ بالبرود ^(٢)

أراد المهر ، ويقال له : خروف وفوف ، وقد فسر « استنَّت الفِصال » بأن معناه
أحسن رعيها ، حتى كأنه صقلها . والجواد : الفرس الكريم . المضمار : الطَّلَق تجرى
فيه الخيل ، سَمِيَ مِضْماراً لأن الخيل تَضْمَرُ فيه ، وذلك أن العرب كانت تستن
الخيل فتستخرجها إلى المِضْمار ، فتجريها طَلَقاً قدر ما تحتمل ، ثم تزيدها يوماً
آخر في الجرئى على ذلك ، ثم لا تزال تزيدها في الطَّلَق كل يوم ، حتى تجرى بها
الأميال ، فيسيل عَرَق الخيل بذلك الجرئى ، ويشتدَّ لحْمها بذلك التضمير
قال زهير :

تُضْمَرُ بالأصائل كلَّ يومٍ تُسَنُّ على سَنابكها القرون ^(٣)

القرون : دُفَع القرق ، واحدها قرْن .

وقوله : « بدار بدار » ، أى سبقاً سبقاً ، وهو معدول عن بدر ، فيقول لابنه :

(١) مثل ، يصرِب للرجل يفعل ما ليس له أهل . جهرة الأمثال ١ : ١٠٨

(٢) اللسان - خرف ، ونسبه إلى رجل من بني الحارث .

(٣) ديوانه ١٨٧

أبدر بالجري ، واسبق إلى الحتام . لم نخَل : لم نحسب . غرّ : خدع . نرقبه ، أى ننظر من أين يحيى ويروى : « نرقبه رقة أهلة الأعياد » .

وما أحسن قول ابن الزقاق فى هذه الرّقة :

وشهرٍ أدركنا لارتقاب هلاله جفوناً إلى نحو السماء موائل^(١)
إلى أن بدا أحوى الدامع أحورٌ يجرّ لأذيال الشّباب غلائلاً
فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً بمن قد حوى طيب السّمول شمائلاً
أتطلبك الأبصار فى الجوّ ناقصاً وأنت كذا تمشى على الأرض كاملاً
وله فى معناه :

لله شهرٌ ما نظرتُ هلاله إلّا كنونٍ أو كمطنة لام^(٢)
حتى تبدى لى أغنٌ مهفّفٌ بضياءه ينجابُ كلُّ ظلامٍ
فطفقت أهتِفُ بالأنام ضلّتمُ وغلظتمُ فى عدّة الأيام
ما جاءنا شهرٌ لأول ليلة مذ كانت الدنيا بيدر تمام

نستطاعه ، أى نلتمس طلوعه . الطلائع : الباحثون عليه . والرواد : الطالبون له ، وأصل الطلائع الباحثون عن أخبار العدو ، والراصدون فى الطرقات ، الواحد طليعة ، وأصل الرواد الطالبون للمرى . هَرِمَ : شاخ ، ومعناه قارب أن يتم . ينهار : ينهدم . والجُوف : ما يأكله الوادى ، استعاره للنهار . لاحت : ظهرت . والأطمار : الثياب الخلقّة ، أراد أن ثوب الشمس وهو ضوءها قد تغبّر وبلى عند الغروب ، وبعضهم يستعمل هذه الاستعارات فى الشتاء وغروب الشمس .

ومما يستغرب من ذلك قول العلوّى الأصهبانى :

ومجلس شربٍ جثّته مطرّباً عشياً وعينُ الشمس فى الأفق تنعّسُ

(١) ديوانه ٢٣٨

(٢) ديوانه ٢٥٨ .

وقال ابن الرومي :

كَأَنَّ جَنُوحَ الشَّمْسِ ثُمَّ غُرُوبَهَا وَقَدْ جَعَلْتُ فِي مَجْنَحِ اللَّيْلِ تَمْرُضُ^(١)
تَخَاوَصُ عَيْنَ بَيْنِ أَجْفَانِهَا الْكَرَى يَرْتَقِ مِنْهَا النَّوْمُ وَهِيَ تَغْمُضُ
وقال أيضاً :

إِذَا رَتَعَتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ وَنَفَضَتْ عَلَى الْأَفْقِ الْغَرْبِيِّ وَرَسًا مُدْعَزَعًا^(٢)
وَوَدَّعَتْ الدُّنْيَا لِتَقْضَى نَحْبَهَا وَشَوَّلَ بَاقِيَ عَمْرِهَا فَتَشَعَّشَعًا^(٣)
وَلَا حَظَّتْ الْأَنْوَارُ وَهِيَ مَرِيضَةٌ وَقَدْ وَضَعْتَ خَدًّا عَلَى الْأَرْضِ أَضْرَعًا
كَأَنَّ لَاحِظَتِ عَوَادَهُ عَيْنَ مَدْفٍ تَوَجَّعَ مِنْ أَوْصَابِهِ مَا تَوَجَّعًا

أخبرني ابن منصور ، قال : خرجتُ بخارج فاس عشية مع فتى وراق ، فنظر
إلى صفرة الشمس واستنشق برد النسيم ، وأنشدني مرتجلاً :

انظر إلى الشمس في الأصيل كَأَنَّهَا وَجَنَّتَا عَلِيلِ
ورقَ هذا النسيم حتى كَأَنَّهَا يَشْتَكِي نَحُولِي

وقال ابن الزقاق :

وعشية لبست ملاء شقيق تَرَاهِي بِلَوْنٍ لِلْخُدُودِ أُنَيْقِ^(٤)
أَبْقَتْ بِهَا الشَّمْسُ الْمَنِيرَةُ مِثْلَ مَا أَبْقَى الْحَيَاءُ بَوَجْنَتِي مَعْشُوقِ
لو أستطيع شربتها كلفاً بها وَعَدَلْتُ فِيهَا عَنْ كَثُوسِ رَاحِقِ
وقال ابن سراج :

والشمس تنفض زعفراناً بالربا وَتَبَثَّ مَشْكُهَا عَلَى الْفَيْطَانِ

(١) ديوان الماتى ٣٦١

(٢) ديوان الماتى ١ : ٣٦١ ، ومذعزعا : مفرقا .

(٣) شول باقى عمرها ، أى لم يبق منه إلا القليل .

(٤) ديوانه ٣٠٦ وفيه : « لبست رداء شقيق »

وما أحسن قول الرّصافي في معناه :

وعشيّ أنسٍ للسرور وقد بداً من دون قرص الشمس ما يتوقع^(١)
سقطت ولم تملك يمينك ردّها فوددت يا موسى لو أنّك يوشعُ

وقال ابن الروميّ في طلوع الشمس من خلل السحاب وذكر امرأة :

تريك بياض غُرَّتِها ووجهها كقرن الشمس أغسق ثم زالا
أصاب خصاصةً فبدا كليلاً كلاً وانفلّ سائرُه انفلّالا
قوله : « بدا كليلاً » إشارة إلى أنه عندما بدا غاب بسرعة ، وأذكر « كلاً »
في اللقمة التاسعة والثلاثين .

وقال ابن المعتزّ في نحوه :

تطلّ الشمسُ ترمقنا بلحظٍ مريضٍ مدنفٍ من خلفٍ سنّيرٍ^(٢)
تحاول فتقّ غيمٍ وهو يابّي^(٣) كعنينٍ يريدُ نكاحَ بكرٍ

قوله : « تناهينا » ، أي بلغنا النهاية . والمهلة : التراخي ، يقول : قد تراخينا في
انتظاره حتى بلغنا الغاية في ذلك . « تمادينا في الرحلة » ، هذا على حذف مضاف للعلم
به ، تقديره : تمادينا في ترك الرحلة وانتظارها ، ومثل هذا الحذف جائز في النظم
والنثر وأنشد أبو علي :

أنا النذيرُ لكم مني مجاهرةً كي لا ألامَ على نهبي وإنذارِ
أي على تركي النهي والإنذار ، وقال آخر :
وأهلك مهرَ أبيك الدّوا ليس له من طعامٍ نصيبِ

(١) ديوانه ١٠٤ ، مع اختلاف في الرواية .

(٢) ديوان المعاني ١ : ٣٦٠ ، وفيه : « بلحظ خفي » .

(٣) ط : « فتح غيم » ، وما أثبتته من ديوان المعاني .

أى فقد الدواء ، وجاء فى القرآن ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾^(١) أى أهل القرية ، و﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ﴾^(٢) ، أى من أهل قريتك ، ومثل هذا كثير فى القرآن والكلام الفصيح ، بما لا يتم المعنى إلا بتقديره ؛ فالذى غاط الحريى فقال : لو ت مدت بهم الرحلة لكانوا فى سير متصل ، قد جهل الكلام النصيح فأراد : طالت بنا هذه السفرة . وتمادى الشئ فهو متماد ، إذا طال فيه المدى ، وهو الغاية البعيدة . يقول : تأخرنا عن السفر اليوم لتمادينا فى انتظاره ، فطالت علينا السفرة لعطلة السفر ، حتى أضعنا اليوم الذى انتظرناه فيه حيث لم نسا فر فيه . والزمان : اليوم . بان : تبين . مان : كذب ؛ يقال منه : مان يمين مئينا ، وأما مانهُ يُمُونه مونا ، فقام بمؤنته . قوله : « فتأهبوا » ، استعدوا . الظن : الرحيل . ولا تلؤوا : تعرجوا . خضراء الدمن : عشب المزابل ، هى حسنة المنظر سيئة الخبر ، وإذا يبست لم ينتفع بعودها لخوره وضعفه ، فشبه بها أبا زيد لحسن ظاهره فيما أبدى لهم من فصاحتِهِ ، وسوء باطنه فى كذبه وإخلاف وعده ، حتى عطّلهم عن سفرهم نهاراً فى انتظاره ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : إياكم وخضراء الدمن ، ف قيل له : وما خضراء الدمن ؟ فقال : « الجارية الحسناء فى المنبت السوء » .

* * *

وَنَهَضْتُ لِأَخْدِجَ رَاحِلَتِي ، وَأَتَحَمَّلَ لِرِخْلَتِي ، فَوَجَدْتُ
أَبَا زَيْدٍ قَدْ كَتَبَ ، عَلَى الْقَتَبِ :

يَا مَنْ غَدَايَ سَاعِدَا وَمُسَاعِدَا دُونَ الْبَشَرِ
لَا تَحْسِبَنَّ أُنَى نَأْيُهُ لَكَ عَنْ مَلَالٍ أَوْ أَشْرِ
لَكِنِّي مُذْ لَمْ أَزَلْ مِمَّنْ إِذَا طَعِمَ انْتَشَرَ

قال : فَأَقْرَأْتُ الْجَمَاعَةَ الْقَتَبَ ، لِيَعَذِّرَهُ مَنْ كَانَ عَتَبَ
فَأَعْجَبُوا بِخُرَافَتِهِ ، وَتَعَوَّذُوا مِنْ آفَتِهِ .
ثُمَّ إِنَّا ظَعَنَّا ، وَلَمْ نَذَرِ مَنْ اعْتَاضَ عَنَّا .

قوله : «أحدج» : أى اجعل عليها الحدج ، وهو مركب من مراكب النساء ،
وأراد أرحل الناقة . وراحلته : ناقته . أتحمل لرحلتى ، أو قرحملى للرحيل ،
يقال : تحمّل القوم ، إذا عبّوا أحمالهم وارتحلوا . والقَتَب : خشب الرّحل . قوله :
«ساعدا» ، أى ذراعا يستعين به . مساعدا : موافقا . نأيتك : بعدت عنك . أشر :
بطر وعدم شكرٍ ، يقال : أشر الرجل يأشر أشراً ، إذا بطر ، قال الأخطل
يذكر بنى أمية :

أَعْطَاكُمْ اللَّهُ جَدًّا تُنْضِرُونَ بِهِ لَا جَدَّ إِلَّا صَغِيرٌ بَعْدُ مُحْتَقَرٌ^(١)
لَمْ يَأْشُرُوا فِيهِ إِذْ كَانُوا مَوَالِيَهُ وَلَوْ يَكُونُ لِقَوْمٍ غَيْرِهِمْ أَشْرُوا
قوله : «مذ لم أزل» ، أى مذ بنت ووجدت . انتشر : ذهب . عتب : لام
وسخط فعله . خرافته : حديثه الملهى .

[حديث خرافة]

وحديث خُرافة^(٢) مثلٌ سائر على ألسنة الناس في القديم والحديث ، يضر به
لكلّ حديث لا حقيقة له . ووقع في أمثال المفضل بسند يصل إلى عائشة رضى الله
عنها ، أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : حدثني حديث خُرافة ، فقال : رحم الله
خرافة ، كان رجلاً صالحاً ، فأخبرني أنه خرج ذات ليلة فلقى ثلاثة نفر من الجن

(١) ديوانه ١٠٤ ، وفيه : • أعطاهم الله • .

(٢) انظر الميداني ١ : ١٣١ ، الفاخر ١٦٨ ، اللسان ١٠ : ٢١٤ .

فسبوه ، فقال أحدهم : نغفو عنه ، وقال آخر قتله ، وقال آخر : نستعبده ، فبينما هم يتشاورون في أمره ، إذ ورد عليهم رجل ، فقال : السلام عليكم . فقالوا : وعليك السلام ، قال : وما أتم ؟ قالوا : نفر من الجن ، أسرنا هذا فنحن نأتمر في أمره . فقال : إن حدثتكم حديثاً عجيباً ، أأشركونني فيه ؟ قالوا : نعم ، قال : إني كنتُ ذا نعمةٍ فزالت ، وركبني دينٌ ، فخرجت هارباً ، فأصابني عطش شديد ، نسرت إلى بئر فنزلت لأشرب ، فصاح بي صائح من البئر : مه ! فخرجت منها ولم أشرب ، فغلبني العطش ، فعدت ، فصاح بي ، ثم عدت الثالثة فشربت ، ولم ألثفت إليه . فقال : اللهم إن كان رجلاً فحوِّله امرأة ، وإن كان امرأة فحوِّلها رجلاً ، فإذا أنا امرأة ، فأتيت مدينة قنزوجني رجل ، فولدت منه ولدين ، ثم عدتُ إلى بلدي ، فمررت بالبئر التي شربت منها ، فنزلت فصاح بي كما صاح في الأول ، فشربت ولم ألثفت له ، فدعا كالأول ، فعدتُ رجلاً كما كنت . فأتيت بلدي ، قنزوجت امرأة ، فولدت منها ولدين ، فلي ابنان من ظهري وابنان من بطني . فقالوا : إن هذا لعجيب ، أنت شريكنا ، فبينما هم يتشاورون إذ ورد عليهم ثور يطير فلما جاوزهم ، إذا رجل بيده خشبة ، وهو يحفر في إثره ، فوقف عليهم فسلم ، فردّوا ، وسألهم ، فردّوا عليه مثل ردّهم على صاحبهم ؛ فقال : إن حدثتكم بحديث أعجب من هذا أأشركونني فيه ؟ قالوا : نعم ، قال : كان لي عمّ ، وكان موسراً ، وكانت له ابنة جميلة ، وكنا سبعة إخوة ، وكان لعمي عجلٌ يربيّه ، فأنفقت ، فقال : أيتكم يرده فابنتي له ؛ فأخذت خشبتي هذه ، واتزرت ، ثم حفزت في إثره وأنا غلام ، وقد شبت ، فلا أنا ألحقه ولا هو يكلّ ؛ فقالوا : إن هذا لعجب ، اتعد فأت شريكنا . فبينما هم يتشاورون ، إذ ورد عليهم رجل على فرس أبيض . وخلفه غلام على فرس ذكر ، فسلم كما سلم صاحبه فردّوا عليه كردّهم على صاحبه . فسألهم فأخبروه الخبر ، فقال لهم : إن حدثتكم بحديث أغرب من هذا ، أأشركونني فيه ؟ فقالوا : نعم ، قال : كانت لي أمٌ خبيثة . ثم قال للفرس الأبيض الذي تحته : أ كذلك هو

فقلت : برأسها نعم — قال : وكنت أتهمها بهذا العبد — وأشار إلى الفرس ،
الذى تحت غلامه : أهكذا ؟ فقال برأسه : نعم — فوجهت بفلامي هذا الراكب
ذات يوم في بعض حاجاتي ، فحبسته عندها فأغفى ، فرأى في منامه كأنها صاحت
صنيحة ، فإذا هي بجُرْدٍ قد خرج ، فقلت : اسجد ، فسجد ، ثم قالت : اكرب
فكرب^(١) ، ثم قالت : ادرس فدرس ، ثم دعت برحاً فطحننت قدح سويق ،
فأتت به الغلام ، فقلت له : أنت به مولاك ، فأتاني به ، فاحتلت عليهما حتى سقيتهما
القدح ، فإذا هي فرس أتنى ، وإذا هو فرس ذكر ، قال : أ كذلك ؟ قالت الفرس
الأتنى برأسها : نعم ، وقال الفرس الذكر برأسه : نعم ، فقالوا إن هذا أعجب
شيء سمعناه ، أنت شريكنا . فأجمع رأيهم فأعتقوا خرافة فأتى النبي صلى الله عليه
وسلم فأخبره بهذا الحديث ، فما جاء من الأحاديث المحالّة نُسِبَ إلى خرافة
صاحب الحديث .

* * *

قوله : « آفته » أى ضرره . ظعننا : رحلنا . اعتاض : استبدل .

(١) الفاخر : « احمد نخصد » .

المقامة الخامسة وهى الكوفة

حكى الحارث بن همام قال : سمّرت بالكوفة فى ليلة أدبها ذو
لؤنين ، وقمرها كتمويد من لجين ، مع رفقة غدوا بلبان البيان ،
وسحبوا على سحبان ذيل النسيان ، ما فيهم إلا من يحفظ عنه
ولا يتحفظ منه ، ويعيل الرفيق إليه ، ولا يعيل عنه ، فاستهوانا
السمر ، إلى أن غرب القمر ، وغلب السهر . فلما روق
الليل البهيم ، ولم يبق إلا التهويم ، سمعنا من الباب
نبأة مستنجح ، ثم تلاها صكة مستفتح ، فقلنا : من الملم ،
فى الليل المدلهم ؟ فقال :

[الكوفة]

سمّرت بالكوفة . الكوفة بلد بالعراق مشهور بينه وبين بغداد ثلاثون
فرسخا ، وسميت كوفة لاستدارتها ، أخذت من الكوفان ، وهى الرملة الشديدة
البياض ، وقيل : سميت كوفة لاجتماع الناس فيها ، من قولهم : تكوّف الرمل .
تكوّنّا ، إذا ركب بعضه بعضا ، وقيل : سميت كوفة ، لأنها قطعت من البلاد ،
من قولهم : أعطيت فلانا كيفة ، أى قطعة ، وكفت أكيف كينا : قطعت .
والكوفة « فُعلة » منه ، قلبت الياء واوا للضمّة التى قبلها .

وهى مدينة العراق الكبرى ، والبصر الأعظم وقبة الإسلام ، ودار هجرة
المسلمين ، وأول مدينة اختطها المسلمون بالعراق .

وذكر شيخنا أبو الحسن بن جُبَيْر^(١) في رحلته حاجًا ، أنه دخل الكوفة في أوّل محرّم سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، فقال : هي مدينة كبير ، قد استولى الخراب على أكثرها ، فالعالم منها أقلّ من الخراب ، ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها ، وهي لا تزال تضرّ بها ، وكفالك بتعاقب الأيام والليالي ما حقًا ومننيًا ! وبنّاؤها بالأجر خاصّة ، ولا سور لها . والجامع العتيق آخرها ممّا يلي شرق البلد ، ولا عمارة تتّصل به من جهة الشرق . وهو جامع كبير ، في الجانب القبليّ منه خمس أبلطة ، وفي سائر الجوانب بلاطتان متّسعتان ، وهي على أعمدة من السّواري المصنوعة من صميم الحجارة المنحوتة قطعة على قطعة ، مفرّغة بالرّصاص ، ولا قسّى عليها ، وهي في نهاية من الطول متّصلة بسمتف المسجد ، فتجار العيون في تفاوت ارتفاعها ، فما رُئِيَ في الأرض مسجد أعلى سقفاً منه ، ولا أطول أعمدة ، ولهذا الجامع آثار كثيرة منها بيت يازاء الخراب عن يمين مستقبل القبلة ، يقال إنه كان مُصَلّى الخليل إبراهيم عليه السلام ، وعليه ستر أسود صوّالّه ، ومنه يخرج الخطيب لباساً ثياب السواد للخطبة ، والناس يزدهون على هذا البيت للصلاة فيه ، وبمقرّبة هذا البيت عن يمين القبلة محراب محلق عليه بأعواد الساج ، كأذه مسجد صغير مرتفع عن صحن البلاط ، هو محراب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وفيه ضربه الشّقيّ عبد الرحمن بن مُلَجِّم ، فالناس يصلّون فيه باكين داعين ، وفي الزّواية من البلاط القبليّ المتّصل بآخر البلاط الغربيّ شبه مسجد صغير محلق عليه أيضاً بأعواد الساج ، وهو مفارّ الثَّنُور الذي كان آية نوح عليه السلام ، ويتّصل بالجدار القبليّ فضاء ، يقال إنه كان منشأ السنيّة .

ومع هذا الفضاء دار عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه - تلقينا هذه الآثار

(١) هو محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي البني الرحالة ، قام برحلته الأولى إلى المغرب من غرناطة سنة ٥٧٨ ، وعاد إلى وطنه سنة ٥٨١ ، ووصف مشاهدته في كتابه المعروف برحلة ابن جبير .

عن أشياخ - البلد وفي الجهة الشرقية يت قبر مَسْلَمَة بن عَقِيل ، وفي جوف الجامع سقاية كبيرة فيها ثلاثة أحواض كبار ، وفي غربي المدينة على مقدار فرسخ المشهد الشهير المنسوب لعلي بن أبي طالب حيث بركت ناقته ، وهو محمول عليها ميتاً ، وفيه قبره ، والله تعالى أعلم بصحة ذلك . والفُرات في الجانب الشرقي على قدر نصف فرسخ ، والجانب الشرقي كله حدائق نخل مائتة تمتد سواها امتداد البصر^(١) .

* * *

قوله : « سمرت » أي ذهب نومي . الأديم : الجلد ، وأراد أن لون الليلة فيه سواد وبياض ، لأن قمرها ناقص ، ولذلك جعله . كتعويذ من الجُبن ؛ وهو خرز فضة ، يُستعمل مستديراً استدارة القمر ، وبعض الدائرة ، فارغ فيربط في الدائرة خيط ، فيعلق في أعناق الصبيان .

[مما ورد في الهلال من الشعر]

وقال فيه السكراوى :

قُمْ سَلِّ هَمِّي بِالْمَدَا	م فقيه هم قد أمضه
أَوْ مَا تَرَى قمر السَّمَا	كأنه تعويذ فضة
فَإِذَا أَلَمَّ بِهِ الْحَمَا	ق تخالُه في الخلد عَضَّة

وعلى معنى البيت الآخر ، قال إسماعيل القاضي يصف الهلال :

اسقني قبل صاحبي	واخش صرف النوائب
فالهلال الذي يلو	حُ خلال الغياهب

(١) رحلة ابن جبير ١٨٩ ، ١٩٠ .

مثل فتح اللجين صيد - غ لصيد الكواكب

وقال القاضي أبو محمد عبد الوهاب :

لما رأيت الهلال مُنطويًا في غرة النجر قارن الزهرة
شبهته والعيان يشهد لي بصولجان أوفى لضرب كره

وقال القاضي أبو الحسن بن لبّال :

انظر إلى الهلال إذ لاح بهي المنظر
كزورقٍ من فضة وسط لجين أخضر
أخذه من قول ابن المعتز :

أهلاً بفطرٍ قد أنار هلاله فالآن فاغدُ إلى المدام وبكر^(١)
وانظر إليه كزورقٍ من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

وله أيضاً :

أهلاً وسهلاً بالناي والعود وشرب كأسٍ بكفٍ مقدود
قد انتضت دولة الصيام وقد بشر مرأى الهلال بالعيد
يتلو الثرياً كفاغرٍ شره يفتح فاه لأكلٍ عنقود

وقد شبهه ابن المعتز بقلامة الظفر ، فأحسن حيث يقول :

وجاءني في قميص الليل مستتراً يستعجل الخطو من خوفٍ ومن حذر
ولاح ضوء هلالٍ كاد يفضحه مثل القلامة قد قدّت من الظفر

(١) ديوانه ١١٦ . ديوان الماني ١ : ٣٤٠

وأخذه من قول الأعرابي :

كأن ابن مُزنتها جانحاً فسيط لدى الأفق من خنصر^(١)

ابن مزنتها : الهلال . الفسيط : قلامة الظفر .

قوله : « غدوا » : أى ربّوا به وجعل غذاءهم ؛ واللّبان للآدميات ، واللبن للآدميات وغيرهن . سَجَبُوا : جَرَوْا . سَحَبان : فصيح العرب ، وانظره في السادسة عشرة . ذيل النسان : طرفه ، يريد أنهم بفصاحتهم أنسوا ذكر سَحَبان ، فكأنهم جَرَوْا عليه ثوب النسيان حتى غطّوه ، فلم يذكره أحدهم هؤلاء ، وأصل ذلك أن يُسحب ذيل الثوب على أثرٍ ليخفى ، كقول امرئ القيس :

* تعقّ بذيل الدرع إن جئت موثلي *

وكقوله :

خرجتُ بها تمشي نَجْرٌ وراءنا على أثرٍ بنا ذيلُ مِرْطٍ مُرْحَلٍ^(٢)

قوله : « يحفظ عنه » ، أى هم علماء يروون العلم فيحفظ عنهم . يُتَحَفَّظُ ، يُتَحَذَّرُ ، وأخذ هذا من قول سليمان بن عبد الملك : قد أكلتُ الطيب ، ولبست اللين ، وركبت الفارّة ، وتبطنّت العذراء ، فلم يبق لى من لذتى إلا صديق أطرح فيما بينى وبينه مؤنة التحفظ . فهذا الذى طلبه سليمان وجده الحريرى فى أصحابه ، وأصل التحفظ الاجتهاد فى حفظ الشيء وقلة الغفلة فى الأمور ، كأنه على حذر ، وأنشد ثعلب :

إني لأبفض عاشقاً متحفظاً لم تهمه أعينٌ وقلوبُ

(١) اللسان - فسط ، ونسبه إلى عمرو بن قبيصة وهو أيضاً فى ديوان المعاني ١ : ٣٣٩

(٢) ديوانه ١٤

(١٣ - شرح مقامات الحريرى ١)

قوله: «يميل الرفيق إليه»، تقول: ملت إلى فلان، إذا أحببته وتقربت منه، وملت عنه، إذا كرهته وبعُدت عنه. والرفيق: الصاحب يُرتفق به في السفر. قوله: «استهوانا»، هوى بنا وشغلنا. والسمَر: الحديث يُسمَر عليه. وذكر الحريري أن أصل السمَر ظل القمر، والسمَر: الحديث، ومنه أخذ السمر، وغالب أحوال السمار أنهم يتحدثون في ظل القمر - وذكر هذا في تفسير الرابعة والأربعين - وهو الأصل، ثم لتسع فيه فصار الجلوس بالليل للحديث يسمى سمرًا، على أي حال اتفق. روق: ضرب رواقه، والرواق: الثوب يُستظل به من الشمس، يريد أن الليل ضرب عليهم من ظلامه رواقًا فأنحجب عنهم به القمر. والبهيم: الخالص السواد، والبهيم الخالص من كل لون. والتهويم: النوم بالليل، والتغوير: النوم في القائلة، وقد هَوِمَ الرجل، إذا أسقط الثعاس رأسه فانتبه بسقوطه فرفعه، فحقيقته سجود الرأس من الثعاس، قال ذو الرمة في ذلك:

وأشعث مثل السيف قد لآح جسمه وجيف المهارى والهموم الأبعاد^(١)
سقاء الثعاس كأس سكر فرأسه^(٢) لدين الكرى في آخر الليل ساجد

ويقال: خفق رأسه فهو خافق، قال ذو الرمة:

وخافق الرأس فوق الرّحل قلت له زُع بالزمام وجوز الليل مرّكوم^(٣)
وقال الرصافي^(٤): فأحسن:

ومجدّين للشرى قد تعاطوا غفوات الكرى بغير كئوس
جَنَحُوا وانحنوا على العيس حتى خلتهم يلثمون أيدي العيس
نبذوا الغمض وهو حلوا إلى أن وجدوه سُلافةً في الرموس

(١) ديوانه ١٣٠.

(٢) الديوان: «سقاء الكرى كأس الثعاس وما درى».

(٣) ديوانه ٥٧٩. وزع بالزمام، أي اعطف الناقة بالزمام.

(٤) هو أبو عبدالله محمد بن غالب الرصافي، والأبيات في ديوانه ١٠٣.

قوله : « نبأة » ، أى صوت . مُستنبج : يحكي نباح الكلاب ، وكان الرجل إذا تلف بالليل بالصحراء ولم يدر أين يتوجه ، حاكى بصوته نباح الكلب ، فإن كان قريباً من العمران نبحت أنبأحه كلاب الحى ، فسمع أصواتها ، فقصد الحى .
تسمى العرب مَنْ يفعل هذا المستنبج . وأنشد أبو عليّ فى نوادره :

ومستنبجٍ بات الصدى يستنبيهُ فتاهَ وجوز الليل مضطرب الكيسر^(١)
رفعتُ له ناراً ثقبوا زنادها تليح إلى السارى : هلم إلى قدري
وقال حسان بن مائل :

ومستنبجٍ فى جُنح ليلٍ دعوتهُ بمشوبة فى رأس صمدٍ مقابل
فقلت له أقبل ، فإنك راشدٌ وإن على النار الندى وابنُ مائل
وقد أنشد أبو تمام فى حماسه فى باب الأضياف فى المستنبج ما فيه كفاية ؛
« قلنظر هنالك » .

قوله : « تلتها » ، أى تبعها . صكة : دفعة . مستفتح : طالب فتح الباب .
اللم : الزائر : المدهم : الشديد السواد ، من الدَّهْم ، ولامه زائدة .

* * *

يا أَهْلَ ذَا الْمَغْنَى وَقِيَّتُمْ شَرًّا وَلَا لَقِيْتُمْ سَائِئِيْتُمْ ضُرًّا
قَدْ دَفَعَ اللَّيْلُ الَّذِي اكْفَهَرَا إِلَى ذَرَاكُم سَمِينًا مُغْبَرَا
أَخَا سِفَارٍ طَالَ وَاسْبَطَرَا حَتَّى انْتَنَى مُحَقَّقَا مُصْفَرَا
مِثْلَ هِلَالِ الْأَفْقِ حِينَ افْتَرَا وَقَدْ عَرَا فِنَاءُكُمْ مُغْتَرَا
وَأَمْسِكُمْ دُونَ الْأَنَامِ طُرَا يَبْنِي قَرَى مِنْكُمْ وَمُسْتَقَرَا

(١) أمالى القالى ١ : ٢١٠ ، ونسب أبو عبيد البكري فى اللآلى هذا الشعر إلى رجل من بني الحارث بن كعب . وجوز أويل : وسطه ، وكسر البيت : جانبه .

فَدُّوْكُمْ صَيِّفًا نُّوْعًا حُرًّا يَرْضَى بِمَا اخْلَوْنِي وَمَا أَمَرًا
وَيَنْتَنِي عَنْكُمْ يَنْتَ الْبِرَّاءُ

* * *

المعنى : المنزل . ووقيتم : كفيتم ، وإنما دعاهم بهذا ، لأن في حديث أبي سعيد
الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يوشك قلوبُ
الناس أن تملأ شراً حتى يجرى الشرّ فضلاً بين الناس فلا يجد قلباً يدخله » .
ا كفهرو : تراكم ظلامه وكثر ذراكم : منزل لكم وكنتم ، وكل ما استترت
به من ريح أو مطر أو شمس فهو ذراً . شعناً : متغير الشعر ، والشعث : ترك غسل
الرأس حتى يتغير . مغبراً : عليه الغبار ، وفي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله
عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً وسخت ثيابه ، فقال : « أما وجد هذا
ما ينقي به ثيابه ! » . ورأى رجلاً شعث الرأس ، فقال : « أما وجد هذا ما يسكن به
شعره ! » . أخاً سفار : صاحب أسفار ، أي ملازم لها . اسبطار : امتد وطال سفره .
انثنى : رجع وعاد . محقوقاً : منحنيّاً . الأذق : ناحية السماء . افتر : انفتحت أطرافه
ولم يتقارب ، كأنه فرّ هذا من هذا ، ومنه فررت الدابة ، وافتر : ضحك ، وشبهه
انحناؤه من السفر بدائرة التمر الناقص ، وأكثر ما يقعون هذا التشبيه على
الانحناء من الكبر ، قال الشاعر :

تقوس بعد مرّ العمر ظهري وداستني الليالي أي دوس
فأمشي والمصا تهوى أمامي كأن قوامها وتر لقوسي
وقال ابن لبّال :

قوس ظهري الشيب والكبر والدهر ياعمرو كله غير
كأنني والمصا تدب معي قوسها وهي في يدي وتر

قوله : « عَرَا » : قصد . فناءكم ، وفناء الدار : ما أحاط بها من الأرض لخمته . معتزاً : قاصداً الطلب معروفكم ، أممكم : قصدكم . طُرّاً : أجمع . يبغي قرى : يطلب طعاماً . احاولى : اشتدت حلاوته . يئث : يفشى وينشر . البر : الإحسان .

* * *

قال الحارث بن همام : فلما خَلَبْنَا بِمُدْوَبَةِ نُطْقِهِ ، وَعَلِمْنَا مَا وَرَاءَ بَرْقِهِ ، ابْتَدَرْنَا فَتَحَ الْبَابِ ، وَتَلَقَيْنَاهُ بِالْتَّرْحَابِ ، وَقُلْنَا لِلْغَلَامِ : هَيَّا هَيَّا ، وَهَلُمَّ مَا تَهَيَّأ .

فقال الضيف : وَالَّذِي أَحَلَّنِي ذَارَكُم ، لَا تَلَمَّظْتُ بِقِرَاكُم ، أَوْ تَضَمُّوْا لِي أَلَّا تَتَّخِذُونِي كَلًّا ! وَلَا تَجَشُّمُوا لِأَجْلِي أَوْ كَلًّا : فَرُبَّ أَكَلَةٍ هَاضَتِ الْإِكْلَ ، وَحَرَمَتْهُ مَا كَلَّ ، وَشَرُّ الْأَعْيَافِ مَنْ سَامَ التَّكْلِيفِ ، وَأَذَى الْمُضِيفِ ، خُصُوصًا أَذَى يَغْتَلِقُ بِالْأَجْسَامِ ، وَيُفْضِي إِلَى الْأَسْقَامِ ، وَمَا قِيلَ فِي الْمَثَلِ الَّذِي سَارَ سَائِرُهُ : « خَيْرُ الْعَشَاءِ سَوَافِرُهُ » ، إِلَّا لِيَجَلَّ التَّعَثِّي ، وَيُجْتَنَبَ أَكْلُ اللَّيْلِ الَّذِي يُعَثِّي ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تَقْدَرَ نَارُ الْجُوعِ ، وَتَحُولَ دُونَ الْهَجُوعِ .

* * *

قوله : « خَلَبْنَا » ، أى خدعنا . علمنا ما وراء برقه ، يريد أن ما أبدى لهم من الكلام الفصيح دلهم على ما عنده من العلم ، كما أن البرق إذا ظهر ولع علم ما وراءه من المطر . ابتدنا : استبقنا ، الترحاب : من قولهم . مرحبا مرحبا . هيا هيا ، أى سق سق . هلم ما تهيأ ، أى أحضر ما تيسر . لا تلمظت بقراكم : لا تذوقت بطعامكم ،

وأصل التلَطَّظُ تتبع اللسان ما بقى من الطعام في الفم بعد الأكل . كَلَا : ثَقِيلاً ، وفلان كَلَّ على أهله ، إذا لم يكفهم مؤنة نفسه ، والكَلَّ : الإعياء ، وجمعه كلول ، وعلى فلان كلٌّ كثير ، قال النابغة الجعديّ :

رَأَيْتُمْ بَنِي سَعْدٍ كَاوِلًا كَثِيرَةً شَهِيدٌ بِذَلِكَ ابْنَا مُحَمَّدٍ بَنِ أَحْمَرَ^(١)

تَجَشَّمُوا : تكافوا . أَكَلَا : طعاماً ، والأَكَلَةُ : الغداء والعشاء ، والأَصْلُ . في هذا أَنَّ الأكل بالفتح ، مصدر أَكَلَ ، وبالضمَّ مَا أَكَلَ ، والأَكَلَةُ بالفتح : المرَّة الواحدة ، وبالضمَّ اللقمة ، وبالكسر هيئة الأكل . هاضت : أضعفت ، وأدخلت عليه هيضةً ، وهي القيء والإسهال ، وأصل المثل : ربُّ أَكَلَةٍ تمنع أَكَلَاتٍ ؛ وقال ابن هرمة :

وَرُبَّتْ أَكَلَةٌ مَنَعَتْ أَخَاهَا بِلَذَّةِ سَاعَةٍ أَكَلَاتِ دَهْرٍ
وَكَمْ مِنْ طَالِبٍ يُشْفَى بِشَيْءٍ وفيه هلاكه لو كان يَدْرِي

وَالْمَاكَلُ : جمع مَا أَكَلَهُ أو مَا أَكَلَ ، وهي الأَكُلُ ، وهي أيضاً ما يؤكل . سَامَ التَّكْلِيفُ ، أى عَرَضَ مضيفه إلى تَكْلَفَ ما يشقّ عليه . والأَذَى : الضرر ، والمُضِيفُ : صاحب المنزل . يَفِضِي : يُثَوِّلُ . سَارَ سَائِرُهُ : انتشر التحدّث به ومشى في الناس . خير العشاء سوافره ؛ بواكره ، أى مَا أَكَلَ مِنْهُ بضوء النهار ، واحداً سافرة ، والسافرة : المرأة التي سَفَرَتْ نقابها عن وجهها ، أى كشفتها ؛ فَكَأَنَّ اللقمة إذا أَبْصَرَتْهَا عند أَكْلِهَا قد سَفَرَتْ الظلام عن نفسها ، وتُجْمَعُ على . سوافر على هذا المعنى ، حكى أبو بكر بن شعبان النحويّ ، قال : دخلت على محمد اليزيديّ وهو يتغدّى ، فقال : يا أبا بكر ، خير الغداء بواكره ، فخير العشاء . ماذا ؟ فقلت : لا أدري ، فقال : دخلت على حسين بن الخادم ، وهو يتغدّى فقال ::

(١) ديوانه : ٥٦

يا أبا سليمان ، خير الغداء بواكره ، نخير العشاء ماذا ؟ فقلت : لا أدري ، فقال : كنت بحضرة الرشيد وهو يتفدّي ، فدخل الأصمعيّ ، فقال : يا أصمعيّ ، خير الغداء بواكره ، نخير العشاء ماذا ؟ فقال : بواصره ، يعني ما يُبصر من الطعام قبل الظلام . وحكى أبو يعقوب في الغداء التأخير . فقال : قال الحكيم - وقيل هو لعلّ ابن أبي طالب رضى الله عنه - من سرّه البقاء ولا بقاء . فليكر الغداء ، وليباكر العشاء ، وليخفف الرّداء - يريد ثقل الدّين .

التمشّي : أكل العشاء ، وهو ما يؤكل بالعشيّ . يُعشى : يورث العشاء ، وهو سواد البصر ليلا ، قال ابن دُرَيْد :

وأرى العشاء في العين أكثر ما يكون من العشاء^(١)
أراد من تأخير العشاء ، لأن أكل الطعام بالليل يحدث ضعف البصر أكثر من غيره ، وقال كشاجم :

ونديمٍ مخالف لا يشاء الذي أشأ^(٢)
هو في الصّحور لي أخ وعدوّ إذا انتشى
اقترحت العشاء يو ما عليه فأذهشاً
ساعةً ثم قال لي : العشاء يورث العشاء

كأن هذا التّطبّب أحذه كشاجم من قول [ضيف] الصّاحب بن عباد ، قال الصّاحب : ما أفجّمتني أحد كأبي الحسن البديهيّ ، فإنه كان عندي ، فقدّمت إليه فأكفه ، فأمن في المشمش ، فقلت : المشمش يلطّخ المعدة ، فقال : لا يعجبني المضيف

(١) ديوانه ٣٠ . والعشاء المقصور داء في العين ، والممدود الأكل عشياً .

(٢) ديوانه ١٠٦ .

إِذَا تَطَبَّبَ ، فَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَقْلَهَا .

وورد النهي عن ترك العشاء في حديث أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تَدْعُوا الْعِشَاءَ ، وَلَوْ بَكَفَ مِنْ حَشَفٍ ^(١) ، وَإِنْ تَرَكَهُ مَهْرَمَةً ^(٢) . »

وقوله : « تحول دون الهجوع » ، أى تمنع من النوم ، وجاء في الحديث النهي عن التكلف ، قال سفيان : ذهبت أنا وصاحبى إلى سلمان ، فقال : لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن التكلف لتكلفت لكم ، ثم جاء بخبز وماء ، فقال صاحبى : لو كان فى ملحنا صغرة ! فبعث سلمان مطهرته ^(٢) ، فأرهنها ^(٣) ، فجاء بصعتر ، فلما أكلنا قال صاحبى : الحمد لله الذى أقمنا بما رزقنا ، فقال سلمان : لو قمعت لم تكن مطهرتى مرهونة ! وجاء فى حديث جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نعم الإدام الخل » ، وكفى بالمرء إثماً أن يسخط ما قرب إليه . الهجوع ، أى النوم .

* * *

قال : فَكَأَنَّهُ أَطْلَعَ عَلَى إِرَادَتِنَا ، فَرَمَى عَنْ قَوْسٍ عَقِيدَتِنَا ، لَا جَرَمَ أَنَا آنَسْنَاهُ بِالْإِزَامِ الشَّرْطِ ، وَأُثْنَيْنَا عَلَى خُلُقِهِ السَّبْطِ . وَلَمَّا أَحْضَرَ الْغُلَامُ مَارَاجَ ، وَأَذْكَى بَيْنَنَا السَّرَاجَ ، تَأَمَّلْتُهُ فَإِذَا هُوَ أَبُو زَيْدٍ ، فَقُلْتُ لِصَاحِبِي : لِيَهْنِئْكُمْ الضَّيْفُ الْوَاردُ ، بَلِ الْمَغْنَمُ الْبَارِدُ ! فَإِنْ يَسْكُنُ أَفَلْ قَمَرُ الشُّعْرِى فَقَدْ طَلَعَ قَمَرُ الشُّعْرِ ، أَوْ اسْتَسَرَّ بَدْرُ النَّثْرِ فَقَدْ تَبَلَّجَ بَدْرُ النَّثْرِ . فَسَرَتْ مُحِيَّا الْمَسْرَةَ فِيهِمْ ، وَطَارَتْ السَّنَةُ عَنْ مَا فِيهِمْ ، وَرَفَضُوا الدَّعَاةَ الَّتِي كَانُوا نَوَوْهَا ،

(١) الحشف : ردىء التمر . (٢) المطهرة : إناء يتطهر به .

(٣) أرهنها : جعلها رهناً .

وَنَابُوا إِلَى نَشْرِ الْفَكَاهَةِ بِنْد مَا طَوَّوْهَا ؛ وَأَبُو زَيْد مُكَبُّ عَلَى
إِعْمَالِ يَدَيْهِ ، حَتَّى إِذَا اسْتَرْفَعَ مَا لَدَيْهِ ، قُلْتُ لَهُ : أَطْرِفْنَا بِغَرِيْبَةٍ مِنْ
غَرَائِبِ أَسْمَارِكَ ، أَوْ عَجِيْبَةٍ مِنْ عَجَائِبِ أَسْفَارِكَ ..

قوله : «عقيدتنا» ؛ أى ما انعقدت عليه ثباتنا، ويقال : رميت عن القوس ،
ولا يقال : رميت بها ، إلا أن ترميها من يدك . لا جرم ، بمعنى حقا . ولا بد
ولا محالة . السَّبَط : السهل . راج : تيسر . أذكى : أوقد . السَّراج : المصباح .
تأملته : نظرت . ليهنكم ، أى ليسرّكم . الوارد : القاصد . الغنم البارد : الهنى الذى
يُغْنِمُ دون قتال ولا تعب . أفل : غاب . الشعرى : كوكب معروف ، وهما
شعريان : العبور والغُمَيْصَاء ، سَمَّوْهَا عَبُورًا لأنهم يزعمون أنها عبرت المجرة ،
وسموا الأخرى الغُمَيْصَاء لأنها بكت على أختها حتى غمضت عينها . أى خفيت .
استسرى : غاب وخفى . الثَّوْرَة : ثلاثة أنجم مجتمعة . تبلّج : ظهر وأضاء . النثر :
ضد النظم ، يقول : إن غاب قمر السماء الذى يتحدث بضوئه ، فهذا أبو زيد قمر
الفصاحة قد طاع ، فجدّدوا حديثكم ودعوا النوم .

سَرَتْ : مشت . حميا المسرّة : شدة السرور ، والحميا : حدة الخمر وتسمى الخمر
الحميا . السَّنة : أخفّ من النوم . ما أقيمهم : عيونهم ، والمآق : طرف العين من جهة
 الأنف . رفضوا : تركوا . الفكاهة : الحديث المظرف ، وأصلها المزاح ، ومنه قولهم :
لا تمازحن صبيّا ولا تفا كهنّ أمة ، قال ابن الأنبارى : المعنى : لا تمازحن ، إلا أنه
استسمح إعادة اللفظ فأتى بلفظ فى مثل معناه ، مخالف للفظه . وتفا كهنّ ، مشتق
من الفكاهة ، وهى المزاح ، وقال طرّفة :

وإنّ امرأ لم يُفْهِمَ يوماً فكاهةً ۝ لمن لم يُرِدْ سوءاً بها لجهول^(١)

(١) ديوانه ١٢٠ .

ووصف أبو العيناء ابن أبي دؤاد ، فقال : له هزل يؤتم به ، وجدُّ يتقدم الجَدَّ ،
وبين ذلك فكاهة تستملح ، ودعا به تستظرف . ومزح ، مصادره ثلاثة : مزح
ومُزاح وممازحة . اليزيدى : المزاح ، بالكسر لا غير . أبو عمرو : ما ذكره اليزيدى
مصدر ما زحت مزاحاً وممازحة .

قوله : « مكب » ، أى مائل الرأس . إعمال يديه : استعمالها بالأكل . واسترفع :
أمر برفعه ، ويروى « استفرغ » ، أى أتم . أطرفنا ، أى حدثنا بطريقة ، وهى الحديث
الاستملاح ، والطرفة عند العرب : الشئ المحدث الذى لم يكن عرف ، وجاء فلان
بطرفة وشئ طريف . وهو مشتق من الطريف والطارف ، وهما المال المستحدث
الذى جمعه الرجل واكتسبه . والتالد : ما ورثه عن الآباء ، قال الشاعر :

وأصبح مالى من طريفٍ وتالدٍ لغيرى وكان المال بالأمس ماليا
أسمارك : جمع سمر ، وهو الحديث يُسمر عليه .

فقال : لَقَدْ بَلَوْتُ مِنَ الْعَجَائِبِ مَا لَمْ يَرَهُ الرَّامُونَ ، وَلَا رَوَاهُ
الرَّائُونَ ؛ وَإِنَّ مِنْ أَعْجَبَهَا مَا عَايَنْتُهُ اللَّيْلَةَ قُبَيْلَ انْتِيَا بِكُمْ ، وَمَصِيرِي
إِلَى بَابِكُمْ ؛ فَاسْتَخْبَرْنَاهُ عَنْ طُرْفَةِ مَزَاهُ ، فِي مَسْرَحِ مَسْرَاهُ ، فَقَالَ :
إِنَّ مَرَامِي الثُّرْبَةِ ، لَفَظَتْنِي إِلَى هَذِهِ الثُّرْبَةِ ، وَأَنَا ذُو مَجَاعَةٍ وَبُوسَى ،
وَجَرَابِ كَفُودِ أُمِّ مُوسَى . فَتَهَضَّتْ حِينَ سَجَا الدُّجَى ، عَلَى مَا بِي مِنْ
الْوَجَى ، لِأَزْتَادَ مُضِيْفًا ، أَوْ أَقْتَادَ رَغِيْفًا ، فَسَاقَنِي حَادِي السَّعْبِ ،
وَالْقَضَاءِ الْمَسْكُونِ أَبَا الْعَجَبِ ، إِلَى أَنْ وَقَفْتُ عَلَى بَابِ دَارِ ، فَقُلْتُ
على بدار :

قوله: «مالم يره الراعون»، أى الناظرون إليه، وقوله: «ولا رَوَاهُ الراوون» أى حفظه الحافظون. عاينته: شاهده ورأيته بعيني. انتبأ بكم: قصدكم. مصري: رجوعى، مرآه: رؤيته. مسرح: حيث يسرح ويمشى. مسراه: سيره بالليل. مراى: قواذف التربة: البلدة. محاجة: جوع. بؤسى: ضرر. جراب: وعاء الزاد. كفؤاد أم موسى، أى فارغاً لقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ نُودًا أُمَّ مُوسَىٰ فارِغًا﴾ (١).

[قصة موسى عليه السلام قبل مبعثه]

وسمى موسى لأنهم وجدوه بين ماء وشجر، ومو بالقبطية هو الماء، وشة الشجر، فعربت فجعلت الشين سيناً. وهو موسى بن عمران بن يصر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، ولم تزل بنو إسرائيل من عهد يوسف عليه السلام تحت أيدى القراعنة، وهم على بقايا من دين إبراهيم عليه السلام المشروع له وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم الصلاة والسلام، حتى كان فرعون الذى بعث موسى عليه السلام إليه، ولم يكن منهم فرعون أعت على الله منه ولا أطول عمراً. وكان شديد الغاظة سبباً للملكة. واسمه الريح بن مصعب، وكان اتخذ بنى إسرائيل خولاً، فصنّف منهم يبنون، وصنّف يمحرون، ومن لا عمل له وظف عليه الجزية، فرأى فى منامه أن ناراً أقبلت من المقدس، فأحرقت القبط وتركت بنى إسرائيل، فسأل عن رؤياه، فقيل له: يخرج من هذا البلد الذى جاء بنو إسرائيل منه رجل يكون على يديه هلاك مصر، فأمر بقتل كل مولود يولد فى بنى إسرائيل. فجمع القوابل وعهد إليهن بذلك، فذبح الولدان وعذب الحبالى، حتى يطرحن ما فى بطونهن، حتى كاد يفتنهم، فقيل له: إنهم خولك، وإنك إن تفتنهم ينقطع النسل. فأمر بقتل العلماء عاماً ويستحون عاماً، فولد هارون فى السنة التى يستحيون فيها. وولد موسى فى السنة التى يقتلون فيها.

فلما وضعته أمه حزنت لسانه، فأولحن الله إليها: أن أرضعيه، فإذا خفت.

عليه فألقيه في اليمّ - وهو النيل - ولا تخافى ولا تحزنى. فعمات تابوتا وجعلته فيه ، وألقيته في اليمّ ، وقالت لأخته: قصّيه ، أى اقتنى أثره ، فحمله الماء حتى أدخله بين أشجار تحت قصر فرعون ، فخرج جوارى فرعون يفتسلن ، فوجدن التابوت ، فأدخلنه إلى آسية امرأة فرعون ، وهى بنت مزاحم ، إسرائيلية ، فكشفت عنه التابوت ، فرأته . فرحمته وأخذته ، وأخبرت به فرعون ، فأراد أن يذبحه ، وخشي أن يكون المولود الذى حذّر منه ، فلم تزل به آسية حتى تركه لها ، وذلك قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ ^(١) ، فاللام من ﴿ لِيَكُونَ ﴾ للعاقبة ، ولم يكن لفرعون ولد ، فاتّخذ له ولدا ، فارتادوا له المرضعات ، فلم يقبل ثدى واحدة منهن ، ولما غاب أمره عن أمه ، كاد قلبها يطير وجداً عليه ، فبعثت أخته نأثها تلتمس رضاعه ، فلما رأت أسفهم عليه حيث لا يقبل على مرضعة - وذلك قوله تعالى . ﴿ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ - قالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ؟ فقالوا لها : دلينا على ذلك ، فذهبت فجاءت بأمه .

فلما رأته كادت لشدة حبّها فيه ، ونرحها به أن تقول : هو ابنى ، وتفتضح ، فعصمها الله من ذلك ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْ أَنَّ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا ﴾ ، فأعطته ثديها ، فأخذ يرضعه . فربّته فى قصر فرعون ، فلما تحرّك عرضته آسية على فرعون ، فلما أخذه مدموسى يده إلى لحيته فنتفها ، فقال فرعون : علىّ بالذباحين ، فإنما هو هذا ! فقالت آسية : قرّة عين لي ولك ، لا تقتلوه فإنه صبيّ لا يعقل ، ودعت له بحمر وياقوت لتختبره ، فطرح جبريل عليه السلام يده فى النار وأخذ قطعة منها ، فوضعها موسى عليه السلام فى فيه ، فأحرقته . فتركه فرعون ، فكبر فى حجره . فلما ترعرع تبناه ، فكلن يركب مراكبه ويلبس ملابسه ، ويدعى ابن فرعون .

(٢) سورة القصص ١٢ .

(١) سورة القصص ٨ .

(٣) سورة القصص ١٠ .

ثم إن موسى عليه السلام أخبر أن فرعون قد ركب ، فركب أثره ، فأدركه ببلد منف ، فدخلها وقد أحليت لفرعون وليس في طرقها أحد ، فرأى إسرائيليا مع قبطي يقتتلان ، ناستفاته الإسرائيلي ، فوكز القبطي قفزي عليه ، فكان من قصته معهما ما قص الله تعالى في كتابه ، حتى خرج خائفا يترقب إلى مدين .
وأما رجوعه منها إلى فرعون بأنه رسول الله إلى أن غرق فرعون في البحر وجنوده ، فذكر في الثامنة عشرة .

* * *

قوله : « نهضت » ، أى مشيت . سجا الدجى : سكن بالظلام وغطى كل شىء . الوجى : الحفا . أرتاد : أطلب . مضيقاً : منزلاً ، وأضافه : أنزله . وضافه : نزل به فهو ضيقه ، أى النازل به . أقتاد : أقود . حادى السنب : سائق الجوع .

* * *

حَيِّتُمْ يَا أَهْلَ هَذَا الْمَنْزِلِ وَعَشْتُمْ فِي خَفْضِ عَيْشٍ خَضِلِ
مَا عِنْدَكُمْ لَابْنِ سَبِيلِ مُرْمِلِ نِضْوِ سُرَى خَابِطِ لَيْلِ أَيْلِ
جَوَى الْحَنَى عَلَى الطَّوَى مُشْتَمِلِ مَا ذَاقَ مُذْيُومَانَ طَعْمَ الْمَاكِلِ
وَلَا لَهُ فِي أَرْضِكُمْ مِنْ مَوْنِلِ وَقَدْ دَجَا جُنْعُ الظَّلَامِ الْمَسْبِلِ
وَهُوَ مِنَ الْخَيْرَةِ فِي تَمَلُّلِ قَهْلَ هَذَا الرَّبْعِ عَذْبُ الْمَنْهَلِ
يَقُولُ لِي : أَلْقِ عَصَاكَ وَادْخُلِ وَأَبْشِرْ بِبَشِيرِ وَقَرَى مُعْجَلِ !

* * *

حَيِّتُمْ : طابت حياتكم ، والتحية البقاء . خفض : لين . وخفض عيشه خفضاً ، إذا أخصب . خضل : ناعم ، وخضل الشىء : يخضل خضلاً : ابتل . ابن سبيل : خاطر طريق ، وهو الغريب ، وسُمي الغريب ابن السبيل لأنه إذا ظهر على قوم لا يعرفونه لم يعرف له نسب إلا السبيل الذى جاء منه . ومرمِل : لا زاد له ، وأرمل القوم : فنى زادهم

ومن أبيات اللغز في ابن السبيل :

وَنَحْنُ ابْنُ مَنْ لَا يَنْكِرُ النَّاسُ فَضْلَهُ وَلَيْسَ لَهُ فِي النَّاسِ مِنْ طَالِبٍ وَتَرَا
نَبَانُ تَحَنُّطُوا فِينَا أَبَانَا فَحَقَّنَا رَعَيْنَهُمْ وَإِلَّا أُوقِدَتْ نَارُكُمْ شَرًّا

أى سيئتم في كل مكان ، كما قال الآخر :

وَأَنْتَ الَّذِي شَيَّبْتَنِي قَبْلَ شَيْبَتِي وَأُوقِدْتَ لِي نَارًا بِكُلِّ مَكَانٍ

ومنها أيضاً :

وَأَحْيَانًا يَكُونُ كَبِيرٌ سَنَى وَأَحْيَانًا يَكُونُ مِنَ الشَّبَابِ
وَمَنْسُوبٌ إِلَى مَنْ لَمْ يَلِدْهُ كَذَاكَ اللَّهُ أَنْزَلَ فِي الْكِتَابِ

قوله : «نضو سُرَى» ، أى هزيل من مشى اللَّيْلُ في الأسفار . و . ابط ليل : الذى يمشى فيه على غير هداية . أَلَيْل : شديد السواد . جوى الحشى : فاسد الجوف من الجوع ، وهو الطوى . مشتمل : منضم ، أى قد انضم جوفه على الجوع ، ففسدت أحشائه . موئل : ماجأ ، من وألت إلى كذا ، أى لجأت . دجا : ألبس . جنح : سواد : المسيل . الماتق . تامل : تقلب وتوجع . والرمع : المنزل ، والمنهل : موضع الماء .

ويقال : ألقى عَصَاهُ ، إِذَا تَرَكَ السَّيْرَ وَأَقَامَ ، وروى الأصمعي عن بعض البصريين أنه قال : سُمِّيَتِ الْعَصَا عَصًا لِأَنَّ الْيَدَ وَالْأَصَابِعَ تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ : عَصَوْتُ الْقَوْمَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ عَلَى خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، وَيُقَالُ : عَصَى بِالسَّيْفِ يُعَصَى إِذَا خُزِبَ بِهِ كَمَا يُضْرَبُ بِالْعَصَا . بشر : طلاقه وجه .

قَالَ : فَبَرَزَ إِلَى جَوْذَرٍ ، عَلَيْهِ شَوْذَرٌ ، وَقَالَ :
 وَحُزْمَةُ الشَّيْخِ الَّذِي سَنَّ الْقِرَى وَأَسَّسَ الْحَجُوجَ فِي أُمِّ الْقُرَى
 تَمَّا عِنْدَنَا لِطَارِقٍ إِذَا عَرَى سَيَوَى الْحَدِيثِ وَالْمَنَاخِ فِي الذَّرَا
 * فَمَا تَرَى فِيمَا ذَكَرْتُ مَا تَرَى *

برز : خرج . جَوْذَرٌ : ظلي ، وأصله ولد الغزالة . الشوذر : ثوب قصير .

[إبراهيم عليه السلام]

والشيخ الذي سَنَّ الْقِرَى ، هو إبراهيم عليه السلام ، واختصه بلقب الشيخ
 لأنه أَوَّلُ مَنْ شَابَ ، ولما رأى الشيب ، قال : يارب ، ما هذا ؟ فأوحى الله إليه ،
 يا إبراهيم ، هذا وقار ، فقال : يارب زدني وقاراً . وشاب وهو ابن مائة وخمسين
 سنة ، وذلك أنه لما وَلَدَتْ سَارَةُ إِسْحَاقَ ، قال الكنعانيون : ألا تعجبون لهذا
 الشيخ والعجوز وجداً غلاماً ، فبتنياه ! فصور الله إِسْحَاقَ على صورة إبراهيم عليهما
 السلام ، فلم يفصل بينهما ، فوشم الله إبراهيم بالشيب .

قوله : «سَنَّ» : ابتدأ ، وجعله سُنَّةً ، وهو أول مَنْ ضَيَّفَ الضيف ، وأطعم
 المساكين ، وقصَّ شاربه ، وقلم أظافره واستحدَّ واستاك ، وفرَّق شعره ، ومضمض
 واستنثر ، واستنجد بالماء . وَأَسَّسَ الْحَجُوجَ ، أي بنى أساس البيت الحرام .
 وَأُمُّ الْقُرَى : مكة . والطارق : الآتي بالليل . والمناخ : موضع البروك . يَقْرَى :
 يُصَيَّفُ الكرى : النوم برى أعظمه ، أي أزال اللحم عنها . انبرى : اعترض .

[فَمَا قِيلَ فِي الْقِرَى وَالْأَصْيَافِ]

وقال حبيب في أن أول من قرى الضيف إبراهيم عليه السلام :
 للوجود سهمٌ في المكارم والتقى لا ربه للكدي ولا المسهوم^(١)

(١) ديوانه ٣٠٠ ، والكدي : الفقير ، والمسهوم : الضامر .

وبيان ذلك أن أول من قرى وحبا خليل الله إبراهيم
وقال أبو بحر صفوان بن إدريس في فتي اسمه إبراهيم ، وأبدع ما شاء
حيث قال :

أَسَمِيَّ مِنْ سَنِّ الْقَرَى رَفَقًا بِمَنْ يَفْنَى عَلَيْكَ صَبَابَةٌ وَغَرَامًا
أَنَا ضَيْفٌ حَسَنِكَ فَاصْطَنِعْنِي إِيَّاهُ ضَيْفُ الْهَوَى يَسْتَوْجِبُ الْإِكْرَامًا
لَمَّا نَظَرْتُ نَجْمَ خِيَلَانٍ بَدَتْ فِي صَحْنٍ وَجَنَّتِكَ اسْتَفْدَتْ مُقَامًا
أَفْنَيْتَ جِسْمَ الصَّبِّ شَوْقًا مِثْلَهَا أَفْنَى سَمِيِّكَ قَبْلَكَ الْأَصْنَامَا
يَا زَهْرَةً سَكَنْتُ فَوَادَى غَضَّةً إِنِّي تَبَوَّأْتُ اللَّهْيَبَ كَمَا
حَتَّى كَأَنَّ الْحَبَّ قَالَ لِأَضْلَعِي : يَا نَارُ كُنْ بَرْدًا لَهُ وَسَلَامًا

وقال أبو بكر بن ميمون فيما يتعلق بهذه النار :

أَبَا قَاسِمٍ وَالْهَوَى جَنَّةً وَإِنِّي مِنْ حَرِّهَا لَمْ أَقِ
تَقَحَّجْتُ جَا حِمَّ نَارِ الْحَشَى وَخَضْتُ بِحَارِ سَوَادِ الْحَدَقِ
أَكُنْتُ الْخَلِيلَ وَكُنْتُ الْكَلِيمَ أَمَنْتُ الْجَوَى وَأَمَنْتُ الْفَرْقَ !

انظر إلى الأضياف الاربعة والأربعين .

فَقُلْتُ : مَا أَصْنَعُ بِمَنْزِلِ قَفَرٍ ، وَمَنْزِلِ حِلْفٍ قَفَرٍ ! وَلَكِنْ
يَافَتِي ، مَا اسْمُكَ ، فَقَدْ فَتَنَنِي قَهْمُكَ ؟ فَقَالَ : اِسْمِي زَيْدٌ ، وَمَنْشِي قَيْدٌ ،
وَوَرَدَتْ هَذِهِ الْمَدْرَةُ أَمْسٍ ، مَعَ أَخَوَالِي مِنْ بَنِي عَبَسٍ .

قوله : « بمنزل قفر » ؛ كأن هذا المنزل هو الذى وصفه الآخر حيث يقول :

ليس إغلاقى لبابى أنّ لي فيه ما أخشى عليه السرّقا
إنّما أغلقته كي لا يرى سوء حالى من يمرّ الطرّقا
منزل أوطنه الفقر فلو يدخل السارق فيه سرّقا

[نبذ وحكايات فى البؤس والحرمان]

إنّما أخذ الحريرى هذا المعنى من قصة يزيد المدنى ، وكان من أهل الملاح ،
فاستضافه أعرابى ، فقال : ما عندنا إلا الأسودان ، فقال الأعرابى : خير كثير ،
فقال : لعلك تظنهما التمر والماء ! والله ما هما إلا الليل والحرّة ، فلم يكن ليزيد دار
إلا الحرّة - وهى أرض سوداء فيها حجارة سود ، وهى مقبرة المدينة - والقبور
المجصّصة تكون بالليل موحشة ، فما ظنك بقبور سود فى أرض سوداء فى ظلمة الليل !
كيف حال من يكون هذا قراه ! فبهذا البلاء أعرض يزيد عن ضيافة الأعرابى .
ونحو هذا من أقوال المازحين قول أبى الشمقمق - ويروى عن وهب
عابد قرطبة :

برزت من المنازل والقباب فلم يمسّر على أحدٍ حجابى
فنزلى النضاء وسقف بيتى سماء الله أو قطع السحاب
وإني لم أجد مصراع بيت يكون من السحاب إلى التراب
ولا انشق الثرى عن عودنحت أو مل أن أشدّ به ثيابى
ولا خفت الإباق على عبيدى ولا خفت الهلاك على دوابى
وفى ذا راحة وفراغ بال فدأب الدهر ذا أبداً ودابى

(١٤ - شرح مقامات الحريرى ١)

وقال آخر :

ولما التمتُ الرزقُ فانبجذَ حبلهُ
خطبتُ إلى الإعدامِ إحدى بناتِهِ^(١)
فأولدتُها الحُرْفَ الشَّقِيَّ فماله
فلوتته في البیداءِ واللیلِ مسبلٌ
ولو خفتُ شرًّا فاستترتُ بظِلِّهِ^(٢)
ولو جادَ إنسانٌ على بدرهمٍ
ولو يُمطرُ الناسُ الدنانيرَ لم یسكنُ
وإن یقتربَ ذنبًا ببرقةٍ مذنبٌ
وإن أرَ خیرًا فی الأثامِ فنازحٌ
أمامی من الحِزْمَانِ جيشَ عَرْمَرُمُ

وقال آخر :

لو ركبْتُ البحارَ صارتُ أجابا
ولو أنى وضعتُ ياقوتةَ حمى
ولو أنى وردتُ عذابًا فرأتا

وقال آخر :

لو وردتُ البحارَ أطلبُ ماءً
أو مسستُ العودَ النضيرَ بكفى
أورمى باسمى النجومِ الدَّارِي
ولو أنى بيعتُ القناديلَ يومًا
جفَّ قبلُ الورودِ ماءُ البحارِ
لندوى بعد بهجةٍ واخضرارِ
لا نزوى ضوءها عن الأَبصارِ
أدغمَ اللیلُ فی ضیاءِ النهارِ

(١) ط «من الإعدام»، وما أثبتته من ا، ب، و.

(٢) ط : «بظلمة».

وقال شواش :

كسدت شواشينا وقلّ معاشنا فسعدونا مقرونة بنحسوس
فكانما قُطعت رءوس الناس أو خُلِقوا لشقوتنا بغير رءوس
قيل لأبي الشمقمق : أبشِرْ فإنّا روينا في الحديث : « العارون في الدنيا هم
الكاسون يوم القيامة » ، فأنشأ يقول :

أنا في حالٍ تعالى الله ربي أي حالٍ
ليس لي شيء إذا قيلَ لِمَنْ ذا ؟ قلتَ ذَا لي
فأراضى الله فرشي والسّموات ظلّالي
ولقد أفلستُ حتّى حلّ أكلّي لِمالي
من رأى شيئاً محالاً فأنا عين المحال
لو بقي في الناس خُرٌّ لم أكن في مثل حالٍ
قوله : « منزل » ، أي مضيف . حلف : صاحب . منشئ : موضعي الذي
نشأت فيه .

[ذكر مدينة فيد]

وفيد بلد مشهور ، في نصف المسافة التي بين مكة وبغداد ، وفيها عين ماء ،
وينزلها عمال طريق مكة وأهلها من طيّب ، وهم في سفح جبلهم المعروف بسلي ،
وقد ذكرها زهير في قوله :

ثم استمرّوا وقالوا إن مشربكم ماء بشرق سلى فئد أوركك^(١)
قال الزجاجي : سميت بنيد بن حام ، وهو أول من نزلها ، قال : ويقول
أهل العراق : هي من قولهم : فاد الرجل يفيد فئداً إذا مات ، أو من قولهم : استناد
فائدة ، وقلّما يقولون : أفاد فائدة ، والفئد أيضاً نور الزعفران . قال شيخنا ابن جبير^(٢)

(١) ديوانه ١٦٧ ، وركك : اسم ماء بعبينة ، وفي ط : « ركل » تحريف .

(٢) ط : « جرير » ، تصحيف .

رضى الله عنه : إنه خرج من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بضخوة يوم السبت الثامن من المحرم سنة سبع وتسعين مع أمير الحاج ، وصحبوا فيدأ يوم الأحد في اليوم الرابع عشر من خروجهم . ثم وصفها فقال : هي مضر كبير ، منفرج في بسيط من الأرض ، يمتد حوله ركض ، يطيف به سور عتيق . وهو معمور بسكان من الأعراب يتعيشون ^(١) من الحجاج في التجارات والمبايعات وغير ذلك من المرافق ، وفيها يترك الحجاج بعض أزواجهم إعدداً للإرمال ^(٢) من الزاد عند انصرافهم يتركونها عند معارفهم بها ، فإذا رجعوا أخذوا أزواجهم ، ووهبوا لمن أودعها عندهم شيئاً من ذلك .

وهي نصف الطريق من بغداد إلى مكة أو أقل يسيراً ، ومنها إلى الكوفة اثنا عشر يوماً في طريق سهلة . ودخلها أمير الحاج على تعبئة وأهبة إرهاباً للمجتمعين بها من الأعراب لئلا يداخهم الطمع في الحاج ، لكنهم لا يجدون إليهم سبيلاً والحمد لله . والمياه كثيرة في آبارها ، تمدّها عيون تحت الأرض ، وامتلات أيدي الحجاج القادمين من أغنام العرب بالمبايع ، فلم يبق خيمة ولا ظلال إلا وإلى جانبها كبش أو كبشان ، بحسب الوجد ، فعمّ جميع الحلة الغنم واللبن والسمن والعسل ، نأكلوا واحتملوا ، وكان ذلك اليوم عيداً للركب .

قال : وبهذه الحلة العراقية ، وما انضاف إليها من الخراسانية والموصلية وسائر جهات الآفاق ينزل من صحبة أمير الحاج جمع لا يحصى عددهم إلا الله تعالى ، يغص بهم البسيط الأفيع ، ويضيق بهم المهمة الضحح ، فترى الأرض تميد بهم مئيداً ، وتموج بجمعهم موجاً ، فتصير بهم بحراً طامح القباب ، ماؤه السراب ، وسفينه الركاب ، وشراعه الظلال المرفوعة والقباب ، ويسير سير السحاب ، متداخلا بعضها على بعض ، فتعاین تراحما في البراح المنفسح يهول ويروع ، واصطكاكا

(١) رحلة ابن جبير : « يتعيشون » .

(٢) أرمل القوم : فقد زادهم .

لمبيع التجارات فيه ، فبعضها ببعض متروك ؛ فمن لم يشاهد هذا السفر العراقي لم يشاهد عجباً يتحدث به ، ويتعجب السامع بفرائبه ، والقدرة والقوة لله وحده . وحسبك أن النازل في منزل من هذه المحلة متى خرج لبعض حاجاته ، ولم يكن له دلالة على موضعه ضلّ وتأنّى ، وعاد منشوداً بحملة الضوآل ، وربما اضطر به الحال إلى الوصول لضرب الأمير ورفع المسألة إليه ، فيأمر أحد النشدين بما أعدّ لذلك ، فيردفه خلفه على جل ، ويطوف به المحلة منادياً باسم جماله وبلده ، إلى أن يؤدّيه إلى رفقته .

وعجائب هذه المحلة كثيرة ، ولأهلها من اليسار ما يغنيهم على ما هم بسبيله .^(١)

وما ذكرنا أمر هذه المحلة إلا ليستدلّ على أن فيها بلداً في غاية القوة والعمارة ، حيث أمدّ هذا الجمع الكثير والجم الغنير بما تقدم من أنواع الأرزاق ، وإن قبائل طيء متوفرة بحيث تطلع إلى الفارة على مثل هذه المحلة . والملك لله وحده مني الجميع بعد كمال العدة .

قوله : «وردت» ، أي أتيت . المدرة : البلد . عبس : قبيلة .

* * *

فَقُلْتُ لَهُ : زِدْنِي إِيْضَاً ، عَشْتِ وَنُعِشْتِ ، فَقَالَ : أَخْبَرْتَنِي أُمِّي بَرَّةً ، وَهِيَ كَأَسْمَها بَرَّةً ؛ أَنَّهَا نَكَحَتْ حَامَ الْفَارَةِ بِمَاوَانَ ، رَجُلًا مِنْ سَرَاةِ سُرُوحِ أَوْغَسَّانَ ، فَلَمَّا آتَسَ مِنْهَا الْإِمْقَالَ - وَكَانَ بَاقِعَةً فِيهَا يُقَالُ - ظَعَنَ عَنْهَا سِرًّا ، وَهَلُمَّ جَرًّا ، فَمَا يُعْرِفُ : أَحَىُّ هُوَ فَيَتَوَقَّعُ ، أَمْ أَوْدِعَ اللَّحْدَ الْبَلْمَقَ .

قال أبو زيد : فَقُلْتُ بِصُفَةِ الْعَلَمَاتِ أَنَّهُ وَلَدِي ، وَصَدَقَنِي

(١) انظر رحلة ابن جبير ١٨٣ ، ١٨٤ .

عن التَّعْرِفِ إِلَيْهِ صَفَرُ يَدِي، فَفَهَّمْتُ عَنْهُ بِكَبِدٍ مَرْضُوضَةٍ، وَدُمُوعٍ مُفَضُّوَصَةٍ. قَهْلَ سَمِعْتُمْ يَا أُولَى الْأَلْبَابِ، بِأَعْجَبَ مِنْ هَذَا الْمُعْجَابِ! فَقَلْنَا: لَا وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ، فَقَالَ: أَثْبَتُوهَا فِي عِبَائِبِ الْإِتْفَاقِ، وَخَلَّدُوهَا بِطُؤُنِ الْأَوْرَاقِ، فَمَا سِيرَ مِثْلَهَا فِي الْآفَاقِ - فَأَحْضَرْنَا لِدَوَاةٍ وَأَسَاوِدَهَا، وَرَقَشْنَا الْحِسْكَايَةَ عَلَى مَاسَرَدَهَا.

* * *

إيضاحاً: بيانا . نُفِشت : جُبرت . وبرة الأول اسمها والثاني صفتها ، يريد أنها مكرمة كثيرة البر . نكحت : تزوجت . عام الفارة ، أى عام أغار عليهم عدوهم . ماوان : بلدة . سراة : سادة . آنس : أبصر . والإتقال : الامتلاء بالولد . باقعة : داهية ، ويقال : إنه الذى جال بقاع الأرض وعرف خيرها وشرها .

قال ابن الأنباري رحمه الله : فلان باقعة ، أى داهية حذر محتال حاذق ، والباقعة عند العرب : الطائر الحذر المحتال الذى يشرب الماء من المباح (١) ، ولا يردُّ الشارع والمياه المحصورة خوفاً من أن يُحتال عليه فيُصطاد ، ثم شبه به كل حذر محتال . هلم جرأ ، معناه إلى الآن ، قال ابن الأنباري : هلم جرأ ، سيروا على هينتكم ، أى تثبتوا على سيركم ، ولا تجهدوا أنفسكم ولا تشقوا عليها ، أخذ من الجرّ في السوق ، وهو أن تترك الغنم والبقر ترعى في السير ، وينتصب «جرأ» في قول الكوفيين على المصدر ، لأن في «هلم» معنى «جر» ، وفي قول البصريين : هو مصدر في موضع الحال تقديره «هلم جارين» أى مستنبتين ، قياساً على : جاء عبد الله مشياً ، وأقبل ركضاً ، وجاء وأقبل عند الكوفيين بمعنى مشى وركض . وقال بعضهم : ينصب على التمييز . يتوقع : يُنتظر . أودع : أدخل . اللحد البلقع :

(١) المباح : الأمكنة يستقى منها الماء .

الحد الخالي . صدقني : أمانتي . التعرف : أن يعرفه أنه أبوه . صفر يدي : فراغها من الدراهم . فصلت : زلت . مرضوضة : مدقوقة مكسورة . مفضوضة : مفترقة . أولى الألباب : أهل العقول . العُجاب : مبالغة في العجب .
 خلدوها ، أى أثبتوها . الآفاق : البلدان وجهات الأرض جميعها .
 أساودها : أقلامها . رقتنا : كتبنا . على ما سردها ، أى كما حكاها
 وتكلم بها .



ثم استبطناهُ عَنْ مُزْتَاهٍ ، فِي اسْتِضْمَامِ افْتَاهُ ، فَقَالَ : إِذَا ثَقُلَ
 رُذُنِي ، خَفَّ عَلَيَّ أَنْ أَكْفُلَ ابْنِي ؛ فَقُلْنَا : إِنْ كَانَ يَكْفِيكَ نِصَابُ
 مِنَ الْمَالِ ، أَلْفَنَاهُ لَكَ فِي الْحَالِ ؛ فَقَالَ : وَكَيْفَ لَا يُقْنِعُنِي نِصَابُ ،
 وَهَلْ يَحْتَقِرُ قَدْرُهُ إِلَّا مُصَابُ !

قال الراوى : فالتزمَ مِنْهُ كُلُّ مَنْ قَسَطًا ، وَكَتَبَ لَهُ بِهِ قِطًا ،
 فَشَكَرَ عِنْدَ ذَلِكَ الصَّنْعَ ، وَاسْتَنْفَدَ فِي الثَّنَاءِ الْوُسْعَ ، حَتَّى إِنَّا اسْتَطَلْنَا
 الْقَوْلَ ، وَاسْتَقْلَلْنَا الطَّوْلَ . ثُمَّ إِنَّهُ نَشَرَ مِنْ وَشَى السَّمَرِ ، مَا أَرَزَى
 بِالْحَبْرِ ، إِلَى أَنْ أَظْلَّ التَّنْوِيرَ ، وَجَشَرَ الصَّبْحَ الْمُنِيرَ ، فَقَضَيْنَاهَا
 لَيْلَةً غَابَتْ شَوَائِبُهَا ، إِلَى أَنْ شَابَتْ ذَوَائِبُهَا ، وَكَمَلَ سَعُودُهَا ،
 إِلَى أَنْ انْفَطَرَ عُودُهَا .



استبطنَاهُ : سألناه وطلبنا منه معرفة باطنه . مُرَّتَاهُ : رأيه وغرضه . رُدَّتِي : كَتَى . أ كفل : أضَمَّ . نصاب : عشرون ديناراً . ألقناه : جمعناه . يقتضى : يكفيني . مصاب : مجنون . قوله : « قسطاً » ، أى نصيباً . قِطًّا : كتاباً . الصنع : الفعل الجليل . استنفذ : استتمَّ . الوسع : الطاقة ، ووُسْع الرجل قدر ما يجد من مال أو كلام أو غير ذلك ، وهو من السعة ، أى أثنى غاية ما يمكنه من الثناء . استطلنا : استكثرنا ووجدناه كثيراً طويلاً ، والطَوَّل : الإِنعام والفصل ، أى رأينا ما أنعمنا به عليه قليلاً . والوشى : ثياب مرقومة بألوان شتى من الحرير . والخبر : ثياب فيها خطوط ورقوم مختلفة ، والخبر تصنع باليمن ، فشبهه حسن حديثه بالوشى ، وخص الخبر لحسن فنونه . وقال ابن الزقاق - وكأنه وصف الليلة والعجاب الذى سأمهم به أبو زيد ، وزاد عليه الشجاعة :

لله ليلتنا التى استجدى بها فلق الصّباح لسُدفةِ الإِظلامِ^(١)
 طرأت علىّ مع النجوم بأنجم من فتيةٍ بيضِ الوجوه كِرامِ
 إن حوربوا فزِعوا إلى بيض الظُّبَا أو خوطبوا فزِعُوا إلى الأَقلامِ
 فترى البلاغة إن نظرت إليهم والبأس بين يراعةٍ وحُسامِ

جتر : طلع . قضيناها : أتممناها . شوائبها : ما ينسكدها ويكدرها .
 الذوائب : الشعر الطويل الأسود ، وأراد به ظلام الليل ، وجعل فيه بياض
 الصبح بمنزلة الشيب فى سواد الشعر ، قال ابن دريد :

إِذَا تَرَى رَأْيِي حَاكِي لَوْنُهُ طُرَّةَ صَبْحٍ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّحَى^(٢)

(١) ديوانه ٢٩٨ .

(٢) من المقصورة ص ١١٧

انفطر : انشقّ وطلع . عودها : بياض صبحها ، ويقال : انفطر القضيّب ،
إذا بدأ نبات ورقه ، وقال امرؤ القيس :

* كخزعوبة البانة المنفطر^(١) *

* * *

وَلَمَّا ذَرَّ قَرْنُ الْغَزَالَةِ ، طَمَرَ طُمُورَ الْغَزَالَةِ ، وَقَالَ : انْهَضْ بَنَّا
لِنَقْبِضَ الصَّلَاتِ ، وَنَسْتَنْضِ الْإِحَالَاتِ ، فَقَدِ اسْتَطَارَتْ صُدُوعُ
كَبْدِي ، مِنْ الْحَنِينِ إِلَى وَلَدِي . فَوَصَلْتُ جُنَاحَهُ ، حَتَّى سَنَيْتُ
نَجَاحَهُ ؛ فَحِينَ أَحْرَزَ الْعَيْنَ فِي صُرَّتِهِ ، بَرَقَتْ أَسَارِيرُ مَسَرَّتِهِ ،
وَقَالَ لِي : جُزَيْتَ خَيْرًا عَنْ خُطَا قَدَمَيْكَ ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي
عَلَيْكَ ! فَقُلْتُ : أُرِيدُ أَنْ أَتَّبِعَكَ لِأَشَاهِدَكَ وَلَدَكَ النُّجِيبَ ،
وَأُنَافِقَهُ لِكَيْ يَجِيبَ .

* * *

قرن الغزالة : شعاعها وحاجبها ، والغزالة من أسماء الشمس ، وأسمائها
كثيرة ؛ ذكرها يعقوب وغيره ، وذكر منها عشرة خمسة بالهاء ، وهي : الغزالة ،
والجارية ، والجلونة ، ومهاة ، والإلاهة . وخمسة بغير الهاء وهي : الشمس ،
والسراج ، والضّحّ ، وذُكَاء ، وبوح^(٢) .

طمر : وثب . الغزالة : الظبية . انهض أى قم . الصَّلَات : العطايا . نستنضّ :
نستحضر . والنَّاضّ : المال الحاضر . والإحالات : الديون التي وعدوه بها .
استطارت : توسعت وانتشرت . صُدُوع : شقوق . والحنين : الشوق والرحمة .
وصلتُ جناحه ، أى مشيت معه ويدي في يده ، وجناح الرجل : يده . سنيت :

(١) ديوانه ٥٧ ، وصدرة :

* بَرَهْرَهَةً مُرَوْدَةً رَخَصَهُ *

(٢) مبادئ اللغة العربية ٣ ، وذكر من أسمائها أيضا براح والشرق .

يَسَّرَتْ . نَجَّاحَهُ : قضاء حاجته . أحرز العين : حصل المال . وصُرَّتْهُ : خرقة-
دراهمه . برقت : لمعت . أسارير : طرق الوجه ، ومنه الحديث عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « نخرج تبرق أسارير وجهه » ، ويقال لها الأسرّة ؛ ويقال
لخطوط الكف : الأسرّة ، وقد جمعها التهامي في لفظ واحد في قوله :

يُبْدِي أَمِيرَةً وَجْهَهُ وَيَمِينَهُ فِي سَاعَةِ الْإِعْسَارِ وَالْإِسَارِ

مسرّته : سروره ، أراد : انطلق وجهه سروراً بالمال . خطا : مشى .
والنجيب : الجتيد العقل الكريم الأصل . قوله : « أنانته » ، أى أكله .

فَنَظَرَ إِلَى نَظْرَةِ الْخَادِعِ إِلَى الْمَخْدُوعِ وَضَحِكَ حَتَّى تَغْرَغَرَتْ
مُقَدَّاهُ بِالْذُّمُوعِ ، وَأَنشَدَ :

يَا مَنْ تَظَنَّى السَّرَابَ مَاءً	لَمَّا رَوَيْتُ الَّذِي رَوَيْتُ
مَا خِلْتُ أَنْ يَسْتَسِرَّ مَكْرِي	وَأَنْ يُخِيلَ الَّذِي عَنَيْتُ
وَاللَّهِ مَا بَرَّةٌ بِعُرْبِي	وَلَا لِي ابْنٌ بِهِ اكْتَنَيْتُ
وَلِنَّمَا لِي فَنُونٌ سِحْرِ	أَبْدَعْتُ فِيهَا وَمَا اقْتَدَيْتُ
لَمْ يَحْكِكْهَا الْأَضْمَعِي فِيمَا	حَكَى ، وَلَا حَاكَا الْكَمَيْتُ
تَخَذْتُهَا وَضَلَّةً إِلَى مَا	تَجَنَّبْتُهُ كَفَى مَتَى اشْتَبَيْتُ
وَلَوْ تَمَافَيْتُهَا لَحَالَتْ	حَالِي ، وَلَمْ أَخْوِ مَا حَوَيْتُ

فَمَهْدِ الْمَذَرِ أَوْ فَسَامِخِ إِنَّ كُنْتُ أَجْرَمْتُ أَوْ جَنَيْتُ
ثُمَّ إِنَّهُ وَدَّعَنِي وَمَضَى ، وَأَوْدَعَ قَلْبِي جَمْرَ الْغَضَى .

* * *

تفرغرت : امتلأت . تظننى : حسب . حلت : حسبت . يستسر : يخفى .
مكرى : خداعى . يُخِيل : يابس ويشبه . عُرْسى : زوجتى . فنون : أنواع .
أبدعت فيها : أحدثتها ولم أقتد بغيرى فيها . يحكها : يحدث بها . حاكها :
نسجها وقال مثلاً . الأصمعى مذكور فى المقامة الأربعين .

[ذكر الكميت وبعض أخباره وشعره]

وأما الكميت الشاعر ، فهو ابن زيد الأسدى ، وهو شاعر مجيد مكثر
جداً ، وديوان شعره مستعمل مشهور ؛ ولما قال قصائده الهاشميات قصداً البصرة ،
فأتى النرزدي فقال : يا أبا فراس ، أنا ابن أخيك ، فقال : ومن أنت ؟ فانتسب له .
قال : صدقت ، وما حاجتك ؟ قال : أنت شيخ مضر وشاعرهما ، وأحببت أن
أعرض عليك ما قلت ، فإن كان حسناً أمرتني بإذاعته ، وإن كان غير ذلك
أمرتني بستره ، قال : يا بن أخى ، أحسب شعرك على قدر عقلك ، فقل راشداً ،
فأنشده :

طربت وما شوقاً إلى البيض أطربُ ولا لعباً مِنِّي وذو الشَّيبِ يلعبُ !

قال : بلى ، فالعب ، فأنشده :

ولم يُلَهِنِ دارٌ ولا رسمُ منزلٍ ولم يطرَبْنِي بَنَانٌ مُخَضَّبُ

قال : ما يطرَبُ بك إذا ؟ فقال :

• لا أنا تمن يزجرُ الطير همهُ أصاح غرابٍ أم تعرض ثعلبُ

قال : أنت ممن؟ ويحك ! وإلى من تسمو؟ قال :

ولا السانحاتُ البارحاتُ عشيَّةً أمرَ صحيح القرن أم مرَّ أعْضَبُ

قال : أما هذا فقد أحسنت فيه ، قال :

ولكن إلى أهل الفضائل والنهي وخير بني حواء والخير يُطلب

قال : فمن هم ويحك ! فقال :

إلى التفرّ البيض الذين بحبهم إلى الله فيما نابني أتقرَّبُ

فقال : أرخني ويحك ! من هؤلاء؟ فقال :

بني هاشمٍ رهطِ النبيِّ نائني بهم لهم أرَضَى مراراً وأعْضَبُ

فقال : لله درك يا بني ! فقد أصبت وأحسنت ، إذ عدلتَ عن الزَّعَافِ والأوباش ، إذ لا يُصْرِدُ^(١) سهمك ، ولا يثلب قولك . ثم مرَّ فيها ، فقال : أظهر وأشهر ، فأتت أشعر من مضى ، وأشعر من بقى^(٢) .

فحينئذ قدم المدينة ، فأتى عبد الله بن الحسين ، فأنشده ، فقال : يا أبا المستهل ، إن لي ضيعةً أعطيتُ فيها أربعة آلاف دينار وهذا كتابُها ، وقد أشهدت لك بها شهوداً ، فقال : بأبي أنت وأمي ! كنت أقول الشعر لغيركم أريد به الدنيا والمال ، ولا والله ما قلتُ فيكم شيئاً إلا لله ، وما كنت لأخذ في شيء جعلته الله ثمناً . فلما أبى عليه أخذ مئزره ، فدفعه إلى أربعة غلمان ، فجعل يدور به دور بني هاشم ، ويقول : هذا الكميت ، قال فيكم الشعر حين صمت الناس عن فضلكم ، وعرض دمه لبني أمية ، فأثيبوه بما قدرتم . فاجتمع له من حلى النساء ومن الدنانير والدرهم ما قيمته مائة ألف درهم ، فجاء بها إلى الكميت ، وقال : يا أبا المستهل

(١) أصرد السهم : أخطأ . (٢) انظر الاغانى ١٥ : ١٢٠ ، ١٢١ .

أتيناك بجهد القلّ ، ونحن في دولة عدونا ، فاستعن بهذا على دهرك ، فقال :
 بأبي أنت وأمي ، قد أكثرتم وأظنتم ، وما أردت بمدحى إياكم إلا الله ،
 فاردده إلى أهله . فجهد به بكل حيلة ، فأبى ، فقال : أما إذا أبيت أن تقبل ، فإن
 رأيت أن تقول شعراً تغضب به بين النزارية واليمينية لعل فتنةً تحدث ، فنخرج
 بين أصفانها ، فقال قصيدته التي أولها :

أَلَا حُيِّتِ عَنَّا يَا مَدِينَا وهل بأسٌ بقولٍ مسَّينا^(١)

فعرّض فيها ، وصاح باليمن فيما كان من أمر الحبشة وغيرهم؛ مثل قوله :

لَنَا قَمَرُ السَّمَاءِ وَكَلَّ نَجْمٌ تُشِيرُ إِلَيْهِ أَيْدِي الْمُهْتَدِينَا^(٢)
 وَمَا ضَرَبَتْ هِجَانَ بَنِي نَزَارٍ هَوَانُجٌ مِنْ خَوْلِ الْأَعْجَمِينَا
 وَمَا حَمَلُوا الْحَمِيرَ عَلَى عَتَاقٍ مُضْطَرَّةٌ فَيُلَافِسُوا مُنَافِينَا

ومشت في العرب ، فافتخرت نزار على اليمن واليمن على نزار ، وثارَت
 العصبية في البادية والحاضرة ، وتحزّب الناس ، فتعصّب مروان بن محمد لقومه من
 نزار على اليمن ، فانحرفت عنه إلى الدعوة العباسية وكان الكميّ سبب ذلك .
 وكان لامتداحه بنى هاشم وتعرضه ببني أمية ، يطالبه خلفاء بنى أمية ،
 فهرب منهم عشرين سنة ، فجَدَّ هشام بن عبد الملك في طلبه ولم يجده ، ولم يستقرّ
 للكميّ قرار من خوفه . وكان لمسلمة بن عبد الملك حاجة عند هشام يقضيها
 له ، لا يردّه فيها ، فخرج مسلمة لبعض صيوده ، فأتاه الناس يسألون عليه ، وأتاه
 الكميّ - ومسلمة لا يعرفه - فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعد :

قِفْ بِالْدِيَارِ وَقُوفِ زَائِرٌ وَتَأَيَّ إِنَّكَ غَيْرُ صَاغِرٍ^(٣)

(١) ورد الشطر الثاني محرماً في الأصول والصواب ما أثبتته مر الفاهر ٣

(٢) والخزانة ١ : ٨٦ .

(٣) ط : « وتأن » ، وصوابه من اللسان - أبي

حتى انتهى إلى قوله :

يامسلم بن أبي الوليد —————
 علقتُ حبالي من حبا —————
 فآلآن صرتُ إلى أمي —————
 والآن كنتُ به الصيد —————
 سدلتِ إن شئتِ ناسر —————
 لك ذمة الجار المجاوز —————
 في الأمور لها مصاير —————
 ب كمتد بالأمس حائر —————

فقال مسleme: سبحان الله! من هذا الذي أقبل من أخريات الناس^(١) ثم بدأنا بالسلام، ثم قال: أما بعد ثم الشعر؟ قيل: الكميت، فأعجب بفصاحته، فسأله عما كان فيه من طول غيبته، فذكر له سخط هشام عليه، فضمن له أمانه وتوجه به حتى أدخله على هشام، وهشام لا يعرفه، فقال الكميت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال هشام: نعم الحمد لله، من هذا؟ قال الكميت: مبتدئ الحمد ومبتدعه، الذي خصّ بالحمد نفسه، وأمر به ملائكته، وجعله فاتحة كتابه، ومنتهى شكره، وكلام أهل جنته. أحمدَه حمد من علم يقيناً، وأبصر مستبيناً، وأشهد بما شهد به لنفسه، قائماً بالقسط وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده العربي ورسوله النبي الأُمِّي، الذي أرسله والناس في هَبَوَاتٍ^(٢) حيرة ومُدْهُمَاتٍ ظلمة، عند استمرار أبطه الضلالة. فبلغ عن الله ما أمر به، حتى أتاه اليقين صلى الله عليه وسلم. ثم إنني يا أمير المؤمنين تهت في حيرة، وحزت في سكرة، أهاب بي داعيها، فأجابه غاويها، فاقطوط طيت.^(٣) في الضلالة حائد أع الحق، قائلاً بغير الصديق، فهذا مقام المائذ بك، ومنطق التائب، ومبصر الهدى بعد طول العمى. يا أمير المؤمنين، كم من عائر أقلمت عثرته، ومجترم عفوتهم عن جرمه! فقال هشام - وقد علم أنه الكميت: من سن^(٤) لك هذه الغواية، وأهَاب بك

(١) في اللقد: «من هذا الهندي الجلحاب، الذي أقبل...»، والهندكي: الرجل من الهند والجلحاب: الشيخ الكبير.

(٢) الهبوات: الغبرات.

(٣) اقطوطى: قارب في مشيه إسرائها.

(٤) ب: «من أين».

في العماية ؟ قال : الذي أخرج آدم من الجنة فنسى ولم يجد له عزماً ، وأنت يا أمير المؤمنين ، أضاء الله بك الظلمة الداخلة بعد العموس فيها قبصرت ، وحقن بك دماء قوم أشرب خوفك قلوبهم ؛ فهم يبكون لما يعلمون من حزنك وعزيمك وبصيرتك ، وعز بأسك . وثبات جأشك . وأنت مستغن برأيك عن رأى ذوى الألباب ؛ برأى أريب ، وحلم مصيب . فأطال الله لأمر المؤمنين البقاء ، وأتم عليه التعماء ، ودفع به الأعداء .

فرضى عنه وأمر له بمال كثير^(١) .

فهذه منزلة السكيت من الشعر والخطابة خلافاً لمن يقول : القافية جلبته في المقامات ؛ وغيره من الشعراء كان أولى بموضعه .

* * *

قوله : «حاكها» ، أى نسجها . يريد أن السكيت ممن يصنع الشعر ولا يقوله على طبعه ، فلذلك قال : «حاكها» . وسأل بعض الخلفاء جريراً عن النابغة وزهير ، فقال : ينيران الشعر ويسديانه ، والعلماء بالشعر يسمون صنّاع الشعر عبيد الشعر ، مثل زهير وابنه كعب والخطيئة وعدى بن الرقاع والسكيت .

قوله : «تخذتها» ، أى اتخذتها ، يقال : اتخذ يتخذ اتخذ يتخذ ، وخُفّف عنه ، حذفوا ألف الوصل من اتخذ ، والتاء الأولى الساكنة ، التى هى فاء الفعل ، فبقى اتخذ ، ومثله تقى يتقى واتقى يتقى ، حذف ألفه وتاؤه الأولى ، وليس يطرّد هذا التخفيف ، وإنما جاء فى اتخذ واتقى واتجه واتسع ، فقالوا : تقى وتخذ وتجه وتسع وصلة أى موصلة . تعافيتها : تكرهتها ، وهى تفاعلت من عفت الشيء أعافه عيافاً ، أى كرهته . حالت : تغيرت . أحو : أجمع . مهّد : أقبل وسهّل . أجمرت : أذنبت لنفسى ، جنيت : أذنبت لغيرى ، أراد : إن كان عذرى يديناً فاقبله ، وإن كنت ظالماً فتجاوز واسمح . أودع : ضمن وجعل فيه . الفضى : شجر جمره يثبت فى النار .

(١) المقد ٧ : ١٨٣ - ١٨٥ ، مع تصرف وحذف

المِفَاهِمُ السَّادِسَةُ وَهِيَ الْمِرَاعِيَّةُ

وتعرف بالخيفاء

روى الحارثُ بن همامٍ قال : حَضَرْتُ دِيَوَانَ النَّظَرِ بِالْمِرَاعَةِ ،
وَقَدْ جَرَى بِهِ ذِكْرُ الْبَلَاغَةِ ؛ فَأَجْمَعَ مَنْ حَضَرَ مِنْ فُرْسَانَ الْبِرَاعَةِ ،
وَأَرْبابِ الْبِرَاعَةِ ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ يُنْقَحُ الْإِنْشَاءُ ، وَتَصَرَّفُ
فِيهِ كَيْفَ شَاءَ ، وَلَا خَلْفَ ، بَعْدَ السَّلَفِ ، مَنْ يُبْتَدِعُ طَرِيقَةَ غَرَاءَ ،
أَوْ يَفْتَرِعُ رِسَالَةَ عَذْرَاءَ ، وَأَنَّ الْمُفْلِقَ مِنْ كُتَّابِ هَذَا الْأَوَانِ ،
الْمُتِمِّكُنْ مِنْ أَرْزَمَةِ الْبَيَانِ ، كَالْعِيَالِ عَلَى الْأَوَائِلِ ، وَلَوْ مَلَكَ فَصَاحَةٌ
سَحْبَانٍ وَأَائِلَ .

ديوان النظر ، أى مجلس المناظرة . المِرَاعَةُ : بـلـدـة من
كُور أذربيجان . البراعة : القلم قبل أن يبرى ويسوى ، فإذا بُرِيَ وَسُوِيَ قِيلَ
له قلم ، وبقي عليه الاسم الأول وهو البراعة ، والبراع : القصب . أرباب البراعة :
أصحاب أصالة الرأى . والبارع : الأصيل الجيد الرأى ، ويقال : برع يبرع بروعاً
وبراعة ، إذا فاق في السؤدد . وينقح : يحسن ويخلص . الإنشاء . الكتابة . خلف :
بقي . السلف : المتقدمون ، وسلفوا : ذهبوا وتقدموا . يبتدع : يحدث . طريقة : حالة
موصوفة ، وطريقة فلان كذا ، أى حالته التى هو عليها . غراء : واضحة مشهورة .
لم يقل أحد مثلها . وغرة الشيء : أوله . يفترع : يفتض . عذراء : بكر ، سُمِّيَتْ
عذراء لصعوبة جماعها ، وتعدّر الشيء : تصعب ، وافتراع البكر : إداماؤها وإزالة
ما تصعب منها ، وكل ما أدميته فقد فرعته وافترعته ، فمعنى يفترع رسالة عذراء

أى يأتى برسالة قد تصعب طريقها على غيره ، فاقترده هو على سلوك طريقها والإتيان بها . المفلق : النصيح المعرب الذى يأتى بالفلق ؛ وهو الشيء العجيب .
الأوان : الوقت . العيال : مَنْ يَتَّكِلُ فى مؤنته على غيره ولا يقوم بنفسه ، وعال الرجل عيلةً إذا افتقر ، وعُلتُه عولاً : قمت بمؤنته ، فيريد أن كُتِّبَ هذا الزمان عيال على من تقدّمهم حيث افتقروا إلى الأخذ من كلامهم .
وقد وعدنا أن نذكر سحبان فيما يأتى إن شاء الله تعالى .

* * *

وكان بالجلس كهلٌ جالسٌ فى الحاشية ، عند مواقف الحاشية ، فكان كلما شطّ القوم فى شوطهم ، ونثروا العجوة والنخوة من نوطهم ، ينهى نَحَازُرُ طَرَفِهِ ، وَتَشَامُخُ أَنْفِهِ ، أَنَّهُ مُخَرَّبِقٌ لِيَنْبَاعَ ، وَمُجَرَّمٌ سَيْمَدَ الْبَاعِ ، وَنَابِضٌ يَبْرِى النَّبَالَ ، وَرَابِضٌ يَبْنِى النَّضَالَ . فَلَمَّا نُشِلَّتِ الْكِنَائِنُ ، وَفَاءَتِ السَّكَاثُنُ ، وَرَكَدَتِ الزَّعَارِعُ ، وَكَفَّ الْمَنَازِعُ ، وَسَكَنَتِ الزَّمَاوِجُ ، وَسَكَتَ الْمَرْجُورُ وَالزَّاجِرُ ، أَقْبَلَ عَلَى الْجَمَاعَةِ ، وَقَالَ :

* * *

الكهل : التام الخلق ، بين الشاب والشيخ . الحاشية : طرف المجلس .
والحاشية الثانى . الأتباع وخدمة القوم ، وأصلها رُذَالُ الْمَالِ وصغاره ، قال يعقوب : الحاشية والحواشى والحشو : صغار الإبل ، وأنشد :

* جَلَّتْهَا وَالْأُخْرُ الْحَوَاشِيَا *

لَ : جرى . شوطهم : طَلَقَهُمْ . نَثَرُوا : أَلْقَوْا عَلَيْهَا . العجوة : التمرة .
(١٥ - شرح مقامات الحريري ١)

الطيبة . والنجوة : الرديئة ، هكذا كان ينسرها شيخنا أبو بكر بن أضر عن ابن جهور ، وما وجدت في كتاب لغة أن النجوة اسم للتمر الرديئة ، وقد بحث عنها بعض أصحابنا غاية البحث في كل كتاب فيه ذكر النخل والتمر ، فأخبرني أنه ما وجد لها ذكراً ، وأظنها لغة بصرية متعارفة بينهم في التمر الرديء ، لا أنها لغة عربية ، فاستعملها كما استعمل غيرها من لغة بلده ، لأن البصرة أكثر بلاد الله نخلاً ، فيسمون كل نوع من التمر باسم ، والتمر تكثر أنواعه عندهم . ورأيت أكثر أهل سجلماسة لا يكادون يحصون أنواعه لكثرتها ، ورأيت بها نوعاً من التمر زعموا أنه لا يطيب أبداً ، وإنما حاله أن ينكمش على نواه ، فلا تجد إلا جلدًا يابساً على النواة ، فيعلقونه المميز ، فيحتمل أن يكون مثل هذا في نخل البصرة يسمى نجوة ، ويقابل بالعجوة التي هي أشرف التمر وأطيبه . وأما من فسر النجوة هنا بالمرتفع من الأرض ، فلا معنى له . الفجديهي : النجوة ، قيل : لأنها لفظة التمر إذا سقطت لا يبالى بها ، فإن صحت روايتها فكانها سُميت بالنجوة التي هي العذرة . نوطهم : وعاء تمرهم ، قال أبو حنيفة : النوطة : الجلة الصغيرة من جلال التمر ، والجلة : الوعاء الذي يكتفيه التمر ، وكل وعاء له علاقة فهو نوطة ، والجمع نوط ، وقد ناطه بنوطه ، إذا علته ، فأراد : ألقوا الكلمة الجيدة والردية من كلامهم . ينبي : يخبر . تخازر طرفه : كسر عينيه بالنظر ، وتخازر : نظر بمؤخر عينيه ، وهو نظر المنكر للشيء . تشامخ : ارتفاع ، وهو فعل المستحقر للشيء . مخربق : متهيئ . لينباع : لينهض ، وفسره أبو عبيد في الأمثال . فقال : الخربق : المطرق الساكت ، لينباع . ليثب إذا أصاب فرصة ، قال : ومعناه أنه سكت لدهاية يريدها ، وقيل : الخربق : الساكت على السوء . لينباع : ليظهر الذي في ظنه من الشر . مجرّمز : منقبض ، وهو كقول النابغة :
وقلت يا قوم إن الليث منقبضٌ على براثنه للوثبة الضاري^(١)

(١) ديوانه ٤٢ والضاري من وصف الليث ، وروى : « لوثبة الضاري » .

فأخذه ابن الرومي فقال :

سكن سكونا كان رهناً بوثة غماس كذاك الليث للوثب بلبد^(١)

نابض : رام ، ويقال : أنبض القوس ، إذا جذب وترها ثم أطلقه ليختبر شدتها . ونبض العرق : تحرك ، فيكون : « نابض » على النسب ، أو على حذف الزائد . النجديهي : أورد أبو الحسين بن فارس اللغوي في كتابه المجمل أن نبض لغة في أنبض ، وهما بمعنى واحد ، قال الشاعر :

يا رب أباهاً مقسمٌ بيمينه . لئن نبضت كفى فإني لنابضٌ

فصح بهذا قوله . رابض : لاطىء بالأرض ، وربضت الشاة : اضطجعت . يعني التّضال ، أى يطلب المراماة ، وأراد أنه يريد أن يلقي عليهم المسائل ليجاذبوه . قوله : « نُثِلت » ، أى نفضت وصبّ ما فيها . الكنائن : الجعاب ، وهى أوعية السهام . فاءت : رجعت . السكان : جمع سكينه ، وهى الوقار ، يريد : أتم أهل المجلس كلامهم فسكتوا . ركدت : سكنت . الزعازع : الرياح الشديدة المنزلّة ، واحداً زعزع . كفّ المنازع : أمسك الحالف ، يريد انقطع كلامه .

لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ، وَجُزْتُمْ عَنِ الْقَعْدِ جِدًّا ، وَعَظَّمْتُمْ
الْعِظَامَ الرُّفَاتَ ، وَافْتَتَّمْتُمْ فِي الْمِيلِ إِلَى مَن فَاتَ ، وَغَمَصْتُمْ
جَيْلَكُمْ الَّذِينَ فِيهِمْ لَكُمْ اللَّدَاتُ ، وَمَعَهُمْ انْعَقَدَتِ الْمَوَدَاتُ .
أَنْسَيْتُمْ يَاجِبَاهِدَةَ النَّقْدِ ، وَهَوَّابِدَةَ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ ، مَا أَبْرَزْتُهُ

(١) بلبد ، أى يجثم على الأرض .

طَوَارِفُ الْقَرَائِحِ ، وَبَرَزَ فِيهِ الْجَذَعُ عَلَى الْقَارِحِ ، مِنْ الْعِبَارَاتِ
 الْمُهَذَّبَةِ ، وَالْإِسْتِعَارَاتِ الْمُسْتَعَذَّبَةِ ، وَالرَّمَايِلِ الْمَوْشَّحَةِ ، وَالْأَسَاجِيعِ
 الْمُسْتَمْلَحَةِ ! وَهَلْ لِلْقُدَمَاءِ إِذَا أَنْعَمَ النَّظَرُ ، مَنْ حَضَرَ ، غَيْرُ الْمَعَانِي
 الْمَطْرُوقَةِ الْمَوَارِدِ ، الْمَعْقُولَةِ الشَّوَارِدِ ، الْمَأْثُورَةِ عَنْهُمْ لِتَقَادُمِ
 الْمَوَالِدِ ، لِاتِّقَادُمِ الصَّادِرِ عَلَى الْوَارِدِ ! وَإِنِّي لِأَعْرِفُ الْآنَ مِنْ إِذَا
 أَنْشَأَ ، وَشَى ، وَإِذَا عَبَّرَ ، حَبَّرَ ، وَإِنْ أَهْبَبَ ، أَذْهَبَ ، وَإِذَا أَوْجَزَ ،
 أَفْجَزَ ، وَإِنْ بَدَّهَ ، شَدَّهَ ، وَمَتَى اخْتَرَعَ ، خَرَعَ .

* * *

إِذَا : أَمْرًا فَظِيحًا مَنكَرًا . جُرِّمَ عَنْ الْقَصْدِ : خَرَجَ عَنْ الْإِسْتِقَامَةِ . جَدًّا :
 كَثِيرًا . الرِّفَاتِ : الْبَالِيَةِ . افْتَتَمَ : فَعَلِمَ مَا لَا يَجِبُ وَتَجَاوَزَ فِيهِ ، وَيُقَالُ : افْتَتَمَ
 الرَّجُلُ « افْتَعَلَ » مِنَ الْقَوَاتِ ، وَفَاتَ : ذَهَبَ وَعَدِمَ . غَمَصْتُمْ : حَقَرْتُمْ وَغَطِيتُمْ .
 جِيلَكُمْ : أَهْلَ عَصْرِكُمْ . اللَّدَاتِ : جَمْعُ لِدَّةٍ ، وَهُوَ الَّذِي وَلَدَ مَعَكَ . جِهَابُذَةٍ :
 حَدَاقُ الْوَاحِدِ جِهَيْذٍ . النُّقْدُ : مَعْرِفَةُ الْكَلَامِ ، نَقْدُهُ : مِيزُهُ ، وَأَصْلُهُ مِنْ مِيزِ الدَّرَاهِمِ
 الْجَيِّدَةِ مِنَ الرَّدِيئَةِ . مَوَابِذَةٍ : حُكَامُ ، وَالْمَوْبِذُ : الْكَثِيرُ الْجَاهُ مِنَ الْفُرْسِ ، مِثْلُ
 الْوَزِيرِ وَالْقَائِدِ . أَبْرَزَتْهُ : أَظْهَرَتْهُ . طَوَارِفُ ، جَدِيدَاتُ وَغَرِيبَاتُ . الْقَرَائِحُ :
 الْأَذْهَانُ . بَرَزَ : غَلَبَ . الْجَذَعُ مِنَ الْخَيْلِ ابْنُ سَنْتَيْنِ . الْقَارِحُ : ابْنُ خَمْسٍ ،
 أَيْ غَلَبَ فِيهِ الْحَدِيثُ الْعَصَرَ الْقَدِيمَ . عِبَارَاتُ : جَمْعُ عِبَارَةٍ وَهِيَ التَّفْسِيرُ ،
 وَعَبَّرَ عَنْ فُلَانٍ : تَكَلَّمَ عَنْهُ وَكَانَتْ لِسَانَهُ . الْمُهَذَّبَةُ : الْخُلَاصَةُ مِنَ الْعَمِيصِ .
 الْإِسْتِعَارَةُ : أَنْ تَعْبِرَ بِالْفَرْقِ مَا يَسْتَحِقُّهُ غَيْرُهُ ، وَهِيَ مِنَ الْعَارِيَةِ . الْمَوْشَّحَةُ : الْمَزِينَةُ .
 الْأَسَاجِيعُ : جَمْعُ أَسْجُوعَةٍ ، وَهِيَ الْكَلَامُ الْمَرْبُوطُ بِقَافِيَةٍ . أَنْعَمَ : بِالْفِعْلِ الْمَطْرُوقَةِ :

التي نزل عليها . المعقولة : المربوطة . الشوارد : الفارّة، يقول : ليس للقدماء . إلا المعاني التي قصدها المتأخرون ، كما قصدها المتقدمون ، وقيدتها المتأخرون بالكتاب كما قيدها المتقدمون ، فكان تقييدها سبباً لأن مشيت في الأقطار فعرفت وحفظت . الماثورة : المحدث بها . الصادر : الخارج عن الماء ، والوارد : الداخل إليه ، وذكر هنا أن الصادر يتقدم الوارد ، وذلك أنا إذا فرضنا موضع ماء لا يمكن وروده إلا واحداً بعد واحد ، فالصادر يسبق الوارد على ما ذكره في المقامة . قال الحريري في درة الغواص : إن^(١) الخواص يقولون : هذا أمر يعرفه الصادر والوارد ، ووجه الكلام أن يقال : الوارد والصادر ، لأنه مأخوذ من الوَرْد والصدر ، ولما كان الوَرْد يقدم الصدر ، وجب أن يقدم لفظ « الوارد » على الصادر ، وهذا كما ترى ، الوَرْد يقدم الصدر في حق واحد ، يقال : وَرَدَ الماء ثم صدر عنه ، وأما في حق اثنين كما قدمنا وكما ذكر هو في هذه المقامة ، فالصادر يتقدم الوارد . وقول الناس : هذا أمر يعرفه الصادر والوارد في حق اثنين ، فهم فيه على صواب ، ومحال أن يكون المثل في حق واحد ، لأن الشيء لا يعطف على نفسه ، ولو كان الوارد على زعمه يتقدم الصادر لجاز تقديم الصادر عليه ، لأن الواو لا تعطى رتبة ، يقول : لا نتحدث بكامهم ونظامهم ونثرهم لفضلهم علينا ، لكن لسبقهم لنا . أنشأ : كتب . وشئ : زين ورقم . عبر : تكلم أو فسر . حبر : حسن . أوجز : اختصر . أعجز ، أي عجز عن فعله غيره . أسهب : أطال الكلام . أذهب : جاء بالذهب ، وأصل أسهب ، حفر بئراً بعيدة القعر ، وأذهب : صادف معدن الذهب في حفير . بدّه : ارتجل ولم يتفكر . شدّه : حبر من يتعاطى منزلته . اخترع : قال ما لم يسبق إليه . خرع : شقق المعاني .

* * *

فَقَالَ لَهُ نَاطُورَةُ الدِّيَّوَانِ ، وَعَيْنُ أَوْلِيكَ الْأَعْيَانِ : مَنْ
خَارِعُ هَذِي الصَّفَاةِ ، وَفَرِيعُ هَذِهِ الصِّفَاتِ ؟ فَقَالَ : إِنَّهُ قِرْنُ

(١) درة الغواص ص ٧١ .

جَمَالِكَ ، وَقَرَيْنُ جِدَالِكَ ؛ وَإِذَا شِئْتَ ذَلِكَ فَرُضْ نَجِييَا ، وَادْعْ
مُجِييَا ، اَتَرَى عَجِييَا . فَقَالَ لَهُ : يَا هَذَا ، إِنَّ الْبُعَاثَ بِأَرْضِنَا
لَا يَسْتَنْسِرُ ، وَالْمُتَّعِيزَ بَيْنَ الْفِضَّةِ وَالْقِضَّةِ مُتَمَسِّرٌ ، وَقَلَّ مَنْ
اسْتَهْدَفَ لِلنُّضَالِ ، فَخَاصَّ مِنَ الدَّاءِ الْمُضَالِ ، أَوْ اسْتَشَارَ نَقَعَ
الْامْتِحَانِ ، فَلَمْ يَقْذَ بِالْامْتِهَانِ ، فَلَا تُعْرِضْ عِرْضَكَ لِلْمَفَاضِحِ ،
وَلَا تُعْرِضْ عَنْ نَهْجَةِ النَّاصِحِ . فَقَالَ : كُلُّ امْرِئٍ أَعْرَفُ
بِوَسْمِ قَذْحِهِ ، وَسَيَتَفَرَّى اللَّيْلُ عَنْ صُبْحِهِ . فَتَنَاجَتْ الْجَمَاعَةُ
فِيمَا يُسَبَّرُ بِهِ قَلْبِيهِ ، وَيُعَمَدُ فِيهِ ثَقْلِيهِ ؛ فَقَالَ أَحَدُهُمْ :
ذَرُوهُ فِي حِصَّتِي ؛ لِأَرْمِيَهُ بِحَجَرِ قِصَّتِي ، فَإِنَّهَا عُضْلَةُ الْعَقْدِ ،
وَحَكُّ الْمُسْتَقْدِ . فَقَلُّوهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ الزُّعَامَةَ ، تَقْلِيدَ الْخَوَارِجِ
أَبَا نَعَامَةَ .

قوله: «ناظورة» ، أى كبير القوم ومقدمهم الذى ينظرون إليه . الديوان : دار الكتاب وموضع اجتماعهم . والديوان ، الزمام يكون فيه أسماء الجند وأرزاقيهم، وأصله «دِوان» ، فقلبت واوه الأولى ياء لانكسار ما قبلها، وذل عليه دواوين فى جمعه ، وهو اسم أعجمى عربى ، والأصل فى تسميته أن كسرى أمر الكتاب أن يجتمعوا له فى دار ، ويعملوا حساب السواد فى ثلاثة أيام ، وأعجلهم فيه ، فأخذوا فى ذلك ، وأطلع عليهم لينظر ما يصنعون ؛ فنظر إليهم يحسبون بأسرع ما يمكن ، وينسخون كذلك ، فعجب من كثرة حركاتهم ، فقال : أرى «ديوان» ومعناه شياطين ، ثم سُمى موضعهم ديواناً ، ثم استعملته العرب ، وجعل كل محصل

من كلام أو شعر ديواناً^(١). قارع: ضارب وكاسر. الصفاة: الصخرة للساء. استعارها للضعف من الكلام. قريع: سيد. الصفات: النعوت التي تقدم أنه يُعرف بفعلها. وقرن مجالك: صاحب كلامك الذي تجول فيه — يعني نفسه. قرين جدالك: صاحب مجادلتك، والقرن بالكسر: الذي يماثلك في شدة أو خصام أو علم، وإن لم يكن بينكما معرفة، وقرينك: صاحبك الذي لا يفارقك كأنه قرن معك. والمجال: الموضع الذي تراض فيه الخيل. رضى: سس ولين. النجيب: الفحل الكريم من الإبل، وعنى نفسه. ادع مجيباً، يقول: سسني ثم ادعني أستجب لك. ترى مجيباً، في حسن جوابي. البغاث: صغار الطير. يستنسر: يصير نسرأ، يقول: نحن أهل علم ومعارف، فلا تجوز علينا الخاف، والعرب تقول في أمثالها: «إن البغاث في أرضنا يستنسر»، أي يرجع الضعيف قويا أمرنا وحمايتنا له ممن يريده، وقيل في البغاث: إنه ذكر الرخم، وقيل: البغاث كل ما يصاد من الطير، والجوارح: كل ما يصيد، والرهام: ما لا يصيد ولا يصاد، كالخطاف وغيره. القضة: الحصى البيض الصغار، ويقال: جاء بالقض والقضيض بالقاف والضاد، ومعناه جاء بالكبير والصغير. والقضيض: صغار الحصى وما تكسرت منه، وقالوا: جاءوا قضهم بقضيضهم. أي كلهم. استهدف: صار هدفاً، وهو الغرض للسهم. النضال: المراماة. العضال: الذي لا يبرأ منه. استنار: حرك نفع غبار. الامتحان: الاختبار. يقد: يقع في عينه القذى، وهو ما يسقط في العين، ويقول: من صار غرضاً للألسنة قل أن يسلم، ومن صار طالباً لمناظرة أهل المعارف أهين وأخف. المفاضح: الخزيات واشتہار العيوب. وسم: علامة. قدحه: سهمه، يريد قداح الميسر، وكان كل رجل يعمل في قدحه علامة يعرف بها، قال دريد بن الصمة:

وأصفر من قداح النبع فرع به علمان من عقب وخرس^(٢)

(١) العرب للجواب بقى ١٥٤، وفي الجاهل ٩٤ عن الرزوقي في شرح الفصح،

قال: هو عربي، من دوت الكلمة إذا ضبطتها.

(٢) اللسان - خرس

الضَّرْس : العضَّ بالضَّرْس ، وسنذكر في الثالثة والأربعين قِداح العرب :
 سينفَرَى : سينتكشف. قوله : « تناجت » ، أى تحدثت سرًّا . يُسَبَّر : يقاس .
 قَلْبِيهِ : بئره . يَعْمَد : يَقْصِد . تَقْلِيْبِهِ : تجريبه . ذُرُوْهُ : أتركوه . حِصْتَى : نصيبى .
 قِصْتَى : خبرى ، وجعل لمسأله حجراً يرميه به مجازاً . عُضْلَةٌ : صعبة . العقد :
 جمع عقدة ، يريد أن عقدها صعب الحل . محك المنتقد : وهو حجر يقاس به جيد
 الفضة والذهب من الردىء ؛ أراد أن مسأله نهاية فى الصعوبة ، والعُضْلَةُ : كل
 مسألة شديدة لا يُهْتَدَى لثُلْها ، ولا يوقف على جوابها ، من قولهم : داء عضال
 ومعضل ، إذا كان شديداً لا يُهْتَدَى لدوائه ، ولا يوقف على علاجه ، وعضات
 المرأة تعضيلاً ، نشب ولدها فى بطنها ، وعضت الدجاجة بيضتها كذلك ، وفلان
 عُضْلَةٌ من العضل ، أى داهية لا يُهْتَدَى لمكره . قوله : « الزعامة » ، أى
 الرياسة .

[ذكر قَطْرَى بن الفجاءة]

وأبو نعامه هو قَطْرَى بن الفجاءة التميمى الخارجى . وكان له فرس يكنى
 بها فى الحرب ، ويكنى فى السلم أبا محمد . وقَطْرَى : منسوب إلى قَطَر ، موضع
 قريب من عُقَيْر .

وكان فارساً شجاعاً شاعراً مجيداً ، وكان رئيسَ الخوارج ، وسلموا عليه
 بأمر المؤمنين عشرين سنة ، وكان خطيباً فصيحاً . وله خطبة فى ذم الدنيا انتهى
 فيها من البلاغة إلى الغاية . وأوتها :

أما بعد فإنى أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة ، حُفَّت بالشهوات ، وراقت
 بالقليل ، وتحببت بالعاجل ، وتحلت بالأمانى ، وتزينت بالفروير ،
 لاتدوم زهرتها ، ولا تؤمن فجعتها ، غرارة ضرارة ، حائلة زائلة ، نافذة بائدة ،

لا تعدو إذا هي تناهت إلى أمنيّة الرغبة فيها ، والرضا عنها ، أن تكون كما قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ .

ومنها :

كم واثقٍ بها قد فجّعته ، وذى طمأنينةٍ إليها قد صرّعته ، وذى احتيالٍ فيها قد خدّعتّه . وكـ من ذى أهبةٍ فيها قد صيّرتّه حقيراً ، وذى نخوةٍ قد ردّته ذليلاً ، وذى تاجٍ قد كسّته الـيدين والنفـم ؛ سلطانها دُول ، وعيشها رنق ، وعذبها أجاج ، وحلوها صبر ، مليكها مسلوب ، وعزيزها مغلوب ، وسليمها منكوب ، وجامعها محروب ؛ مع أن وراء ذلك سكرات الموت ، وهول المطلع ، والوقوف بين يدي الحكم العدل ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ .

ومن جيّد شعره في وقعة دُولاب :

لعمرك إني في الحياة لزاهدٌ	وفي العيش ما لم ألق أمّ حكيم ^(١)
من الخفّرات البيض لم ير مثلاً	شفاءً لدى بثٍ ولا لسقيم ^(٢)
لعمرك إني يوم ألطم وجهها	على نائبات الدهر جدّ كريم ^(٣)
ولو شهدتني يوم دُولاب أبصرتُ	طعان ذئبي في الحرب غير ذميم ^(٤)
غداة طفت علماء بكر بن وائل	وعُجبتا صدور الخليل نحو تميم ^(٤)

(١) الأغاني ٦ : ١٤٨ ، الكامل للمبرد ٣ : ٢٩٨ .

(٢) الأغاني : « لم أرمئها » .

(٣) دُولاب ، قال في الأغاني : « هي قرية من عمل الأهواز ، بينها وبين الأهواز نحو من أربعة فراسخ ، كانت بها حرب الأزارقة ومسلم بن عيسى بن كرز ، خليفة عبد الله ابن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب ، وذلك في أيام ابن الزبير » .

(٤) علماء ، يريد على الماء ، وبعده في رواية المبرد :

وكان لعبد القيس أولُ جدّه
وظلت شيوخ الأزد في حومة الوغى
وأحلافها من يحضبٍ وسليم
تعموم وظلنا في الجلاء نعوم
وفي البيت الثاني لإفواء .

فلم أري يوماً كان أكثر مفعلاً^(١) يُمَسِّحُ دماً من فائِظٍ وكَلِيمٍ^(٢)
 وضاربة خدّاً كريماً على فتي أغرّ نجيب الأمهات كَرِيمِ
 أصيب بدُولابٍ ولم تَكُ موطناً له أرض دُولابٍ ودير حميمٍ^(٣)
 فلو شهدتني يوم ذاك وخَئِلُنَا تبيح من الكفار كلَّ حَرِيمِ
 رَأَتْ فتيةً باعوا الإله نفوسهم بجَنات عدن عنده ونعيمِ

وأمّ حكيم التي شتّب بها ، كانت معه في عسكر الإباضية ، وكانت من أشجع الناس ، وأجملهم وجهاً ، وأحسنهم بدنه متمسكاً . وكان قطري يحبها ويحلمها ، وأخبر من شاهدها في تلك الحروب أنها كانت ترتجز فتقول :

أَحِلُّ رَأْساً قَدْ سُمْتُ حَمَلَهُ وَقَدْ مَلَّتْ دَهْنَهُ وَغَسَلَهُ

* أَلَا فَتَى يَحْمِلُ عَنِّي ثِقَلَهُ *

والخوارج يقدّونها بالآباء والأمهات ، وخطبها جماعة من أشرف الخوارج فردّتهم ، وقالت :

أَلَا إِنَّ وَجْهًا حَسَنَ اللَّهِ خَلَقَهُ لِأَجْدَرِ أَنْ يُبَلِّغَ بِهِ الْحَسَنَ جَامِعاً
 وَأَكْرَمَ هَذَا الْجِرْمَ عَنْ أَنْ يَنَالَهُ تَوْرُكُ فَخْلٍ هَمَّ أَنْ يَجَامِعَا

أين هذه من أمّ خارجة ، واسمها عمرة بنت سعد ، كان يقال : لها خطب ، فتقول : نكح ، وضرب بها المثل فقيل : أسرع من نكاح أمّ خارجة^(٤) .

(١) الأغاني والكمال : « مقصداً » ، وهو الطعن بالرماح .
 (٢) ط : « فائض » . تحريف ، صوابه من ا ، ب ؛ والفائِظ ، من قولهم : « فائِظ الرجل ، إذا مات » .
 (٣) دير حميم : موضع بالأهواز .
 (٤) الميداني ١ : ٣٤٨

وأين هي من حفيذة قطريّ مع صاحبها ، حكى الإصبهانيّ عن إسماعيل بن المهاجر قال : خرجت أنا والسيد الحميريّ سكارى ، فلقينا بنت الفجاءة بن عمرو ابن قطريّ بن الفجاءة ، وكانت امرأة برزّة حسناء ، فواقفها السيد ، وأنشدها من شعره ، فأعجب كل واحد منهما صاحبه ، ثم خطبها ، فقالت : كيف يكون هذا ونحن على ظهر الطريق ! قال : يكون كمنكاح أمّ خارجة ، قيل لها : خطّب ، قالت : نكح ، فاستضحكت وقالت : ننظر في هذا ، وعلى ذلك فن أنت ؟ قال :

إن تسألني بقومي تسألني رجلاً في ذروة الحمد من أجواد ذي يمن^(١)
ثم الولاء الذي أنجّو النجاة به من كبة النار للهادي أبي حسن
فقلت : لا شيء أعجب من هذا ! يمانى وتمية ، ورافضى وإباضية ، فكيف يجتمعان ! فقال : بحسن رأيك تسخو نفسك^(٢) ، ولا يذكر أحدنا سلفاً ولا مذهباً ، قالت : أفليس التزويج إذا علم ، انكشفت معه الستور^(٣) ؟ قال : وأنا أعرض عليك أخرى ، قالت : وما هي ؟ قال : المتعة^(٤) التي لا يعلم بها أحد ، قالت :

(١) بعده في رواية الأغاني :

حوّلي بها ذو كلاع في منازلها وذو رعين وهمدان وذو يزن
والأزد أزد عثمان الأكرمون إذا عدت ماثرهم في سالف الزمن
بانت كريمةتهم عني فدارهم داري في الرحب من أوطانهم ووطني
لي منزلان : بلحج منزل وسط منها ، ولي منزل للعز في عدن

(٢) ط : « تحشد نفسك » ، وما أثبتته من الأغاني .

(٣) الأغاني : « انكشف معه الستور وظهرت خفيات الأمور » .

(٤) المتعة : أن تزوج امرأة تتمتع بها أياماً ، ثم تخلى سبيلها ؛ وذلك أن الرجل كان يشارط المرأة شرطاً على شيء بأجل معلوم ، ويطلبها شيئاً ، فيستحلها بذلك ، ثم تخلى سبيلها من غير تزويج ولا طلاق ؛ وقد كانت مباحة في أول الإسلام ثم حُرمت ؛ والجلودي ؛ أحد كبار علماء الشيعة الإمامية كتاب أسماء : « المتعة وما جاء في تحليلها » .

تلك أخت الزنا ، قال : أعيذك بالله أن تسكفري بعد إيمانك ! قالت : وكيف ؟ قال لها : قال الله تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ ، قالت : أستخير الله وأقلدك ، إذ كنت صاحب قياس وتفتيش . ولما انصرفت معه ، وبات معرساً بها ؛ وبلغ أهلها من الخوارج أمرها توعدوها بالقتل ، فجحدت وقالوا : أتزوجت بكافر ! فكانت تخلف إليه مدّةً وتواصله ^(١) .

وقوله : «تقليد الخوارج بأناعمة» ، لما قُتل الزبير بن عتيب على السَّيِّطِ أمير الخوارج ، أداروا أمرهم ، فأرادوا تولية عبدة بن هلال الشكري ، فقال : ألا أدلكم على من هو خير مني لكم ؟ مَنْ يطاعن في قُبُلٍ ، ريمحى عن دُبُرٍ ؛ عليكم بقطري ابن النجاء المازني ، فبايعوه .

* * *

فَأَقْبَلَ عَلَى السَّكَنِ ، وَقَالَ : اعْلَمْ أَنِّي أُوَالِي ، هَذَا الْوَالِي ، وَأَرْفَعُ حَالِي ، بِالْبَيَانِ الْحَالِي . وَكُنْتُ أَسْتَعِينُ عَلَى تَقْوِيمِ أَوْدِي ، فِي بِلَدِي ، بِسَعَةِ ذَاتِ يَدِي ، مَعَ قَلَّةِ عَدَدِي . فَمِمَّا ثَقُلَ حَازِي ، وَنَفِدَ رِزَاذِي ، أُمَمُهُ مِنْ أَرْجَائِي ، بِرَجَائِي ، وَدَعَوْتُهُ لِإِعَادَةِ رُؤَايَ ، وَإِرْوَائِي ؛ فَهَشَّ لِلْوِفَادَةِ وَارْتَاخَ ، وَغَدَا بِالْإِفَادَةِ وَرَاحَ . فَلَمَّا اسْتَأْذَنَتْهُ فِي الْمَرَاكِحِ ، إِلَى الْمَرَاكِحِ ، عَلَى كَاهِلِ الْمَرَاكِحِ ؛ قَالَ : قَدْ أَرْمَعْتُ أَلَّا أَرُودُكَ بَتَانَا ؛ وَلَا أَجْمَعُ لَكَ شَتَانَا ، أَوْ تُنْشِي لِي أَمَامَ ارْتِمَالِكَ ، رِسَالَةً تُودِعُهَا شَرْحَ حَالِكَ ، حُرُوفُ إِحْدَى كَلِمَتَيْهَا يَعْمُهَا النَّقْطُ ، وَحُرُوفُ الْأُخْرَى لَمْ يُجْمَنْ قَطُّ ، وَقَدْ اسْتَأْنَيْتُ

(١) الأغاني ٧ : ٢٦٤ . مع اختلاف في الرواية .

بَيَانِي حَوْلَا ، فَمَا أَحَارَ قَوْلًا ، وَنَبَّهْتُ فِكْرِي سَنَةً ، فَمَا اَزْدَادَ
إِلَّا سِنَةً . وَاسْتَعْنْتُ بِقَاطِبَةِ الْكِتَابِ ، فَكُلُّ مِنْهُمْ قَطَّبَ
وَتَابَ ، فَإِنْ كُنْتَ صَدَعْتَ عَنْ وَصْفِكَ بِالْيَقِينِ ، فَأَتِ بَايَةَ إِنْ
كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

فقال له : لقد استسقيت يعثوبًا ، واستسقيت أنسكوبا ،
وَأَعْطَيْتَ الْقَوْمَ بَارِيهَا ، وَأَسْكَنْتَ الدَّارَ بَانِيهَا . ثُمَّ فَكَّرَ رَيْثًا
اسْتَجَمَ قَرِيحَتَهُ ، وَاسْتَدْرَأَ لِقَحْتَهُ ، وَقَالَ : أَلْقِ دَوَاتَكَ وَاقْرُبْ^(١) ،
وَحُذْ أَدَانَكَ وَاكْتُبْ :

قوله : « أوالى » ، أى أُلَازِمُ وَأَتَّخِذُهُ وَلِيًّا . أَرْقَحَ : أَصْلَحَ ، يُقَالُ رَقَّحَ مِنْ
عَيْشِهِ ، إِذَا أَصْلَحَ مِنْهُ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

يَتْرَكَ مَا رَقَّحَ مِنْ عَيْشِهِ يَعْثُبُ فِيهِ هَمَجٌ هَامِجٌ^(٢)

الْهَمَجُ : الْبَعْوُضُ ، ثُمَّ قِيلَ لِأَرْذَالِ النَّاسِ : هَمَجٌ . الْحَالِي : الْمَزِينُ بِالْحُلِيِّ .
أَوْدَى : عَوَجَى . سَعَةٌ : كَثْرَةٌ . ذَاتُ يَدَى ، أَيْ مَالَى . عُدْدَى : عِيَالَى . حَازَى :
ظَهَرَى ، وَفُلَانٌ خَفِيفُ الْحَازِ ، أَيْ قَلِيلُ الْعِيَالِ ، وَأَصْلُ الْحَازِ مُؤَخَّرُ الْفَخْذَيْنِ .
نَفْدَ رِذَازَى : فَرَّغَ قَلِيلَ مَالَى ، وَالرِّذَازُ : الْمَطَرُ الضَّعِيفُ . أَمَّتَهُ : قَصَدَتْهُ . أَرْجَائَى :
جِهَاتَى وَبِلَادَى . رَجَائَى : أَمَلَى . رُؤَائَى : حَسَنُ هَيْئَتَى وَحَالَى : إِرْوَائَى : إِزَالَةٌ
عَطَشَى . هَشَّ : خَفَّ ، وَرَجُلٌ هَشَّ بَسَامَ : طَلَبَ الْوَجْهَ . لِلْوَفَادَةِ : لِلْقُدُومِ عَلَيْهِ . وَارْتَاخَ :
طَرَبَ وَاهْتَزَّ . الْإِفَادَةُ : تَكْسِيبُ الْفَوَائِدِ . الْمَرَّاحُ ، بِفَتْحِ الْمِيمِ : الْمَشَى وَالْانْصِرَافُ .

(١) ساقطة من غخطوة المقامات .

(٢) اللسان - رفح ، ونسبة إلى الحارث بن حنزة .

والمراح، بالضم: الموضع الذي تروح إليه الإبل وتروح منه، أو تراح إليه، أي تساق بالعشي. والمراح، بالكسر: النشاط والخفة، وقد مَرَحَ مَرَحًا، لعب، من الفرح. كاهل: ما بين فروع الكتفين، استعاره للنشاط. أزمعت: عزمت. بتاتًا: زادًا. شتاتًا: مالا متفرقا. تنشىء: تصنع وتكتب. أمام ارتحالك: قبل سفرك: تودعها: تضمّنها وتجعل فيها. يعجنن: ينقطن، وأعجمت الكتاب: أزلت عنه عجمته.

قط: لفظة موضوعة لما مضى من الدهر. وجعل الحريريّ قول الخواصّ: «لا أكله قطّ» من أخش الخطأ لتناقض الكلام، قال: وذلك أن العرب تستعمل لفظة «قطّ» فيما مضى من الزمان، كما تستعمل لفظة «أبدأ» فيما يستقبل، فيقولون ما كلمته أبدأ، والمعنى: ما كلمته فيما انقطع من عمري، لأنه من قططت الشيء، إذا قطعته، ومنه قطّ القلم، إذا قطع طرفه. وفيما يؤثر من شجاعة على رضى الله عنه أنه كان إذا استقبل قدّ، وإذا استدبر قطّ، فالقدّ قطع الشيء طولاً، والقطّ قطعُه عرضاً^(١). يقول: تصنع رسالة تضمّنها حالك، يكون تركيبها من كلمة يعمّ حروفها النقط، وكلمة لا ينقط منها حرف، وبهذا المعنى سُمّيت المقامة الخفيفاء، لأنّ الأخيف من الخيل: الذي إحدى عينيه زرقاء. والأخرى كحلاء. استأنيت: أمهلت وأخرت. أحر: ردّ وراجع. نهبت: أيقظت. سنّة: حولا. سنّة: نومًا. قاطبة: جماعة. قطّب وجهه، إذا عبّسه. صدعت: أوضحت وأظهرت، وأصل الصدع الشق. باليقين: بالحقّ الواضح. آية: علامة، قال ابن الأنباري رحمه الله: في قولهم آية من القرآن ثلاثة أوجه: قيل إنها علامة لانقطاع الكلام قبلها وبعدها، واحتجّ أبو عبيدة لذلك بقول الشاعر:

* بآية ما تحيئون الطعّامًا *

وبقول النابغة :

تَوَهَّمَتْ آيَاتِهَا فَعَرَفْتُهَا لِسِتَّةِ أَغْوَامٍ وَذَا الْعَامُ سَابِعٌ^(١)
 الثانى: سُمِّيت الآية لأنها جماعة حروف ، قال أبو عمرو: خرج القوم بأيّتهم،
 أى بجماعتهم .

الثالث : سُمِّيت آية لأنها عجب من المعجائب ، فالآية العجب .

قوله : « استسقيت » : طلبت سعيه أى جريه . واليَعْبُوبُ : الفرس السريع .
 استسقيت : استمطرت وطلبت سُقْيَاه . والأسْكُوبُ : المطر الكثير . باريها :
 صانعها ، وكل هذه أمثال ، ويريد : أنا أهل لكل ما طلبت .

[الخطيئة وسعيد بن العاص]

وأول من قال : أعط القوس باريها^(٢) الخطيئة ، وذلك أنه دخل على سعيد
 ابن العاص وهو يقرئ الناس ، فأكل أكلًا جافيًا ، وخرج الناس ، فأقام ، وأتاه
 الحاجب ليُخرجه فامتنع ، وقال : أترغب بهم عن مجالستي ! إننى بنفسى عنهم
 لأرغب ! فقال له سعيد : دَعَهُ . ثم تذاكروا الشعر والشعراء ، فقال لهم الخطيئة :
 والله ما أصبتم جيد الشعر ولا شاعر العرب ، ولو أعطيت القوس باريها ، وقستم
 على ما تريدون ، فقال له سعيد : فمن أشعر العرب ؟ قال : الذى يقول :

لَا أَعُدُّ الْإِقْتَارَ عُدْمًا وَلَكِنْ فَقَدْ مَنَ قَدْ رُزِئْتَهُ الْإِعْدَامُ

إلى آخر القصيدة . قال : فمن قائلها ؟ قال : أبو دُوَادٍ الْإِيَادِيّ ، قال : ثم
 من ؟ قال : والله لحسبك بى رهبة أو رغبة ؛ أنا إذا رفعت إحدى رجلتي على
 الأخرى ، وعويت فى إثر القوافي كما يعوى الفصيل الصادى إثر أمّه ؛ قال :

(١) ديوانه ٥٠ .

(٢) الميداني ٢ : ١٩ ، ومجمره الأمثال ١ : ٧٦ .

[من أنت؟ قال:] ^(١) الحُطَيْثَةُ ، قال: حَيَّاكَ اللهُ يَا بَامَلِيكَه ، أَلَا أَعْلَمْتُنَا بِمَكَانِكَ ، ولم تحملنا على الجهل بك ، فنضيع حَقَّكَ ونبخسك قسْطَكَ ! وأدناه ووصله ^(٢) .
وقال الشاعر :

يا باري القوس برّيا ليس يُحْسِنُهُ لا تظلم القوس واعط القوسَ باريها
ريث : مقدار وبطء . استجَمَّ : استكثر . قريحته : طبيعته ، والقريحة في الأصل أوّل ماء البئر النابع ، واستجَمَّها : تركها حتى تسكّر . استنزل : دَرَّها وهو لبنها . واللَّقْحَة : الناقة ذات اللبن ؛ يريد: أقام قليلا يفكر ويختار ما يقول : ومثل هذه الحالة ذكرُوا أن صديقا لكثوم العتّابي أتاه يوما ، فقال له : اصنع لي رسالة ، فاستبدّ مُدَّةً ، ثم علّق القلم ، فقال له صاحبه : ما أرى بلاغتك إلّا شاردةً عنك ، فقال له العتّابي : إني لما تناولتُ القلم تداعت على المعاني من كلّ جهة ، فأحببت أن أترك كلّ معنى حتى يرجع إلى موضعه ، وهذا مثل قول امرئ القيس - ويقال إنه قالها وهو ابن عشر سنين :

أذودُ القوافي عني ذبادا ذباد غلام غوى جوادا ^(٣)
فلما كثرت وعينيه تخير منها جوادا جبادا
فأعزل مرجانها جانبنا وآخذ من دُرّها المستجادا
وقال عريف القوافي ^(٤) :

أبيتُ بأبواب القوافي كأنما أصادى بها سربا من الوحش نزعا
عواصي إلا ما جعلت وراءها عصا مرّ بدّ تغشى وجوها وأذرها
إذا خفت أن تُروى على رددتها وراء التراقي خشية أن تطلعا

(٢) الأغاني ٢ : ١٦٧ ، مع تصرف واختصار .

(١) من الأغاني

(٣) ديوانه ٢٤٨ .

(٤) كذا ذكر المؤلف ، والأبيات في الشعر والشعراء ٦١٦ ، ٢٣ ، والبيان والتبيين ١٢ : ٢

والأغاني ١١ : ١٢٣ منسوبة لسويد بن كراع .

أُصَادِي : أَدَارِي ، وجعل القوافي تفتح عليه كالإبل ، وهو يضربها بعصاه حتى يختار جياها .

[فصل في الدواة والمداد والقلم]

قوله « أَلِئِنْ » ، أى اجعل فيها ليفة ، تقول : لَئِئْتِ الدواة فهى مَلِيقَةٌ ، وأَلِئْتَهَا فهى مُلَاقَةٌ ، وجمع الليفة لَيْقٌ . ويقال للصوفة قبل أن تُبَلَّ بالمداد : البُوهة والموارة ، فإذا بَلَّتْ بالمداد سُمِّيت ليفة ، وقد يقال لها : ليفة قبل أن تُبَلَّ ، سميت بما تتول إليه ، كما قيل للكباش : ذبيح ، وللصيد : رمية ، فإن كانت قطنه فهى العُطْبَة والكُرسفة ، وكُرسفت الدواة كُرسفةً ، والقطن كله يقال له : العُطْبُ والكُرسف .

ويقال للمداد : نَقَسَ ونَقَسَ ، والكسر أفصح ، وقيل : الفتح مصدر نَقَسْتَهَا ، جعلت فيها نَقَسًا ، والخبر من المداد بالكسر لا غير ، والخبر بالفتح والكسر : العالم . وقال بعضهم : سَمِيَ المداد حَبْرًا باسم العالم ، كأنهم أرادوا مداد حَبْرٍ ، فخذفوا ، ولو كان ما قالوه صحيحًا لقالوا للمداد : حَبْرٌ بالفتح ، والأشبه أن يسمَى حَبْرًا لأنه يحسِّن الكتابة ، من قولهم : حَبَرْتُ الشئ إذا حَسَّنْتَهُ . ويقال للجَمَال : حَبْرٌ وَسَبْرٌ ، فمداد حَبْرٍ ، كقولك مداد زينة وجمال ، أو يكون من الحَبَر والحُبَار ، وهو الأثر ، فيسمى بذلك لتأثيره فى الكتاب . ويقال : مددت الدواة أمدتها مدًا ، إذا جعلت فيها مِدَادًا ، فإن كان فيها مداد فزدت عليه قلت : أمددتها ، فإذا أمرته أن يأخذ من المداد بالقلم قلت : استمدد ، فإن سألتُهُ أن يعطيك على القلم مِدَادًا ، قلت : أمددلى من دواتك ، واستمددته أنا ؛ سألتُهُ أن يمدنى . وقال الخليل : مُدِّنِي وأمدننى : أعطنى من مداد دواتك ، وكل شئ زاد فى شئ فهو مداد له ، وأمهت الدواة وموتها ؛ إذا جعلت فيها ماء ، والأمر من ذلك كله أمة وموتة دواتك .

واشتقاق الدواة من الدَّوَاء ، لأنَّ بها إصلاح أمر الكتاب ، وبعض الشعراء اشتقها من دَوَى الرجل يدوى دَوِيًا ، إذا صار فى جوفه الداء ، قال : (١٦ - شرح مقامات الحريري)

أما الدواء فأدوى حمها جسدی وحرّف الخطّ تحريفً من القلم^(١)
 ووزنها «فَعْلَة» تحرّكت الياء وقبها فتحة ، فقلبت ألفاً ، وتجمع دَوَيَات ؛
 كقناة وقنّوات ، ودَوَى كقناة وقنّا . ويقال : أدويت فأنّا مدو : اتخذت
 دواءً ، ويقال للذي يبيعها : دواء كحياط ، وإذا أمرت من يتخذها قلت : أدو
 دواءً ، ويقال لمن يحميها ويمسكها : دواء ، ويقال لها : الدواء والرقيم والنون .
 ويقال : هو القلم والمزير بالزاي والمذبر من زبرت وذبرت ، أى كتبت ، ومن
 غرقت بينهما قال : زبرت بالزاي ، أى كتبت ، وذبرت ، أى قرأت . وسمى
 قلمًا لأنه قلم ، أى قطع وسوى ، كما يقطع الظفر ، وكلّ عود قطع وحز رأسه وأعلم
 بعلامة نهو قلم ، قال الله تعالى : ﴿ إِذْ يُلْقَوْنَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾^(٢) ،
 وكانت سهامًا فيها أسماؤهم مكتوبة . ويقال للذي يقلم به : مقلم ، وللذي يُبْرِى
 به : مبرى ، ولما سقط عن البرى والتقليم : القلامة والبراية . وقيل لأعرابي :
 ما القلم ؟ فذكر ساعة ، وجعل يقلب أصابعه ، ثم قال : لا أدري ؛ فقيل له :
 توهمه في نفسك ، قال : هو عود قلم من جوانبه كتقليم الأظفار . ويقال
 لمُعْقَدِه : الكعوب ، واحدا كعُب ، ولما بينها الأنايب ، واحدا أنبوب ،
 ويستعملان في الرمح ، وفي كلّ عود فيه عُقد ، والعقدة التى تشينه تسمى
 الأُبْنَةُ وجمعها أُبْنٌ ، فإن كان في العود أو القصبة تأكُل ، قيل فيه : قادح
 ونقد ، ويقال لباطنه : الشحمة ، ولظاهره الليط ، فإن قشرت منه قشرة قلت :
 ليطت من القلم ليطه ، فإن أخذت شحمته بالسكين قيل : شحمته أشحمة ، فإن
 أفرطت في أخذها ، قلت : بطنته تبطينًا فهو مبطن ، وحفرته فهو مخنور ، فإن
 تركت شحمته ، قلت : أشحمته إشحامًا . ويقال لغشائه الذى عليه : الغلاف
 واللحاء والقشر ، فإذا نزعها عنه قيل : قشرته ولحوته وقشوته وسحوته ،

(١) الانتصاب ٨٢ .

(٢) آل عمران ٤٤ .

هو يقال في ثلاثتها بالياء ، ووسقته ونقخته ، مشددان . ويقال لطرفيه اللذين يكتب بهما : السَّتان والشَّعيرتان ، واحدهما سنّ وشعيرة ، فإذا قطع طرفه وهيئ للكتابة قيل : فططته أقطه فطاً ، وصمته أنصمه قصماً ، والمقط بالكسر : ما يقط عليه ، وبالفتح الموضع الذي يقط من رأسه ، فإن جعلت إحدى سنّيه أطول من الأخرى قلت : قلم محرف ، وقد حرفته تحريفاً ، فإن سويتهما قلت : قلم مبسوط ، فإن سمع له صوت عند الكتابة ، فذلك الصريف والصرير والرشيق ويقال للقصب : البراع والأباه ، الواحد يراعة وأباه ، وقيل : الأباه أطراف القلم ، أى القصب ، ويقال للقطن الذي يوجد في بطنها : البَيْلَمُ والقيصف والقيسع ، واحده بَيْلَمَةٌ وقيصفة وقيسعة ، فإن كان في القصب تأكل قيل فيه : قادح ونقد ، وكذلك العود والسنّ والقرن ، فإن كان فيها عوج فذلك الدرّ^(١) .

قوله : «خذأداتك» ، أى قلمك . وقال ابن طاهر لكاتب له : ألق دواتك ، وأطل سنّ قلمك ، وفرق بين السطور ، وتوسط بين الحروف . وقال ابن عبد ربه : ينبغي للكاتب أن يصلح آلتة التي لا بدّ له منها ، وأداته التي لا تتمّ صناعته إلا بها ، وهى دواته ، فلينعم ربّها بإصلاحها ، ثم ليختر من أنابيب القصب أفضلها عُقْداً ، وأكثفها لحماً ، وأصلبها قشراً ، وأعدّها استواءً ، ويجعل لقرطاسه سكيناً حاداً ليكون عوناً له على برّى أعلامه ، ويبريها من ناحية نبات القصب .

واعلم أن محلّ التلم من الكاتب محلّ الرمح من الفارس ، نظم أحد الشعراء فقال :

يُمسِكُ الفارسُ رُمحاً بيدٍ وأنا أمسك فيها قَصَبَةً
فكلانا فارسٌ في شأنٍ إنما الأفلامُ رُمُحُ الكُتَبَةِ

(١) نظر المؤلف في هذا النصل إلى ما أورده ابن السيد البطليوسي في كتاب الاقتضاب هي شرح أدب الكتاب لابن قتيبة ص ٨٢ - ٨٧ مع تصرف واختصار .

وقال أبو الفتح البُستي :

إن هزَّ أَقلامه يوماً لِيُعْمِلَها أنساكَ كلَّ كَعْبِي هزَّ عامِلَه^(١)
وإن أقرَّ على رَقٍّ أناملَه أقرَّ بالرَّقِّ كَتَّابُ الأَنام لَه

رأى جعفر بن يحيى خطأ فاستحسنه ، فقال : الخطَّ خِيَطَ الحكمة ، يُنظَم فيه منشورها ، وتُنصَل فيه شذورها .

ومن كتاب جعفر بن يحيى إلى محمد بن الليث : أما بعد ، فليكن قَلَمُكَ محرِّقاً ، لامتيناً ولا رقيقاً ، ضيقَ القلب . فأبرِه برياً مستويّاً كمنقار الحمامة ، أعطفَ بطنه ، ورققَ شغرتيه ، وليكن قِرطاسك رقيقاً مستويّ النَّسج ، مخرَج السَّحاة^(٢) ، مستويّاً من أحد الطرفين إلى آخره ، فليست تستقيم السَّطور إلا فيما كان كذلك ، وليكن أ كثر مَطَك في أطراف القِرطاس الذي فيه يسارك ، وأقله في الوسط ، ولا تَمَطَّ في الطرف الآخر ، والمَطَّ نصف الخطِّ ، ولا يقوى عليه إلا العاقل .

قال العتّابي : سألتُ الأصمعيّ في دار الرشيد : أيّ الأنايب للكتابة أصْلَح ، وعليها أصْبَر ؟ فقلت له : ما نَشِفَ بالهجير ماؤه ، وستره من تلويحه غشاؤه ، من الدَّرية الظهور ، النيرة القشور ، الفِضِّيّة الكسور ؛ قال : فأى نوع من البرى أصوب وأكتب ؟ فقلت له : البرية المستوية القِطعة ، التي عن يمين سنّها قُرنة^(٣) ، تأمن معها المجّة عند المدّة والمِطّة ، للهواء في شِقِّها صفيق^(٤) ، وللريح في جوفها خريق ، والمُداد في خرطومها رقيق . قال العتّابي : فبقي الأصمعيّ شاخصاً إلىّ لا يَجِيرُ جواباً^(٥) .

(٢) السحاة : القشرة .

(١) ينمية الدهر ٤ : ٢٩١

(٤) المقد : « فيتق »

(٣) القرنة : الطرف المائل من كل شيء

(٥) المقد ٤ : ١٧٣

وقال الحسن بن وهب : يحتاج الكاتب إلى خلال : جودة برّى القلم ، وإطالة جلفته ، وتحريف قَطّته ، وحسن التأقّي لامتطاء الأنامل ، وإرسال المدّة بعد إشباع الحروف ، واستواء الرسوم ، وحلاوة المقاطع .
وقال بعض الكتّاب : عَطَّرُوا دِفَاتِرَكُمْ بِجَيِّدِ الْخَبْرِ ، فَإِنَّ الْكُتُبَ غَوَانٍ وَالْخَبْرَ غَوَالِرَ .

وقال بعض الكتّاب أيضاً :

وما رَوْضُ الرَّبِيعِ وَقَدْ زَهَاها نَدَى الْأَسْحَارِ بِأَرْجٍ بِالْعَدَاةِ
بِأَضْوَعٍ أَوْ بِأَسْطَعٍ مِنْ نَسِيمِ تَوْدِيهِ الْأَفَاوِهُ مِنْ دَوَاةِ
كَأَنَّ هَذَا مِنْ قَوْلِ الْآخَرِ :

دَعَى فِي الْكِتَابَةِ لَيْسَ مِنْهَا لَهُ فِكْرٌ يُعَدُّ وَلَا بَدِيهٌ^(١)
كَأَنَّ دَوَاتِهِ مِنْ رِيْقٍ فِيهِ تُلَاقُ ، فَرِيْحُهَا أَبَدًا كَرِيهٌ

ونظر جعفر بن محمد إلى فتى على ثيابه أثر مداد ، وهو يستره ، فقال له :

لَا تَجْزَعَنَّ مِنَ الْمِدَادِ فَإِنَّهُ عَطَّرَ الرِّجَالَ وَحَلِيَةَ الْكِتَابِ
وَلِبَعْضِهِمْ يَهْجُو كَاتِبًا :

حَارٌّ فِي الْكِتَابَةِ يَدْعِيهَا كَدَعَوَى آلِ حَرْبٍ فِي زِيَادِ
فَدَعُ عَنْكَ الْكِتَابَةَ لَسْتَ مِنْهَا وَلَوْ لَطَخْتَ نَفْسَكَ بِالْمِدَادِ

وقال كُشَاجِمُ لُورَاقٍ يَدْعَى الْكِتَابَةَ :

وَزَعَمْتَ أَنَّكَ فِي الْكِتَابَةِ مَدْرُكٌ شَاوِيٌّ ، قُلْتَ : رَمَاحُنَا أَقْلَامٌ^(٢)
هِيَاتَ تِلْكَ صِنَاعَةُ مَمْزُوجَةٍ فِيهَا ضِيَاءٌ وَاضِحٌ وَظُلَامٌ

(١) أدب الكتاب للصولي ١٠١

(٢) ديوانه ١٦٠ وفيه : « يربق دما »

هذا الحديد سلاح أبطال الوغى وبه يَنسَج دماءنا الحِجَامُ
وقال أبو العيناء : كنتُ عند إبراهيم بن العباس ، وهو يكتب كتاباً ،
فنقطت من القلم نقطة مفسدة ، فسحها بكمه ؛ فتمجّبت ، فقال : لا تعجّب ،
المال فرع والقلم أصل ، والأصل أحوج إلى المراجعة من الفرع ، وبهذا السواد
جاءت هذه الثياب ، ثم أطرق قليلاً وقال :

إذا ما الفِكرُ وَلَدَ حسن لفظٍ وأسلمهُ الوجودُ إلى المِيانِ
ووشاه فتمنمه جوادٌ فصيحٌ في المقالِ بلا لسانِ
تري حُلَّ البَيانِ منشراتٍ تجلّي بينها صور المعاني
وكتب سليمان بن وهب بقلم صلب ، فاعتمد عليه اعتماداً شديداً ، فصرّ
القلم في يده ، فأنشد :

إذا ما التقينا وانتضينا صوارماً يكاد يُصمّ السامعين صريرُها
تساقط في القِرطاس منها بدائعٌ كمثل اللآلى نظمها ونثيرُها
تقود أبيات البيان بفطنةٍ تكشف عن وجه البلاغة نورُها
تظل المنايا والعطايا شوارعاً تدور بما شئنا وتمضى أمورُها
إذا ما خطوب الدهر أرخت ستورها تجلّت بنا عما يسرّ ستورها
وأتى رجل وكيعاً ، فقال : رجل يمت إليك بحرمة ! فقال له : وما حرمتك ؟
قال له : كنت تكتب بحبر قى عند الأعمش . فوثب وكيع إلى منزله ، ثم
أخرج منه دنانير لنفقته .، وقال له : اعذرني فما أملك غيرها ، ودعها إليه .

وقال أبو الحسن بن لبّال في محبرة آبنوس :

وخديمة للعلم في أحشائها كلفَ بجمع حلاله وحرامه
ليست رداء اللّيل ثم توشّحت بنجومه وتتوجّت بهلاله

وحدثني عن شيخني النقيه أبي عبدالله بن زرقون ابنه الفقيه أبو الحسين ،
قال : حدثني أبي أنه كان بسببته أيام الشيبية والطلب ، في مجلس جمع من طلبة
الأدب ، فتعرض لهم رجل بمحبرة صنعها ، وأراد أن يقصدها الوالي على حسنها ،
وكانت محبرة آبنوس بحلية صفراء مذهبة ، فأطرقوا يروون ، فبادرهم أبو الطالب
ابن أبي ركب فقال :

جاءتك من غررِ العلا زنجيةٌ في حلةٍ من حليةٍ تنبخرُ
سوداء صفراء الحلي كأنها ليل تطرزه نجوم تزهُرُ

فاستحسنهما من حضر ، ورأوا أنه قد أربى على الغاية فيما عنه صدر ،
فكتبنا للرجل في رقعة ، فبعد ما سار بها قليلا ، رجع فأبرز منها قلم صُفْرَ مذهباً ،
ورغب أن يضمّن ذكره في منظوم يضاف إلى البيتين ، فأطرقوا يروون في ذلك ،
فبادرهم أبو طالب المذكور فقال :

كملت بأصفرَ من نجارِ حليّتها تحفيه أحياناً ، وحيناً يظهرُ
خرسان إلا حينَ يرضع نديها فتراه ينطق ما يشاء ويذكرُ
وقال آخر يصف دواة وأقلاماً :

قد بعثنا إليك أمّ العطايا والمنايا زجاجة الأُحْسابِ
في حشاها من غير حربٍ حرابٌ وهى أمضى من نافذاتِ الحِرابِ

وأحسن ما قيل في القلم قول حبيب يصف قلم محمد بن عبد الملك الزيات :
لَكَ القلمُ الأعلى الَّذي بسنانه نُصاب من المرء الكلى والمفاصل^(١)
له الجَلوات اللاء لولا نجيتها كما احتفلت للمالك تلك الحافِلُ
لُعاب الأفاعي القاتلات لعابه وأرى الجني اشتارته أيدٍ عواسيل^(٢)

(١) ديوانه ٢٥٧ ، وشبابة القلم : حده .

(٢) الأرى : العسل .

له ديمةٌ طُلٌّ ، وَلَكِنَّ وَقَعَهَا بَأَثَارِهِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ وَابِلٌ^(١)
فَصِيحٌ إِنْ اسْتَنْطَقَتْهُ وَهُوَ رَاكِبٌ وَأَعْجَمُ إِنْ خَاطَبَتْهُ وَهُوَ رَاجِلٌ
إِذَا مَا امْتَطَى الْخِمْسَ اللَّطَافَ وَأَفْرَغَتْ

عَلَيْهِ شِعَابُ الْفِكْرِ وَهِيَ حَوَائِلُ
أَطَاعَتْهُ أَطْرَافُ الْقَنَا وَتَقَوَّصَتْ لِنَجْوَاهُ تَقْوِيضَ الْخِيَامِ الْجَحَافِلُ
إِذَا اسْتَفْزَرَ الذَّهْنَ الذَّكِيَّ وَأَقْبَلَتْ أَعَالِيهِ فِي الْقِرْطَاسِ وَهِيَ أَسَافِلُ
وَقَدِ رَفَدَتْهُ الْخِنْصِرَانِ وَسَدَّدَتْ ثَلَاثَ نَوَاحِيهِ الثَّلَاثُ الْأَنَامِلُ
رَأَيْتَ جَلِيلًا شَأْنُهُ وَهُوَ مَرَهْفٌ ضَنْئِي ، وَسَمِينًا خَطْبُهُ وَهُوَ نَاحِلُ
وَقَالَ أَبُو الْفَتْحِ الْبُسْتِيُّ :

إِذَا أَقْسَمَ الْأَبْطَالُ يَوْمًا بِسَيْفِهِمْ وَعَدَوْهُ مِمَّا يَكْسِبُ الْمَجْدَ وَالْكَرَمَ^(٢)
كَفَى قَلَمِ الْكِتَابِ مَجْدًا وَرَفْعَةً مَدَى الدَّهْرِ أَنَّ اللَّهَ أَقْسَمَ بِالْأَلَمِ
وَقَالَ الْبَحْتَرِيُّ :

تَعْنُو لَهُ وَزُرَّاءُ الْمُلُوكِ خَاضِعَةً وَعَادَةُ السَّيْفِ أَنْ يَسْتَخْدِمَ الْقَلَمَ^(٣)
وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ التَّنُوخِيُّ :

إِنْ يَخْدُمُ الْقَلَمُ السَّيْفَ الَّذِي خَضَعَتْ

لَهُ الرِّقَابُ وَدَانَتْ خَوْفَهُ الْأَمَمُ
فَالْمَوْتُ وَالْمَوْتُ لَا شَيْءَ يَقَابِلُهُ مَا زَالَ يَتَّبِعُ مَا يَجْرِي بِهِ الْقَلَمُ
بِذَا قَضَى اللَّهُ لِلْأَقْلَامِ مُذْبِرَتُ أَنَّ السُّيُوفَ لَهَا مَذْأَرُهُفَتْ خَدَمُ

(١) الطال : المطر القليل ، والوابل : المطر الكثير .

(٢) ديوانه ٢٠٤٨

(٣) الفرائد ٢٢

وناقضه أبو الطيب المتنبي فقال :

حتى رجعتُ وأقلامي قوائِلُ على : الحمد للسيف ليس الحمد للقلم^(١)
اكتب بنا أبداً بعد الكتاب به فإنما نحن للأسياف كالخدم

وقال الصولي : فاخر صاحب سيف صاحب قلم ، فقال صاحب القلم : أنا أكتب
بلا غرر ، وأنت تقتل على خطر ، فقال صاحب السيف : القلم خادم السيف إن تم
مداده ، وإلا فإلى السيف معاده .

قال الصولي : وقال بعض اليونانيين : الدين والدنيا تحت شيتين : سيف
وقلم ، والسيف تحت القلم .

وفي ذلك يقول جرير النعمري :

أتحيرني ولست لذاك أهلاً وتُدني الأصغر من الخوان
جهاذة وكتابٌ وليسوا بفرسان الكتبة والطعان
ستذكرني وتعرفني إذا ما تلاقي الحلقتان من البطان
وقال كشاجم :

هنيئاً لأصحاب السيوف بطالة تقضى بها أيامهم في التعم
وكم فيهم من دائم الأمر لم يرغ بحرب ولم ينهد لقرن مصمم
وكل ذوى الأقلام في كل ساعة سيوفهم ليست تحف من الدم
وقال آخر :

قوم إذا أخذوا الأقلام من قصب ثم استمدوا بها ماء المنيات
نالوا بها من أعاديبهم وإن بعدوا

مألاً ينال بحمة المشرقيات

وقال البحتري يصف كلام الحسن بن وهب وأقلامه :

(١) ديوانه ٤ : ١٥٩ ، ١٦٠ .

وإذا تألق في العيون كلامه أ
مَحْمُودُ خِلْتُ لسانه من عَضْبِهِ^(١)
وإذا دجت أقلامه ثم انتجت
برقت مصاييح الدجى في كُتْبِهِ
فاللفظ يقرب فهمه في بُعْدِهِ
منا ، ويبعد نيله من قُرْبِهِ
حِكْمٌ ، فساخها خلال بنائه
متدفق ، وقلبيها في قلبه
فكأنها والاعم معقود لها
شخص الحبيب بدا لعين مُحِبِّهِ
وقال على بن الجهم في رقعة جاءت بخط جارية :

ما رقعة جاءتك مثنيةً كأنها خدٌّ على خدٍّ^(٢)
نَبَذُ سوادٍ في بياضٍ كما^(٣) دُرٌّ فتيتُ المسك في الورد
ساهمة الأسطر مصروفة
عن وجهة الهزل إلى الجسد
يا كاتباً أسامني عتبُهُ إليه ، حسبي منك ما عندي
وقال البحرى في ابن الزيات :

قد تَصَرَّفَتْ في الكتابة حتى عطَّلَ الناسُ ذكرَ عَبْدِ الحَمِيدِ^(٤)
في نظامٍ من البلاغة ما شكَّ أمرؤ أنه نظامٌ فريد
وبديع كأنه الزهر الضا حك في رونق الربيع الجديد
ما أعيرت منه بطون القرايد س وما حملت ظهور البريد
حُزنٌ مستعمل الكلام اختياراً وتجنُّباً ظلمة التغميد
كالغدارى غدون في الحلال الصفة ر إذا رُحْن في الخطوب السود
قال المأمون لمحمد بن داود : إن شاركناك في اللفظ فقد تاركناك في الخط ،
فقال : يا أمير المؤمنين ، إن من أعظم آيات النبي صلى الله عليه وسلم أنه أَدَّى
عن الله تعالى رسالته ، وحفظ وحيه ، وهو أُمِّي لا يعرف من فنون الخط فناً ،

(٢) ديوانه ٩٢

(٤) ديوانه ٦٣٦ .

(١) ديوانه ١٦٤

(٣) النبذ : الشيء القليل .

ولا يقرأ من حروفها حرفاً ، وبقي عمود ذلك في أهله ، نهم يشرفون بالشرف الكريم في نقص الخط ، كما يشرف غيرهم بزيادته ، وإن أمير المؤمنين أخص الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والوارث لموضعه ، والمتقلد لنهيه ولأمره ، فتعلقت به المشابهة الجائلة ، وتناهت إليه الفضيلة . فقال للمأمون : يا محمد ، لقد تركتني لا آسى على الكتابة ولو كنت أمياً .

قد ذكرنا من آلات الكتابة ثراً ونظماً ما فيه كناية وفي السادسة والعشرين من النظم في أوصاف الكتاب ما يستحسن وينتظم بما أوردنا هنا . وإنما أخرج الحريري رسالته الخيالية من هذه الأوصاف المنظومة في الرسائل التي قدّمناها آنفاً لما ذكره من أن جميع الكتاب قطب لإنشائها وتاب ، لما فيها من لزوم تظ لفظة وترك أخرى ؛ وهي على ما بها من التكلف ، راثقة المعاني ، أنيقة المباني ، ولو غيره تعادها لأظلمت معانيها ، وتداعت مبانيها ، فله هو ! لقد كان منقاداً له صعب الكلام بأيسر مرام ! وما هو في محاولة البلاغة إلا كما قال حبيب في سليمان بن وهب :

سُرُحُ نطقه إذا ما استمرت عقدة العي في لسان الخطيب ^(١)
ومصيب شواكل الأمر فيه مشكلات مملكت لب اللبيب
لامعني بكل شيء ولا كل عجيب في عينه بعجيب

الكرم - ثَبَّتَ اللهُ جَيْشَ سُودِك - يَزِينُ ، وَاللُّؤْمُ - غَضُّ الدَّهْرِ
جَفَنَ حَسُودِك يَشِينُ ، وَالْأَرْوَعُ يَشِيبُ ، وَالْمَعُورُ يَخِيبُ ، وَالْحَلَّاحِلُ
يُضِيفُ ، وَالْمَاحِلُ يُخِيفُ ، وَالسَّمْعُ يُغْذِي ، وَالْمَحْكُ يُقْذِي ، وَالْعَطَاءُ
يُنْجِي ، وَالْمِطَالُ يُشْجِي ، وَالذُّعَاءُ يَقِي ، وَالْمَذْحُ يُنْقِي ، وَالْحَرْثُ يَجْزِي

(١) ديوانه ٣٧ . وفي فيه : « سرح قوله » .

والإلطاء يُخزى، وإطراح ذى الحُرمة غي، ومحرمة بني الآمال بغي،
وما ضن إلا غبن، ولا غبن إلا ضنين، ولا خزن إلا شقي، ولا
قبض راحه تقي. وما فتى وعدك يني، وآراؤك تشني، وهلاكك
يضي، وحلمك ينفضي، وآلاؤك تُغني، وأعداؤك تُثني، وحسامك
يُفني، وسوددك ييني، ومواصلك يجتني، ومادحك يقتني، رسماحك
يُغيث، وسماؤك تغيث، ودركك يفيض، وردك يفيض، ومؤملاك
شيخ حكا في، ولم يبق له شيء. أمك بطن حرصه يلب، ومدحك
بنخب مهورها تجب، ومرامه يخف، وأواصره أشف، وإطراؤه
يجتذب، وملامه يجتذب، ووراءه صفف، مسهم شطف، وحصهم
جنف، وعمهم قشف، وهو في دمع يجيب، ووله يذيب، وقم
تضيّف، وكمد نيّف، لما مول خيب، وإهمال شيب، وعدو نيب،
وهذو تغيّب، ولم يرغ وده فيفضب، ولا خبث عوده فيقضب،
ولا نفت صدره، فينفض، ولا نشز وصله فيبفض، وما يقتضي
كرمك تبذ حرمه؛ فيفيض أمله، بتخفيف أمله، ينث حمدك بين
عاليه. بقيت لإمالة شجب، وإعطاء نشب، ومدأوة شجن، ومراعاة
يفن، موصولا بخفض، وسرور غض، ما غشي ممد غني، أو خشي
وَمَغْنِي، والسلام.

* * *

قوله : «غَضَّ الدهر جفن حسودك» ، يقال : غَضَّ جَفْنَهُ ، أى سَدَّ عَيْنِيهِ ، دعاء عليه بالعمى ، يقول : الكرم يزيّن صاحبه . واللؤم — وهو البخل — يَشِينُهُ وَيَعْمِيهِ ، ثم دعاه بدوام السَّعد وثبوته ، وبعمى عين الحسود حتى لا يبصر ما أُعْطِيَ الممدوح من النِّعم ، فيأخذها بالعين . الأروع : السيد الكريم ، وهو الذى قصِدَ ، وقيل : الأروع الحديد النفس ، وقيل : الذى يروءُكَ بجماله . يُثِيبُ : يُجَازِي قاصده . والمُعَوِّر : البادى العَوْرَة ، وهو الفارس يظهر فى طعنه خلل ، وأراد به الناقص الخلق الكثير السفاهة ، ومن جملة عيوبه البخل حتى يخبى قاصده ، لأنه قابِلٌ به الأروع ، وهو التامّ الجسيم ، الجهر الصوت ، قال الشاعر :

يوأخى لثيمُ النَّاسِ كُلِّ مَلَأَمٍ وينطق بالعوراء مَنْ كَانَ مُعَوِّرًا

الحلال : السيّد الذى يحلّ به الناس كثيراً . يُضَيِّفُ : يُنْزِلُ الأضياف ويكرمهم . والمآحل : البخیل ، شَبَّهَ بالبلد المآحل ، وهو الجَدْبُ ، فكأنَّ المآحل الذى لا يوجد عنده خير ، يقال : أمحل البلد ، وبلد مآحل وذو محل ، مثل لابن وتامر ، والمآحل النِّمَامُ ، يقال : محلّ به إلى السلطان إذا وشى به ، وهو الذى يُخَيِّفُ على الحقيقة ، والمآحل أيضاً : الخاصم ، وقد مآحلته ومآحلنى . يُغْدِي : يُطْعِمُ . والحِكُّ : اللُّجُوج ، وهو مقابل السَّمْح الخلق . يُغْدِي : يجعل فى العين قَدْىً ، أى يضرّ قاصده ويؤلمه . يُنَجِّى : يخلص صاحبه من الذمّ ، وتقدّم المطال . يُنْقِي : يفصل العيب . والإلطاط : الامتناع من فعل الخير ، ويقال : لَطَّ وألَطَّ ، إذا ذهب ، واطَّ الشئ وألَطَّ ، إذا ستره . يُخْزِي : يهين . اطرّاح : ترك . ذى الحرمة ، أى صاحبها ، والحرمة ما لا يحلّ تركه لـ — — — — — قصدك فقد دخل فى حرمك ، فتركه ليس من الروءة . غَيَّ : فساد وضلال . تحرمة : منع . بنى الآمال : أهل الرجل الذين يرجون خيره ويأملونه . بَغَى : ظَلَمَ . ضَنَّ : بخل . غَبِين : مخدوع فى رأيه . ضنين : بخيل ، يقول : ما يَضَنُّ بماله من هو سديد

النظر ولا المصيب الرأى إنما يخل به مَنْ هَرَفَ فاسد النظر مغبون فى رأيه .
 خزن : حبس ماله : قبض راحه : ضمَّ كفه على ما فيها ، وهذه كناية عن المنع والبخل .
 والتقى : الذى بقى نفسه من العذاب بعماله الصالح ، من وقى نفسه أقيها ،
 واختلف فى وزنه فقيل « فعول » وأصلها « وقوى » ، فأبدلوا من الواو تاء لقرب
 مخرجيهما ، ومن الواو الثانية ياء وأدغموها فى الياء ، وكسروا القاف لتصحح
 الياء ، والاختيار أن يكون وزنه « فعيلاً » وأصله « تقى » ، فأدغموا الياء فى الياء ،
 ولدليل على صحته جمعهم له على اتقياء ، كولى وأولياء ، ومن قال : إنه
 « فعول » قال : لما أشبه « فعيلاً » بجمع جمعه .

قوله : « ما فتى » ، أى مازال . بنى : يصدق ويكون وثياً . آراؤك : جمع رأى .
 تشفى : تزيل الهم عن قلب ولّيك ، وتبرى مرض قاصدك من فقره ، يصفه بخودة
 الرأى وحسن النظر فيما يصلح به أحوال أصحابه وقصاده . هلاك يضى :
 يصفه بطلاقة الوجه وإضاءته عند السؤال ، قال زهير :

تراه إذا ما جثته متملاً كأنك تعطيه الذى أنت سائله^(١)
 وكما قال أبو بكر فى الطلاقة :

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

خلافاً لسيء الخلق الذى يقطب وجهه عند اللقاء ، واللثيم الذى إذا سئل
 انزوى وتقبض .

بغضى : يسمح . آلاؤك : نعمك . أعداؤك ثنى : يقول لكثرة المادحين
 لك والناشرين لفصلك ، لم يمكن أعداؤك وحسادك ذمك لتكذيب الناس
 إياهم ، فصاروا يثنون عليك مع من يثنى ؛ ويحكى أن أعرابياً استضاف حاتماً ،

فلم يُنزلهُ ، فبات جائعاً مقروراً ، فلما كان في السَّحر ركب راحلته ، وانصرف ، فتقدّمه حاتم ، فلما خرج من بين البيوت لقيه متنكراً ، فقال له : من كان أبا مثواك البارحة ؟ قال : حاتم ، قال : فكيف كان مبيتك عنده ؟ قال : خير مبيت ، نحر لي ناقةً فأطعمني لحماً عبيطاً ، وأسقاني الخمر ، وعلف راحلتي ، وسرت من عنده بخير حال . فقال له : أنا حاتم ، والله لا تبرحُ حق تری ما وصفت ، فردّه وقال له : ما حملك على الكذب ؟ فقال له الأعرابي : إنّ الناس كلّهم يثنون عليك بالجود ، ولو ذكرت شرّاً كنت أ كذب ، فرجعت مضطراً إلى قولهم ، إبقاء على نفسي لا عليك . وقد تقدّم قول البحرى في هذا المعنى :

أأشكو نذاه بعد ما وسع الوَرَى وَمَنْ ذا يذمُّ الغَيْثَ إِلَّا مُدَمِّمٌ^(١) !
وقال حبيب :

فإن أنا لم يمدحك عني صاغراً عدوك فاعلم أنني غير حامدٍ^(٢)
بسبابة تنساق من غير سائقٍ وتنقاد في الآفاق من غير قائدٍ
أفادت صديقاً من عدوّ وصيرت^(٣) أقاربَ دنیا من رجالٍ أباعدٍ
ومخلفة لما تردّ أذن سامع فتصدر إلا عن يمين وشاهدٍ

وهذه القصيدة من كلامه يمدح بها محمد بن الهيثم ، يقول : يسمع عدوك إطنابي في مدحك فيمدحك صاغراً ، فكيف وليك ! فأمدحك بقصيدة تقطع الأرض ، ليست بإبل تُساق ، ولا بخيل تنقاد ، فتردّ العدو صديقاً ، والبعيد قريباً ، ولا

(١) ديوانه ١٩٨٠

(٢) ديوانه ١١٩ ، ١٢٠

(٣) ط : « وعاودت »

يسمعها أحد إلا ويحلف أنه لم يسمع مثلها ، فيشهد له بالصدق .

قوله : « وسودك يَبْنِي » ، أى يرفع لك مجداً وشرناً . حسامك يَفْنِي ، أى سيفك يقطع ويفنى أعداءك . مواصلك يَجْتَنِي ، أى مَنْ زارك وواصلك اجتنى نعمتك ومواهبك . يِقْتَنِي ، أى يكتسب . سماؤك تَغِيث ، أى تأتى بالغيث وهو المطر فيستغيث الناس به من الجذب . سماحك يُغِيث ، أى جودك وحسن خلقك يفرّج كُرْب المهموم ، وتقول : غوث الرجل ، أى قال : واغوثاه ، وأغثته أغيثه ، إذا فرّج عنه ما يشتكى منه . درّك يفيض : عطاؤك يشمل ، أى لبُنك يملأ الإِناء ويفيض عليه ، يريد أن عطائه يكثر لساأله . وردّك يفيض ، أى منعك يذهب الرزق ، وغاض الماء : غار فى الأرض ، مؤمّلك : راجيك . والنبي : الظلّ بعد الزوال ، يريد أن عمره قد أدبر ، فشبه نفسه بالنبيء الذاهب . أمّك بظنّ ، أى قصّدك برّاء . وحرصه يُثب ، أى طمعه يتزايد فيجعله فى غاية من القلق . نُحِبّ : مختارة . مهورها : حقوقها ، يقول : مدحك بنخب فى ملئه ، فوجِبَتْ حقوقها لحسنها وجودتها . ومما ينظر إلى هذه المعارضة قول الشاعر :

وخذ حمدى بجودك ، ذا بهذا كلانا اليوم أربحُ صيرفى
لأصبح من نوالك فى رباشٍ وتصبح من مقالى فى حُلّى

وقال آخر :

وحلّة كساها كالخلّى فى التهاية
فاستبطنت مديحاً كالأزى فى نصابه
فراح فى ثيابى ورُختُ فى ثيابه

وقال ابن شهيد في ضيف له :
 وما أنفك معشوق الثواء نمذُهُ يبشر وترحيب وبَسَطَ لِسَانِ (١)
 إلى أن تشهى البين من ذاتِ نفسه وحنَّ إلى الأهلين حنَّةَ حَانِ
 فأتبعته ما سَدَّ خَلَّةَ حالهِ وأتبعني ذكراً بكلِّ مكانِ

قوله : «مرامه يخفّ» ، أى مطلبه يسهل عليك .

أواصره : جمع آصرة وهي صلة الرحم ، والأَصْرُ : الموضع الحابس ، من قولهم :
 أصرت فلاناً على الشيء أصره أصراً ، إذا حبسته عليه وعطفته ، ويقال : ماتأصرني
 على فلان آصرة ، أى ماتحبسني عليه حابسة ، ولا تعطفني عليه عاطفة . ذكره ابن الأنباري .
 وذكر الحريري في الدرّة ، أن اشتقاق أواصر القرابة والعهد من المأصر ،
 بكسر الصاد ، ومعناه الرضع الحابس للمارّ عليه ، فسُمِّيَتْ أواصر ، لأنها
 تعطف على ما يجب رعايته من المودة والرحم . قال : وحكى عبيد الله بن عبد الله
 ابن طاهر ، قال : اجتمع عندنا أبو نصر أحمد بن حاتم وابن الأعرابي فتحدّثا (٢) ،
 فحكى أبو نصر أن أبا الأسود دخل على عبيد الله بن زياد ، وعليه ثياب زنة ،
 فكساه ثياباً جديدة من غير أن يسأله ، أو استكساه ، فخرج وهو يقول :

كساك ولم تستكسه فحِمِدَتْهُ فتى ماجد يعطى الجزيل ويأصِرُ
 وإنَّ أحقَّ الناس إن كنتَ مادحاً بمدحك من أعطاك والعرض وافرُ

فقال ابن الأعرابي : « وناصر » بالنون ، فقال له أبو نصر : دعني يا هذا
 ويأصرى وعليك بناصرك ؛ يريد : « يا صر » يعطف (٣) .

(١) الذخيرة لابن بسام ١ : ٢٦٧

(٢) الدرّة : « فتجادبا الحديث » .

(٣) درة الفواص ٧١

قوله: «تشفّ» ، أى تزيد وتفضل غيرها ، يقول : إن الأسباب التى توجب عطفك وحنانك على كثيرة منها الشيخ^(١) والضعف وكثرة العيال وجودة المدح، والعهود السابقة التى بينى وبينك . إطراؤه يُجذب ، أى مدحه يتجاذبه الناس ويحرصون على تحصيله لجودته ، وأصل الإطراء المدح فى الوجه ، فهو بمشاهدته كأنه مدح طرى ، أو ظهرت عليه طراوة . ملامه يُجتنب : ذمه يخاف ويبعد منه ، فيرشى عليه ، يقول : إن الذى رجاك شيخ مسنٌ فقير قصدك بيتين لأنك من أهل الكرم ، فطامعه لذلك يزيد لما ارتجى من معروفك، وأهدى إليك من مدائحه عرائس وجبت عليك حقوقها ، ومرامه سهل عليك ، ولديك علق تقوم مقام القرابة ، وتزيد على ذلك ، وله مدح يرغب فيه وذم يرهّب منه .

وراءه ضَفّ ، أى خلفه كثرة عيال ، من ضفّ الطعام ضفاً إذا كثرت القوم عليه ، وضمّ العيش اشتدّ . والشظف : سوء الحال . حصّهم : عراهم وتفرّشهم . جنّف : ميل الدهر عليهم . قشّف : بؤس عيش . ينجيب : يساعد . ولّه : همّ وحيرة . يذيب : يُذهب اللحم . تضيّف : نزل به ومال إليه . كمد : حزن قارب الموت . تيف : زاد على المجهود . للممول ، أى المقصود مرجو . إهمال : تضييع وتسييب . نيب : عضّ بأسنانه . وهدوّ تغيب ، أى سكون وأمن زال عنه . يزغ : يمل . نفث صدره ، أى تكلم بشرّ ، ونفث : برّق من داء فى صدره . ومنه المثل : لا بدّ للمصدور أن ينفث . ينفّض ، أى يضرب ويبعد . نشز : ارتفع وزال . يقتضى : يتضمّن ويلزم . نبذ : طرح . حرّمه : جمع حرمة . يبيض أمله ، أى أسعد رجاءه ، ورّده أبيض بعطائك الذى يخفف ألمه ، ويزيل وجعه . ينث : ينشر . عالّه : ناسه وأهل زمانه . بقيت : عشت . وطال بقاؤك . إماطة شجب : إزالة هلاك وتنحيته . نسب : مال . شجن : حزن ، والشجن أيضاً الحاجة . مراعاة : حفظ . يفنّ : شيخ كبير . موصولاً ، أى

(١) الشيخ ، محرّك ، مصدر شاخ يشيخ ، مثل الشيخوخة .

مُتَصَلًّا . بِمُخْنَضٍ : عَيْشٌ هَنِءٌ . غَضٌّ : نَاعِمٌ جَدِيدٌ . غُشِيَّ : قَصِدٌ وَدَخَلَ .
مَعَهْدٌ : مَوْضِعٌ يَعْهَدُ بِهِ جُلُوسُهُ . وَهْمٌ غَبِيٌّ : غَلَطٌ جَاهِلٌ .

* * *

فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ إِمْلَاءِ رِسَالَتِهِ ، وَجَلَّى فِي هَيْجَاءِ الْبَلَاغَةِ عَنْ
بَسَالَتِهِ ، أَرْضَتْهُ الْجَمَاعَةُ فِعْلًا وَقَوْلًا ، وَأَوْسَعَتْهُ حِفَاوَةٌ وَطَوْلًا . ثُمَّ
سُئِلَ مِنْ أَىِّ الشُّعُوبِ نَجَّارُهُ ، وَفِي أَىِّ الشَّعَابِ وَجَارُهُ ،
فَقَالَ :

غَسَّانُ أَسْرَتِي الصِّمِيمَةِ	وَسِرُّوجُ تَرْبِيَةِ الْقَدِيمَةِ
فَالَيْتُ مِثْلُ الشَّمْسِ إِشْدَ	رَاقًا وَمَنْزِلَةَ جَسِيمَةِ
وَالرَّبْعُ كَالْفِرْدَوْسِ مَطْ-	سِيَّةً وَمَنْزَهَةً وَفِيمَةِ
وَاهَا لِعَيْشٍ كَانَ لِي	فِيهَا وَلَدَاتِ عَمِيمَةِ
أَيَّامَ أَسْحَبُ مُطَرِّفِي	فِي رَوْضِهَا مَاضِي الْعَزِيمَةِ
أَخْتَالُ فِي بُرْدِ الشَّبَا	بِ وَأَجْتَلِي النِّعَمَ الْوَسِيمَةِ
لَا أَتَّقِي نُوبَ الزَّمَانِ	بِ وَلَا حَوَادِثَهُ الْمَلِيمَةِ
فَلَوْ أَنَّ كَرْبَا مُتَلِفٌ	لَتَلِفْتُ مِنْ كُرْبِي الْمَقِيمَةِ
أَوْ يُفْتَدَى عَيْشُ مَضَى	لَفَدَّتُهُ مُهْجَتِي الْكَرِيمَةِ
فَالَمُوتُ خَيْرٌ لِلْفَتَى	مِنْ عَيْشِهِ عَيْشِ الْبَهِيمَةِ
تَقَادُهُ رُوءُ الصَّنَا	رَ إِلَى الْعَظِيمَةِ وَالْمُضِيمَةِ

وَيَرَى السَّبَّاعَ تَنَوَّشُهَا أَيْدَى الضَّبَاعِ الْمُسْتَضِيَّةِ
وَالذَّنْبُ لِلْأَيَّامِ لَوْ لَا شَوْمُهَا لَمْ تَنْبُ شَيْئَةً
وَلَوْ اسْتَقَامَتْ كَانَتْ ۖ أحوالُ فِيهَا مُسْتَقِيمَةٌ

قوله : «إملاء رسالته» ، أى إلقاؤها عليه ليكتبها جلى : كشف . الهيجاء : الحرب ، وهى من الهنج وهو الحركة والاضطراب . بسالته : شجاعته . أو سعتة : كثرت له . حفاوة : إكرام . والطَّوْل : الإناعام . الشعوب : القبائل ، واحدها شَعْب ، بفتح الشين وهو الأب الكبير . ثعلب ، الشعب : الأب الأكبر الذى يفتنون إليه والقبيلة دونه . نجاره : أصله . الشَّعَاب : الطرق فى الجبال . وجَّره : جُجره ، أراد بَيْتَهُ ، لأنهم سألوه من أى قبيلة هو ، وعن مسكنه فى أى موضع هو .

قوله : «غسان أسرتى» : أى هذه القبيلة أصلى وقرابتى . الصميمة : العريضة الخالصة . تربى . بلدتى . إشرافاً : ضياء وثقاء من العيب . جسيمة : عظيمة . الفردوس : الجنة ، مُنِمَّتْ بذلك لعرائشها ، والفردوس : المعرَّش من الكرم . مطيبة ، أى سروج مثل الجنة فى طيب الهواء ، وفى نزهتها وحسنها ، وفى قدرها ، وأراد بالبيت غَسَّان ، وبالربع سَروِج ، أو يريد بيته فى غسل فى الشرف كالشمس ، ومنزله فى سَروِج كالجنة فى طيبها ونزهتها ، وقد قال فى أخرى :

مَنْ رَأَاهَا قَالَ مَرْنَى جَنَّةِ الدُّنْيَا سَروِجُ

ومثل قوله فى البيت مثل الشمس ، قول أبى الطَّمَحَانِ القينى :

وإِنِّ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ هُمْ إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ سَيِّدٌ قَامَ صَاحِبُهُ^(١)

(١) الآيات فى المكامل للبيرد ١ : ٤٩

نجوم سماء كلّما غار كوكبٌ بدّا كوكب تأوى إليه كواكبُه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظّم الجزع ثاقبه^(١)
وقال حسان بن ثابت :

بيض الوحوه مضيئة أحسابهم شمّ الأنوف من الطراز الأول^(٢)
وزاد عليه في الإضاءة والإشراق حجّة بن المضرّب فقال :

أضاءت لهم أحسابهم فتضاءلت لنورهم الشمس النيرة والبدرُ
وزاد عليه أبو الطيّب وعلى الناس في علوّ الهمة وتباعد منازلها من منازل
الكواكب ، حيث يقول :

وعزّمة بعثتها همّة زُحَلٌ من تحتهما بمكان التّرب من زُحَلٍ^(٣)
وزُحَل أرفع من الشمس ومن سائر الكواكب منزلةً ، وهذا من غلوّ
المتنبّي الذي يخرج به عن الناس حتى يُعاب ، لأنه لو جعلها مع زُحَل في منزلة
واحدة ، كما جعل الحريري منزلته مع الشمس لكان قد بلغ النهاية ، وزاد على
غيره ، فلم يكتف بذلك حتى جعلها تعلو على زُحَل ، كما يعلو زُحَل على الأرض .
ومن هذا الإفراط في شعره كثير ، وأكثر النقاد يعيبون عليه ؛ وبعد هذا فمعجزاته
في الشعر زاد بها على المتقدّمين والمتأخّرين عند الأكثر فلا يجارى في كثير منها .
وها : تعجباً ، كأنه قال : ما أعجب ما كان عيشي بها ! عميمة : كثيرة .
أسحب مطرّفي : أجرّ ثوبى المعلم في طرفه إعجاباً بنفسى . أختال : أمشى الخيلاء
مكتبراً . برّد الشباب : ثوب الفتوة . أجتلى : أنظر . الوسيمة : الحسان .
والتوب والحوادث : النوازل والمصائب ، كلّها بمعنى واحد ، وهى ما ينوب
بالإنسان ، أو يحدث عليه أو ينزل به ، أو يصيبه من البلاء بعد العافية . المليمّة :

(١) الجزع ، بالفتح ويكسر : الحرز اللّذان .

(٢) ديوانه ٣٠٨

(٣) لم أجده في ديوانه ، كما لم أجده في شعره ابن طالب التنبّي الأندلسي فيما أورده ابن
بسام في الذخيرة وعلى بن سعيد في الغرب .

التي تأتي بما يَلام عليه . كَرَبِي المقيمة : هومي الثابتة . مُهَجَّتِي : نفسي ، وأصلها دم القلب . تقتاده : تسوقه . بُرَّة : حَلَقَة من صُفَر تجعل في وتره أنف البعير ، يذلل بها . الصَّغَار : الذَّلَّة . العظيمة : داهية يُستعظم أمرها . والهضيمة : المحقرة لشأنه عند الناس ، فيريد بالبهيمة البعير الذي يقاد ويذلل بالبرَّة ، وبالعظيمة سؤاله الناس ، وبالهضيمة احتقارهم له إذا سألهم فيردونه خائباً . والسباع هنا : الأسود . تنوشها : تتناولها وتخدشها .

[الضباع وما قيل فيها]

والضباع : جمع ضَبْع ؛ وهو نوع من سباع الأرض ، وهي مضادة في الحِلقة لسبع الأندلس ، لأنها عظيمة الكفَل والفخذين رقيقة الصدر ، وهذا السبع أزل^(١) عظيم الصدر ، والضع عظيم البطن ، ولذلك سمي خضاجر بالجمع ، والخضجر : عظيم البطن . والخضجر : الوطب الكبير من اللبن ، ويشبه به العظيم البطن ، وهي عرجاء مثل هذا السبع ، ويضرب بحمة المثل فيقال : أحق من ضَبْع ، وأحق من أم عامر وهي كنيته . ومن حمها أن الصائد يدخل وجارها فيقول لها : خامري أم عامر ، ومعناه الجئي إلى أقصى مفارِك واستتري ، فتتقبص ، فيقول أم عامر ليست في وجارها ، ثم يقول : أبشري أم عامر بكمر الرجال ، أبشري أم عامر بشاة هزلي ، وجرادة عظلي ، فتمد يديها ورجليها ، فيوثقها ويشد عراقيها بحبال فلا تتحرك ، ولو شئت أن تقتله لأمكنها ، ولا يدخل عليها إلا عرياناً ، وإن دخل ثوب قتلتها ، ثم يخرج لأصحابه بالحبال ، وهم على فم الوجار بأسلحتهم ، فيخرجونها بالجر من قعر الوجار ويقتلونها .

ومن حمها أنها ترك جِراءها إذا خرجت تلتمس ما تأكل ، فتجد جِراء أخرى قد خرجت أيضاً لذلك ، وتركت جِراءها فترضع أولاد غيرها ، وتترك أولادها ، فربما ضاعت جِراؤها فأكلها الذئب^(٢) . وقال الشاعر :

(١) الأزل : الخفيف الوركين .

(٢) جبهة الأمثال ١ : ٤١٦ ، الميداني ١ : ٢٣٨ .

كَمْ رَضْعَةٌ أَوْلَادُ أُخْرَى وَضَيَّعَتْ^١ بنى بطنها ، هذا الضلال عن القصد
قال أبو زيد : والضباع لا تقترب شيئاً إنما تأكل الجيف ، وتنش القبور
عن الموتى ، وربما اجتمعت الجماعة منها على حمار فأكلته ، وليس لها بالنهار
كبير عمل ، قال الهذلي :

تبیت اللیل لا یخفی علیها حمارٌ حیث جُرَّ ولا قتیل^(١)

قوله : « المستضيعة » أي المذلة . والضم : الذل ؛ يضرب المثل لتلاع الزمان
بالناس بالأسود والضباع ، فقال : إن الضباع المحترقة عند الأسود تتناول
الأسود بالضرر ، وكذلك الزمان يرفع الحقير والهجين ويكثر رزقه ، ويضع
الرفيع ويقترب عليه ، ويملك المحنأ والأراذل الخطط الجسام ، ويجرّع النبلاء
والأعيان غصص الخمازي وكثوس الحمام .

* * *

[نبذ في أحوال الدهر]

وهذه أحوال مشاهدة تنسب إلى الدهر لوقوعها فيه ، وقد رها الباري عز وجل
اختبار العباد ، وليبصر العقلاء جريان أحكامه في خلقه ، وأن الكل تحت قهره ،
وأن كل إنسان من أهل الحزم والرأي عاجز عن إدراك ما لم يقدر له ؛ وقال محمد
ابن الفضل :

هانت الدنيا على الله فأعطاها اللئاما
فهم فيها يعيشون نويلحون الكراما

(١) لساعدة بن جؤية الهذلي ، ديوان الهذليين ١ : ٢١٦ .

وقال المعري في معنى بيت الحريري :

وَمَنْ صَحِبَ اللَّيَالِي عِلْمَتُهُ خَدَاعِ الْإِلْفِ وَالْقَبِيلِ الْمُحَالَا^(١)
وغيّرت الخطوب عليه حتى تربه الذرّ يحملن الجبالا

وقال يزيد المهلب يثرى المتوكل :

علتك أسياف من لادونه أحدٌ وليس فوقك إلا الواحد الصمد^(٢)
وأصبح الناس فوضى بمجّبون به ليثاً صريعاً تندى حوله النّقد^(٣)

وأخذ لفظ بيته من قول حبيب :

مَنْ لَمْ يَمَازِنِ أَبَا نَصْرٍ وَقَاتَلَهُ فَمَا رَأَى ضُبْعًا فِي شِدْقِهِ سُبُعٌ^(٤)
فيم الشّامة إعلاناً بأسديّ وغى أفنأهم الصبر إذ أبقاكم الجزع !

هكذا يُنظم حرّ الكلام ، ويُعذّر لموت الكرام ، وتنفى عنهم شماتة اللثام .
وقد أحسن الاعتذار أيضاً لأبي نصر بأغرب من هذا ، وجعله قاتل نفسه ، إذ
لا نظير له في شجاعته فيقتله ، وإنما قتله أمر الله الذي لا يغالّب ، كما قال أبو الطيب :
ألا إنّما كانت وفاة محمدٍ دليلاً على أن ليس لله غالب^(٥)

وكذلك قوله :

فلن ترم عن عمرٍ توافي به المدى نخانك حتى لم يجد فيك منزعا^(٦)
فما كنت إلا السيف لاقى ضريبةً فقطعها حتى اثنى فقطعاً

(٢) مروج الذهب للمسعودي ٤ : ١٢٤

(٤) ديوانه ٣٧٢

(٦) ديوانه ٣٧٤

(١) سقط الزند ٨١

(٣) النقد : جنس من الغم .

(٥) ديوانه ١٠٩ : ١

أى لم يقتل حتى قتل أعداءه ، وأبو نصر هو محمد بن حميد قتله بابك الخرمي
ومما قال فيه حبيب — وهو أشجع بيت قيل — قوله :

ونفسٌ تعاف العار حتى كأنما هو الكفر يوم الرُّوع أودونه الكفر^(١)
فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها: من تحت إخصك الحشر

قوله : «الذنب للأيام» ، نسب الذنب إليها لوقوع المكروه فيها كما تقدم .
تنب : ترتفع ، شيمة : طبيعة ، أى لولا شؤم الأيام لم تتغير الطباع ، أى لو استقامت
هى لاستقامت أحوال الناس فيها ، فكان كل إنسان يدرك منها على قدر منزلته .

* * *

[نبذ وأقوال وحكايات في ذم الزمان]

ومما قيل في ذم الزمان مما يوافق هذا المعنى ، أن عبد الملك بن مروان سأل
مسلمة بن يزيد — وكان من المعمرين — فقال : أى الملوك رأيت أكمل ؟ وأى
الزمان رأيت أفضل ؟ فقال : أئما الملوك فلم أر إلا حامداً أو ذاماً ، وأئما الزمان
فيرفع أقواماً ويضع أقواماً ، وكلهم يذم زمانه ، لأنه يُبلى جديدهم ، ويفرق عديدهم ،
ويهرم صغيرهم ، ويهلك كبيرهم .

أبو جعفر الشيباني قال : أئانا أبو ميثاس الشاعر ، ونحن في جماعة ، فقال :
ما أئتم فيه ؟ قلنا : نذكر الزمان وفساده ، قال : كلاً إن الزمان وعاء ، وما ألقى
فيه من خير أو شر كان على حاله ، ثم أنشأ يقول :

أرى حُللاً تُصانُ على رجال وأخلاقاً تُذال ولا تُصانُ
يقولون الزمان به فساد وهم فسدوا وما فسد الزمان

وقال آخر :

أيا دهر إن كنت عاديئتنا فيها قد صنعت بنا ما كفّا كما
جعلت الشرار علينا خیاراً وأولئتنا بعد وجه قفا كما

وقال أبو العتاهية :

كفأك عن الدنيا الذميمة مخبراً غنى باخليها وافتقار كرامها
وأن رجال النفع تحت مداسها وأن رجال الضر فوق سنامها

وقال ابن لئلك :

يا زمانا ألبس الأح شرار ذلاً ومهانة
لست عندي بزمان إنما أنت زمانه^(١)

وقال ابن الرومي :

دهر علا قدر الوضيع به وغدا الشريف يحطه شرفه^(٢)
كالبحر يرسب فيه لؤلؤه سفلاً ويطفو فوقه جيفه

وكرره فقال :

قالت : علا الناس إلا أنت قلت لها : كذلك يسفل في الميزان مارجه

وقال آخر :

رب يوم بكيت فيه فلماً صرت في غيره بكيت عليه^(٣)

(١) الزمان : العامة

(٢) التمثيل والمحاضرة ٢٥٩

(٣) التمثيل والمحاضرة ١٠٦ نهاية الأرب ٣ : ٩٨

وقال آخر :

لم أبلك من زمنٍ نكدٍ أساء به إلاَّ بكيتُ عليه حين أُنقِدهُ
ولا جزعتُ على مَيِّتٍ فُجِعْتُ به إلا ظلت بسكنى القبر أحسُّدهُ
ولا ذمتُ زمانًا في تقلِّيه إلا وفي زمني قد صِرتُ أُحسِّدهُ
وقال ابن أبي عيزارة :

عُتِبْتُ على سَلَمٍ فلَمَّا قَدَّتْهُ وَجَرَّبْتُ أَقْوَامًا بَكَيْتُ على سَلَمٍ
رَجَعْتُ إِلَيْهِ بعد تَقْوَيْتِ غَيْرِهِ فَكَانَ كِبْرُهُ بعد طَوْلٍ مِنَ السَّقَمِ
وَأُنشِدُ الْمُرْدَ :

حياة أبي العباس زيدتُ بقرْبِهِ أَخَا ثِقَةٍ قَاسِ الْأُمُورِ وَجَرَّبَا
وَنَعَبْتُ أحيانًا عَلَيْهِ وَلَوْ قَضَى لَكُنَّا على الْباقِي مِنَ النَّاسِ أَعْتَبَا
قال عروة بن الزبير : الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم . أخذه أبو الطيب
قال :

وشبه الشيءَ مَنْجَذِبٌ إِلَيْهِ وَأَشْبَهُنا بَدْنِيًّا انا الطَّعَامُ^(١)
ولو لم يعلُ إِلَّا ذُو محَلٍّ تَعَالَى الْجَيْشُ وانْحَطَّ الْقِتَامُ
ودهرٌ ناسُهُ ناسٌ صَفارٌ وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثَّةٌ عِظَامُ
وما أنا منهمُ بالعِيشِ فِيهِمْ وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ
الطَّعَامُ : السَفَلَةُ .

* * *

نَمَّ إِنْ خَبَرَهُ نَمًا إِلَى الْوَالِي ، فَمَلَأَ فَاهُ بِاللَّالِي ، وَمَسَامَهُ أَنْ
يَنْضَوِيَ إِلَى أَحْشَائِهِ ، وَيَلِيَّ دِيْوَانَ إِنْسَائِهِ ، فَأَحْسَبُهُ الْحَبَاءَ ،
وَوَلَّفَهُ عَنِ الْوِلَايَةِ الْإِبَاءَ .

(١) ديوانه ٤ : ٧١

قال الراوى : وَكُنْتُ عَرَفْتُ عُودَ شَجَرَتِهِ ، قَبْلَ إِيْنَاعِ ثَمَرَتِهِ ، وَكِدْتُ أَنْبَهُ عَلَى عُلُوِّ قَدْرِهِ ، قَبْلَ اسْتِنَارَةِ بَذْرِهِ ، فَأَوْحَى إِلَيَّ بِإِيْمَاضِ جَفْنِهِ ، أَلَّا أُجَرِّدَ عَضْبَهُ مِنْ جَفْنِهِ . فَمِمَّا خَرَجَ بَطْنِ الْخُرْجِ ، وَفَصَلَ فَايْزَا بِالْفُلْجِ ، شَيِّعْتُهُ قَاضِيًا حَقَّ الرِّعَايَةِ ، وَلَاحِيًا لَهُ عَلَى رَفْضِ الْوِلَايَةِ ، فَأَعْرَضَ مُتَبَسِّمًا ، وَأَنْشَدَ مُتَرَنِّمًا :

لِجَنُوبِ الْبِلَادِ مَعَ الْمَتَرَبَةِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْمَرْتَبَةِ
لِأَنَّ الْوِلَاةَ لَهُمْ نَبْوَةٌ وَمَعْتَبَةٌ يَا لَهَا مَعْتَبَةٌ !
وَمَا فِيهِمْ مَنْ يَرْبُّ الصَّنِيعَ وَلَا مَنْ يُشَيِّدُ مَارْتَبَةَ
فَلَا يَخْدَعَنَّكَ لُئُوعُ السَّرَابِ وَلَا تَأْتِ أَمْرًا إِذَا مَا اشْتَبَهَتْ
فَكُنْ حَالِمَ سَرِّهِ حِلْمُهُ وَأَذْرِكُهُ الرَّوْعُ لَمَّا انْتَبَهَتْ

قوله : « نما » ، أى ارتفع ووصل . الآلى : الدرر . سامه : كلفه . ينضوى : ينضم . وأحشائه : خاصته . يلى ديوان إنشائه : يتولى دار كتابته ، أى يكون هو الذى ينشئ الكتب ، وينسخها الكتاب وتنفذ إلى البلاد . أحسبه : كفاه . الحياء : العطاء . ظلفه : منعه . الإباء : الامتناع ، وقد أبيت من كذا ، أى امتنعت منه ؛ ويكنى به عن نزاهة النفس . عود شجرته ، يريد أنه كان عرفه قبل أن يتكلم ، وأن يعرف نفسه . وإيناع الثمرة : إدراكها ونضج ثمرتها . إيماض جفنه : إشارة عينه . عضبه : سيفه . جفنه : غده ، أى

أشار على أن أستره . بطين : مملوء . انخرج : وعاء معلوم ، وهذا كقول الشاعر :

يبيتون بالدهن خفاقاً عياهم^(١) ويخرجن من دارين بجر الحقايب^(٢)

وقد أخذ هذا اللفظ في مقامة أخرى فقال : حتى آل ذاعية خضراء وحقية بجراء ، أى مملوءة . وإلى هذا المعنى أشار ، نصيب في قوله :

أقول لركب قافلين رأيتهم قفازات أو شال ومولاك قارب^(٣)
قفوا خبروني عن سليمان إنني لمعرفه من أهل ودان طالب^(٤)
فأجوا فأننوا بالذي أنت أهله ولوسكتوا أننت عليك الحقايب

ثناؤها عليه ، أن بدت للناس مملوءة من معرفه ، فأتى أبو العتاهية فزاد المعنى بياناً بقوله :

إن المطايا تشتكك لأنها قطعت إليك سباسباً ورمالاً^(٥)
فإذا أتين بنا أتين مخفة وإذا رجمن بنا رجفن ثقلاً

قوله : « فصل » ، أى زال وتنحى . الفلج : الظفر بما أراد . الرعاية : حفظ الصحبة . لاحقاً : لأنما . رفض : ترك . مترنماً : مطرباً ، أى لما خرج ممتلئ الوعاء ، ظافراً بما أراد ، لئنه على ترك خدمة الأمير التى كلفه ، فأنشد

(١) لأعشى همدان ، يهجو لصوماً ؛ وهو من شواهد ابن عقيل ١/٩٨

(٢) البيان والبيان ١ : ٨٣ . والقارب : طالب الماء . وذات أو شال : موضع بينه

(٣) ودان : موضع بين مكة والمدينة قريب من الجحفة ؛ قال ياقوت : « وقد أكرر نصيب من ذكرها في شعره » وأنشد الأبيات .

(٤) ديوانه ٣١٢ .

معتذراً . المتربة ، أى الفقر . المرتبة : المنزلة الرفيعة . وهذا البيت ينظر إلى حكاية الأصمعيّ وقد رُئيَ راكباً حماراً فقيل له : أبعد براذين الخلفاء تركب هذا ؟ فقال متمثلاً .

ولما أبت إلا طرافاً بودّها وتكديرها الشرب الذى كان صافيا
شربنا برنق من هواها مكدرٍ وليس يعاف الزنق من كان صاديا
يقول : هذا وأملك ديني ونفسي ، أحبّ إلى من ذلك مع ذهابهما ^(١) .
أطرف الشيء وتطرفه : استفاده ، وقيل : استجاده .

نبوة : ارتفاع وقلة ثبات . معتبة : سخط . يالها : تعجب ، كأنه قال :
يا عجباً لها ، ما أشدها . يربّ : يصلح ويقوّى . الصنيع : الفعل الجليل . يشتدّ :
يرفع ويتم . رتبّه : بناه وهَيّأه . السراب : ما يظهر نصف النهار كأنه ماء ،
اشتبه : أشكل . الحالم : من يرى فى منامه رؤيا ، وقد حلم يحلم : والروع :
الفرع ، يقول : مثل المترفة بالخطّة السلطانية كحالم رأى نفسه فى النوم أميراً ،
فانتبه فى أيدى أعاديه أسيراً ، أو رأى نفسه بين غزلان ورياحين فانتبه لزيور
أسود ولصفير ثعابين ، وكذلك الأمراء إن رفعوا الخديم ببعض إنعامهم كدروه
بتمجيل انتقامهم . وما يجرى فى هذا النمط قول الشاعر :

إلى الله أشكو كلّ يومٍ وليلةٍ إذا نمت لم أعدم خواطر أو هام
فإن كان شرّاً كان لاشكّ واقماً وإن كان خيراً كان أضغاث أحلام
أخذ المعنى هذا الشاعر من قول أشعب الطاع ، قال : رأيت رؤيا نصفها حقّ ،
ونصفها باطل ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : كنت أرانى أحمل بدرة ؛ فمن ثقلها كنت
أسلح فى ثيابي ، فانتبهت فإذا السلح ولا بدرة . قال الفنجديسى : ومن أحسن
ما سمعت فى هذا المعنى أبيات لطيفة المعاني ظريفة المباني ، شرّفتى بإنشادها وإملائها
على السيّد الأجلّ أبو المظفر يوسف بن أيوب صلاح الدين ب القاهرة مصر لبعضهم :

(١) تاريخ بغداد ١٠ : ٤١٧ .

حوزارنى طيف من أهوى على وجلٍ من الوشاة وداعى الصبح قد هتفاً
 فكدت أوقظ من حولي به فرحاً وكاد يهتك ستر الحب بي شغفاً
 ثم انتهت وآمالى تحيبنى نيل المنى فاستحالت غبطينى أسفاً
 ومن ملح هذا الباب ، أن ابن عبدل دخل على بشر بن مروان لما ولى
 الكوفة ، فقال : أيها الأمير إني رأيت رؤيا ، فأذن لي بقصها ، فقال : قل ، فقال :
 أغفيت قبل الصبح نوم مسهدٍ في ساعة ما كنت قبل أنامها^(١)
 فرأيت أنك رعتني بوليدةٍ مفنوجة حسن على قيامها
 وببدره ملحت إلى وبغلة شهباء ناجية يصل لجامها^(٢)
 فقال له بشر : كل شيء رأيتهُ فهو عندك إلا البغلة ، فإنها دهاء ، قال :
 امرأتى طالق ثلاثاً إن كنت رأيتها إلا دهاء ولكنى غلظت .
 قال الباطن الشاعر : قدمت على علي بن يحيى الأرميني ، فكتبت إليه :
 رأيت في النوم أني راكب فرساً ولى غلام وفي كفي دنانيرُ
 فجئت مستبشراً مستشعراً فرحاً وعند مثلك لي بالفضل تبشيرُ
 فوقع في أسفل كتابي : ﴿ أَضْفَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ
 بِعَالَمِينَ ﴾^(٣) ، ثم أمر لي بكل ما رأيتهُ في منامي

(١) الخبر والشعر في ذيل زهر الآداب ١٠١ .

(٢) بدمه في زهر الآداب :

فدعوت ربّي أن يثيبك جنةً عِوضاً نصيبك بردّها وسلامها

(٣) سورة يوسف ٢٤ .

المقالة السابعة وهي البرقعية

حكى الحارث بن همام ، قال : أزمعتُ الشُّخُوصَ مِنْ بَرْقَعِيدٍ ،
وَقَدْ شَمْتُ بَرْقَ عِيدٍ ، فَكَرِهْتُ الرِّحْلَةَ عَنْ تِلْكَ الْمَدِينَةِ ، أَوْ أَشْهَدَ
بِهَا يَوْمَ الزَّيْنَةِ . فَلَمَّا أَظَلَّ بِفَرْضِهِ وَنَفْلِهِ ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ
وَرَجْلِهِ ، انْبَعَثَ الشَّنَّةُ فِي لُبْسِ الْجَدِيدِ ، وَبَرَزَتْ مَعَ مَنْ بَرَزَ
لِلتَّعْيِيدِ . وَحِينَ النَّامِ جَمْعُ الْمُصَلَّى وَانْتِظَمَ ، وَأَخَذَ الزُّحَامُ بِالْكَظَمِ ،
طَلَعَ شَيْخٌ فِي شَمْلَتَيْنِ ، مَحْجُوبُ الْمُقْلَتَيْنِ ، وَقَدْ انْتَضَدَ شِبْهُ الْخِلَافَةِ ،
وَاسْتَقَادَ الْعَجُوزَ كَالسَّعْلَةِ ، فَوَقَفَ وَفَقَّةَ مُتَهَاوِتٍ ، وَحَيًّا تَحِيَّةَ
خَافِتٍ . وَلَمَّا فَرَغَ مِنْ دُعَائِهِ ، أَجَالَ خَمْسَةً فِي وَعَائِهِ ؛ فَأُبْرَزَ
مِنْهُ رِقَاعًا قَدْ كَتَبْنَ بِأَلْوَانِ الْأَصْبَاغِ ، فِي أَوَانِ الْفَرَاغِ ، فَنَاولَهُنَّ عَجُوزُهُ
الْحَيْزُبُونَ ، وَأَمَرَهَا أَنْ تَتَوَسَّمَ الزُّبُونِ ، فَمَنْ آنَسَتْ نَدَى
يَدَيْهِ ، أَلْقَتْ مِنْهُنَّ وَرَقَةً لَدَيْهِ ، فَأَتَا حَ لَه الْقَدْرُ الْمَعْتُوبُ ، رَقْعَةٌ
فِيهَا مَكْتُوبٌ ...

أزمعت الشُّخُوصَ ، أى عَزَمْتُ عَلَى الْخُرُوجِ . بَرْقَعِيدٍ : بَلَدٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
الْمَوْصِلِ عَشْرُونَ فَرَسَخًا . شَمْتُ : نَظَرْتُ .

وَيُرِيدُ يَبْرُقُ عِيدٌ ، مَقْدَمَاتُ الْعِيدِ الَّتِي يَنْظُرُ النَّاسُ بِهَا فِي أَسْبَابِهِ ، سَأَلَ رَجُلٌ

الجُنيْد ، لماذا سُمِّي يوم العيد ؟ فقال : لأنَّ آدمَ لما خرج من الجنة ، وأُهبِطَ إلى الأرض ، ثم تاب الله عليه ، فردّه إلى الجنة ، كان في ذلك اليوم ؛ قليل له يوم عيد ، لأنه أُعيد إلى الجنة فيه ، قال ابن الأنباري رحمه الله : معنى يوم العيد ، الذي يعود فيه الفرح والسرور . والعيد عند العرب : الوقت الذي يعود فيه الفرح أو الحزن ، وأصله « العود » لأنه من عاد يُعود ، فلما سُكَّنت الواو وكُسِر ما قبلها قُلِبَت ياء ، فصارت من باب ميزان وميقات ، وهما من الوزن والوقت ، وكذلك الياء إذا سكنت ، وانضمَّ ما قبلها قلبت واواً مثل مُوسر ومُوقن ، وهما من أيسر وأيقن ، ويقولون في الجمع مياسر .

المدينة : البلد ، مَنْ أَخَذَهَا مِنْ مَدَنٍ بِالْمَكَانِ يَمْدُنُ ، إذا أقام فيه ، فهي « فَعِيلَةٌ » والجمع مدائن بالهمز ، والميم أصلية والياء زائدة ، ومن أَخَذَهَا مِنْ دَانَ يَدِينُ ، فاليم زائدة والياء أصلية ، وهي « منفعولة » . يقال : دِنْتُ الرَّجُلَ مَلَكَتَهُ ، ودنت له أطعت ، ويقال للأمة مَدِينَةٌ لأنها مملوكة ، قال الشاعر :

رَبِّتْ وَرَبًّا فِي حَجَرِهَا ابْنَ مَدِينَةٍ يَظَلُّ عَلَى مَسْحَاتِهِ يَتَرَكَّلُ^(١)

يعنى عبداً . يوم الزينة : يوم العيد لتزيّن الناس فيه . قوله : « أظل » ، أى قرب ودنا حتى دخلنا في ظله . بفرضه : يعنى زكاة الفطر . ونفله : يعنى صلاة العيد . الفنجديهيّ : فَرَضَ العيد : صدقة الفطر ، ونَفَلَ العيد مثل الصلاة والفعل ولبس الجديد من الثياب .

ابن عمر رضی الله عنهما : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من رمضان على الناس صاعاً من تمر أو شعير ، على كل حرّ أو عبد ، ذكر أو أنثى من المسلمين .

ابن عباس رضی الله عنهما : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة

(١) للاختلال ، ديوانه . . تركل القى : دفعه برجله .

(١٨ - شرح مقامات الحريري ١)

الفطر من رمضان لجبر الصيام من الفطر والرّفث طعمة للمساكين، فمن أدّاها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة ، ومن أدّاها بعدها فهي صدقة من الصدقات . أجلب بخيله ورجله ، أى جمع أصحاب الخيل والرّجالة وجاء بهم ، ضرب به المثل لإقباله وتصميمه على الحجى . لبس : لباس ، وجاء فى لبس الجديد حديث عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما على أحدكم أن يكون له ثوبان سوى ثوبى مهنته لجمعه ولعيده » .

جابر : كان للنبي صلى الله عليه وسلم حلة يلبسها فى العيدين ويوم الجمعة . برزت : خرجت . الثأم : التحم والتصق . المصلّى : موضع صلاة العيد . الزحام : الضيق لكثرة الناس . الكظّم : تضيق النفس من شدة الزحام . شملتين : عباءتين ، والشملة : نوع من الأكسية ، وقيل لها شملة لأن صاحبها يشتمل بها ، أى يديرها حواليه ، محجوب : مستور . المقلتين : العيينين ، أراد أنه أعى . اعتضد : علقها فى عضده . استقاد : جعلها تقوده . السعلة : أنثى الغول ، وذكرها يسمى الكعنكع ، وأنشدوا :

* غولا تراعى شرساً كعنكعاً *

والغول : جنّ مسكنها الصحارى تترأى للإنسان كأنها إنسان فلا يزال يتبعها حتى يضلّ الطريق فيهلك . قوله : « متهافت » ، أى متساقط لضعفه ، وتهافت الشيء فى يدي : تناثر . خافت : خفى الصوت ، وقد خفت الرجل ، إذا ظهر عليه الضعف من مرض أو جوع أو غير ذلك ، وأصل خفت مات هزالاً . فرغ : أتم . أجال : مشى وصرّف . خمسة : أصابعه . فى وعائه ، بمعنى المخلاة التى اعتصدها ، وهى تعلية يعلقها السائل فى عنقه أو ذراعه ، ويجعل فيها ما يعطى من الصدقة . أبرز : أخرج . أوان : وقت . الفراغ : قلة الشغل . ناولهن : أعطاهن . الحيزبون : المسنة القويّة الخلق . تنوّم : تنظر . الزّبون : المنخدع عن حاله «فعول» بمعنى «مفعول» ، وهو من ألفاظ أهل المشرق ، وأراد به الكثير

الصدقة ، آنست : أبصرت . ندّى : كرم . أتاح : ساق . التمدّر المعتوب : الملولم .

لَقَدْ أَصْبَحْتُ مَوْقُودًا بِأَوْجَاعٍ وَأَوْجَالٍ
وَمَمْنُوا بِمِثْقَالٍ وَمِخْتَالٍ وَمُفْتَالٍ
وَحَوَّانٍ مِنَ الْإِخْوَانِ قَالَ لِي لِإِلَالِي
وَأَعْمَالٍ مِنَ الْأَعْمَالِ لِي فِي تَضْلِيلِ أَعْمَالِي
فَكَمْ أَصْلَى بِأَذْحَالٍ وَأَنْحَالٍ وَتَرْحَالٍ
وَكَمْ أَخْطَرُ فِي بَالٍ وَلَا أَخْطَرُ فِي بَالٍ
فَلَيْتَ الذَّهْرَ لَمَّا جَاءَ رَاطِفًا لِي أَطْفَالِي
فَلَوْلَا أَنَّ أَشْبَالِي أَغْلَالِي وَأَعْلَالِي
لَمَّا جَهَّزْتُ آمَالِي إِلَى آلٍ وَلَا وَالِي
وَلَا جَرَّزْتُ أَذْيَالِي عَلَى مَسْحَبٍ إِذْ لَالِي
فَمِجْرَابِي أُخْرَى بِي وَأَسْمَالِي أَسْمَى لِي
فَهَلْ حُرٌّ يَرَى تَخَفِي فَيَفِثَ أَثْقَالِي بِمِثْقَالٍ
وَيُطْفِئَ حَرَّ بَلْبَالِي بِسِرِّبَالٍ وَسِرِّوَالٍ !

قوله : « موقوداً » ، أى مشرقاً على الموت من شدة الأوجاع والأوجال ،
والموقودة فى القرآن^(١) : المقتولة بالخشب ، والموقد : شدة الضرب . أو جال :
مخاوف . ممنوا : مبتلى . محتال : ما كر كثير الحيلة . مختال : متكبر . مفتال :
مهلك . حوَّان : كثير الخيانة .

ابن عمر رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قلما يوجد فى

(١) وهو قوله تعالى فى سورة المائدة ٣ : « والنخفة والموقودة » .

آخر الزمان درهم من حلال، أو أخ يوثق به». قال: مبغض. إقلالى: قبرى. إعمال: جدّ وبحث، تقول: أعملت الشيء فى الشيء، إذ جعلته يعمل فيه. والعمال: عاملو كل شيء. تضليع: إفساد. أعمال: جمع عمل، يريد أنه مطلوب يبحث على أعماله إذا أتى بها مجموعة فتنتقض أعماله وتصير له أضلاعاً بعد اجتماعها، وذلك فساد لها. ويحتمل أن يكون التضليع من «ضلمك مع فلان». أى ميلك معه، فأعماله تميل عن طرقها فتفسد. وقيل: تضليع الأعمال: تنقيتها، قال الأزهري رحمه الله: ضلّع الدين. نقله حتى يميل صاحبه عن الاستواء لنقله، وفى الحديث: «أعوذ بالله من ضلّع الدين». أصلى: أحترق. أذحال: أحتاد وعداوات. إمحال: فقر. ترّحال: سَفَر ونقله من بلد إلى بلد. أخطر: أمشى متبخراً، وقد خطر الرجل، إذا أقبل بيديه وأدبر بهما، وهى مشية الشبان. بال: خلق. ولا أخطر فى بال: لا أمرّ على بال أحد ولا خاطره. جار: مال عن الحق ولم يعدل. أطفأ: أمت. أطفالى: أولادى، ومثله: أشبالى.

الفنجدية: يقول: ليت الدهر لما ظلم أولادى، وجار عليهم أمانتى لأتخلص، فإنّ مقاساة الولائد سبب الوقوع فى المصائد. قال ابن عيينة: قلت لصياد: أى طائر أسرع إلى مصايدكم؟ قال: الذى يزق، يعنى الذى يطعم ولده. أغلالى: قيودى. والأعلال: جمع علّ، وهو القراد الضخم، وهو الذى يلصق بأغاذ الدواب، وهو كثير التشبّث والالتصاق، لا يُقَام إلا بجهد، فيريد بالأغلال أولاده لأنهم قيوده فلا يسرح بسبيهم، وبالأعلال أنهم قد تملّقوا به يطلبون ما عنده، وقال الشاعر يصف ناقته:

* ولو ظلّ فى أوصالها العلّ يرتقى *

ويقال للقراد: الطّلح والفينق والحجير والعلّ والبُرَام والقُرشوم والألبود فى بعض اللغات. جهّزت: أرسلت. آل: قريب، وآل: أهل، أو يكون آل أميراً وسائساً؛ قال عمر رضى الله عنه: أَلْنَا وَأَيْلَ عَلَيْنَا، أى سُسْنَا الناس

«وَسَاسِنَا غَيْرُنَا، فَيَكُونُ عَلَى هَذَا مَقْلُوبًا مِنْ «آيَل»، كَمَا قِيلَ : سَارَ فِي سَائِرٍ .
 .مَسْحَبٌ : طَرِيقٌ . يَقُولُ : لَوْلَا ذَلْ الْأَوْلَادُ مَا قَصَدْتَ وَالْيَا ، وَلَا جَرَّتْ ذَيْلِي
 فِي طَرِيقِ ذَلْ ، وَيُقَالُ : سَحَبَ ذَيْلَهُ سَحْبًا إِذَا جَرَّهُ ، وَالْمَسْحَبُ : مَوْضِعُ جَرِّهِ
 ثَوْبِهِ . مَحْرَابِي : مَسْجِدِي . أُخْرَى : أَحَقَّ بِي . أَسْمَالِي . أَثْوَابِي الْخَلْقَةُ . أُسْمِي لِي :
 أُعْزُّ لِي وَأَرْفَعُ لِقَدْرِي . أَتَقَالِي : هُمُومِي أَوْ دِيُونِي ، أَوْ كَثْرَةُ عِيَالِي وَاحِدَهَا تَقْلٌ ،
 وَتَقْلُ الشَّيْءِ تَقْلًا ضِدَّ خَفٍّ ، وَأَثْقَلَ الرَّجُلُ : كَثُرَ عَلَيْهِ . بَلْبَالِي : حَزَنِي ،
 وَالْبَلْبَالُ : وَسْوَاسُ الْهَمُومِ . سَرِبَالٌ : قَمِيصٌ . وَالسَّرَوَالُ : مَعْرُوفٌ ، وَفِي الْحَدِيثِ
 أَنَّ امْرَأَةً سَقَطَتْ مِنْ عَلَى حِمَارٍ فَأَعْرَضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِوَجْهِهِ عَنْهَا ،
 فَقَالُوا : إِنَّمَا مَتَسْرُولَةٌ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمَتَسْرُولَاتِ
 مِنْ أُمَّتِي - ثَلَاثًا - يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّخَذُوا السَّرَاوِيلَاتِ فَإِنَّهَا مِنْ أُسْتَرِ ثِيَابِكُمْ ،
 وَحَضُّوا بِهَا نِسَاءَكُمْ إِذَا خَرَجْنَ » .

وَمِنْ مُلَحِّحِ الصَّاحِبِ بْنِ عُبَادٍ أَنَّ بَعْضَ الشُّعْرَاءِ ^(١) كَتَبَ لَهُ :

أَيَا مَنْ عَطَايَاهُ تُعْطَى الْغِنَى إِلَى رَاحَتِي مَنْ نَأَى أَوْ دَنَا
 كَسَوَتْ الْمُقِيمِينَ وَالزَّائِرِينَ كَسًا لَمْ يَخْلُ مِثْلُهَا مُمَكِّنًا
 وَخَاشِيَةَ الدَّارِ يَمْشُونَ فِي ثِيَابٍ مِنَ الْخَزْءِ إِلَّا أَنَا
 فَقَالَ الصَّاحِبُ : قَرَأْتُ فِي أَخْبَارِ مَعْنٍ بْنِ زَائِدَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ : احْمِلْنِي
 أَثِمًّا الْأَمِيرَ ، فَأَمَرَ لَهُ بِبَاقَةِ وَفَرَسٍ وَبَغْلَةٍ وَحِمَارٍ وَجَارِيَةٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : لَوْ عَلِمْتَ
 أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ مَرْكُوبًا غَيْرَ هَذَا لَمَلَأْتُكَ عَلَيْهِ . وَقَدْ أَمَرْنَا لَكَ مِنَ الْخَزْءِ بِجَنَّةٍ وَقَمِيصٍ
 وَدُرَّاعَةٍ وَسَرَاوِيلٍ وَهَمَامَةٍ وَمَنْدِيلٍ وَمُطْرَفٍ وَرِدَاءٍ وَكِسَاءٍ وَجُورِبٍ وَكَيْسٍ ،
 وَلَوْ عَلِمْنَا لِبَاسًا غَيْرَ هَذَا مِنَ الْخَزْءِ لَأَعْطَيْنَاكَ . ثُمَّ أَمَرَ بِإِدْخَالِهِ إِلَى الْخِزَانَةِ ؛
 وَصَبَّ تِلْكَ الْخَزْءَ عَلَيْهِ ^(٢) .

وَأَخْبَارُ الصَّاحِبِ مُسْتَظَرَفَةٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْمُلْحِ .

(١) هُوَ أَبُو الْقَاسِمِ الزَّعْفَرَانِيُّ .

(٢) الْحَبَرُ وَالشَّعْرُ فِي بَيْتِيَةِ الدَّهْرِ ٣ : ١٧١ ، مَعَ تَصَرُّفٍ وَابْتِصَارٍ .

قال الحارث بن همام : فلمَّا استعْرَضْتُ حُلَّةَ الأَيَّاتِ ، تُقَّتْ
إِلَى مَعْرِفَةِ مُلْحِمِهَا ، وَرَاقَمَ عِلْمِهَا . فَنَاجَانِي الْفِكْرُ بِأَنَّ الْوُصْلَةَ إِلَيْهِ
الْعَجُوزُ ، وَأَفْتَانِي بِأَنَّ حُلُوتَانَ الْمَعْرِفِ يَجُوزُ ؛ وَرَصَدْتُهَا وَمِي
تَسْتَقْرِى الصُّفُوفَ صَفًّا صَفًّا ؛ وَتَسْتَوِرُ كَفُّ الْأَكْفِ كَفًّا كَفًّا ،
وَمَا إِنْ يَنْجَحُ إِيَّاهَا عَنَاءُ ، وَلَا يَرْشَحُ عَلَى يَدِهَا إِذَا ، فَلَمَّا أَكْدَى
اسْتِعْطَافُهَا ، وَكَدَّاهَا طَافُهَا ، عَازَتْ بِالْإِسْتَرْجَاعِ ، وَمَالَتْ إِلَى إِرْجَاعِ
الرَّقَاعِ ، وَأَنْسَاهَا الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رُقْعَتِي ، فَلَمْ تَعُجْ إِلَى بُقْعَتِي ، وَآبَتْ
إِلَى الشَّيْخِ بِأَكْيَةِ لِلْحِزْمَانِ ، شَاكِيَّةً تَحَامِلُ الزَّمَانَ ؛
فَقَالَ : إِنَّا لِلَّهِ ، وَأُفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا
بِاللَّهِ ! ثُمَّ أَنْشَدَ :

لَمْ يَبْقَ صَافٍ وَلَا مُصَافٍ وَلَا مَعِينٌ وَلَا مُعِينٌ
وَفِي الْمَسَاوِي بَدَا التَّسَاوِي فَلَا أَمِينٌ وَلَا ثَمِينٌ

* * *

قوله : « ملحمها » ، ناسجها ، ولما جعل الشعر حُلَّةً جعل له ناسجاً ورافقاً .
ناجاني : حدثني . الوصلة : الموصلة . استعرضت ، أى نظرت وعرضتها على
نفسى . تُقَّتْ : اشتقت . أفتانى ، أعلمنى . الحلوَان : أجرة السكَّان ، وأراد
أجرة العَرَّافِ ، وهو الذى يعرف بالتلاطف الملتقطة أربابها ، فيفتكونها منه بما اتفقوا
عليه ، فذهب مالك أن من عَرَفَ اللَّقْطَةَ ^(١) ، وكان من شأنه أخذ الجعل على مثل
ذلك ، فله أجرة مثله ، والشافعى لا يوجب له حقاً سواء كان من شأنه أن يعرف

(١) اللقطة ، كهمزة : ما التقط .

بِاللَّقْطَةِ أَوْ لَمْ يَكُنْ ، تَعَبَ فِي ذَلِكَ أَوْ لَمْ يَتْعَبْ ، إِلَّا أَنْ يَشْتَرِطَ قَبْلَ الطَّلَبِ .
 رَصَدَتْهَا : ارْتَقَبَتْهَا . تَسْتَقْرِى : تَتَمَعُّ ؛ وَاقْتَرَبَتْ الْأَرْضَ وَاسْتَقْرِبَتْهَا ،
 تَتَبَّعْتُهَا مَتَابِعًا . تَسْتَوْكِفُ : تَسْتَمْطِرُ . يَنْجَحُ : يَنْفَعُ وَيُؤَثِّرُ ؛ يَقَالُ : نَجَحَتْ
 الْحَاجَةُ إِذَا انْقَضَتْ ، وَنَجَحَ طَالِبُهَا إِذَا لَمْ يَخْبُ ، وَأَنْجَحُ : أَشْهَرُ ؛ يَقُولُ : إِنْ مَشِيهَا
 عَلَيْهِمْ لَمْ يَقْضِ حَاجَتَهَا وَلَا نَفَعَهَا . وَقَصْدُ بَرَشْحِ الْإِنَاءِ كَرَمَ الْكَفِّ ؛ يَقُولُ :
 لَمْ يَرْشَحْ لَهَا كَفٌّ بَعْطِيَّةً . أَكْدَى : خَابَ وَصَعِبَ ، وَيَقَالُ : أَكْدَى الْخَافِرُ ،
 وَهُوَ أَنْ يَخْفِرَ الْبُئْرُ يَطْلُبُ الْمَاءَ ، فَإِذَا بَلَغَ إِلَى الصَّلَابَةِ وَيَبْسُ مِنَ الْمَاءِ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى
 الْخَفْرِ قِيلَ لَهُ : أَكْدَى فَهُوَ مَكْدٍ ، وَالْكَدِيَّةُ هِيَ الصَّلَابَةُ الَّتِي يَتَعَذَّرُ خَفْرُهَا .
 اسْتَعْطَافُهَا : تَلِينُهَا الْقُلُوبَ . كَدَّهَا : أَتْعَبَهَا . مَطَافُهَا : مَشِيهَا وَطُوفُهَا عَلَى النَّاسِ ،
 وَيَحْسُنُ أَنْ يَنْشُدَ هُنَا فِي حَالِهَا لِأَبِي نُوَّاسَ :

إِذَا لَمْ يُعَيْنِكَ اللَّهُ فِيمَا تَرِيدُهُ فَلَيْسَ لِلْخُلُقِ إِلَيْهِ سَبِيلُ
 وَإِنْ هُوَ لَمْ يَرْشِدْكَ فِي كُلِّ مَسْلَكٍ ضَلَّتْ ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَاءَ دَلِيلُ

غِيَرِهِ :

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللَّهِ لِلْفَتَى فَأَكْثَرَ مَا يَجْنَى عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ
 عَازَتْ : تَعَوَّذَتْ وَلَاذَتْ . الْاسْتِرْجَاعُ ؛ قَوْلُهُمْ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ،
 وَفِي حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَا قَالَ أَحَدٌ عِنْدَ
 الْمَصِيبَةِ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، اللَّهُمَّ أَجِرْنِي فِي مُصِيبَتِي ، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا
 مِنْهَا ؛ إِلَّا اسْتَجِيبَ لَهُ » .

إِرْجَاعُ : رَدٌّ . تَعَجُّ : تَمِيلُ وَتَرْجِعُ . بَقَعَتِي : مَوْضِعِي . آبَتْ : رَجَعَتْ .
 الْحَرَمَانُ : الْخَلِيَّةُ وَالْمَنْعُ . تَحَامَلُ : مُشْتَبَهَاتٌ ، وَتَحَامَلَتْ فِي الْأَمْرِ : تَكَلَّفَتْهُ عَلَى
 مُشَقَّةٍ . أَفْوَضُ : أَرَدَ .

لا حول ، أى لا حيلة ، يقال : ما له حيلة ولا حَوْل ، وما له احتيال ولا محْتال ، ولا تحالة ولا تحيلة ؛ كلمة بمعنى . ويقال : ما له محال بالفتح ، أى حَوْل ، ومحال بالكسر ، أى مكر . ثعلب : هو من قولهم : محِل به ؛ إذا سعى به إلى السلطان وعرضه للهلاك . ومحِل به القرآن : شهد عليه بالتقصير ؛ وقال الفراء : المحالة على ثلاثة أقسام ؛ هى الحيلة ، والتي تجعل على رأس البئر كالبكرة ، وواحدة محال الظهر وهى فقاره . ويقال : أخذت فى الحوْلقة والحوقلة ، إذا قلت : لا حول ولا قوّة إلا بالله ، وينتصب « لا حول ولا قوّة » بالتبرئة ، وإن شئت رفعتها بالابتداء ، « وبالله » خبر « قوّة » ، وحذفت خبر « لا حول » لدلالة الثانى عليه ، وإن شئت رفعت « حول » بالابتداء ، ونصبت « قوّة » بالتبرئة ، وإن شئت نصبت « حولا » بالتبرئة ورفعت « قوّة » بالعطف على موضع « لا حول » ، وإن شئت نصبت « قوّة » بالتنوين عطفاً على اللفظ .

قوله : « صاف » ، أى خالص الودّ . مصاف : صادق فى ودّه . معين : ماء كثير ، يريد صاحب كرم كثير . مُعين : يُعين بماله . المساوى : ضد المحاسن ، واحدها « سوء » على غير قياس ، وقيل لا واحد لها . بدا : ظهر . الثمين : النفيس الغالى الثمن ؛ يقول : إنّ الناس قد استووا فى الأفعال السيئة ، وأراد قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال الناس بخير ما تباينوا ، فإذا استَوَوْا هلكوا » ، ومعناه أنّ الناس فى الغالب إنّما يتساوون فى الشرّ ، ولا تجدهم كلّهم فضلاء لأنّ الخير قليل .

قال أبو العباس التّطلىّ فيما يتعلق بهذا المعنى :

والناس كالنّاس إلّا أنّ نجوهم^(١) والبصيرة حكم ليس للبصر^(٢)
كألاك مشبهات فى منابها وإنما يقع التّفضيل بالثمر^(٣)
وقال التّهامى :

وَمِنْ الرِّجَالِ مَعَالِمٌ وَمَجَاهِلٌ وَمِنَ النُّجُومِ غَوَامِضٌ وَدَرَارِي^(١)
وَلَرَبَّمَا اعْتَصَدَ الْحَلِيمُ بِجَاهِلٍ لَا خَيْرَ فِي يُمْنَى بَغِيرِ يَسَارِ
وَالنَّاسُ مُشْتَبِهُونَ فِي إِيرَادِهِمْ وَتَفَاضُلُ الْأَقْوَامِ بِالْإِصْدَارِ

* * *

ثُمَّ قَالَ لَهَا : مَنَى النَّفْسَ وَعَدِيهَا ، وَاجْمَعِي الرُّقَاعَ وَعُدِّيهَا ،
فَقَالَتْ : لَقَدْ عَدَدْتُهَا لَمَّا اسْتَعَدَّتْهَا ، فَوَجَدْتُ يَدَ الضِّيَاعِ ،
قَدْ غَالَتْ إِحْدَى الرُّقَاعِ ، فَقَالَ : تَعَسَّا لَكَ يَالْكَاعِ ، أَنْحَرُمُ
وَيَنَحُكَ الْقَنْصَ وَالْجِبَالَةَ ، وَالْقَبَسَ وَالذُّبَالَةَ ! إِنَّهَا لَضِغْتُ عَلَى
إِبَالَةٍ . فَاِنْصَاعَتْ تَقْتَصُّ مَدْرَجَهَا ، وَتَنْشُدُ مَدْرَجَهَا ؛ فَلَمَّا
دَانَتْني قَرَنْتُ بِالرُّقْعَةِ ، دِرْهَمًا وَقِطْعَةً ، وَقُلْتُ لَهَا : إِنْ رَغِبْتَ
فِي الْمَشُوفِ الْمَعْلَمِ - وَأَشَرْتُ إِلَى الدَّرْهَمِ - فَيُوحِي بِالسَّرِّ الْمُبْهِمِ .
وَإِنْ أُيِّنْتَ أَنْ تَشْرَحِي ، فَخُذِي الْقِطْعَةَ وَأَسْرَحِي . فَمَالَتْ إِلَى
اسْتِخْلَاصِ الْبَذْرِ التَّمِّ ، وَالْأَبْلَجِ الْهِمِّ ، وَقَالَتْ : دَعِ جِدَالَكَ ،
وَسَلْ عَمَّا بَدَاكَ ، فَاسْتَطْلَعْتُهَا طَلَعَ الشَّيْخِ وَبَلَدَتِهِ ، وَالشَّعْرِ
وَنَاسِجِ بُرْدَتِهِ .

* * *

قوله : «عديها» ، أى طمعيها . استعدتها : رددتها . غالت : أهلكت ،
واستعار للتضييع «بدأ» مجازاً . تعسا : هلكاً ، والتعس : الدعاء ألا تقال عثرته .
يالكاع : يا لثيمة يا مُنَنَدَة ، واللكع : وسخ الفرج . ولد الحمار .
القنص : الصيد .

الحُبالة : الشبكة ، وصفة الحُبالة أن يُعتمد لحبل من شعر مخلوط بيسير من صوف ، فذلك أقوى له ، فيعقد في أحد طرفيه عين يجرى فيها الحبل ، ويربط في الطرف الثاني خشبة ، وربّما حدّدوا طرفها ، ثم يأتون إلى الطريق الذي يدخل منه الصيد إلى الماء فيحفرون فيه حفرة فيغطونها بورق الشجر وشبهها ، ويفتحون عليها عين الحبل ، ثم يغطونها بالتراب والزّبل ، حتى تصير في طبع الأرض ، فإذا أقبل الصيد للماء ، فوضع يده أو رجله في الحفرة ، سقطت به ، وانضمّ على يده أو رجله الحبل ، فيثب فازعاً ويفرّ ، فتتبعه تلك الخشبة ، فكلّما انتفض أقبلت عليه ، فتضربه بين يديه ورجليه وبطنه وظهره ، فتوهي أعضائه ، وربّما كسرت يديه أو رجليه ، فلا يسير بها قدر ميل ، حتى يقف موقوذاً منها ، فيأتيه الإصائد فيأخذها ، وأنواع الحُبالة كثيرة .

قوله : « القبس » ، يريد به نور المصباح . والذّبالة : القتيلة . ضِفْتُ : حُزِمَ من حشيش صغيرة ، وأصلها جماعة القضبان ، وشبهها من النبات ، يجمعها أصل واحد ، وكلّ ما جمعت عليه كنّك من حشيش أو عيدان فانتزعته من أصله ضِفْتُ . إِبَّالَة : حُزِمَة كبيرة ، والضَّفْتُ على الأبالَة مثل حزمة الخطّاب إذا حملها للبيع ، وجعل فوقها حُزِمَة صغيرة لنفسه ؛ فالكبيرة إِبَّالَة والصغيرة صِفْتُ ، فكأنه قال : إنها خسارة على خسارة ، ويقال لها : إِبَّالَة وأبيل وأبيلة ، وضِفْتُ على إِبَّالَة ، مَثَلُ أَخْذِهِ من قول الشاعر :

في كلِّ يومٍ من دُواله ضِفْتُ يزيد على إِبَّالَة^(١)

وقال آخر وذكر ناقته :

رَدَّتْ عواري غيطان الفلا ونجّت بمثل إِبَّالَة من خالص الشعير

وهذا مثل قول حبيب :

(١) المبدائي ١ : ٤١٥ من غير نسبة واللسان - أبيل ، ونسبه إلى أسماء بن خارجة -

فكم جزع وادٍ جب ذروة غارب وبالأمس كانت أتمسكته جوانبه^(١)

قوله : « انصاعت » ، أى ذهبت نافرة وانشئت بسرعة ، وكل ما نيتته ولولته .
بسرعة ؛ فقد صعته صوعاً ، وكذلك إذا جمعته وفرقته ، فذهب عنك بسرعة ،
وصاع الشجاع القوم فى الحرب ؛ إذا جمعهم بهيبته ثم صدمهم ، ففروا سراعاً
متفرقين ، وكل نافر مسرعٍ منصاع ، وقال ذو الرمة فى الخمر :

رمى فأخطأ والأقدارُ غالبةً فانصعن والويلُ هجّيراه والحربُ^(٢)

تقتص ، أى تتبع . مدرجها : طريقها التى مشت فيها لتفريق الرقاع ، ويقال :
درج الشيخ والصبي درجاً ودرجاً ، إذا تقاربت خطاهما ، والمدرج : الموضع الذى
درج فيه ، والمدرجة : قارعة الطريق . تنشد : تطلب من نشدت الضالة ، ومدرجها :
رقعتها ، ويقال : أدرجت الكتاب والثوب طوبتهما . القطعة : عند أهل المشرق :
الواحدة من صرف يعرفونه الحندوس ، يعمدون إلى دراهم فيقطمونها قطعاً ،
فهى صرفهم ، وبها يتصدقون ، فأراد أنه قرن برقة الشعر درهماً ، وقطعة من
الحندوس ، وقال لها : إن خبرتنى بقائل الشعر ، نخذى الدرهم أجرة ، وإن أبيت
أن تعرفينى به نخذى القطعة صدقة وانصرفى . المشوف : المصقول المجلّ ، والشوف :
لجلاء ، والمعلم : المنقوش ، ونقشه علامته ، وقيل : هو الذى عليه علامة الملك ،
وأخذه من قول عنتره :

ولقد شربت من المدامة بعدما ركّدت الهواجيرُ بالمشوف المعلم^(٣)

(١) ديوانه ٤٤ . جزع الوادى : جانبه . جب : قطع . الذروة : أعلى شيء . الغارب :
السكامل . أتمسكته : رفقته . وفى الديوان : « أتمسكته جوانبه » .

(٢) ديوانه ١٦ ، وانظر حواشيه .

(٣) من المعلقة ٢٥٨ بشرح التبريزى .

بُوحى . تكلّمى . المبهّم : المفلّق للمبّيس . أَيْت : امتنعت . اسرحى : اذهبى .
 اسخلاص : تخليص ، واستخلص الشئ ، جعله خالصاً . التّم : الكامل . والأبلج :
 النقى الأبيض ، وفعله ابلاج كاحمار . الهِمّ : الكبير الذى يهّم به مَنْ رآه ،
 وشيخ همّ : مسنّ ، والهَمّ : الرقيق النحيف ، وهو من همته النار إذا أذابته ،
 وهممت الشحم : أذبته . استطلعت طلعه : استخبرتها خبره ، وسألها أن تطلعن
 عليه ، وتقول : استطلعت طلع الشئ ، إذا حاولت الاطلاع عليه ، وأردت معرفة
 خبره الذى تطلع منه عليه ، وطلع بالكسر . بُردته : ثوبه .

فَقَالَتْ : إِنَّ الشَّيْخَ مِنْ أَهْلِ سَرْوَجَ ، وَهُوَ الَّذِى وَشَى الشَّعْرَ
 الْمَنْسُوجَ ، ثُمَّ خَطَفَتْ الدَّرْهَمَ خِطْفَةً الْبَاشِقِ ، وَمَرَقَتْ مُرُوقَ
 السَّهْمِ الرَّاشِقِ ، فَخَالَجَ قَلْبِي أَنَّ أَبَا زَيْدٍ هُوَ الْمَشَارُ إِلَى ، وَتَأَجَّجَ كَرْبِي
 لِمُصَابِهِ بِنَاطِرِيهِ ، وَآثَرْتُ أَنْ أَفَاجِيهِ وَأُنَاجِيهِ ، لِأَعْجَمَ عُودَ فِرَاسَتِي
 فِيهِ ، وَمَا كُنْتُ لِأَصِلَ إِلَيْهِ إِلَّا بِتَخَطُّي رِقَابَ الْجَمْعِ ، أَلْمَنِئِي
 عَنْهُ فِي الشَّرْعِ ، وَعِغْتُ أَنْ يَتَأَذَّى بِي قَوْمٌ ، أَوْ يَسْرِى
 إِلَيَّ لَوْمٌ ، فَسَكَدْتُ بِمَكَانِي ، وَجَمَلْتُ شَخْصَهُ قَيْدَ عِيَانِي ،
 إِلَى أَنْ انْقَضَتِ الْخُطْبَةُ ، وَحَقَّتِ الْوَيْبَةُ ، فَخَفَقْتُ إِلَيْهِ ،
 وَتَوَسَّمْتُهُ عَلَى التَّحَامِ جَفْنِيهِ ، فَإِذَا الْمَعِيَّتِي الْمَعِيَّةُ ابْنِ عَبَّاسٍ ،
 وَفِرَاسَتِي فِرَاسَةُ إِيَّاسٍ .

وَشَى : زَيْنَ وَرَقَمَ . خَطَفَتْ : أَخَذَتْ بِسُرْعَةٍ . الْبَاشِقُ : مِنْ جَوَارِحِ
 الطَّيْرِ . مَرَقَتْ : خَرَجَتْ بِسُرْعَةٍ . الرَّاشِقُ : الَّذِى يَرِشِقُ الصَّيْدَ ، أَيْ يَنْشِبُهُ ،

ويكون الراشق بمعنى المرشوق ، كقوله تعالى : ﴿من ماء دافق﴾^(١) ، أى مدفوق .
قوله : «خالج» ، أى داخل وجاذب . تأجج : اشتعل . كربى : هَمَى ، والتأجج
«التفعل» من الأجيح ، وهو تصويت النار ولهبا إذا اشتعلت وعظمت .
آثرت : اخترت وفضلت ، وآثرته بكذا : فضّلته به والإيثار المصدر . أفاجيه :
أتبه فجأة وهو لا يشعر . أناجيه : أحدثه . أعجم : أجرب . فراسى : نظرى ،
وجعل لها عوداً مجازاً . تخطى رقاب الجمع : الجواز على أعناق الناس ؛ خرج
الترمذى فى النهى عن ذلك ، قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من
تخطى رقاب الناس يوم الجمعة اتخذ جسراً إلى جهنم » .

عفت : كرهت . يتأذى : يصيبهم أذى . يسرى : يصل . اللوم : ضد الحمد ،
وهو أن تأخذ الإنسان بلسانك ذمّاً لما فعل . شكّدت : التصقت ولزمت . قيد
عيانى : غرض نظرى ، أى قيدت نظرى فيه . انقضت : تمت . حقت الوتبة ،
أى وجبت القفزة إليه . خفت : أسرعت . توسّمت : نظرت . التحام : التصاق
وانغلاق . ألمعيتى : ذكائى وصدق ظنّى ، والألمى ، هو الذى يظن بك الظنّ ،
ولا يخطئ ، وهو اليمى من اللعان ، كأنه يلعب لذكائه وجودة فطنته ،
وقال أوس :

الألمى الذى يظنّ بك الظنّ كأنّ قد رأى وقد سمعاً^(٢)

ولا يبين أحد الألمى بأحسن مما بينه أوس ، فإذا سئلت : ما الألمى ؟
فأنشدت بينه تأت بالجواب الشافى .

والفراسة ، أن تنظر الشيء فتستدلّ بظاهره على باطنه ، وبما حضر على ما
غاب ، وقيل : الألمية أن ترى الشيء على بُمد فتعرفه وتحققه ، والفراسة أن ترى
الرجل بين يديك فتحكمّ عليه بما أضمر ، أو بما يريد أن يفعله ، فالألمية فى البعد ،
والفراسة فى القرب ، وكيف اختلفت الألمية والفراسة ، فالظنّ الصادق يجمع بينهما .

(١) سورة الطارق ٦ .

(٢) ديوانه ٥٣ .

[ذكر ابن عباس وبعض أخباره]

وابن عباس رضى الله عنه ، هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشى الهاشمى ، يكنى أبا العباس .

ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، وكان ابن ثلاث عشرة سنة يوم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم . واختُلف في السنة التي مات فيها ، ما بين ثمان وستين في الأقل ، وأربع وسبعين في الأكثر . وصلى عليه محمد بن الحنفية ، وقال : اليوم مات ربانى هذه الأمة ، وضربَ على قبره فسطاط .

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «اللهم علمه الحكمة وتأويل القرآن» ، وفى حديث آخر : «اللهم بارك فيه ، وانشر منه ، واجعله من عبادك الصالحين» . وفى حديث آخر : «اللهم زده علماً وفقهه» ؛ وفى حديث آخر : «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل» . وكلها أحاديث صحاح .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحبه ويُدِينه ويقرّبه ويشاوره ، مع وفور جَلّة الصحابة رضى الله عنهم .

وكان ابن عمر رضى الله عنه يقول : ابن عباس فتى الكهول ، له لسان سنّول ، وقلب عَقول .

عبد الله بن عبد الله : ما رأيت أحداً كان أعلم بالسنة ، ولا أجَلَدَ رأياً ، ولا أثبت نظراً من ابن عباس .

ولقد كان عمر يعدّه للمعضلات ، مع اجتهد عمر ونظره للمسلمين .

عمرو بن دينار : ما رأيت مجلساً كان أجمع لكل خيرٍ من مجلس ابن عباس ، الحلال والحرام والعربية والأنساب والشعر .

عطاء : كان الناس يأتون ابن عباس فى الشعر والأنساب ، وناس يأتونه

لأيام العرب ووقائعها ، وناسٌ يأتونه للعلم والفقہ ، فما منهم صنف إلا يُقبل عليهم بما يشاءون .

مسروق : كنتُ إذا رأيتُ ابنَ عباس ، قلت : أجزل الناس ؛ فإذا تكلمت قلت : أفصح الناس ، فإذا تحدثت قلت : أعلم الناس .

أبو وائل : خطبنا ابن عباس رضى الله عنهما ، وهو على الموسم ، فافتتح سورة ، فجعل يقرأ ويفسر ، فجعلت أقول : ما رأيتُ ولا سمعتُ كلام رجلٍ مثله ، لو سمعته فارس والترك والروم لأسلمت .

طاوس : أدركت نحو خمسمائة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا ذكروا ابنَ عباس خالفوه ، فلم يزل يقودهم حتى ينتهوا إلى قوله .

ابن مسعود : نِعِمَّ تَرْجَمَانِ القرآن ابن عباس ، ولو أدرك أسناننا ما عاشره منّا رجل .

يزيد الأصم : خرج معاوية حاجاً ، ومعه ابن عباس ، فكان لمعاوية موكب ، ولابن عباس موكب ممن يطلب العلم .

القاسم بن محمد : ما رأيتُ في مجلس ابن عباس باطلاً قط ، وما سمعت فتوى أشبه بالسنة من فتواه .

وكان أصحابه يسمونه الحَبْرَ والبحر . وذكر أبو العباس في الكامل أن عمر بن أبي ربيعة أنشده قصيدته :

أَمِنْ آلِ نَعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَبِكْرُ غَدَاةٍ غَدٍ أَمْ رَائِحٌ فَهَجْرٌ

فحفظها مَنْ سمعها ، وهى ثمانون بيتاً^(١) .

(١) الكامل للمبرد ٣ : ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، وفى آخره بعد أن أورد أبياتاً من القصيدة : « فقال له ابن الأزرقي — وقد كان حاضراً في المجلس : قد أنت يا ابن عباس ! أنضرب إليك =

مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما : رأيتُ جبريل عليه السلام عند النبي صلى الله عليه وسلم مرتين ، ودعا لى بالحكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين .

وروى عنه أنه رأى رجلاً مع النبي صلى الله عليه وسلم فلم يعرفه ، فسأل عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أرايته ؟ قال : نعم ، قال : ذاك جبريل ، أما إنك ستفقد بصرك ؛ فعِمى بعد ذلك فى آخر عمره ، وهو القائل فى ذلك - ويروى لحسان رضى الله عنهما :

إن يأخذ الله من عيني نورها فى لسانى وقلبي منهما نور^(١)
 قلبٌ ذكىٌ وعقل غير ذى دَخَلٍ وفى فى صارم كالسيف ماثور^(٢)
 نظر إليه الخطيئة فى مجلس عمر رضى الله عنهما ، فقال : مَنْ هذا الذى برع
 الناس بعلمه ، ونزل عنهم بسنه ؟ فقيل له : عبد الله بن عباس .
 وقال فيه حسان بن ثابت رضى الله عنهما :

إذا ما ابنُ عباسٍ بدَا لك وجهه رأيتَ له فى كلِّ أحواله فصلاً^(٣)
 إذا قال لم يترك مقالاً لقائلٍ بمنتهطحات لا ترى بينها فصلاً^(٣)
 كفى وشفى ما فى النفوسِ ولم يدعْ لذي إربةٍ فى القولِ جدًّا ولا هزلاً

= أ كباد الإبل ، نسألك عن الدين فتعرض ، وبأتيك غلام من قریش فينشدك سفهاً فنسئله ؛ فقال : نأله ما سمعت سفهاً ، فقال ابن الأزرق : أما أنشدك :

رأت رجلاً إذا الشمس عارضت فيخزى ، وأما بالعشى فيخسر^١
 فقال : ما هيكننا قال ؛ إنما قال : « فيضحى وأما بالعشى فيخسر » فقال : أوتلفظ الذى قال ؟ قال : واه ما سمعتها إلا ساعى هذه ، ولوشئت أن أرددها لرددها ، قال : فأرددها - فأنشده إياها كلها .

(١) ديوان حسان ١٦٤

(٢) ديوانه ٣٥٩ ، ولم يرد فيه البيت الأول .

(٣) الديوان : « بعلتقطات » .

سموتَ إلى العليا بغير مشقة فنلت ذراها لا ذليلاً ولا وُعلاً^(١)

ونظر إليه معاوية يوماً يتكلم معه ، فأتبعه بصره ، فقال متمثلاً :

إذا قال لم يترك مقالاً لقائلٍ مصيب ولم يثن اللسان على هُجْرٍ
يصرّف بالقول اللسان إذا انتحى وينظر في أعطافه نظر الصقر

وروى أن طائراً أبيض خرج من قبره ، فتأولوه علمه خرج إلى الناس .

وقيل : دخل قبره طائر أبيض ، فقبل : هو بصره .

وقال أبو الزبير : مات ابن عباس رضى الله عنهما بالطائف ، فجاء طائر

أبيض فدخل في نعشه حين حُل ، فما رُئى خارجاً منه .

وفضائله كثيرة مشهورة ، فلنقف منها على هذا القدر .

[ذكر إياس القاضي]

وأما إياس ، فهو أبو وائلة بن معاوية بن قرة بن إياس بن هلال بن رباب المزني ، قاضي البصرة . وسبب قضائه أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كتب إلى عدى بن أرطاة عامله على البصرة ؛ أن اجمع إياس بن معاوية المزني والقاسم ابن ربيعة الحارثي ، فول القضاء أنفذهما وأقعهما . فجمع بينهما ، فقال كل واحد : إن صاحبه أنفذ وأقعه ، فقال له إياس : سل عني وعن القاسم فقيهي المصر : الحسن وابن سيرين - وكان القاسم يأتيهما وإياس لا يأتيهما - فعلم القاسم أنه إن سألهما أشارا به . فقال القاسم : لا تسأل عني ولا عنه ؛ فوالله الذي لا إله إلا هو ؛ إن إياساً لأقعه مني ، فإن كنت كاذباً فما عليك إلا ألا توليني

(١) الوغل من الرجال : الضعيف الساقط .

(١٩ - شرح مقامات الحريري)

وَأَنَا كَاذِبٌ، وَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَقْبَلَ قَوْلِي. فَقَالَ لَهُ إِيَّاسُ: إِنَّكَ جِئْتَ بِرَجُلٍ، فَوْقَ قَتْلِهِ عَلَى شَفِيرِ جَهَنَّمَ، فَذَجَّيْ نَفْسَهُ مِنْهَا بِيَمِينٍ كَاذِبَةٍ يَسْتَغْفِرُ اللَّهُ مِنْهَا، وَيَنْجُو بِمَا يَخَافُ، فَقَالَ لَهُ عَدِيُّ: أَمَّا إِنَّكَ إِذْ فَهِمْتَهَا فَأَنْتَ لَهَا؛ فَاسْتَقْضَاهُ. وَقَالَ إِيَّاسُ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَرْسِلْ إِلَى ابْنِ هَبِيرَةَ فَأَتِيْتَهُ، فَسَأَلْنِي فَسَكَتُ، فَلَمَّا أَطْلُتُ قَالَ: هَيْهَ! قُلْتُ: سَلْ عَمَّا بَدَأَ لَكَ، قَالَ: أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: أَتَفْرِضُ الْفَرَائِضَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: أَتَعْرِفُ مِنْ أَيَّامِ الْعَرَبِ شَيْئًا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: أَتَعْرِفُ مِنْ أَيَّامِ الْعَجَمِ شَيْئًا؟ قُلْتُ: أَنَا بِهَا أَعْرِفُ، قَالَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْتَعِينَ بِكَ عَلَى عَمَلِي، قُلْتُ: إِنْ فِيَّ خِصَالًا ثَلَاثًا لَا أَصْلَحُ مَعَهَا لِلْعَمَلِ، قَالَ: مَا هِيَ؟ قُلْتُ: أَنَا دَمِيمٌ كَمَا تَرَى، وَأَنَا عَيْجِي، وَأَنَا حَدِيدٌ، قَالَ: أَمَّا دِمَامَتُكَ فَإِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَحَاسِنَ بِكَ النَّاسَ، وَأَمَّا الْعِيَّ فَإِنِّي أُرَاكَ تُعْرِبُ عَنِ نَفْسِكَ، وَأَمَّا الْحِدَّةُ فَإِنْ السُّوْطُ يَقُومُكَ، قُمْ. فَوَلَّانِي الْقَضَاءَ، وَأَعْطَانِي عَشْرَةَ آلَافٍ دَرَاهِمَ، فَهِيَ أَوَّلُ مَالٍ تَمَوَّلْتُهُ.

وَدَخَلَ عَلَيْهِ عَدِيُّ بْنُ أَرْطَاةٍ فِي مَجْلِسِ الْقَضَاءِ - وَعَدِيُّ أَمِيرُ الْبَصْرَةِ، وَكَانَ أَعْرَابِيًّا طَبِيعٌ - فَقَالَ: يَا هَنَاهُ، أَيْنَ أَنْتَ؟ قَالَ: بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْخَائِطِ، قَالَ: فَاسْمَعْ مِنِّي، قَالَ: لِلْإِسْتِمَاعِ جَلَسْتُ، قَالَ: إِنِّي تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً، قَالَ: بِالرِّفَاءِ وَالْبَنِينَ، قَالَ: وَشَرَطْتُ لِأَهْلِهَا إِلَّا أَخْرَجَهَا مِنْ بَيْنِهِمْ، قَالَ: أَوْفٍ لَهُمْ بِالْشَّرْطِ، قَالَ: فَأَنَا أُرِيدُ الْخُرُوجَ، قَالَ: فِي حِفْظِ اللَّهِ، قَالَ: فَاقْضِ بَيْنَنَا، قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ، قَالَ: فَبِمَ تَحْكُمُ؟ قَالَ: بِأَلَّا تَخْرِجَهَا، قَالَ: بِشَهَادَةِ مَنْ؟ قَالَ: بِشَهَادَةِ ابْنِ أُخْتِ خَالَتِكَ.

وَأَوَّلُ مَا ظَهَرَ مِنْ ذِكَاثِهِ، أَنَّهُ دَخَلَ دِمَشْقَ، وَهُوَ غَلَامٌ، فَتَحَاكَمَ مَعَ شَيْخٍ عِنْدَ قَاضِيهَا، فَصَالَ إِيَّاسُ بِحِدَّتِهِ عَلَى الشَّيْخِ، فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي: إِنَّهُ شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَخَفَضَ كَلَامَكَ، فَقَالَ لَهُ إِيَّاسُ: الْحَقُّ أَكْبَرُ مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي:

اسكت ، فقال : وَمَنْ يَنْطِقُ بِحَجَّتِي ؟ فقال له القاضي : ما أراك تقول حقاً ، فقال إيّاس : لا إله إلا الله ، أحقُّ هذا أم باطل ؟ فدخل القاضي من فوره إلى عبد الملك بن مروان ، فأعلمه بما رأى من ذكائه ، فقال له عبد الملك : اخرج فاحكم بينهما ، وأخرجهُ الآن من دمشق إلى بلاده لئلاَّ يُفسد على أهل الشام .

ولما دخل عبد الملك البصرة رأى إيّاساً وهو صبيّ ، وخلفه أربعة من القراء أصحاب الطيالة ، وإيّاس يقدّمهم ، فقال عبد الملك : أفٍ لهذه العنانين ؛ أما فيهم شيخٌ يقدّمهم غير هذا الحدث ! ثمّ التفت إليه ، وقال : كم سنّك ؟ فقال : سنّي - أطال الله بقاء الأمير - سنُّ أسامة بن زيد بن حارثة حين ولّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً فيهم أبو بكر وعمر ؛ فقال : تقدّم بارك الله فيك ، وكان سنّه سبع عشرة سنة .

وأما ذكاؤه وفراسته ، فقد ألّف في ذلك المدائنيّ كتاباً سمّاه كتاب «زكّن إيّاس» ، والزكّن : التشبيه ، يقال : زكّن عليهم وزكّم : شبّه وخيّل ، وقيل : الزكّن : الظنّ والتفرّس . ومن زكّنه أنه اختصم إليه رجلان في قطيفتين : حمراء وخضراء ، فقال أحدهما : دخلت الحوضَ لأغتسل ووضعت قطيفتي ، ثم دخل واغتسل ، فخرج قبلي ، وأخذ قطيفتي ، فتبعته ، فزعم أنها قطيفته ، فقال : ألك يديّة ؟ قال : لا ، قال : اثتوني بمشط ، فأثني به ، فسرّح رأس هذا ، ثم هذا ، فخرج من رأس أحدهما صوف أحمر ، ومن رأس الآخر أخضر ، فقضى بالأخضر لصاحب الأخضر ، وبالأحمر لصاحب الأحمر .

وأتى المدينة فصلّى في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزكّنه أهله حتى صاروا فرقتين : فرقة تزعم أنه معلم ، وأخرى تزعم أنه قاضٍ ، ثم وجّهوا إليه رجلاً ، فأخبره خبرهم ، فقال : أهّاب الذين ذكروا أني قاضٍ ، ورويداً أخبرك عن القوم ؛ أما الذي منّ صفته كذا فهو كذا ، وأما الذي يليه فهو كذا ، وأما ذاك الشيخ فإنه نجار ، فقال الرجل : في كلّهم والله أصبت إلّا في الشيخ ،

فإنه من قريش ، فقال إياس : وإن كان من قريش ! فقام الرجل إلى أصحابه ، فقال : قد جئتم من عند أعجب الناس ، والله إن منكم من أحدٍ إلا أخبرني بصناعته إلا هذا فزعم أنه نجار ، فقال : صدق والله : إني لأنجر عيدان جوارى - يعني عود المزمار .

ونظر إلى ثلاث نسوة فزعن من شيء ، فقال : هذه حامل ، وهذه مرضع ، وهذه بكر ، فسئِلن فوجِذن كذلك ، فسئِل من أين لك علم ذلك ؟ فقال : لما فزعن وضعت كل واحدة منهن يدها على أهم المواضع لها ، فوضعت المرضع على ثديها ، والحامل على بطنها ، والبكر على فرجها .

وسمع نباح كلب لم يره ، فقال : هذا نباح كلب مربوط على شفير بئر ، فنظر فكان كما قال ، فقيل له في ذلك ، فقال : سمعت عند نباحه دويًا ، ثم سمعت بعده صي يَجيبه ، فعلمت أنه عند بئر .

ومن فراسته أنه رأى أثر اعتلاف بعير ، فقال : هذا بعير أعور ، فنظروا فكان كما قال ، فقيل له في ذلك ، فقال : لأن وجدت اعتلافه من جهة واحدة .

ولما صار ذكاؤه يضرب به المثل ، كما يضرب بجود حاتم وحلم الأحنف وشجاعة عمرو بن معديكرب ، نظمهم حبيب في بيت جمع فضلمهم المتفرق للعباس ابن المأمون ، فقال :

إقدامُ عمرو في سماحة حاتم في حلمٍ أحنف في ذكاء إياس^(١)

وتوفي سنة ثنتين وعشرين ومائة . وأخباره كثيرة ، وفيما أوردناه كفاية .

فَمَرَفَتُهُ حِينَئِذٍ شَخْصِي * وَأَثَرَتُهُ بِأَحَدٍ قُمْصِي * وَأَهْبَتُ بِهِ
إِلَى قُرْمِي ، فَهَشَّ لِعَارِفَتِي وَعِرْفَانِي ، وَلَبَّى دَعْوَةَ رُغْفَانِي ،

(١) ديوانه ١٧٤ ، وفيه : « يمدح أحمد بن المعتصم » .

وَانْطَلَقَ وَيَدِي زَمَامُهُ ، وَظَلِّي إِمَامُهُ ، وَالْعَجُوزُ ثَالِثَةُ الْأَثَافِي ،
وَالرَّقِيبُ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِي . فَلَمَّا اسْتَحْلَسَ وَكُنْتِي ،
وَأَحْضَرْتُهُ عَجَالَةً مُكْنَتِي ، قَالَ لِي : يَا حَارِثُ ، أَمَعْنَا ثَالِثُ ؟
فَقُلْتُ : لَيْسَ إِلَّا الْعَجُوزُ ، قَالَ : مَادُونَهَا سِرٌّ مَحْجُوزٌ . ثُمَّ فَتَحَ
إِخْدَى كَرِيْعَتَيْهِ ، وَرَأَى بَنُوْءَ مَتَيْهِ ، فَإِذَا سِرَاجًا وَجْهَهُ يَقْدَانِ ،
كَأَنَّهُمَا الْفَرْقَدَانِ . فَأَبْشَهَتْ بِسَلَامَةِ بَصَرِهِ ، وَعَجِبْتُ مِنْ
غَرَائِبِ سَيْرِهِ ، وَلَمْ يُلْقِنِي قَرَارٌ ، وَلَا طَاوَعَنِي اصْطِبَارٌ ، حَتَّى
سَأَلْتُهُ : مَا دَعَاكَ إِلَى التَّمَالِي ؛ مَعَ سَتِيرِكَ فِي الْمَعَامِي ، وَجَوْبِكَ الْمَوَامِي ،
وَيَاغَالِكَ فِي الْمَرَامِي !

قوله : « أَهْبَتْ بِهِ » ، أى دعوته ، وأصل « أَهَابَ » دعا نفسه مَنْ بَعْدَ . وقيل :
الإِهَابَةُ دَعَاءُ الْإِبِلِ لِلشَّرْبِ . وَالْقُرْصُ : رَغِيفٌ صَغِيرٌ سُمِّيَ قُرْصًا ، كَأَنَّهُ قُرْصٌ مِنْ
الْعَجِينِ ، أَيْ قُطِعَ ، وَالتَّقْرِيصُ : التَّقْطِيعُ . هَشَّ : خَفَّ فَرَحًا . وَالْعَارِفَةُ : يَرِيدُ النِّعْمَةَ
وَهِيَ الْمَعْرُوفُ . لَبَّى : أَجَابَ وَقَالَ : لَبَّيْكَ ، وَمَصْدَرُهُ تَلْبِيَةٌ وَهِيَ « تَفْعَلَةُ » ، مِنْ
الْإِلْبَابِ وَهُوَ الْإِزْوَمُ ، وَلَبَّ بِالْمَكَانِ وَاللَّبَّ بِهِ : أَقَامَ ، وَأَصْلُهُ لَبَّبَ بَثَلَاثَ بَاءَاتٍ ،
فَأَبْدَلُوا الْآخِرَةَ يَاءً اسْتِنْقَالًا لِاجْتِمَاعِ الْأَمْثَالِ ، كَمَا قَالُوا : تَظَنَّتِ وَتَمَطَّيْتُ ، فَالْيَاءُ
فِيهِمَا بَدَلٌ مِنْ مِثْلِ الْحَرْفِ الَّذِي قَبْلُهَا ، ثُمَّ أَتْبَعُوهُ الْإِبْدَالَ فِي الْمَصْدَرِ وَهُوَ تَلْبِيَةٌ ،
فَيَاؤُهُ بَاءٌ ، وَقَوْلُهُمْ : لَبَّيْكَ ، مَعْنَاهُ إِجَابَةٌ بَعْدَ إِجَابَةٍ ، وَلِزُومًا لَطَاعَتِكَ بَعْدَ لُزُومٍ .
رُغْفَانٌ : جَمْعُ رَغِيفٍ ، يَرِيدُ أَنَّهُ لَمَّا سَمِعَ يَذْكُرُ الْخَبْرَ ، فَكَأَنَّهُ الْخَبْرَ دَعَا فَأَجَابَهُ .
زَحَامُهُ : مَقْرُودُهُ . إِمْلَمُهُ : هَادِيهِ . الْأَثَافِي حِجَارَةُ الْقَدَرِ ، وَهِيَ ثَلَاثُ ، وَالْعَرَبُ
تَقُولُ : رَمَاهُ اللَّهُ بِثَلَاثَةِ الْأَثَافِي - يَعْنُونَ بِهَا الْجَبَلَ ، لِأَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ حَجَرَيْنِ

ويلصقونهما بالجبل ، فيقوم الجبل مقام الحجر الثالث ، واحداً منها أُنْمِيَّةٌ بالتشديد ، وقد تُخَفَّفُ ، وقد أُنْفِيتِ القدر وأُنْفَتْها ونَفَيْتِها ، وتسمَّى العرب أُنْفَافَ الحديد المنصَّب . الرقيب : الحافظ ، يريد الله تعالى . استجلس وكُنْتِي ، أى دخل بيتي ، وجلس على حِاسِه ، وهو ما يُبَسِّطُ تحت بسطه ؛ يقبها الأرض ، وفلان جلس بيته ، أى لازم التعمود فيه ، وفي الحديث : « كن في الفتنة جلس بيتك » ، أى لا تدخل فيها ، والحِاسُ : كساء يلي ظهر البعير تحت البرذعة ويلزمه ، فشبه الذين يعرفون الشيء ويلزمونه بالحِلس ، ومنه قولهم : لست من أحلاسها ، أى من أصحابها العارفين بها . ومنه بنو فلان أحلاس الخيل ، أى الذين يضمرونها ويلزمون ظهورها ، وأحلاس القوافي : المجيدون في نظم الشعر ، والوُكْنَةُ : الثقبه في الحائط يسكنها الطائر ، وقيل : هى الموضع من الشجرة وغيرها ، يقع عليه للمبيت ، وهى الوَكْنُ ، ووَكْنُ الطائرُ وَكْنًا ، فهو واكن إذا حضن على فرخه ، فلزم وكُنْتَهُ . عَجَالَةٌ مُكْنَتِي : ما تعجل وأمكن من الطعام . محجوز : ممنوع ، وحجزت الشيء : حجزته ومنعته ، وحجزت بين الشئين حجزاً ، فأنا حاجز ، إذا جعلت بينهما حائلاً ، والمنعول محجوز ، ومنه الحِجَاز ؛ لأنها أرض حجزت بين نجد والسَّراة . كريمته : عينيه ، وفي الحديث قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما من عبد أذهب الله كريمته إلا كان ثوابه عند الله الجنة » قالوا : وما كريمته ؟ قال : عيناه . رأراً : قلبهما وأدارهما إدارة كثيرة . وتوهمته : كريمته ، وقوله : « مسح كريمته » ، يريد أنه حكهما بكفهما ، فانتفض عنهما ما كان ألصقهما به ، حتى التهما . وقيل : رأراً : أدار العين وحدد نظرها . وتوهمته : عيناه ، وفي الغريب المصنف : رأرات المرأة بعينها ولآلات ، إذا برقت عينيها ، وأشد ابن الأعرابي :

عجبت من الحور الكريم نجارها ترأرى بالعينين للرجل الحليل^(١)

الحليل : الداهية . الفرقدان : نجان مُنيران فى بنات نعش . ابتهجت : فرحت .

(١) اللسان - حبل ، وروايته : « فيا عجبا للغود تندى قناعها » .

سِيرَه : عاداته . يُبَذِّقُني قرار : يحبسني سكون وطمانينة . التَّعَامَى : استعمال العمى .
 المعامى : الطرق المجهولة ، وقيل : القفار البعيدة التي تعمى فيها الآثار فلا يُهْتَدَى
 فيها . الموامى : القفار ، واحداها مَوْمَاءة . إِبْغَالُكَ : إبعادك ومبالغة دخولك .
 المرامى : المقاصد والبلاد التي ترميه إلى بلاد أُخْرَى ؛ يقول : سألته ما الذى
 دعاكَ إلى استعمالك العمى مع دخولك لطلبك الرزق فى المشقات وجَوْب البلاد
 البعيدة ، فلم تجدْ لنفسك حيلة حتى تشبَّهت بالعميان !

* * *

فَتَظَاهَرَ بِاللَّكْنَةِ ، وَتَشَاغَلَ بِاللَّهْنَةِ ، حَتَّى إِذَا قَضَى وَطَرَهُ ، أَتَارَ
 إِلَى نَظَرِهِ ؛ وَأَنْشَدَ :

وَأَمَّا تَعَامَى الدَّهْرِ وَهُوَ أَبْوَالُورَى عَنْ الرُّشْدِ فِي أَنْحَائِهِ وَمَقَاصِدِهِ
 تَعَامَيْتُ حَتَّى قِيلَ إِنِّى أَخُو عَمَى وَلَا غَرَرَأَنْ بِحَذْوِ الْفَتَى حَذْوُ الْوَالِدَةِ
 ثُمَّ قَالَ لى : انْهَضْ إِلَى الْمُخْدَعِ فَانْتِنِ بِمَسْئُولِ يَرُوقُ الطَّرْفُ ،
 وَيُنْقِى الْكَفَّ ، وَيُنْعِمُ الْبَشْرَةَ ، وَيُعْطِرُ النَّكْهَةَ ، وَيَشْدُ اللَّئَةَ ،
 وَيَقْوَى الْمِعْدَةَ ، وَلْيَكُنْ نَظِيفَ الطَّرْفِ ، أَرِيحَ انْعَرَفِ ، أَتَى
 الدَّقَّ ، نَاعِمَ السَّحْقِ ، يَحْسِبُهُ اللَّامِسُ ذُرُورًا ، وَيَخَالُهُ النَّاشِقُ كَافُورًا ،
 وَاقْرُنْ بِهِ خِلَالَ تَقِيَّةِ الْأَصْلِ ، مَحْبُوبَةَ الْوَصْلِ ، أُنَيْقَةَ الشَّكْلِ ، مَدْعَاةَ
 إِلَى الْأَكْلِ ؛ لَهَا نَعَافَةُ الصَّبِّ ، وَصَقَالَةُ التَّمْضِيبِ ، وَآلَةُ الْحَرْبِ ،
 وَلَدُونَةُ الْغُضَنِ الرَّطْبِ .

◊ ◊ ◊

تظاهر : استعان . واللكنة : احتباس اللسان ؛ يريد : لنا امتلاء فيه بالطعام .

لم يقسّر ح لسانه بالكلام ، فوجد بذلك علة لقطع الجواب ، فكان الأكنة أحاطته على ذلك . اللهمنا : الطعام المعجل للصيف قبل الغداء ، وكل ما تمجّلت قبل إدراك الطعام لهنة ، ولهمّنت الضيف : علته بذلك . قضى وطّره : أتم حاجته من الأكل ، والوطر : المراد ، ولا فعل له . أثار : تابع نظره وحدّده . الوري : الخلق . آحائه : أغراضه ومقاصده ، والنحو كالقصد . لاغرّو : لا عجب . يحدّو حدّوه : أى يفعل فعله .

[ذكر العمى وما ورد فيه من الشعر]

وهذا الاعتذار عن التعامى حسن ، وقد تقدم اعتذار ابن عباس رضى الله عنهما عنه . وما يعزى للحُصْرِى^(١) فى ذلك :

وقالوا قد عميتَ فقلت كلاً
سواد العين زار سواد قلبى
فإنى اليوم أبصرُ من بصيرِ
ليجتمعا على فهم الأمورِ
أخذَه من قول بشار :

إذا ولد المولود أعمى وجدته
عميتُ جنيناً والدّكاء من العمى
وجدك أهدى من بصيرٍ وأخولاً^(٢)
فجئت عجيب الظنّ للعلم معقلاً
وغاض ضياء العين للقلب فاعتدى
بقول إذا ما ضيع الناس حصلاً
وشعر كنوز الرّوض لا امت بينه
بقول إذا ما أحزن الشجر أسهلاً
وقال بشار :

قالوا العمى منظرٌ قبيحٌ
تالله ما فى البلاد شئٌ
قلت بفقدى لكم يهون^(٣)
تأسى على فقدِه العميونُ

(١) الحصرى ، بضم الحاء وسكون الصاد ، منسوب إلى عمل الحصر أو بيعها : على ابن عبد الغنى القيروانى ، صاحب قصيدة « ياليل الصب » ، وهو ابن خالة إبراهيم بن على الحصرى ، صاحب كتاب زهر الآداب ، والبيتان فى نكت الهميان ٧٦ .
(٢) الأبيات عدا الأول فى الأغاني ٣ : ١٤٢ ، ونكت الهميان ٧٥ .
(٣) نكت الهميان ٧٥ .

وعكس هذا المعنى أبو العيناء حين سأله المتوكل : ما أشدُّ ما عليك في ذهاب بصرك؟ قال : ما حرِّمته يا أمير المؤمنين من رؤيتك مع إجماع الناس على جمالك .

ومما يُستملح من هذا الباب : نشأ أعمى بين أعورين ، فإذا مشيا أو قعدا ، فغذى عَوْرُ هذا عَوْرَ هذا نشأ بينهما أعمى .

وقال المتنبي يمدح العور ويذمه في بيت واحد :

أيا بن كروسي يا نصف أعمى وإن تفخر فيا نصف البصير^(١)
فإذا انضم ابن كروس إلى مثله نشأ بينهما أعمى ، قال الشاعر :
ويننأ أبدأ أعمى تؤلفه قد يخلق الله عيانا من العور
وقال آخر :

ألم ترني وعمرأ حين نغدو إلى الحاجات ليس لنا نظيرُ
أسايره على يُمنى يديه وفيما بيننا رجلٌ ضريرُ
وقال آخر في أعور وعوراء تعاشقا :

هي عوراء باليمن وهذا أعورٌ بالشمال وافق شتًا
بين شخصيهما ضريرٌ إذا ما قعدت عن شماله تنغني
فأما قول جميل^(٢) اليشكري في صفة الذئب^(٣) :

وأعور من يمناه إن شاء مرة وإن شاء من يسراه ما كان راقدا
لقد فزت دون العور - أوس - برتبة^(٣) وأعطيت نابا يفلق الصخر باردا

(١) ديوانه ٢ : ١٤٤ ، قال في شرحه : يخاطب ابن كروس الأعور وكان يماديه .

(٢) كذا في الأصول ، ولله تصحيف عن « المنخل » .

(٣) أوس اسم علم على الذئب .

فإنما وصفه بشدة الحذر ، وذكر العور على معنى الاستعارة كما قال حميد
ابن ثور :

ينام بإحدى مقتلتيه ويتقى بأخرى المنايا فهو يقظان نائم^(١)

وقال ابن المعتل :

أشهى في المقلة القبلا لا كثيراً يشبه الحولا
واحمرار الخد من خجل إتنى أستحسن الخجلا

وقال آخر :

وأحول ذي حرّكه يملأ بيتي برّكه

يريد أنه يرى من الشيء اثنين ، كما قال الآخر :

فقد جعلت أرى الشخصين أربعة والواحد اثنين بما بورك البصر

لأن هذا يصف الكبير .

واعتذر القاضي أبو محمد عبد الوهاب^(٢) عن الحول فأحسن ، حيث يقول :

حمدت إلهي إذ بُليت بحبها وبي حول يغني عن النظر الشرير
نظرت إليها والرقيب يظنني نظرت إليه ، فاسترحت من العذر

فجّوله رفع عنه ثقل مؤنة التكلف الذي ذكر الآخر حين قال :

ولما التقينا والعيون نواظرن وليس لنا رسل سوى الطرف للطرف

(١) البيت لحميد بن ثور ، ديوانه ١٠٥ ، : « يقظان هاجم » .

(٢) هو أبو محمد عبد الوهاب بن نصر بن أحمد المالكي ، القاضي ذكره البناهي في

الترتية النونية ٤٠ - ٤٢ .

تنزهت في خديك من نظر خفي وما زلت أخفي الودّ ضعفاً على ضعفي
فإن غفل الواشون فزت بنظرة وإن نظروا نحوي نظرتُ إلى كفي
فلذلك حمد الله على الحول .

وقال الناشئ في هذا المعنى فأحسن :

يتناقضان اللفظ من جفنيهما فكأنما يتناسخان كتاباً
وإذا سَهت عينُ الرقيب تخالست كفاهما خلس السلام سلاباً

وللقاضي أبي محمد عبد الوهاب ، أنشدنا بعض أشياخنا البيت الثاني
والأخير من القطعة التالية ، وكان كثيراً ما يحرضنا بها على الطلب ، ويسلينا
عن الغربة :

ومحجوبة في الخدر عن كل ناظرٍ ولو برزت بالليل ماضٍ من يسرى
أقول لها والدَّمع يغلبُ صبرها أعدى لفقدي ما استطعت من العبث
سأنقِ ريعانَ الشبيبة أنفاً على طلبِ العلياء أو طلبِ الأجر
أليس من الحرمان أن ليالياً تمرُّ بلا نفعٍ وتحسب من عمرى !
ولم ينشدنا البيت الأول ولا الأوسط ، وهما من القطعة .

وأما كلام الحريري الذي فرغنا من شرحه ؛ فهو منقول من مقامة البديع^(١) ،
يقول على لسان عيسى بن هشام : « ثم فارقهم وتبعته ، وعرفت أنه متعام لسرعة
ما عرف الدينار . فلما نظمنا خلوة ، مددت يميني إلى يسرى عضديه ، فقلت :
والله لتريني سرّك ، أو لأهتك^(٢) سِرّك ، ففتح عن توءمته^(٣) ، وحذر لثامه
عن وجهه ، فإذا والله أبو الفتح الإسكندري ، فقلت له : أنت أبو الفتح ؟ فقال :

(١) المقامات ٩٣ .

(٢) المقامات : « لا كفني » .

(٣) المقامات : « توءمتي لوز » .

أنا أبو قلموت في كل لون أكون
 اختر من الكسب دوناً فإن دهرك دون
 زج الزمان بحمق إن الزمان زبون
 لا تكذب بعقل ما العقل إلا الجنون

وعتب الحريري على العمى فائق في النثر، وشعره في الاعتذار عنه رائق في النظم، وهو على انطباعه في القصد إذا أتى بالبيتين أتى بالعجب، وهو في ذلك كما قيل في أبي منصور الفقيه: إذا رمى بزُجّيه قتل.

قوله: «الخدع»، هو بيت داخل بيت، قال ابن الأنباري: هو الخزانة في جانب البيت، وهو من خدع، إذا توارى واستتر، وأخدعه إخداعاً: أخفاه، فمن ضمّ ميم «مُخدع» فهو من «أخدع»، ومن فتح فهو من «خدع»، وخدع الصبّ في جُعره خدعاً: دخله خوفاً من صائده. اللَّـول: الأُشنان، وهو التناوة، ويقال أيضاً: الناسول، وكل ما غسلت به ثوبك أو رأسك فهو غِسل وغسُول. يَرُوق: يعجب. والطرف: العين. ينقّ: ينظف. والبشرة: ظاهر الجلد. والنكمة: رائحة الفم، ونكمت الرجل أنكبه وأنكبه - والفتح أقل - واستنكته، كله شممت فاه، قال الشاعر:

نكِهتُ مجالداً فشمتُ منه كريح الكلب ماتَ حديثَ عَهْدٍ
 واللثة: اللحم على الأسنان. نظيف الظرف: نقي الوعاء. أريج العرف: عطر الرائحة، والأرج: فوح الطيب وأرج المسك: فاح. فتى الدق: طرى الكسر. ناعم: حسن، قد بولغ في سحقه، يريد أنه في الحال الذي يسحق يستعمل. الناشق: الشام. والذرور والكافور: من أنواع الطيب، والذرور هو (١) السان - نكه، وفيه: «فوجدت منه».

المعروف بالذريعة ، والذرور أيضاً : غبار يُذَرّ في العين ، وكلّه مأخوذ من الذرّ ، وهو التفرق ، لأن أجزاءه تفرقت عند سحبه ، وفعله ذرّ ، وأصله ذرر - والكافور مأخوذ من الكفر ، وهو النطفية ، فلشدة قوّه وحده يستر رائحة غيره من الطيب . واللامس : الذي يمسّه بيده . الخلالة : عويدة رقيق يخرج به الطعام من خلل الأسنان . أنيقة الشكل ، معجبة الهيئة ، وشكل الشيء : هيئته التي هو عليها . ومدعاة : داعية ، والماء للمبالغة . نحافة الصبّ : رقة العاشق . والمضب : السيف القاطع . آلة : عدّة وأداة ، يريد أنها محدّدة مصقولة مثل آلة الحرب . ويروى : « آلة » بالتشديد ، وهي الحربة . لدونة : لين . نحافة الصبّ : ليس هو تشبيهاً حقيقياً ، وإنما أراد أنها أخذت من العاشق نحافته ، ومن المضب صقالته ، ومن الفصن لدونته ، ولو شبه الخلالة في الرقة بالعاشق ونحوه لكان جائزاً ، وكان من التشبيه المقلوب ، وكلاهما بديع في بابه .

والخلالة التي ذكر ، أصلها نبات لشجيرة نبت في الصيف ، وتقطع له رؤوس ، يكون في الواحد منها عدّة من قضبان رفاق ، فيمسك الرجل منها في يديه رأساً ، فتى أكل طعاماً نزع منها قضيباً فتخلل به ، ويعرف هذا النبات عندنا بالبستينج ، فيحتمل أن يكون هذا بعينه هو الذي عندهم في المشرق ، وإلا فصفتة التي وصفت موجودة في البستينج من الرقة والصفاء واللين والحدة .

وجاء في الحديث النهى عن التغلّل بعود الآس والرمان والقصب ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تقوا أفواهكم بالخلال فإنها مسكن الملكين للكاتنين الحافظين ، وإن قلما لسان ، ومدادها الرقيق ، وليس عليهما شئ أشدّ من فضول الطعام » .

أبو أيوب : قال صلى الله عليه وسلم : « حبذا المتغلّلون في الوضوء والطعام » . أبو هريرة قال : قال صلى الله عليه وسلم : « من أكل فليتنخلّ ، فما تنخلّ فليلفظ ، ومالك بلسانه فليبتلع » .

[استطراد بذكر أشعار في التشبيه رائقة]

والخِلَالَة إذا بلغت من رقتها ، أن تقع بين الأسنان ، فالعاشق إذا بلغ الغاية التحول ، هو الذى يشبه بها ، كما قال فى التاسعة فى وصف الصبي الهزيل من الجوع : « ولى منه سُلالة ، كأنها خِلالة » ، وأخذه من قول ديك الجن :

ارحَمَ اليوم ذلتى وخُضوعي فلقد صرت ناحلاً كالخِلَالِ

وقال أبو الطيّب :

رُوحٌ تَرَدَّدَ فى مِثْلِ الخِلَالِ إذا أطارت الريح عنه الثوب لم يَبِين^(١)

فذكر أن ثوبه على بدن لم يتبين للناظر . والتشبيه المقلوب عندهم شىء مستظرف ، ومذهب مستحسن كما قال ذو الرمة :

ورمل كأوراكِ العذارى قطعته وقد جَلَّته للظلماتِ الحَنَادِسُ^(٢)

فقلب التشبيه ، لأن العادة أن تشبه الأعجاز بكثبان الرمل ، كما قال الآخر :

* مثل قضيبٍ تحتَه كُثيبُ *

وكما قال الآخر :

وبيضٍ نصيراتِ الوجوه كأنما تَأَزَّرْنَ دون الأُزْرِ رِمَلَاتٍ عَالِجٍ

وأخذه حبيب ، وجود الصنعة حيث قال :

كم أحرزت قضب الهندى مصلته تهتز من قضب تهتز من كُثْبِ^(٣)

(١) ديوانه ٤ : ١٨٦

(٢) ديوانه ٣١٨

(٣) ديوانه ١١

علق قوله: «من قُضِبَ تهتز» : «أحرزت» يلج^(١) لك بدع صنعته بسرعة ، فإنه أراد: كم أحرزت قُضِبَ الهند وهي السيوف إذا أُصْلِتَتْ من أعمادها ، وهزّت. من قُضِبَ ، أى قدود نساء . تهتز من كُشِبَ ، أى أكفال شبه أكداس رمال . وما أعذب وأظرف قول البحترى :

أين الغزال المستعير من النِّقَا كَفَلًا ومن نَوْرِ الْأَفَاحِي مَبِيسًا^(٢)

فهذا هو الذى جرت به العادة فى التشبيه ، قلب ذو الرمة العُرف والعادة ؛ فشبه كُشبان النِّقَا بأ كفال النساء ، وتبعه خالد الكاتب وغيره . حدث جحظة قال : حدثني خالد الكاتب ، قال : جاءني يوماً رسول إبراهيم بن المهديّ ، فسرت إليه ، فأريت رجلاً أسود على فُرُشٍ قد غاص فيها ، فاستجلسني وقال : أنشدني من شعرك ، فأنشدته :

رأتُ منه عينيَ منظرين كما رأْتُ من الشمس والبدرِ المنيرِ على الأرض
عشيّة حَيَّانِي بوردٍ كأنّه خدود أضيفتُ بعضهنّ إلى بعض
ونازعني كاساً كأنّ حبابها دموعي لما صدّ عن مُقلتي غمضي
وراحَ وفعلُ الرّاح في حرّكاته كفعلِ نسيم الرّيح في الغصن الغصّ

فزحف حتى صار في ثلثي الفراش ، وقال : يا فتى ، شبهوا الخدود بالورد ، وأنت شبهت الورد بالخدود ! فزدني ، فأنشدته :

عابتُ نفسي في هواك فلم أجدها تقبل^(٣)
وأطمت داعيها إليّ لك ولم أطع من يعذل
لاوالذى جعل الوجوه لحسن وجهك تمثل
لاقلت إن الصبر عندك من التّصابي أجمل

(١) كذا في أ ، ب ، وف ط : « يلج » .

(٢) الأغاني ٢١ : ٣١

(٣) ديوانه ١٩٥٨

فزحف حتى انحدر من الفراش ، ثم قال : زدني ، فأنشدته :

عش فحُبِّيكَ سريعاَ قاتلي والعني إن لم تصلني واصلِي
فأنا بين اكتابٍ وضئي تركاني كاتمة ضيب الذابل
فبكي العاذل لي من رحمةٍ فبكائي لبكاء العاذل

فاستخفت طرباً ، ثم قال : يا بليق^(١) ، كم معك لنفقتنا ؟ قال : ثمانمائة وخمسون ديناراً ، قال : اقسما بيني وبين خالد ، فدفع إلي نصفها .

وقد سبق إلى قوله : « كأنه خدود » ، قال المفضل : دخلت على الرشيد وبين يديه طبق ورد ، وعنده جارية مليحة شاعرة أدبية ، قد أهديت إليه ، قال : يا مفضل ، قل في هذا الورد شيئاً تشبه به ، فأنشأت أقول :

كأنه خدٌ معشوقٍ يقبله فم الحبيب وقد أبهى به خجلاً

وقالت الجارية :

كأنه لونٌ خدّي حين تدفني كف الرشيد لا أمر يوجب الفسلاً
فقال : يا مفضل قم فاخرج ، فإن هذه الماجنة قد هيّجتنا ، قممت وأرجيت السور .

ولقد أحسن ابن الزقاق في قوله :

ورياضٍ من الشقائق أضحت تنهادي بها نسيم الرياح^(٢)
زرتها والغمام يجلد منها زهرات تروق لونَ الزاج
قلت : ما ذنبها ؟ فقال مجيباً : سرفت مُحَرَّة الخدود الملاح

(١) الأغاني : « يا رشيق » .

(٢) ديوانه ١٣٥ ، الغرب ٣٢٤ .

وقال البحتري :

في طالعة الشمس شيء من ملاحظتها وللضبيب نصيب من تشبئها^(١)

وقال ابن المعتز :

سقتني في ليلٍ شبيهة بشعرها شبيهة خديها بغير رقيب

فأمسيت في ليلين : في الشعر والدجى وشمسين : من خمر وخذ حبيب

وأستطرد إلى قلب التشبيه من مبالغة النحول الذي ذكرنا ، فأقول : إذا

صار جسم العاشق من النحول يوصف بمثل قول الشاعر :

أنحلتني الحب فلو زج بي في مُقْلَةٍ النَّائِم لم ينتبه

قد كان لي فيما مضى خاتم والآن لو شئت تمنطقت به

وبمثل قول أبي بكر بن دريد :

إن الذي أبقيت من جسمه يامتاف الصب ولم يشعر^(٢)

صُباة لو أنها قطرة تجول في جفئك لم تقطر

صار جسم الخلالة على نحافته أكبر من جسم الصب بأضعاف ، فينقلب

التشبيه ، وكذلك إذا بولغ في وصف الأ كفال بالعظم صغرت عندها الكتبان ،

فينقلب التشبيه .

وقد ترجم ابن جني في خصائصه ترجمة ، فقال : هذا باب من غلبة الأصول

على الفروع ، ثم أنشد بعض ما أنشدنا ، وقرنها بمسائل من العربية حسان تشبه

الباب^(٣) .

(١) ديوانه ٢٤١ ، وفيه : « في حرمة الورد شكل من تلبها » .

(٢) ديوانه ٦٧

(٣) المحاسن ١ : ٢٠١ - ٢٠٣

(٢٠ - شرح مقامات الحريري ١)

وللمتقدمين والمتأخرين في النحول شعر كثير، ويستحسن في ذلك قول المجنون:
 فأصبحتُ من ليلَى الغداة كناظرٍ مع الصَّبحِ في أعقابِ نجمٍ مغربٍ^(١)
 ألا إنما غادرتِ يا أمَّ مالكٍ صدَى أينما تذهبُ به الريحُ يذهبُ
 أخذه المؤمل فقال :

قد صرتُ من ضعفى إلى حالَةٍ تجرى لها آماقُ حُسادى
 يكاد جسمى من نحول الضنى تحمله أنفاسُ عوَادى
 وزاد خالد الكتّاب ، فجعله لا يدرك إلا بالوهم ، فقال :
 يا من تجاهلَ عما كان يعملُه عمداً وباحَ بسرٍّ كان يكتُمُه
 غداً خليلك نضجوا لحراركَ به لم يبق من جسمه إلا توهُمُه
 فزاد ابن المعتز ، وجعله يخفى على الموت ، فقال :

مُسَهَّدٌ خانهُ التفريقُ فى أَمَلِهِ أضناه سَيِّدُهُ ظُلماً بمرتحلِهِ^(٢)
 فذقَ حتى لو أن الدهرَ قادَ لهُ حَتّاً لما أبهرته مقلتنا أَجَلِهِ
 فأقدمه المتنبي واستريح منه ، فقال :

أراكِ حسبَ السَّلكِ جسمى فَعَقَّتْهُ عليكِ بدُرٍّ عَن لقاءِ التَّرابِ^(٣)
 ولو قَلَمُ أَلْقَيْتُ فى شَقِّ رأسِهِ من السَّقمِ ما غَيَّرْتُ من خَطِّ كاتبِ

* * *

قال : فَهَضَّتْ فِيمَا أَمَرَ ، لأذراً عَنْهُ النَّمَرَ ، وَلَمْ أَهْمِ إِلَى أَنَّهُ

(١) البيتان في حاشية ابن الشجرى ١٥٦ بنسبتهما إلى محمد بن النمرى .

(٢) ديوانه ١ : ١٤٩ . السلك : المحيط . والتراب : عل القلادة من الصدر .

قَصَدَ أَنْ يَخْدَعَ، بِإِذْخَالِي الْمَخْدَعِ، وَلَا تَظَنَّنْتُ أَنَّهُ سَخِرَ مِنَ الرَّسُولِ،
فِي اسْتِدْعَاءِ الْخِلَالَةِ وَالْعُسُولِ.

فَلَمَّا عُدْتُ بِالْمُلْتَمَسِ، فِي أَقْرَبَ مِنْ رَجْعِ النَّفْسِ، وَجَدْتُ
الْجَوْهَ قَدْ خَلَا، وَالشَّيْخَ وَالشَّيْخَةَ قَدْ أَجْفَلَا، فَاسْتَشْطْتُ مِنْ مَكْرِهِ
غَضَبًا، وَأَوْغَلْتُ فِي إِثْرِهِ طَلَبًا، فَكَانَ كَمَنْ قُمِسَ فِي الْمَاءِ، أَوْ
عُرِجَ بِهِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ.

قوله: «أدرا»، أى أزيل. الغمر: الودك. أظن: ويذهب وهمي.
تظنيت: حسبت، وأبدل إحدى نوني «ظن» بياء تخفيفاً للتضعيف. سخر: هزأ.
الملتمس: المطلوب. الجوه هنا: داخل البيت. أجفلا: هربا وأسرعاً. قوله:
«استشطت»: اشتد غضبي. مكره: خداعه. أوغلت: بالفت وباعدت.
قمس: غمس. عرج به: طلع به. عنان بفتح العين: سحب، والعنانة:
السحابة، وأعننت السماء: صار لها عنان، والله الموفق للصواب.



المقالة الثامنة وهي المعرّة

[معرّة النعمان]

هي بلدة بالشام ، والنعمان : اسم جبل مطلّ عليها ، والمعرّة اسم البلدة ، فأضيفت إليه ، ولها سبعة أبواب ، وعلى جبل منها دَيْرُ نعمان ، فيه قبر عمر بن عبدالعزيز ، وقبر شيث بن آدم عند باب شيث منها ، وداخلها قبر يوشع بن نون ، وله يوم حَفِيل في كل عام ، وإلى المعرّة ينسب الشاعر المرمّي . قال شيخنا ابن جبیر : إنه خرج من قنّسرين يريد حَصص ، قال : فرأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين بلاد المعرّة ، وهي سواد كلها محاطة بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه ، ويتصل التفاف بساتئنها وانتظام قراها مسيرة يومين ، وهي من أخصب البلاد ، وأكثرها أرزاقاً ، ووراءها جبل لبنان ، وهو سامي الارتفاع ، ممتد الطول ، متصل من البحر إلى البحر ، وفي سفح الجبل حصون للملحدة الإسماعيلية ، فرقة مَرَقَت من الإسلام ، وادّعت الإلهية ^(١) ، قُبِضَ لهم شيطان يعرف بسنان ، خدعهم بأباطيل وخیالات ، وموّه عليهم باستعمالها ، وسجرهم بمحالها ، فاتخذوه إلهاً يعبدونه ، ويبدلون الأنفس دونه ، وحصلوا من طاعته ^(٢) بحيث يأمر أحدهم بالتردّي من شاهق جبل ، فيتردّي المأمور ، والله يضل من يشاء ^(٣) .

أخبر الحارث بن همام قال : رأيتُ من أعاجيب الزّمان ، أن

(١) بعدها في ابن جبیر « في أحد الأيام » .

(٢) بعدها في ابن جبیر « وامثال أمره » .

(٣) رحلة ابن جبیر ٢٣٤

تَقْدَمَ خَصْمَانِ ، إِلَى قَاضِي مَعْرِقَةِ النُّعْمَانِ ، أَحَدُهُمَا قَدْ ذَهَبَ مِنْهُ
الْأُطْيَانِ ، وَالْآخَرُ كَأَنَّهُ قَضِيبُ الْبَانِ .

قوله : « الأُطْيَان » ، أى الأكل والنكاح ، أى هوشىخ مسنّ ، وقيل :
الأطيان : النوم والنكاح ، وقيل : طيب النكاح ، وطيب النكحة .
أبو هريرة ، قال النبی صلی الله علیه وسلم : « الأُطْيَان التمر واللبن » .
وسئل شيخ مسنّ من العرب عن حله ، قال : ذهب منى الأُطْيَان :
السَّيْر والأَيزر ، وبقي الأُرْطَبَان : الضراط والسعال .
والبان : شجر تشبّه بقضبانہ القدود الناعمة .

فَقَالَ الشَّيْخُ : أَيَّدَ اللَّهُ الْقَاضِي ، كَمَا أَيَّدَ بِهِ الْمُتَقَاضِي ، إِنَّهُ
كَانَتْ لِي تَمْلُوكُهُ رَشِيقَةُ الْقَدِّ ، أَسِيلَةُ الْخَدِّ ، صُبُورٌ عَلَى الْكَدِّ ،
تَحْبُ أَحْيَانًا كَالْتَّهْدِ ، وَتَرْقُدُ أَطْوَارًا فِي الْمَهْدِ ، وَتَجِدُ فِي تَمُوزَ
مَسَّ الْبَرْدِ ، ذَاتُ عَقْلٍ وَعَيْنَانِ ، وَخَدَّ وَمِينَانِ ، وَكَفَّ بَيْنَانِ ، وَفَمٌ
بِلَا أَسْنَانِ ؛ تَلْدَغُ بِلِسَانٍ نَضْنَاضٍ ، وَتَرْفُلُ فِي ذَيْلٍ فَضْنَاضٍ ،
وَتُجَلِّي فِي سَوَادٍ وَبَيَاضٍ ، وَتُسْقَى وَلَسِكِنْ مِنْ غَيْرِ حِيَاضٍ ، نَاصِعَةٌ
خُدَعَةٌ ، خُبَاءَةٌ طُلَعَةٌ ، مَطْبُوعَةٌ عَلَى الْمُنْفَعَةِ ، وَمِطْوَاعَةٌ فِي الضِّيقِ
وَالسَّعَةِ ، إِذَا قَطَعْتَ وَصَلْتَ ، وَلَمَّا فَصَلْتَهَا عَنْكَ أَنْفَصَلْتَ ، وَطَلَمَّا
خَدَمْتِكَ فَجَبَلْتَ ، وَرُثْمًا جَنَنْتَ عَلَيْنِكَ فَأَلَمْتَ وَمَلَمْتَ ، وَإِنَّ هَذَا

الْفَقَى اسْتَعْدَمَ مِنْهَا لِنَرَضٍ ، فَأَخَذَتْهُ إِيَّاهَا بِلَا عِيَوضٍ ، عَلَى أَنْ
يَجْتَنِيَ نَفْعَهَا ، وَلَا يُكَلِّفَهَا إِلَّا وَسْمَهَا ، فَأَوَّلَجَ فِيهَا مَتَاعَهُ ، وَأَطَالَ
بِهَا اسْتِمْتَاعَهُ ، ثُمَّ أَعَادَهَا إِلَيَّ وَقَدْ أَفْضَاهَا ، وَبَذَلَ عَنْهَا قِيَمَةً
لَا أَرْضَاهَا .

* * *

المتقاضى ، أى المتحاكم إليه الذى يطلب من الحاكم قضاءه ، وعونه على خصمه؛
وهذا النرض الذى ذكره ضرب من الألفاظ ، لأنه مشى كلامه فى وصف جارية
وغلام ، وقد ضمن الكلام وصف إبرة ومرود. مملوكة ، يعنى الإبرة جعلها مملوكة
لأنها مما يتمول. رشيقة القد : معتدلة القامة . أسيلة : ملساء . خذ الإبرة : شق فيه
ثقبها ، وأصل اخذ شق مستطيل فى الأرض ، والأسالة : ملاسة مع طول .

صبور على الكد ، أى صابرة على المشقة والتعب ، ونعول - بمعنى فاعل -
يبتنع من إلحاق الماء به إذا وقع صفة لمؤنث ، قال عنتره :

إِنِّى أَمْرُوٌّ سَهْلُ الْخَلِيقَةِ مَاجِدٌ لَا أَتَّبِعُ النَّفْسَ اللَّجْجُوجَ هَوَاهَا

ومنه: امرأة شكور وصبور وُلجوج وُلحن أبو محمد خواص العراق بقولهم :-
شكورة ولجوجة وصبورة، قال: إن هذه التاء إنما تدخل فى «فعل» إذا كانت
بمعنى «مفعول» ، نحو ناقة ركوبة وشاة حلوبة^(١). قال: وذكر النحويون فى امتناع
الماء من «فعل» بمعنى «فاعل» للمؤنث عِللاً ، أجودها أن الصفات الموضوعة
للمبالغة نُقلت عن بابها لتدل على المعنى الذى تخصصت به ، فأسقط الماء من صبور
وفتاة معطار ونظائره ؛ كما ألحقت بصفة المذكور فى رجل علامة ونسابة ، ليدل
على تحقيق المبالغة ، وتؤذن بحدوث معنى زائد فى الصفة - وامتناع الماء المذكورة

(١) قال فى درة الفواص : «لأنهما بمعنى ركوبة وحلوبة» .

أصل مطرد [لم يشذ منه إلا قولهم] ^(١) : عدوة، فإنهم ألحقوه بصديقه، والشيء في أصول العربية [قد] يحمل على ضده وتقيضه، كما يحمل على نظيره ورسيه ^(٢).
تخُبُّ : تثب في الثوب بسرعة. التهد : الفرس الضخم. أطواراً : أحياناً، ومهدا: مثير الخائط الذي تُمسك به إبرته. تَمُوز : أحد الشهور، وهو يوليه. والبرد : أن يبردها الحداد بالبرد ليقومها ويمدّها، فالبرد هنا فعل صانعها. قال ابن ظفر : ذهب بالبرد إلى ما طُبِع عليه الحديد من البرد في القيظ. قوله : « ذات عقل وعنان » ، أراد بالعنان الخيط لأنها ترسله في الخياطة، والعقل شدّها بالخيط حين تمسك في الثوب. سنان : طرفها المسنون، أي الحداد. كفّ بينان : الكفّ والتضريب شيثان معروفان في الخياطة، فيريد أن الخائط يقلب التضريب بأصابعه وهي البنان ويكفّه بالإبرة. فم، يريد ثقب الإبرة. تلدغ : تضرب الإصبع. واللسان النضناض للحية، والنضنضة، قيل : هي صوت الحية، وقيل : حركة لسانها، وإنما اختلف فيها لأن الحية إذا ضيق عليها فتجت فاما وصفت وحركت لسانها، فيقال : نضنضت، وشبه طرف الإبرة بلسان الحية لكثرة حركته في الثوب ؛ وما أحسن قول الشاعر في تشبيه لسان الأفعى بنور السراج:

وقد بيل كأن النور منه محيّا من أحب إذا تجلّى
أشار على الدجى بلسان أفعى فشمّر ذيله فرقا وولّى

وقال ابن الصبّاغ الصقلّي في شمة :

يطعن صدر الدجى بعالية صنوبري لسان كوكبها
كحياة باللسان لاحسية ما أدركت من سواد غيبتها

وللبيتين الأولين حكاية مستظرفة، حدثني بها غير واحد من الطلبة أردت ترك ذكرها لأمرين: لشهرتها، ولأنني وجدت البيتين مثبتين في بعض النسخ من

(١) من درة القواس .

(٢) درة القواس ٦٨ .

القلائد لأحد رجالها ، ثم عزم على بعض الأدباء أن أذكرها ، فذكرتها على اختصار لفائدتها ؛ وذلك أن الشاعر المعروف بالبكيّ الهجاء ، دخل عليه في ليلة مطرة ذات رعد وبرق في بيت فندق دوابّ - شخص في الظلام لا يعرفه ، وعلى البكيّ بقية من سلّهامه^(١) خلّقة ، لا يواريه غيرُها ، وعلى الثاني بقية من قبص قد اسودّ من طول البلى وكثرة الأوساخ ، حتى لا يعرف رائيته من أيّ ثوب هو ؛ وقد بلّل كلّ واحدٍ منهما المطر . وهما في بلاء من الفقر والجوع والبرد ، فرقّ لهما خادم الفندق ، فدخل عليهما بقنديل ، فعندما نظر كلّ واحد منهما صاحبه تأمّى به ، ورأى أنه قد وجد لنفسه نظيراً في الشقاء . فقال البكيّ لجليسه : أيّ شيء أنت ؟ فقال : شاعر ، وشوّم الأدب بلغ بي ماترى ، قال : فأجزّ ، فقال :

* * * وقنديلٍ كأنَّ النورَ منه * *

فقال الآخر :

* * * محيّا من أحبّ إذا تجلّى * *

فقال البكيّ :

* * * أشار على الدجى بلسانٍ أفعى * *

فقال الآخر :

* * * فشمر ذيله فرقا ووّلى * *

فقال له البكيّ - وقد أعجب به : بمن تعرّف ؟ فقال : بعنق البرة ، قال له : وأنا البكيّ ، فجعل يتناظران بقية ليلتهما في أيّهما أكثر حرماناً ، حتى أصبحا وكانا يتلسان . فقال عنق البرة للبكيّ : هلمّ لنفترع ؛ أينما يقيم هنا ، وأينما يرتحل ؟ فإننا إن بقينا في موضعٍ واحدٍ ، أدرك الناس من شوّمننا ما يؤدّي بهم إلى الهلاك ، فافترعا فخرجت قرعة البكيّ بالرحيل ، فارتحل ونزل بفاس ، فخلّ بأهلها من بلائه ما قد شهّر .

(١) كذا في الأصول ، ولم ألق على معناها .

قوله : « ترفل في ذيل فضفاض » ، أى تمشى في خيط طويل . تجلّى في سواد وبياض ، أى تبرز في خيط أسود لخياطة السواد ، وأبيض لخياطة البياض . تسقى : أراد سقى الحدّاد لها إذا أخرجها من النار وألقاها في الماء لتصلّب . ناصحة : خائطة ، والنّصاح : الخياط ، ونصحت الثوب : خطته . خُدعة : تمخّذ الخائط كثيراً ، فتخيط وجه الثوب الأعلى ، وتترك الأسفل ، والهاء في هذه الصفات للمبالغة . خُبأة طُلعة ؛ يصف حالها من الخياطة حين تختبئ في الثوب ، ثم تطلع في يد الخائط . مطبوعة ، أى مصنوعة لينتفع بها . مطواعة في الضيق والسّة ؛ يريد إذا دفعته في الثوب دخلت فيه ، سواء اتسع موضع دخولها أو ضاق . إذا قطعت وصلت ، يريد إذا قطعت الثوب وفصلته ألقته . فصّاتها عنك : نجّيتها ، وجعلتها في مئبرها . خدمتك ، أى صرفتها فيما تحتاج من خياطة ثيابك . جَحَلت : أَلقت قطع الثوب . جنت عليك ، قَالَت ، أى ضربتك فأوجعتك وصيّرتك ذا ألم . ماملت ، أى جعلتك متقلّباً لشدة الوجع . قوله : « استخدمنيها » ، أى طلب منى خدمتها . الفَرَض : الحاجة ، وأصل الفَرَض ما قصّدتَه سهام الرامي ، ثم سميت الحاجة غرضاً ، لأنها قصدت بالرغبة فيها . وسَمها : طاقتها وقدّر ما تحتمل مما تكلف . أُولج فيها متاعه ، أى أدخل فيها خَيْطه . أفضاها : خرق عيناها ، وفي المرأة خلط مسلكتيها ، من أفضيت إلى الشيء ، وصلت إلى متسعها ، ومنه : القوم فوضى ، أى متسعون مختلطون . بذل : أعطى .

فَتَمَالَ الْحَدَثُ : أَمَّا الشَّيْخُ فَأَصْدَقُ مِنَ الْقَطَا ، وَأَمَّا الْإِفْضَاءُ
فَقَرَطَ عَنْ خَطَا ، وَقَدْ رَهَنْتُهُ ، عَنْ أَرْضِي مَا أَوْهَنْتُهُ ، تَمْلُوكًا لِي
مُتَنَاسِبَ الطَّرَفَيْنِ ، مُتَنَسِّبًا إِلَى الْقَيْنِ ، تَقِيًّا مِنَ الدَّرَنِ وَالشَّيْنِ ،
مُقَارِنُ سَحْلُهُ سَوَادَ الْعَيْنِ . يُفْشِي الْإِحْسَانَ ، وَيُنْشِي الْإِسْتِحْسَانَ ،

وَيُغْذِي الْإِنْسَانَ ، وَيَتَحَامَى اللِّسَانَ ، إِنَّ سُودَّ جَادَ ، أَوْ وَسَمَ
 أَجَادَ ، وَإِذَا زُودَ وَهَبَ الزَّادَ ، وَمَتَى اسْتَزِيدَ زَادَ ، لَا يَسْتَقِرُّ بَعْنَى ،
 وَقَلَمًا يَنْكِحُ إِلَّا مَثْنَى ، يَسْنُو بِمَوْجُودِهِ ، وَيَسْمُو عِنْدَ جُودِهِ ،
 وَيَنْقَادُ مَعَ قَرِينَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ طِينَتِهِ ، وَيُسْتَمْتَعُ بِزِينَتِهِ ،
 وَإِنْ لَمْ يُطْمَعْ فِي لِينَتِهِ .

* * *

[القَطَا]

الْقَطَا : طَائِرٌ يَصِيحُ « قَطَا قَطَا » فَسُمِّيَ بِصِيَاحِهِ ، وَبِمَا يُفْهَمُ مِنْ صَوْتِهِ ، وَلِذَلِكَ
 تَسْمِيَةُ الْعَرَبِ الصَّدُوقَ ، وَيُقَالُ : أَنْسَبَ مِنْ قَطَاةٍ ، لِأَنَّهَا إِذَا صَاحَتْ عَرِفَتْ ،
 وَقَالَ الشَّاعِرُ :

تَدْعُو الْقَطَا وَبِهِ تَدْعَى إِذَا انْتَسَبَتْ يَاصِدْقَهَا حِينَ تَدْعُوهَا فَتَنْتَسِبُ
 حِمْرَاهُ مُقْبِلَةً سَكَّاهُ مَدْبِرَةً لِمَاءٍ فِي الْبَحْرِ مِنْهَا نَوْطَةٌ مَجْجِبُ
 وَقَالَ الْكُمَيْتُ :

لَا تَكْذِبِ الْقَوْلَ إِنْ قَالَتْ قَطَا صَدَقْتُ إِذْ كُلَّ ذِي نَسَبَةٍ لَا بُدَّ يَنْتَحِلُ^(١)
 وَقَالَ أَبُو وَجْزَةَ :

مَا زِلْنِ يَنْسُبُنِ وَهْنًا كُلَّ صَادِقَةٍ بَاتَتْ تَبَاشِرُ عُرْمًا غَيْرَ أَزْوَاجِ^(٢)

(١) الحيوان ٦ : ٥٧٨ .

(٢) الحيوان ٥ : ٥٧٣ ، وروايته : « وهن ينسبن » ، والوهن : نصف الليل

يريد ، أن الحمير وَرَدَت الماء ليلاً ، فَأَثَارَت القَطَا عن أَفَاحِيصِهِ ، فَصَاحَتْ : « قَطَا قَطَا » ، فَذَلِكَ انْتِسَابُهُ وَجَعَلَهَا صَادِقَةً لَصِيَاحِهَا قَطَا . وَالْمُرْمُ بِيضُهَا ، لِأَن فِيهِ سَوَاداً وَبَيَاضاً ، وَبَيَضُ القَطَا أَفْرَادُ ثَلَاثَةِ أَوْ خَمْسَةِ ، قَالَ مَزَاهِمُ العَقِيلَى فِي القَطَا وَفَرَاخِهَا : فَلَمَّا دَعَتْهُ بِالْقَطَاةِ أَجَابَهَا بِمَثَلِ الَّذِي قَالَتْ لَهُ لَمْ يَبْدَلِ^(١) وقال المعري :

عُرِفْتُ جُدُودَكَ إِذْ نَطَقْتَ وَطَالَمَا لَفِظَ القَطَا فَأَبَانَ عَنِ انْتِسَابِهَا^(٢) .
وقال الأصمعي : القَطَا لَا تَصِيحُ إِلَّا إِذَا أَرَادَتْ الماءَ ، فَإِذَا عَدِمَ الماءَ ، وَسَمِعَتْ الْعَرَبَ صِيَاحَ القَطَا ، فَرَحُوا بِهِ وَعَرَفُوا قُرْبَ الماءِ مِنْ بَعْدِهِ .
وقيل : سُمِّيَ القَطَا لثِقَلِ مَشْيِهِ ، يُقَالُ : قَطَا الرَّجُلُ يَقْطُو ، إِذَا ثَقُلَ مَشْيُهُ .

* * *

قوله : « فرط » أى سبق . عن خطأ ، أى عن غير تعمد . رهنته : أعطيته . رهناً ، وأرهنتك : أعطيتك ما ترهنه . والأرث : قيمة العيب ، أى دية الجرح . مأخوذ من أرش بين القوم لأن الأرض يُختصم في قدره . أو هنته : أفسدته . ووهن الشيء يوهن ويهين : ضعف ، وأوهنته أنا ، إِذَا أضعفته . مملوكا ، يعنى المرود . متناسب الطرفين ، أى هذا الطرف مثل هذا الطرف ، تكتحل بأيهما شئت . القَيْن : الحدّاد الذى صنعه . الدَرَن : وَسَخُ الحديد ، والشَّيْن : العيب . أى هو مصقول معتدل ليس فيه اعوجاج ولا عيب . يقارن محله سواد العين ، أى عند التكحل به . ينشى : يحدث ويظهر . وإحسان الكحل في العين لا ينحى . ينشئ استحسان ، أى ينشئ لناظر العين استحسان الكحل في العين .

(١) الحيوان ٥ : ٥٧٨ .

(٢) لم أجده في سقط الزند ولا في الأروميات .

والإنسان : إنسان العين يفذه بالكحل ، والإنسان : السواد الذى فى وسط العين ، إذا رأيت فيه شخصاً ، والشخص هو الإنسان ، فسُمى السواد به . يتحامى : يبعد عنه ، يريد أنه يكحل العين ولا يقرب من الفم . قوله : « سَوْد » ، أى جعل فيه الكحل . جاد : أعطاه العين . وَسم العين بالكحل : أجاد عمله فيها . قلما ينكح إلامتى ، أى ينكح عينا واحدة فى الغالب . وقد نظم هذا النثر فى الثانية والأربعين .

جوده ، أى يوجد بكحله العين . ويسمو : يطعم للعين ، وجعل له الكحل غذاء يأخذ ويرتفع به للغير . قرينته : مكحلته . من طينته : من جنسه . زينته : تزيينه للعين . يطمع فى لينته : أى لا يطمع أن يكون الحديد ليّناً . وكل لفظة فسر بها المروء والإبرة ، لما لفظ فى ظاهرها غير ما فسرته به .

فقال لها القاضى : إِمَّا أَنْ تُبَيِّنَا ، وَلِمَا فَيِّنَا ، فابْتَدَرَ

الغلامُ ، وقال :

أَعَارَنِي إِبْرَةَ لِأَرْفُو أَطْ	مَارَا عَفَاهَا الْبَلَى وَسَوْدَهَا
فَانْخَرَمَتْ فِي يَدِي عَلَى خَطَا	مَنَى لَمَّا جَذَبْتُ مِقْوَدَهَا
فَلَمْ يَرَ الشَّيْخُ أَنْ يُسَامِحَنِي	بَارُشَهَا إِذْ رَأَى تَأَوُّدَهَا
بَلْ قَالَ هَاتِ إِبْرَةَ مُعَاثِلَهَا	أَوْ قِيمَةً بَعْدَ أَنْ تُجَوِّدَهَا
وَاعْتَاقَ مِيلِي رَهْنًا لَدَيْهِ وَنَا	هَيْكَ بِهَا سُبَّةً تَزَوِّدَهَا
فَاتَمِنُ مَرَهَى لِرَهْنِهِ وَيَدِي	تَقْصُرُ عَنْ أَنْ تَفْكَ مِرْوَدَهَا
فَاسْتَبْرَ بَدَا الشَّرِيحَ غَوْرَ مَسْكَتِي	وَارِثَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ تَعَوِّدَهَا

تبييناً : توضّحاً وتفسّراً حديثكما اللهمّ الملعن . فبيننا : أبعداً ، أو ارتفعاً .
 قوله : «أرفو» أى أخيط ، ويروى «لأرقأ» يقال : رفأت الثوب أرفؤه ورفوته
 وأرفوه ، والرفو من أدقّ أنواع الخياطة ، وهو نسج الخرق في الثوب حتى يعود
 كأنه لم يكن فيه خرق .

[مما قيل في رفو الثياب]

وقال ابن القابلة السبتيّ في غلام رفاء :

يارافياً قطع كلّ ثوبٍ ويأرّشاً حبةً اعتماي
 عسى بخيطِ الوصالِ ترفو ما قطعَ المجرُّ من فؤادي
 وقال الحلوانيّ في خياط :

ربّ خياطٍ فُتنت به فتنة أوهت قوَى جَلدي
 لاعبٌ بالخيطِ يفتله أترأه ظنه جَسدي !
 ليت أنى كنته فأرى بين ذاك الدرّ والبردِ
 فعلتْ بالثوبِ إبرته فعلَ سهم الشّوقِ في خلدي
 وجرى المقرّاض في يده جرى عينيه على كبدِي

ومن مجون أبي نواس ، أنه كان يؤاكل إسماعيل بن أبي سهل ، فعرضت
 له على مائدة رُقاقة في جانبها خُرق قد ضمّ ، فرفعها بإحدى يديه ونقرّها بالأخرى ،
 فانفجرت ، وقال وهو يضحك : أخبزكم مرفوء ؟ فلما خرج قال :

خبز إسماعيل كالونسي إذا ما انشق يُرفأ
 عجباً من أثر الصنعة فيه كيف يخفى
 إن رفاءك هذا أطف الأمة كفا
 فإذا قابل بالتنصّف من الخبزِ نصفاً

أَلْطَفَ الصَّنْعَةَ حَتَّى لَا تَرَى الْمِرْرَ أَشْفَى
مِثْلَ مَا جَاءَ مِنَ التَّنُورِ مَا غَادَرَ حَرْفًا

والأطوار : الثياب الخَلَقَة ، واحدها طِئْر . عفاها البلى : غَيَّرَهَا القدم ودرسها ، وسَوَّدها بالأوساخ حتى صارت في طبع الثوب ، ففتى غسلت لم تزل .

[مما قالت الشعراء في الأطوار البالية]

ومما قالت الشعراء في الأطوار البالية : مما يستحسن قول الحمدوني في طيلسان^(١) وَهَبْ لَهُ أَحْمَدُ بْنُ حَرْبٍ الْمُهَلَّبِيَّ :

يَا بْنَ حَرْبٍ أَطْلَتْ هَمِّي بِرَفْوِي طَيْلَسَانًا قَدْ كُنْتُ عَنْهُ غَفِيًّا^(٢)
فَهُوَ فِي الرَّفْوِ آلُ فِرْعَوْنَ فِي الْقَرْيِ ضَ عَلَى النَّارِ بَكْرَةً وَعَشِيًّا
وَقَالَ أَيْضًا فِيهِ :

طَيْلَسَانُ لَابْنِ حَرْبٍ يَتَدَاعَى لَا مَسَاسًا
قَدْ طَوَى قَرْنًا فَقَرْنًا وَأُنَاسًا فَأُنَاسًا
لَبَسَ الْأَيَّامَ حَتَّى لَمْ تَدَعْ فِيهِ لِبَاسًا
غَابَ تَحْتَ الْخَسِّ حَتَّى لَا يُرَى إِلَّا قِيَاسًا

(١) قال الثعالبي في المضاف والمنسوب ٦٠٢ : كان محمد بن حرب أهدى إلى الحمدوني طيلسانا خلقا ، وكان الحمدوني يحفظ قول ابن حمران السلمي في طيلسان :

يَا طَيْلَسَانَ أَبِي حَمْرَانَ قَدْ بَرَمْتَ بِكَ الْحَيَاةَ فَمَا تَلْتَدُّ بِالْعُمُرِ
فِي كُلِّ يَوْمٍ لَهُ رَفًا يَجِدُّهُ هَيْهَاتَ يَنْفَعُ تَجْدِيدُهُ مَعَ الْكِبَرِ
إِذَا ارْتَدَاهُ لَعِيدٍ أَوْ لَجْمَةٍ تَنْكَبُ النَّاسَ لَا يَبْلَى مِنَ النَّظَرِ
واحتذى حذوه ، واشتلت عليه المعاني ، حتى قال في وصف العايلسان قرابة مائتي مقطوعة ،
ولا تخلو واحدة منها من معنى بديع

(٢) المضاف والمنسوب للثعالبي ٦٠٢ ، وفيه : « أَطْلَتْ فَرِي » .

وقال فيه أيضاً :

قل لابن حرب مقالة العاتب
أما رأيت الرفاء يُحزِنِي
أفناه جَوْرُ البلي عليه كما
ولستُ فيما أقولُ بالكاذِبِ
برفوه طيلسانك الذَّاهِبِ
أفنى الهوى عمرَ خالدِ الكاتبِ

وقال فيه أيضاً :

إن ابن حرب جادلي كاسياً
انظر إلى كثرة تمزيقه
رفوى له وهو رميمٌ كمن
يصدعه اللحظ بياضه
يذُكِرُنِي كثرة تمزيقه
بطيلسان هَرِمٍ قَشْعَمِ
كأنما مُزق في ماتمِ
يبنى بناء فوق مستهدمِ
صدع فؤاد العاشق المقرمِ
تفرق الناس عن الموسمِ

وقال فيه أيضاً :

يابن حرب كسوتني طيلساناً
طال ترداده إلى الرفو حتى
فَحَسِبْنَا نسج العناكب قد جئنَ
ملّ من صحبة الزمان وصدّاً^(١)
لو بعثناه وحده كتهدي
إلى ضعف طيلسانك شداً

وقال أيضاً فيه :

يا قاتل الله ابن حرب لقد
بطيلسان خلت أن البلي
أجد في رفوى له والبلي
أطال إيتاعي على عمدِ
يطلبه بالوتر والحقدِ
يلهو به في الهزل والجحدِ

(١) المضاف والمنسوب ٦٠٣

إِنْ أَتَاهُمُ الرَّافِي فِي رَفْوِهِ مَضَى بِهِ التَّمْزِيقُ فِي تَجْدِ
غَنَيْتِهِ لَمْ مَضَى رَاحِلًا : تَرَكَتْنِي يَا وَاحِدِي وَوَاحِدِي

والحدوني هو إسماعيل بن إبراهيم حمدويه ، نسب إلى جده ، وهو من أهل
مَيسان ، وكان حلو التصرف مليح الافتنان ، وهو القائل :

مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا لَهُ شَارَةٌ فَنَحْنُ مِنْ نَظَارَةِ أَذْنِي
نَلْحَظُهَا مِنْ كَشَبِ حَسْرَةٍ كَأَنَّا لَفْظُ بَلَا مَعْنَى

وقال ابن الرومي في طيلسانه :

وَلِي طَيْلَسَانٌ نَاجِلٌ غَيْرُ أَنَّهُ ثَبُوتُ لَهْمَاتِ الرِّيَّاحِ الزَّعَازِعِ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُ مَتَهَتَّكَ يَحُلِي سَبِيلَ الرِّيحِ غَيْرَ مُنَازِعِ
أَرَاهُ لَضَوْءَ الشَّمْسِ بِالْعَيْنِ رُؤْيَةً وَيَمْنَعُنِي مِنْ لَمَسِهِ بِالأَصَابِعِ
شَكَتُ قُلَّ اسْمِ الطَّيْلَسَانِ لُضْعِفِهِ فَسَمِيَتْهُ سَاجَا فَهَلْ ذَاكَ نَافِعِي !

وقال ابن سارة في فروة :

أَوْدَتْ بِذَاتِ يَدِي قُرْبُوعُهُ أَرْبِ كَفَوَادِ عُرُوعَةٍ فِي الضَّنَا وَالرَّقَّةِ
يَتَجَشَّمُ الرَّفَاهُ فِي تَرْقِيعِهَا بَعْدَ الْمَشَقَّةِ فِي قَرِيبِ الشُّقَّةِ
لَوْ أَنَّ مَا أَتَنَقَّتْ فِي تَرْقِيعِهَا يَحْصَى لَزَادَ عَلَى رِمَالِ الرَّقَّةِ
إِنْ قُلْتُ : « بِاسْمِ اللَّهِ » عِنْدَ لَبَاسِهَا قَرَأْتُ عَلَى « إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ »
وَلَهُ فِيهَا أَيْضًا :

لِي فُرُوعٌ وَصَنِي لَجَائِحَتِي بِهَا بِأَتَيْكَ بَيْنَ مَقْصَرٍ وَمُشْتَفٍ
عَطَّلْتُ كَتَبَ أَبِي عَبِيدٍ بِالَّذِي أَلَفْتُ فِيهَا مِنْ غَرِيبِ مُصْتَفٍ
يَسْطُو عَلَى الْغَرَمِ فِي تَرْقِيعِهَا سَطَوَ الْغَرَامُ عَلَى فَوَادِ الدَّنَفِ

فأنا وفروى خوف تمزقي لها أحكى معاويةً يجنب الأحنف
وله في طيلسانه :

وطيلسان هَرِمٍ يُحْتَمَى عليه أكلُ الخَلِّ والبَقْلِ
كَانَ كَفَى إِذَا انْضَمَّتَا عليه خوفَ الرِّيحِ في غُلٍّ
ولبعض أصحابه فيه :

على منكب ابنِ عليٍّ سَمَلٌ تَقَطَّعَ لِحْظَاتُ اللَّقْلِ
إِذَا غِيَمَ الْجَوِّ أَبْصَرْتَهُ رَهْنِ الذَّبُولِ بِكَفِّ الْبَلَلِ
نسوا طيلسان ابنِ حربٍ بِهِ وصاروا به يضربون المثلَّ
وله في غِفَارَتِهِ^(١) :

لأحمد بن عليٍّ غِفَارَةٌ كَالسَّرَابِ
إِنْ هَبَّ أَدْنَى نَسِيمٍ تَمَرٍّ مَرَّ السَّحَابِ

والشعر في هذا الباب كثير .

قوله : « انخرمت » ، أى انكسرت . متودها : خيطها . تأودها :
انكسارها ، وأصله الاعوجاج . اعتاق مِيلَى : أحبس مِرْوَدَى . ناهيك :
كافيك ، ومعناه المبالغة ، كأنه بلغ النهاية في العيب الذي فعل . سُبَّة : عيب
يُسَبَّ به . مَرَّهَى : خالية من السُّكُل ، وقد مرَّه الرجل مرَّهاً إذا لم يتعهد
السُّكُل ، والمرَّهى من النساء : البيضاء البينة الزَّرَقُ الذي يختصُّ السُّكُلُ في
زرقها . اسْبُر : قَس . غَوْر : غاية وقدَّر . ارث : ارحم وتوجع .

• • •

(١) الغفارة ، ككتابة : زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة .

(٢١ - شرح مقامات الحريري ١)

فَأَقْبَلَ الْقَاضِيَ عَلَى الشَّيْخِ ، وَقَالَ : إِيْهِ ، بِغَيْرِ تَمْوِيهِ ،

فَقَالَ :

أَقْسَمْتُ بِالْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَمَنْ
لَوْ سَاعَفْتَنِي الْأَيَّامُ لَمْ يَرِنِي
وَلَا تَصَدَّيْتُ أَبْتَنِي بَدَلًا
لَكِنَّ قَوْسَ الْخَطُوبِ تَرْشُقُنِي
وَكُفْرٌ حَالِي كَخُبْرِ حَالَتِهِ
قَدْ عَدَلَ الدَّهْرُ يَنِينًا فَأَنَا
لَا هُوَ يَسْتَطِيعُ فَكَّ مِرْوَدِهِ
وَلَا مَجَالِي لِضِيقِ ذَاتِ يَدِي
فَهَذِهِ قِصَّتِي وَقِصَّتُهُ

ضَمٌّ مِنَ النَّاسِكِينَ خَيْفَ مِنِّي
مُرْتَهِنًا مِثْلَهُ الَّذِي رَهَنَّا
مِنْ إِبْرَةِ غَالِهَا وَلَا ثَمْنَا
بِمُضْمِيَّاتٍ مِنْهَا هُنَا وَهُنَا
ضُرًّا وَبُؤْسًا وَعُزْبَةً وَضَنِي
نَظِيرُهُ فِي الشَّقَاءِ وَهُوَ أَنَا
لَمَّا غَدَا فِي يَدَيَّ مُرْتَهِنًا
فِيهِ اتِّسَاعٌ لِلْعَفْوِ حِينَ جَنَى
فَانْظُرْ إِلَيْنَا وَيَنِينَا وَلَنَا

◊ ◊ ◊

إِيْهِ : كلمة يُستزاد بها الحديث . والتمويه : الكذب ، وهو في الحديث
بالتمعية ، وقد موّه عليه ، إذا خُتِلَ له أنه على شيء وهو على ضده ، وأصل
التمويه الصُّقْل ، كأنَّ على ألفاظه المموّهة صقالة ، وهو من لفظ الماء . المشعر :
المزدلفة ، وهو جمع ، سُمِّيَ مشعرًا لأنه من علامات الحج ، وكلُّ علامات الحج
مشاعر ، والمشعر والمنسك : موضع ذبح الهدى بمكة الفضل ، سُمِّيَ مشعرًا ، لأنه
شعر أنه حرام كالبيت . الناسكين : الحجاج الذين يُشعرون الهدى وما يُنجز ،
أُنْسَكَ وَنُسْكَ مَنْسَكًا وَنَسْكًَا ، إذا ذبح النُّسك ، وأصلها ذبائح

الجاهلية ثم سُميت الأضاحى، والناسك أيضاً: الزاهد. خيف: موضع بمِني. قوله: «ساعفتني»: ساعدتني. تصدّيت: تعرّضت. غالما: أهلكها. الخطوب: الأمور الشداد. ترشفتني: تصينني. بمصميات: بسهام قاتلة. بؤس: شدة حال. ضنى: ضعف ومرض. وهو أنا، أى هو مثلى فى ضيق الحال. مجالى: موضع تصرّفتى. ذات يدي: مالى، وذات اليد ما يملك. العفو: الغفران. جنى: أذنب. قصّتي: حديثي، يقول: فانظر إلينا بعين الشفقة والرحمة، وأصلح بيننا بما نتصرف به شاكرين لك، وهب لنا ما نُثني به عليك، وجعل النظر عاملاً فى الجميع، لأن من وجوه النظر الإصلاح بينهم والتكرّم عليهم.

* * *

فلما وعى القاضى قصصهما، وتبين خصائصهما وتخصّصهما؛ أبرزَ لهما ديناراً من تحت مُصلّاهُ، وقالَ لهما: اقطعا به الخِصامَ وافصلاهُ. فتلقّفه الشيخُ دونَ الحَدَثِ، واستخلصه على وجهِ الجِدِّ لا العبثِ، وقالَ للحَدَثِ: نصفهُ لى بسهمِ مبرّتى، وسهمك لى عن أرضِ إبرّتى، ولستُ عن الحقِّ أميلُ، فقم وخذِ الميلَ. فمرا الحَدَثِ لما حَدَثَ اكْتِئابُ، واكفهرَ على سَمائِهِ سَحَابُ، وجَمَ لهُ القاضى، وهيجَ أسفهُ على الدينارِ الماضى؛ إلاَّ أَنَّهُ جَبَرَ بالَ الفَتَى وبَلْبَالَهُ، بدُرَيهماتٍ رَضَخَ بها لهُ، وقالَ لهما: اجتنبا المعاملاتِ، وادربا المَخاصماتِ، ولا تحضُراني فى مَلَحَا كَماتٍ، فَمَا عِنْدِي كَيْسُ الغَرَاماتِ.

فَهَضًا مِنْ عِنْدِهِ ، فَرَحِينَ بِرِفْدِهِ ، مُفَصِّحِينَ بِحَمْدِهِ ،
وَالْقَاضِيَ مَا يَخْبُو ضَجْرُهُ ، مُذْ بَضَّ حَجْرُهُ ، وَلَا يَنْصُلُ كَمْدُهُ ،
مُذْ رَشَعَ جَلَمَدُهُ .

قصصهما ، أى حديثهما ، وهو جمع قصة . خصاصتهما : فقرهما . تخصصهما :
رفعتهما واتقباضهما ، وقد تخصص الرجل ، إذا اتقبض عن العامة وتشبه بالخاصة .
أبرز : أخرج . مصلاه : بساطه الذى يصل علىه . افصلاه : اقطاعه وأزياه .
استخلصه : حازه لنفسه خالصاً . الجِدَّة : التحقيق . العبث : الهزل . سهم : نصيب .
ميرتى : إكرامى الذى وصلنى به القاضى . أميل : أخرج وأعدل عنه . عرا :
قصد ونزل به . حدث : ظهر . اكتتاب : حزن وهم . وجم : غضب ، والوجوم :
السكوت على غضب . هيج : حرّك . أسفه : حزنه . باله : فكره . بلباله : حزنه
ووسواسه . رضح : كثّر العطاء . اجتنبا : باعدا . المعاملات : المعاوذات
والعواري . ادركا : ادفعا . كيس : وعاء الدراهم . رِفْدَه : عطاؤه . يخبو ضجره :
يسكن غضبه : بضّ حجره : رشحت كفه . قال الأخطل :

كَزَمَ الْيَدَيْنِ مِنَ الْعَطِيَّةِ مَمْسُكٌ مَا إِنْ تَبَضَّ صَفَاتُهُ بِلَالٌ^(١)

ينصل كمده : يزول حزنه . الجلمد : الصخر الصاب ، كنى به عن كفه ؛ وأنه
بخيل ، ويد البخيل تشبه بالحجر ، وقال جرير :

كَأَنَّمَا خَلَقْتَ كَفَاهُ مِنْ حَجَرٍ فَلَيْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالْزَيْدَى عَمَلٌ^(٢)
يرى التئيم فى برّ وفى بحرٍ مخافة أن يرى فى كفه بللٌ

(١) ديوانه ١٥٩ .

(٢) لم يرد البيتان فى ديوانه

وقال ابن عبد ربه :

يَرَاةٌ غَرَنِي مِنْهَا وَمِضُّ سَنًا حَتَّى مَدَدْتُ إِلَيْهِ الْكَفَّ مُقْتَبِسًا^(١)
فَصَادَفْتُ حَجْرًا لَوْ كُنْتُ تَضْرِبُهُ مِنْ لُؤْمِهِ بِمِصَا مُوسَى لَمَا انْبَجَسَا
كَأَنَّمَا صِغَمَ لُؤْمٌ وَمِنْ كَذِبٍ فَكَانَ هَذَا لَهُ رُوحًا وَذَا نَفْسًا

أين هذه الألف من التي ذكر حججة بن المضرب، حين قال:

أَنَاسٌ إِذَا مَا الدَّهْرُ أَظْلَمَ وَجْهَهُ فَأَيْدِيَهُمْ بِيضٌ وَأَوْجُهُمْ غُورٌ
يَصُونُونَ أَحْسَابًا وَمَجْدًا مَوْثَلًا يَبْدُلُ الْكَفَّ دُونَهَا الزُّنَّ وَالْبَحْرُ
فَلَوْلَا مِسْ الصَّخْرُ الْأَصْمُ أَكَنَّهُمْ أَفَاضَ يَنْابِيعَ النَّدى ذَلِكَ الصَّخْرُ

وقال أبو الشيص:

إِنَّ الْأَمَانَ مِنَ الزَّهْمَانِ وَرَيْبِهِ لَمْ عَقَبَ شَطَاً بِحَرْكِ الْفَيَاضِ^(٢)
بَحْرٌ يَلُودُ الْمُتَفَنُونَ بِسَيْلِهِ قَمَّ الْجُدَاوِلُ مَتَرَعُ الْأَحْوَاضِ
لَأَبِي مُحَمَّدٍ الْمُؤَمِّلِ رَاحَتَا مَلَكٍ إِلَى أَعْلَى الْمَلَا نَهَاضِ
فَيَسُدُّ تَدْفِقَ الْغَنَى لَصَدِيقِهِ وَيَدُّ عَلَى الْأَعْبَادِ سَمَّ قَاضِ

وقال أبو تمام:

تَمُودُ بَسَطَ الْكَفَّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ دَعَاها لَقَبِضَ لَمْ تَجِبْهُ أَنَامِلُهُ^(٣)

وقال البحتري:

قَدْ قُلْتُ لِلْغَيْثِ الرَّكَامِ وَلَيْجٍ فِي إِبْرَاقِهِ، وَأُلْحَ فِي إِرْعَادِهِ^(٤)

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ٧٦

(٢) ديوانه ٧٠٣

(٣) العقد ٦ : ٢٩٥

(٤) ديوانه ٢٣٢

لا تعرضن لجعفرٍ متشبهاً بندى يديه فلست من أنداده
الله شرفه ، وأعلى ذكره ورآه غيث بلاده وعباده

وقال ابن الرومي :

مُقْبِلُ ظَهْرِ الكَفِّ وَهَابِ بطنِها له راحةٌ فيها الحطيمُ وزمزمُ
فظاهرها للناس ركنٌ مقبَلٌ وباطنها عينٌ من الجود عَظيمُ

حَتَّى إِذَا أَفَاقَ مِنْ غَشِيَّتِهِ ، أَقْبَلَ عَلَيَّ غَاشِيَتَهُ وَقَالَ : قَدْ
أَشْرَبَ حِسِّي ، وَتَيَّأَنِي حَدْسِي ؛ أَنَّهُمَا صَاحِبَا دَهَاءٍ ، لَأَخْصَمَا أَذْهَاءٍ ،
فَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى سَبْرِهِمَا ، وَاسْتِنْبَاطِ سِرِّهِمَا ! فَقَالَ لَهُ نَحْرِيرُ
زُمَرَتِهِ ، وَشَرَارَةُ جَمْرَتِهِ : إِنَّهُ لَمْ يَتِمَّ اسْتِخْرَاجُ خَبْنِهِمَا إِلَّا بِهِمَا ،
فَقَفَّاهُمَا عَوْنًا يُرْجِعُهُمَا إِلَيْهِ ، فَلَمَّا مَثَلَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، قَالَ لَهُمَا : اصْدُقَانِي
سَنَ بَكْرِكَمَا ، وَلَكُمَا الْأَمَانُ مِنْ تَبِيعَةِ مَكْرِكُمَا . فَأَحْجَمَ الْحَدَّثُ
وَاسْتَقَالَ ، وَأَدَمَ الشَّيْخُ وَقَالَ :

قوله : « غشيتة » ، أى ذهاب عقله بأن يُغَمَى عليه . وغاشيته : زواره ومن
يفشى موضعه . أشرب : دُوخِلَ : حِسِّي : إدراكى وفهمى . تَيَّأَنِي : حَدْسِنِي .
وأخبرنى . حَدْسِي : ظَنِّي ، قال الفراء رحمه الله : حَدَسْتُ أَحَدِسَ ، إِذَا قَلْتُ فِي
الشَّيْءِ بِرَأْيِكَ . غيره : حَدَسْتُ : ظَنَنْتُ ظَنًّا بَلَفَتْ مِنْهُ غَايَةُ الشَّيْءِ فِي عَدَدِهِ أَوْ

وزنه ، وأصله من قول العرب : بلغت الحدس ، أى الشيء الذى تطلب الحقايق .
والدهاء فى الرجل : الحدق والتبصّر فى الأشياء . لاختصاص ادّعاء ، أى ليس بينهما
ادّعاء على الحقيقة فيختصمان فيها . سبّرها : اختبارها . استنباط : استخراج .
نَجْرير : حاذق . زمرته : جماعته ، وجعله شرارة ؛ لنفوذ ذهنه واتقاده ، ولذلك
يسمى نَجْريراً ، أى ماهراً بالأشياء كلها ، كأنه لإدراكه وفهمه بالأشياء ينحرفها بظنه
الصادق . خبئهما : خفى ما عندهما . قفاهما : أتبعهما . والعون : الشرطى ، لأنه
يُعين من يتصرّف له . مثلاً : وفقاً ، يقال : مثّل الشيء ، فهو مائل ، إذا قام
وانتصب ، وإذا طوى بالأرض أو ذهب ، وهو من الأضداد . سنّ بكر كما :
حقيقة خبر كما . والبكر : الفتى من الإبل ، وسنه : مبلغ عمره ، لأنّ بالسنّ يُعرف كم
بلغ من العمر ، ولنظّم المثل « صدقنى سنّ بكره » ، وروى البكرى عن ابن الأعرابى
أن رجلاً سأم رجلاً بَكراً على أن يشتريه مسنّاً ، فقال البائع : هذا جمل ؛ لبكر
له ، وقال المشتري : هذا بكر ، فقال البائع : بل هو مسنّ ، فبينما هما يتنازعا
إذ نفر البكر ، فقال صاحبه : ليسكن نفاره : « هدع هدع » ، وهى كلمة من العرب
يسكن بها صغار الإبل عند نفارها ، ولا تقال للكبار ، فقال المشتري عند ذلك :
صدقنى سنّ بكر . تبعة ؛ شُرحت فى الصدر . أحجم : تأخّر فزعاً . أقدم :
تقدم متشجعاً . استقال : طلب الإقالة .

* * *

أنا المَرْجِيّ وَهَذَا وَلَدِي	وَالشَّبْلُ فِي الْمَخْبِرِ مِثْلُ الْأَسَدِ
وَمَا تَعَدَّتْ يَدُهُ وَلَا يَدِي	فِي إِبْرَةِ يَوْمًا وَلَا فِي مِرْوَدِ
وَأِنَّمَا الدَّهْرُ الْمُسِيّ الْمُعْتَدِي	مَالَ بَنَّا حَتَّى غَدَوْنَا نَجْتَدِي
كُلَّ نَدَى الرَّاحَةِ عَذْبِ الْمُرْدِ	وَكُلَّ جَمْعِ الْكَفِّ مَغْلُولِ الْيَدِ

بِكُلِّ قَنٍ وَبِكُلِّ مَقْصِدٍ بِالْجِدِّ إِنْ أَجْدَى وَإِلَّا بِالْدَرِّ
لِنَجْلِبَ الرِّشْحَ إِلَى الْحِطِّ الصَّدَى وَتَنْفِدَ الْعُمْرَ بِعَيْشٍ أَنْكَدِ
وَالْمَوْتُ مِنْ بَعْدِ لَنَا بِالْمَرْصَدِ إِنْ لَمْ يَفَاجِ الْيَوْمَ فَاجَى فِي غَدِ

الشَّيْلُ : ولد الأسد . المخِيرُ : التجربة والخبرة . تعدَّت : ظلمت ، والمتعدى :
الظالم المجاوز الحد في الظلم . مال بنا ، أى حطأنا . نجتدى : نسأل الناس الجدا ، وهو
المطاء . ندى الراحة : كريم الكف . وجند الكف ، ضده ، وأراد أن يسأل كل
كريم سهل المطاء ، وكل لثيم صعبه ، وأصل الجموعة اقْباض الشعر ، ثم استعيرت
لقبض الكف من اللؤم ، ومثله مغلول اليد ، أى كَانَ يده محبوسة بَغْلَ اللؤمها ،
والسائل كأنه يحاول بسطها بالجود فيجدها محبوسة بَغْلَ اللؤم ، وفي الكتاب
العزيز : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾^(١)
فهذا نهى عن التبذير .

وقال حبيب في قصيدة يمدح بها حفص بن عمر الأزدي ويذكر الجموعة ، وهي :

يَرَى الْوَعْدَ أَخْزَى الْعَارِ إِنْ هُوَ لَمْ تَكُنْ مَوَاهِبُهُ تَأْتِي مَقْدَمَةَ الْوَعْدِ^(٢)
فَلَوْ كَانَ مَا يَعْطِيهِ غَيْثًا لَأَمْطَرَتْ سَحَابُهُ مِنْ غَيْرِ بَرَقٍ وَلَا رَعْدٍ
مَنْ الْقَوْمِ جَعَدْتُ أَيْبُضَ الْوَجْهِ وَالنَّدَى وَلَيْسَ بِنَانٍ يَجْتَدِي مِنْهُ بِالْجَفْدِ

(١) سورة الإسراء ٢٩

(٢) ديوانه ٣٠ :

وقال البحرى :

صَنَّتْنِي عَنْ مَعَاشِرٍ لَا أُسَمِّي أَوْلِيَهُمْ إِلَّا غَدَاةَ سَبَابِي ^(١)
 مِنْ جِمَادٍ الْأَكْفَ غَيْرِ جِمَادٍ وَغَضَابِ الْوَجْهِ غَيْرِ غَضَابِ
 خَطَرُوا خَطَرَةَ الْجَهَامِ وَسَارُوا فِي نَوَاحِي الظُّنُونِ سَيْرَ السَّحَابِ

وقال أيضاً فى نحوه :

وَخَلَقَنِي الزَّمَانُ عَلَى أَنْاسٍ وَجُوهُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ حَدِيدٌ ^(٢)
 لَهُمْ حُلٌّ حُسْنٌ فَهِنَّ بَيْضٌ وَأَخْلَاقٌ قُبْحٌ فَهِنَّ سُودٌ
 أَنْاسٌ لَوْ تَأَمَّلْتَهُمْ لَبِيدٌ بَكَى الْخَلْفَ الَّذِى يَشْكُو لَبِيدٌ

قوله « الدد » : ضد الجدة ، وهو اللهو واللعب ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَسْتُ مَنَّ دَرٍ وَلَا الدد مَنى » ، أى لست من باطل ولا الباطل منى أجدى : نفع . الحظ : البخت والنصيب . والصدى : العطشان ، وأراد أن حظه فى الدنيا قليل ، فهو سعى له ليجلب رزقاً يكثر به حظه . ننفذ : تتم . أنكد : مشثوم وكل ما جلب شراً فهو أنكد ونكد . والمرصد : الموضع الذى ترتقب فيه من تريد أخذه ، وقد رصدته رسداً ترتقبته . يفاج : يأت على غفلة ، وأصله فاجأ بالهمز ، فسقه .

فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي : اللَّهُ دَرَكٌ ، فَأَا أَغْذَبَ نَفَثَاتِ فَيْكَ ، وَوَاهَا
 لَكَ لَوْلَا خِدَاعُ فَيْكَ ، وَإِنِّى لَكَ لِمَنِ الْمُنْذِرِينَ ، وَعَلَيْكَ مِنْ

(١) ديوانه ٨٦

(٢) ديوانه ٨١

الْحَذِرِينَ ، فَلَا تَمَّا كِرَ بَعْدَهَا الْحَاكِمِينَ ، وَاتَّقِ سَطْوَةَ الْمُتَحَكِّمِينَ ،
فَمَا كُلُّ مُسَيِّطَرٍ يُقِيلُ ، وَلَا كُلُّ أَوَانٍ يُسْمَعُ الْقِيلَ .

فَمَا هَذِهِ الشَّيْخَ عَلَى اتِّبَاعِ مَشُورَتِهِ ، وَالْارْتِدَاعِ عَنْ تَلْبِيسِ
صُورَتِهِ . وَفَصَلَ عَنْ جَهَنَّمِ ، وَاجْتَنَبَ يَلْمَعَ مِنْ جَبَنَتِهِ .

قال الحارث بن همام: فلم أَرَأْ عَجَبَ مِنْهَا فِي تَصَارِيفِ الْأَسْفَارِ ،
وَلَا قَرَأْتُ مِثْلَهَا فِي تَصَانِيفِ الْأَسْفَارِ .

* * *

قوله: «للهُ دَرَكٌ» ، أى ما أحسن كلامك ، والدَّرَ أصله اللبث ، وكأنه سَمِيَ
بحكاية صوته عند الحلب . والله ، أصله القسم ، ولا تدخل اللام في القسم إلا لأعلى
اسم الله تعالى ، والتعجب معها لازم ، فإذا قال الذى يسمع صوت الحلب لصاحب
الناقة: لله دَرَكٌ ! فكأنه قال: والله إن دَرَكَ هذا لكثير ، ثم استعير للفصيح في
كلامه ، ولكل من أحسن فى شيء ، فكأنه قيل: ما أحسن ما جئت به! وقيل:
معناه لله اللبث الذى شربته من أمك ، قال الفقهاء رحمه الله: ربما قالوا: دَرَكٌ ، ولم
يقولوا: لله دَرَكٌ ، وأنشد:

دَرَّ دَرَّ الشَّبَابَ وَالشَّعْرَ الْأَسَدَ — وَدِ الضَّامِرَاتِ تَحْتَ الرَّجَالِ

قوله: «نفثات» ، أى كلمات . واهّا: عجباً . والمنذر: المعلم بما يخاف . تماكر:
تحادع . سطوة: بطشة . المتحكم: الذى يتحكم بما شاء فيمثل حكمه . مسيطر:
أمير مساط . يقيل: يفقرزلة . أوان: وقت . عاهده: حاله . مشورته: أخذ
رأيه . الارتداع: الكف . تلبيس: تخليط . صورته: قصته . فصل: زال .

الخنز : الخداع . يلع : يضيء ، يريد أنه انفصل عنه وعلى وجهه علامة الفدر ،
وأن يمينه التي حلف له كاذبة ، وأوّل مَنْ نظم في هذا المعنى الشماخ
حين قال :

أَتَنِي تَمِيمٌ قَضَاهُ بِقَضِيئِهَا تَمَسَّحَ حَوْلى بِالْبَقِيعِ سِبَالَهَا
يَقُولُونَ لِي : أَحْلَفُ وَلَسْتُ بِمُخَالِفِ أَخَادِعُهُمْ عَنْهَا لَكَيْمًا أَنَالَهَا
فَفَرَّجَتْ هَمَّ النَّفْسِ عَنِّي بِحَلْفَةِ كَمَا شَقَّتِ الشُّقْرَاءُ عَنِّي جِلَاهَا

ومن الملح في اليمين الفاجرة ، قول ابن الرومي :

وَإِنِّي لَدُو حَلْفٍ كَاذِبٍ إِذَا مَا اسْتَمَحْتُ فِي الْمَالِ ضِيقُ
وَهَلِي مِنْ جَنَاحٍ عَلَى مَعْسَرٍ يَدَافِعُ بِاللَّهِ مَا لَا يَطِيقُ
وَقَالَ فِيهِ أَيْضًا :

إِذَا حَلَّتْ عَلَى ضِيقِ دُيُونِي وَبَاكَرَنِي التَّجَارُ وَخَوْفُونِي
دَفَعْتُهُمْ بَيْنَ لَوْ شَاءَ أَدَّى حَقُوقَهُمْ إِلَيْهِمْ مِنْذَرِي

وَلِدَعِيل :

سَأَلُونِي الْيَمِينَ فَارْتَمَتْ عَنْهَا كَيْ يَفْرُوا بِذَلِكَ الْإِرْتِياعُ^(١)
ثُمَّ أَرْسَلْتُهَا كَمُنْجَدَرِ السَّيْلِ تَدُلُّ مِنَ الْمَكَانِ الْتِفَاعِ
وَأَنشَدَ أَبُو عَلِيٍّ :

لَا شَيْءَ يَدْفَعُ حَقَّ خَصْمٍ شَاغِبٍ إِلَّا كَحَلْفِ عَبِيدَةَ بْنِ سَمَيْذَعٍ
يَمْضِي الْيَمِينَ عَلَى الْيَمِينَ لِحَاجَةٍ عَضَّ الْجُوحُ عَلَى الْجَبَامِ الْمُقْدِعِ
فَإِذَا يَذْكُرُ حَلْفَةَ أَصْغَى لَهَا وَإِذَا يَذْكُرُ بِالتَّقَى لَمْ يَسْمَعْ

قوله: «تصاريف»، أراد التصرف بالجلولان في البلدان. والأسفار: الأول: جمع السفر في البلاد، والثاني: جمع سفر، وهو الكتاب، قال الفراء رحمه الله: الأسفار: الكتب العظام. والتصانيف: التأليف المنوعة، والمصنف الذي فيه أنواع شتى.

المقامة التاسعة وهي الإسكندرانية

قال الحارث بن همام : طحاني مَرَحُ الشَّبَابِ ؛ وَهَوَى
الْاِكْتِسَابِ ، إِلَى أَنْ جُبْتُ مَا بَيْنَ فَرْغَانَةٍ وَغَانَةٍ ، أَخَوْضُ الْغِمَارِ ،
لِأَجْنَى الْقِمَارِ ، وَأَقْتَحِمَ الْأَخْطَارَ ، لِكُنَى أَذْرِكَ الْأَوْطَارِ ،
وَكُنْتُ لَقِفْتُ مِنْ أَفْوَاهِ الْمَمَاءِ ، وَتَقِفْتُ مِنْ وَصَايَا الْحُكَمَاءِ ،
أَنَّهُ يَلْزَمُ الْأَدِيبَ الْأَرِيبُ ، إِذَا دَخَلَ الْبَلَدَ الْغَرِيبُ ، أَنْ يَسْتِمِيلَ
قَاضِيَهُ ، وَاسْتَخْلِصَ مَرَاضِيَهُ ، لِيَشْتَدَّ ظَهْرُهُ عِنْدَ الْخِصَامِ ،
وَيَأْمَنَ فِي الْغُرْبَةِ جَوْرَ الْحُكَّامِ ؛ فَاتَّخَذْتُ هَذَا الْأَدَبَ إِمَامًا ،
وَجَعَلْتُهُ لِمَصَالِحِي زِمَامًا ، فَمَا دَخَلْتُ مَدِينَةً ، وَلَا وُلِجْتُ عَرِيقَةً ،
إِلَّا وَامْتَزَجْتُ بِحَاكِمِهَا امْتِزَاجَ الْمَاءِ بِالرَّاحِ ، وَتَقَوَّيْتُ بَعْنَاتِهِ
تَقَوَّيَ الْأُجْسَادَ بِالْأُرُوحِ .

* * *

طحنا بك قلبك ووفهمك طحنوا وطحنًا : ذهب بك ، وطحنا الله الأرض
ودحاها : بسطها . ابن الأنباري : طحنا قلبه في الهوى واللهو ، إذا تطاول وتمادى ، قال .
علقة :

* طَحَّنَا بِكَ قَلْبِي فِي الْحِسَانِ طَرُوبُ *

مرح الشباب : نشاط الفتوة . جُبْتُ : قطعت ومشيت .

[ذكر فرغانة]

فرغانة : مدينة في أقصى خراسان ، وكان فيها بيتٌ يُسمَّى هيكل الشمس ، بناه فارس الملك ، وخرَّبه المعتصم ، وبها قُتِلَ قتيبة بن مسلم الباهلي أمير خراسان سنة ثلاث وخمسين ، وبين سمرقند ثلاثة وخمسون فرسخاً . قال اليعقوبي : من سمرقند إلى أسروشنة خمس مراحل شرقاً ، ومن أسروشنة إلى فرغانة مرحلتان ، ومدينة فرغانة التي ينزلها الملك يقال لها كاسان ، وهي مدينة جليلة القدر ، عظيمة الأمور ، وكلُّ هذه المدن مضافة إلى عمل سمرقند . وكان أنوش . وان بنى فرغانة ، ونقل إليها من كل بيت قوماً ، وسمّاها أزهرخان ، أى من كل بيت .

[ذكر غانة]

وغانة : بلد من بلاد السودان ، وإليها ينتهى التجار ، والمدخل إليها من سِجِلْمَاسَة ون سِجِلْمَاسَة إليها مسافة ثلاثة أشهر ، ومن غانة إلى سِجِلْمَاسَة شهر ونصف ، ودون ذلك ، وسبب ذلك أن الرِّفاق تتجهز إليها من سِجِلْمَاسَة بالأمّناع والأثقال ، فتباع في غانة بالتَّبر ، فمن سافر إليها بثلاثين حِملاً يرجع منها بثلاثة أحمال ، أو بحملين : واحد لركوبه ، وثانٍ للماء بسبب المفازة التي في طريقها ، حدّثنى غير واحدٍ من تجارها أنهم يقطعون المفازة في ستة عشر يوماً ، لا يرون فيها ماء إلاّ على ظهور الإبل ، فأثمان أحمال الثلاثين حِملاً يجتمع فيها من التَّبر ما يجعل في مزود واحد ، فيطوون المراحل للخفّة . وغانة بلد مملكة السودان ، وانتشر الإسلام في أهلها ، وبها مدارس للعلم ، وبها من تجار المغرب كثير يدخلون للتجارة فيصيبون الخِصْب والأمن وكثرة المتاجر ، فيشترون بها خدمات للتَّبر ، وقيمون بها عند أميرها في غاية الكرامة ، والخدم فيها قد جعل الله فيهنّ من

الخصال الكريمة في خلقهنّ وخلقهنّ فوق المراد، من ملاسة الأبدان، وتفتق السواد، وحسن العينين، واعتدال الأنوف، وبياض الأسنان، وطيب الروائح.

[مما ورد من الشعر في وصف السواد والبياض]

وكان ابن الرومي وصف واحدة منهنّ بقوله :

تذكرك المسك والفوالى والنَّدَّ ذواتُ النَّسيمِ والعَبَقِ
ليست من العُبْسِ الأَكْفِ ولا الفُلْجِ الشَّفاءِ الخبائثِ العَرَقِ
أَكْسَبَهَا الحَبَّ أَنُهَا صُبِغَتْ صِبْغَةَ حَبِّ القُلُوبِ والْحَدَقِ
يَفْتَرِذُكَ السَّوَادُ عَنْ يَقِيٍّ مِنْ نَعْرِهَا كَاللَّالِيءِ النَّسَقِ
كَأَنَّهَا وَالْمِزَاحَ يَضْحَكُهَا لَيْلُ تَعَرَّى دُجَاهٍ عَنْ فَاقِ
لَهَا حَرٌّ يَسْتَعِيرُ وَقَدَّتْهُ مِنْ قَلْبٍ صَبٍّ وَصَدْرُ ذِي حَنْقِ
يَزْدَادُ ضَيْقًا عَلَى المِرَاسِ كَمَا تَزْدَادُ ضَيْقًا أَشْوَطَةُ الوَهَقِ
غَصَنَ مِنَ الْآبَنُوسِ رَكَّبَ فِي مُؤَزَّرٍ مَعْجَبٍ وَمَنْتَقِ
وقال الشريف الرضي :

أَحْبَبُكَ يَالُونَ السَّوَادِ فَإِنِّي رَأَيْتُكَ فِي الْعَيْنَيْنِ وَالْقَلْبِ تَوْأَمًا^(١)
وَمَا كَانَ سَهْمُ الْعَيْنِ لَوْلَا سَوَادُهَا لِيَبْلُغَ حَبَّاتِ القُلُوبِ إِذَا رَمَى
إِذَا كُنْتَ تَهْوِي الظَّبْيَ أَلَمَى فَلَا تَلَمَّ جَنُونِي عَلَى الطَّبْيِ الَّذِي كُلَّهُ لَمَى
وقال ابن مسleme :

يَكُونُ الْخَالُ فِي خَدِّ قَبِيحٍ فَيَكْسُوهُ الْمَلَاخَةُ وَالْجَمَالَا

(١) ديوانه ٧٥٥ .

فكيف يُلامُ مشغوفٌ على مَنْ يَرَاهَا كُلَّهَا فِي الْعَيْنِ خَالَاً !
وله أيضاً :

لامِ العواذلِ فِي سِوَاءِ فَاحِمَةٍ كَأَنَّهَا فِي سِوَاءِ الْقَلْبِ تَمَثَّلُ
وَهَامَ بِأَخَالِ أَقْوَامٍ وَمَا عَلِمُوا أَنِّي أَهْمٌ بِشَخْصٍ كُلَّهُ خَالُ
ولابن رباح :

وسِوَاءِ الْأَدِيمِ إِذَا تَبَدَّتْ يَرَى مَاءَ النِّعَمِ جَرَى عَلَيْهِ
رَأَاهَا نَاطِرِي نَصَبًا إِلَيْهَا وَشِبْهُ الشَّيْءِ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ
ولابن رشيقي :

دَعَا بِكَ الْحَبْنِ فَاسْتَجِيبِي بِأَمْسِكُ فِي صَبْغَةٍ وَطِيبِ (١)
تَبَيَّ عَلَى الْبَيْضِ وَاسْتَطِيبِي تَبَيَّ شَبَابٍ عَلَى مَشِيبِ
وَلَا يَرَعُكَ اسْوَدَادُ لَوْنٍ كَمُقَلَّةِ الشَّادِنِ الرَّبِيبِ
فَإِنَّمَا الثُّورُ عَنْ سِوَادٍ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ وَالْقُلُوبِ
قال ابن رشيقي : أخذته من قول الآخر ، أنشده الجاحظ :

مَشَبَهَاتُ الشَّبَابِ وَالْمَسْكُ تَفْدِيهِمْ نَفْسِي مِنَ الرَّدَى وَالْخَطُوبِ
كَيْفَ يَهْوَى الْفَتَى اللَّيْبُ وَصَالُ الْبَيْضِ ، وَالْبَيْضُ مَشَبَهَاتُ الْمَشِيبِ
وأخذ بيته الآخر من قول الآخر ، أنشده الجاحظ :

وَإِنَّ سِوَادَ الْعَيْنِ فِي الْعَيْنِ نُورُهَا وَمَا لِبَيَاضِ الْعَيْنِ نُورٌ قِيَعَمُ
فأخذه أيضاً أبو الطيب ، فقال في كافور وأحسن :

(١) الغيث المنسجم ٢ : ١٦١ ، معاهد التنصيص ٢ : ٢٣ ، ديوان الصبابة (على هامشه
تزيين الأسواق) ٦٨ .

فجاءت بنا إنسانَ عينِ زمانه وغلّت بياضاً خلفها وماقياً^(١)
ولابن الجهم :

وعائب للشمر من جهله مفصلٌ للبيض ذى مخك^(٢)
قولوا له عني : أما تستحي ! من يجعل الكافور كالملك !
والسابق لهذا المعنى أبو حفص الشطرنجي ، والناس تبع له حيث قال :
أشبهك المسك وأشبهته قائمة في لونه قاعده
لا شك - إذ لونكما واحد أنكما من طينة واحد
على أن العباس^(٣) بن الأخنف معاصره ، قال :

أحب النساء السود من أجل تكتم
ومن أجلها أحببت ما كان أسوداً
فجئني بمثل المسك أطيب نكهة وجئني بمثل الليل أطيب مرقد
أخذ بيته الأول من قول ابن الأعرابي :

أحبُّ لحبها السودان حتى أحبُّ لحبها سود الكلاب
وقال ابن الرومي في تفضيل السواد على البياض :

وبعض ما فضل السواد به والحق ذو سلم وذو نفق
ألا يعيب السواد خلكته وقد يعاب البياض بالبهق

وهذه الأقوال كلها على استحسانها اعتذارات واقتدارات من الشعراء على
تحسين القبيح ، والأمر الجمع عليه تفضيل البياض .

(١) ديوانه ٤ : ٢٨٧

(٢) ديوانه ١٦٢ (عن الفردي)

(٣) كذا في ب ، وفي ط ، ١ : « على ابن العباس » ، تصحيف ، ولم أجد الأبيات في
ديوان عباس بن الأخنف .

(٢٢ - شرح مقامات الحريري ١)

قال الجاحظ : العرب تمدح بالبياض ، وتهجو بالسواد ، وربما مدحوا بالسواد ، ولكن أصل ما ينون عليه أمرهم ذمه ، وأنشد :

لهم ديباجة عُرِفَتْ قديمًا بياض في الوجوه وفي الجلود
وأحسن كشاجم فيما قصد إليه بقوله :

يامشيهما في فعله لونه لم تعد ما أوجبت القسمه^(١)
خاتمك من خلقك مستخرج والظلم مشتق من الظلمة^(٢)

قوله : «جبت ما بين فرغانة وغانة» ، ماها هنا بمعنى الذي ، كأنه قال : جبت الذي بين فرغانة التي هي أقصى المشرق ، وغانة التي هي أقصى المغرب من البلاد والقفار والبحار لكسب المال ، فاهى التي أوجبت لما بين البلدين ما ذكر أن يعم بالمشى ؛ ولوسقطت لم يلزم العموم ، وكأنه يشير بهذا التعبير إلى قول حبيب :

سلي هل عمرت القفر وهو سباسب^(٣) وغادرت رباعي من ركابي سباسب^(٤)
وغربت حتى لم أجد ذكر مشرق وشرقت حتى قد نسيت المغارب

قوله : « أخوض الغار » ، أى أدخل المياه الغزيرة فأجوزها . أفتحم الأخطار ، أى أترامى في المخاوف . والخطر : الفرار . والأوطار : الحاجات . وقال أبو عمر القسطلي^(٥) فيما يتعلق بهذا :

تخوفني طول السفار وإنني لتقبيل كف العامري سفير
دعيتني أريد ماء المتجاوز آجنا إلى حيث ماء المكرمات تميز

(١) ديوانه ١٧ ، وفيه : « في لونه فله » .

(٢) في الديوان : « فمالك من خلقك » .

(٣) ديوانه ١٧ ، والسباسب : القفار الفسيحة .

(٤) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن العاص بن أحمد بن جراح بن عيسى بن دار ، المعروف بلقب القسطلي ، في طبرستان أبو عمرو ، خطب وذكر في بعض تراجمه ؛ وقد نبه إليه الدكتور محمود مكى في حواشيه على ديوان ابن دراج ص ٢١ ، والأبيات في ديوانه ٢٩٨ .

(٥) في ديوانه ص ٢٢ - ٢٣

ألم تعلی أن الثواء هو النوى وأن بیوت العاجزين قبورُ
وأن خطیرات المهالك ضُمنَ لراكبها أن الجزء خطیرُ

وقال النابغة الجعدي :

إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه

شكا الفقر أو لام الصديق فأكثر^(١)

فسیر فی بلاد الله والتمس الغنى تمش ذا يسار أو تموت فتعذراً

وقال ابن سارة :

سافر فإنّ الفتي من بات مفتتحاً قُفلَ المحاح بمفتاح من السفر

إن شئت خضرتها يا ابن الرخاء فكن

في طي عمر الفيا في نائي الحضر

ولا يصدّنك عن أمر تصعبه قد ينزع الكوثر السلسال من حجر

لا بد أن يقع المطلوب في شرك ولو بنى وكرة في دائرة القمر

[باب في الحضر على السفر وترك العجز]

ومما ينتظم في باب الحضر على السفر وترك العجز قولهم : لا ينبغي للعاقل
أن يكون إلا في إحدى المنزلتين ، إما في الغاية من طلب الدنيا ، وإما في الغاية
من تركها ، ولا ينبغي للعاقل أن يرى إلا في أحدمكانين ، إما مع الملوك مكرماً ،
وإما مع العباد متبتلاً ، ولا يعدّ الغرم غرماً إلا إذا ساق غنماً ، ولا النعم غنماً إلا
إذا ساق غرماً ؛ ونظم هذا المعنى فقال :

ذِرِ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تَحْظَ فِيهَا وَكُنْ فِيهَا كَثِيرًا أَوْ قَلِيلًا^(١)
وَأَصْبِحْ وَاحِدَ الرَّاجِلِينَ إِمَّا مَلِكًا فِي الْعِشَائِرِ أَوْ أَيْلًا
الأييل : الراهب .

وفي كتاب الهند : من لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب .
وفي التوراة : ابن آدم ، خُلِقَ مِنَ الْحَرَكَةِ إِلَى الْحَرَكَةِ ، فَتَحَرَّكَ وَأَنَا مَعَكَ .
وفي بعض الكتب : امدد يدك إلى بابٍ من العمل ؛ أفتح لك باباً من
الرزق .

وقالوا : مَنْ ضَعُفَ عَنْ عَمَلِهِ أَتَكَلَّ عَلَى رِزْقٍ غَيْرِهِ .
وقال علي رضي الله عنه : الحرص مقدمة الكون .
وقال النبي صلى الله عليه وسلم لو فد عبد القيس : ما المروءة فيكم ؟ قالوا :
العفة والحرفة .

ورثي عكرمة وراء نهر بُلُخ ، فقيل له : ما جاء بك هاهنا ؟ فقال : بناتي .
وقال رجل لمعروف الكرخي : يا أبا محفوظ أتحرك لطلب الرزق أم أجلس ؟
قال : لا بل تحرك ، فإنه أصلح لك ، فقال : أتقول هذا ؟ قال : وما أنا قاتله
ولكن الله عز وجل أمر به ، قال لمريم عليها السلام : ﴿ وَهْزِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ
النَّخْلَةِ تَسَاقُطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِينًا ﴾^(٢) ولو شاء لأنزله عليها .

وأنشد الثعالبي :

ألم ترَ أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى لِمَرْيَمَ وَهْزَى إِلَيْكَ الْجِذْعَ يَسَاقُطُ الرُّطْبُ

(١) سقط الزند ١٣٧١ .

(٢) سورة مريم ٢٥

ولو شاء أن تجنيه من غير هزّها جنته ، ولكن كل شيء له سبب
وقال موسى بن عمران عليه السلام : لا تلوموا السّفر ؛ فإنّي أدركت فيه ما لم
يدركه أحد ؛ يريد أن الله كلمه فيه .

ونظم هذا المعنى حبيب فقال :

إنّ موسى صلى على روحه الله صلاةً كثيرة القدس^(١)

صار نبياً وعظماً بغيته في جذوة للصّلاة والقبس^(٢)

قال المؤمنون : لا شيء ألدّ من السفر في كفاية ؛ لأنك تحمل كل يوم في محلة
لم تحلها ، وتعاشر قوماً لم تعاشرهم .

الثعالبي : من فضائل السفر أن صاحبه يرى من عجائب الأمصار ، وبدائع
الأقطار ، ومحاسن الآثار ، ما يزيد علمه بقدرة الله ، ويدعوه إلى شكر نعمته .

وفي الأثر الصحيح : سافروا تصحّوا وتغنموا .

آخر : السفر يشدّ الأبدان ، وينشط الكسلان ، ويشهّي إلى الطعام .

آخر : ليس بينك وبين بلد نسب ، فخير البلاد ما حلك .

قال ابن رشيّق : كتبت إلى بعض إخواني : مثل الرجل القاعد - أعزّك الله -
كمثل الماء الراكد ، إن ترك تغير ، وإن تحرّك تكدر ، ومثل المسافر كالسحاب
الماطر ، هوّلاء يدعونه رحمة ، وهوّلاء يدعونه نقمة ، فإذا اتصلت أيامه ، ثقل
مقامه ، وكثر لؤامه ، فاجمع لنفسك فرجة الغيبة ، وفرحة الأوبة ، والسلام .

وقال ابن رشيّق :

غِبْ عن بلادك وارْجُ حسن مغيبةٍ إن كنت حقا تشكي الإقلا^(٣)

(١) ديوانه ١٧٠ . والقدس : الطهارة

(٢) البنية : المطالب . الجذوة : الحرّة ، والصلاة ، التدفؤ .

(٣) ثقله في التنفّ ٥٩

فالبدرُ لم يُجِئْ به إداره ألا يسافر يطلب الإقبالا
وقال أبو الطيّب :

وما بلد الإنسان غير الموافق ولا أهله الأدنون غير الأصادق^(١)
وقال البحتري :

وإذا ما تذكرت لي بلاداً أو صديق فإني بالخيار^(٢)
وقال أبو الطيّب :

إذا لم أجد في بلدة ما أريده فعندي لأخرى عزمة وركاب
وقال إبراهيم بن العباس الصولي :

لا يمنعك خفض العيش في دعة نزوع نفسي إلى أهل وأوطان^(٣)
تلقى بكل بلاد إن حلت بها أهلاً بأهل وجيراناً بجيران

أى لا يمنعك الشوق إلى الوطن في الغربة من الاستمتاع ببلدة العيش ،
فالأرض واحدة ، والناس جنس واحد . وفي غير الحاسة :

لا يمنعك خفض العيش في دعة من أن تبدل أوطاناً بأوطان
برفع « خفض » ، أى لا يمنعك عيشك الهنيء في بلدك أن تجول في البلدان ،
وترى الناس ، تستفيد النزهة والتجربة .

وقالوا : المسافر يسمع العجائب ، ويكشف التجارب ، ويحب المكاسب .
أوحش أهلك إذا كان أنسك في إحاشهم ، واهجر وطنك إذا نبت نفسك عنه .
قيل لأعشى بكر : إلى كم ذا الاغتراب ؟ أما ترضى باللدعة ! قال : لودامت
الشمس عليكم يومين للتموها .

(١) ديوانه ٢ : ٣٢٠ .

(٢) ديوانه ٩٨٧ .

(٣) ديوانه ١٥١ ، ديوان الماني ١ : ٩٩٢ .

أخذه حبيب فقال :

وطولُ مُقامِ المرءِ في الحَيِّ مُخْلِقٌ لذيّاجتنيهِ فَاغْتَرَبَ تَتَجَدَّدُ (١)
فإِنِّي رَأَيْتُ الشَّهْسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدٍ
وقال الحكماء : لا تُنال الراحة إلا بالتعب ، ولا تدرك الدعة إلا بالنصب .

وقال حبيب :

على أُنْتَى لَمْ أَحْوِ وَفَرَا مَجْمَعاً ففَزَتْ بِهِ إِلَّا بِشْمَلٍ مَبْدَدُ (٢)
وَلَمْ تُعْطِنِي الْأَيَّامُ يَوْماً مَسْكَناً أَلَدَّ بِهِ إِلَّا بَنُومٍ مُشَرَّدٍ
وقال ابن عبد ربه : هل يجوز في عقل ، أو يمثل في وهم ، أو يصح في قياس ،
أن يُحصَدَ زرعٌ بغير بَذَرٍ ، أو يثمر مالٌ بغير طلبٍ ، أو تُجَنَّى ثمرة بغير غَرْسٍ ،
أو يُورَى زندٌ بغير قَدْحٍ ! وقد يكون الإكداء مع الكدِّ ، والخينة مع الغيبة .

وقال الشاعر :

وما زلتُ أَقْطَعُ عَرْضَ الْبِلَادِ مِنْ الْمَشْرِقَيْنِ إِلَى الْمَغْرِبَيْنِ
وَأَدْرَعُ الْخُوفَ تَحْتَ الدُّجَى وَأَسْتَصْحِبُ الْجُدَى وَالْفِرْقَدَيْنِ
وَأَطْوِي وَأَنْشُرُ ثَوْبَ الْهَمُومِ إِلَى أَنْ رَجَعْتُ بِخُفْيِ حُنَيْنِ
وقال ابن رشيقي :

بُعْطَى الْفَتَى فِينَالُ فِي دَعَا مَا لَمْ يَنْلِ بِالْكَدِّ وَالتَّعَبِ (٣)
فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ فَضْلَ رَاحَتِهَا إِذْ لَيْسَتْ الْأَشْيَاءُ بِالطَّلَبِ
إِنْ كَانَ لَا رِزْقَ بِلَا سَبَبٍ فَرَجَاءُ رَبِّكَ أَعْظَمُ السَّبَبِ

وقال محمد بن يسير :

(١) ديوانه ١٠٠ ، ١٠١

(٢) ديوانه ١٠٠ ، وفيه : « ولكنني لم أحو » .

(٣) نقله في التنف ١١

قد يُرْزَقُ الْخَافِضُ الْمُقِيمُ وَمَا شَدَّ لِعُنْسٍ رَحْلًا وَلَا قَتَبًا^(١)
وَيَحْرَمُ الْمَالُ ذُو الْمَطِيَّةِ وَالرَّحْلَ حَلَّ وَمَنْ لَا يَزَالُ مُغْتَرِبًا
وَقَالَ آخِرُ :

قَدْ يُرْزَقُ الْمَرْءُ لَمْ تَتَّعِبْ رَوَاحِلُهُ وَيَحْرَمُ الرِّزْقَ بِالْأَسْفَارِ وَالتَّعَبِ
إِنِّي وَعَمْرُكَ مَا أَحْصَى ذَوِي حَقِّ الرِّزْقِ أَعْدَى بِهِمْ مِنْ لَاصِقِ الْحَرْبِ
وَلَا آخِرُ :

أَلَا رَبَّ بَاغِي حَاجَةٍ لَا يَنَالُهَا وَآخِرُ قَدْ تُقْضَى لَهُ وَهُوَ جَالِسٌ
آخِرُ :

قَدْ يُرْزَقُ الْمَرْءُ، لَا مِنْ حُسْنِ حِيلَتِهِ وَيُصْرَفُ الرِّزْقُ عَنْ ذِي الْحِيلَةِ الدَّاهِي
مَامَسَّنِي مِنْ غَنَى يَوْمٍ وَلَا عَدَمٍ إِلَّا وَقَوْلِي فِيهِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ
آخِرُ :

لَوْ كَانَ بِاللَّبِّ يَزْدَادُ اللَّيْبُ غَنًى لَكَانَ كُلُّ لَيْبٍ مِثْلَ كَافُورٍ
لَكِنَّهُ الرِّزْقُ بِالتَّسْطَاسِ مِنْ حِكْمٍ يُقْصَى اللَّيْبُ، وَيُعْطَى كُلُّ مَا خُورٍ
وَمِثْلُ هَذَا قَلِيلٌ فِي كَثِيرٍ وَإِنَّمَا يَحْكُمُ بِالْأَغْلَبِ ، وَالنُّجْحُ مَعَ الطَّلَبِ أَكْثَرُ ،
وَالْحَرَمَانُ لِلْعَاجِزِ أَصْحَبُ ، وَشَرَحَ حَبِيبُ هَذَا الْمَعْنَى فَقَالَ :

هَمْ الْفَتَى فِي الْأَرْضِ أَغْصَانُ النَّبِيِّ غُرِسَتْ وَلَيْسَتْ كُلُّ حَبِينٍ تُورِقُ
أَوْصَى بَعْضُ الْحُكَمَاءِ ابْنَهُ وَأَرَادَ سَفَرًا ، فَقَالَ : إِنَّا نَكُ تَدْخُلُ بِلْدًا لَا تَعْرِفُهُ ،
وَلَا يَعْرِفُكَ أَهْلُهُ ، فَتَمَسَّكَ بِوَصِيَّتِي تَنْفَقُ بِهَا ؛ عَلَيْكَ بِحُسْنِ الشَّمَائِلِ ؛ فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى
الْحَرِيَّةِ ، وَنَقَاءِ الْأَطْرَافِ فَإِنَّهَا تَشْهَدُ بِالْمُلُوكِيَّةِ ، وَنِظَافَةِ الْبِرَّةِ فَإِنَّهَا تَشْهَدُ بِالنِّسَاءِ فِي
النِّعْمَةِ ، وَطِيبِ الرَّائِحَةِ فَإِنَّهَا تَظْهَرُ الْمُرُوءَةَ ، وَالْأَدَبَ الْجَمِيلَ فَإِنَّهُ يُكَسِبُ الْحُبَّةَ ،
وَلَيْسَ كُنْ عَقْلُكَ دُونَ دِينِكَ ، وَقَوْلُكَ دُونَ فِعْلِكَ ، وَلِبَاسُكَ دُونَ قَدْرِكَ ، وَالزَّمْ

(١) الْأَغَانِي ٥ : ٢١ ، مِنْ أَيْيَاتِ نَسْبِهَا إِلَى بْنِ عَبْدِ الْعَدِيِّ

«الحياء والأئفة فإياك إن استحييت من الفظاظة اجتنبت الخساسة ، وإن أنفت من الغلبة لم يتقدمك نظير في مرتبة .

قوله : «لِفَت» ، أخذت ، واللَّفَف : أخدم ما يرمى إليك بيدك . ثِفَت : قيدت ، ويُمدح الرجل الحازم به فيقال : فلان ثَفَفْ ثَقِفْ . والأَرِب : العاقل ، وقد أَرَب أَرابة وأَرَبًا ، صار أَرِيبًا ، والأَرِب من أَرَبت العقدة أَرَبًا ، شدتها . يستميل : يستنزل ويدعوه أن يميل إليه . يستخلص مراضيه ، أى يحوزها لنفسه . ومراضيه : ما يُرضى القاضى ويوافقه ، وهو جمع مَرْضَاة ، ويقال : صلة الرحم مَرْضَاة للرب ، أى يرضيه برّها ، يقول : العاقل إذا دخل بلدة استعطف قاضيتها لنفسه ، بحسن خلقه حتى يخفّ عليه أمره . ليشند : ليتقوى . جَوَز : ظلم ، إمامًا : قدوة ، زمامًا : حبلًا أقودها به . ولجت : دخلت . عرينة : بلدة ، وأصلها بيت الأسد . الراح : اسم الحجر ، وأبهم على ابن الرومى ممّ اشتق اسمها حين قال :

والله ما أدري لأية عِلَّة يدعوها فى الراح باسم الراح
ألريحها أم رُوحها تحت الحشا أم لارتياح نديمها للرتاح !

وانظر الامتزاج الذى ذكر فى الخامسة والأربعين .

عنايته : اعتناؤه به واهتمامه .

* * *

فبينما أنا عند حاكم الإسكندرية ، فى عَشِيَّة عَرِيَّة ، وقد أخضر مال الصدقات ، ليُفضَّه على ذوى الفاقات ، إذ حلَّ شخصٌ عَفْرِيَّة ، تعتله امرأة مُصْبِيَّة فقالت : أيد الله القاضى ، وأدام به التراضى ، إني امرأة من أكرم جرثومة ، وأطهر أرومة ،

وأشرف خُثُولَةٍ وعمومةٍ ، ميسَمِي الصَّوْنِ ، وشيمَتِي الهَوْنِ ،
 وَخُلُقِي نِعَمَ النُّوْنِ ، وبينى وبين جارأتى بَوْنِ ، وَكَانَ أبى إذا خَطَبَنِى
 بُنَاءَ المجدِ ، وَأَرْبَابُ الجَدِّ ، مَسْكَتَهُمْ وَبَكَّتَهُمْ ، وَطَفَ
 وَصَلَّتَهُمْ وَصَلَّتَهُمْ ، وَاحْتَجَّ بِأَنَّهُ عَاهَدَ اللهَ بِحِلْفَةٍ ، أَلَّا يُصَاهِرَ
 غَيْرَ ذِي حِرْفَةٍ .

◦ ◦ ◦

[ذكر الإسكندرية]

مدينة عظيمة من بلاد مصر ، بناها الإسكندر ذو القرنين ، وهو الذى
 مشى مشارق الأرض ومغاربها . قال السدّى : لما سأل أهل الكتاب النبىَّ
 صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين ، قال : سأخبركم كما تجدونه مكتوباً عندكم :
 إِنَّ أَوَّلَ أمره أَنَّهُ غلامٌ من الروم ، أُعْطِيَ مُلْكًا ، فسار حتى أتى ساحل البحر
 من أرض مصر ، فابتنى عندها مدينة يقال لها الإسكندرية .

وقال الهمذانى : ذو القرنين ينسب إليه التاريخ قبل الإسلام ، ومؤدّبه
 أرسطاطاليس الحكيم ، وكان مُلْكُهُ الذى بلغ فيه أقصى المشرق والمغرب خمسة عشر
 عاما ، والإسكندرية لما بناها رَحَّمَهَا بِالرَّخَامِ الأَبْيَضِ جُدُّهَا وَأَرْضُهَا ، فَكَانَ
 لِبَاسِهِمْ فِيهَا السَّوَادُ من نصوع بياض الرخام ، وإذا كانت ليلة مقمرة يُدْخِلُ
 الخياط الخياط فى خَرَقِ الإبرة من بياض رخامها .

وقيل : إنها مكثت سبعين عاما لا يدخلها أحد إلا وعلى بصره خرقة سوداء
 من بياض جِصِّهَا وَرُخَامِهَا ، ولم يخرج لها فى تلك المدة إلى سراج بالليل من
 ضيائها . وقيل : كانت ثلاث مدن يحيط بجميعها سور .

قال ابن جبير: ما شهدنا^(١) بلداً أوسع مسالك، ولا أعلى بناء، ولا أعتق ولا أحفل من الإسكندرية، وأسواقها في نهاية الاحتفال ومن أعجب ما في وصفها أن بناءها تحت الأرض كبنائها فوقها وأعتق، لأن الماء إذا جاء من النيل يخترق جميع آبارها وأزقتها تحت الأرض، فتتصل الآبار بعضها ببعض، ويمد بعضها بعضاً، وعابنا فيها من سوارى الرخام وألواح كبراً وعلواً واتساقاً وحسناً مالا يتخيل إلا بالوهم؛ حتى إنك تلقى بعض سواريتها يغص بها الجو صعوذاً لا يدري معناها، ولا لأى شيء وضعت إلا ما يتحدث به أنه كان عليها من قديم الزمان مبان للفلاسفة وأهل الرئاسة ومن أعظم عجائبها المنار، آية للمتوسمين وهداية للمسافرين، لولاه ما اهتمدوا في البحر إلى بر الإسكندرية، ويظهر على أزيد من سبعين ميلاً، ومبناه في نهاية العتاقة والوثاقة طويلاً وعرضاً، يراحم الجو سموً وارتفاعاً ينحصر عنه الوصف، وينحسر دونه الطرف، الخبر عنه يصيق، والمشاهدة له تنسج، ذرعنا أحد جوانبه الأربع، فالفينا فيه ثقيماً وخمسين باعاً، وبذكر أن في طوله أزيد من مائة وخمسين قامة

وأما داخله فرأى هائل، اتساع معارج، ومداخل^(٢) وكثرة مساكن. حتى إن الواج في مسالكه ربما ضل. وفي أعلاه مسجد موصوف بالبركة، يتبرك الناس بالصلاة فيه، طلعنا إليه، وشهدنا من شأن مبناه عجباً لا يستوفيه وصف واصف، والله تعالى لا يخفيه من عزة الإسلام.

* * *

قوله «عشية عربية»، أى باردة. بفضه: بفرقه. ذوى الفاقات: أهل الفقر والحاجات. عفرية: يقال رجل عفرية وعفري وعفري، إذا كان صحيحاً شديداً موثقاً

(١) رحلة ابن جبير ٩، ١٠ بتصرف.

(٢) ط: «دواخل»، وما أثبتته من أ، ب وابن جبير.

«الخلق ، أَخَذَ مِنْ عَفَرِ الْأَرْضِ ، وَهُوَ التُّرَابُ ، أَيْ مِنْ عَلَقَ بِهِ عَفْرُهُ بِالْأَرْضِ وَمِنْهُ لَيْثٌ عَفْرَتَيْنِ ، أَيْ لَيْثٌ لِيُوثَ ، مَعَفَرٌ لِفَرِيستِهِ . قَالَ الْخَلِيلُ : رَجُلٌ عَفْرٌ بَيْنَ الْعَفَارَةِ ، إِذَا وَصِفَ بِالشَّيْطَانَةِ ، وَالْعَفِيرُ أَيْضًا : الظَّرِيفُ الْكَيْسُ ، وَيُقَالُ لِلشَّيْطَانِ : عَفْرِيَّتٌ وَعَفْرِيَّةٌ ، وَهِيَ عَفَارِيَّةٌ . وَقُرِئَ : ﴿ قَالَ عَفْرِيَّةٌ مِنَ الْجِنَّ ﴾ ^(١) ، وَفِي الْحَدِيثِ : « إِنْ اللَّهُ لَيُبْغِضُ الْعَفْرِيَّتَ النَّفْرِيَّتَ » ، قَلِيلٌ هُوَ الْجُمُوعُ الْمُتَنَوِّعُ .

وَقَالَ أَبُو عَثْمَانَ النَّهْدِيُّ : دَخَلَ رَجُلٌ عَظِيمَ الْجِسْمِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ : مَتَى عَهْدُكَ بِالْحَيِّ . قَالَ : مَا أَعْرِفُهَا ، قَالَ : فَبِالضُّدَّاعِ ؟ قَالَ : مَا أَدْرِي مَا هُوَ ! قَالَ : أَفَأَصِيبُ بِمَالِكَ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : أَفَرُزْتُ بِوَلَدِكَ ؟ قَالَ : لَا ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنْ اللَّهُ يُبْغِضُ الْعَفْرِيَّتَ النَّفْرِيَّتَ » ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَرُزُّ فِي بَدَنِهِ وَلَا يَصَابُ فِي مَالِهِ .

وَقَوْلُهُ : « تَعْتَلَهُ » ، أَيْ تَسْوِقُهُ بِعَنْفٍ ، وَكَذَلِكَ تَدْعُهُ . مُصْبِيَّةٌ : لَهَا صَبِيٌّ . جَرْتُومَةٌ : أَصْلٌ ، وَكَذَلِكَ أُرُومَةٌ . مَيْسَمِيٌّ : عَلَامَتِي . الصَّوْنُ : الصِّيَانَةُ وَالِاتِّقَابُضُ . شَيْمَعِيٌّ : طَبِيعَتِي . الْهُوْنُ : الرِّفْقُ . بُونٌ : بُعْدٌ . بِنَاةٌ : جَمْعُ بَانٍ ، وَالْجَدُّ : الشَّرَفُ الضَّخِيمُ ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْإِبْلِ الْمَوَاجِدِ ، وَهِيَ الَّتِي امْتَلَأَتْ بِطَوْنِهَا مِنَ الرَّعْيِ وَعَظَمَتْ . وَأَجْدَاهَا رَاعِيهَا ، إِذَا رَعَاهَا بِحَيْثُ تَمْجُدُ ، وَتَمْجُدُتُ وَهِيَ تَمْجُدُ : رَعَتْ فَاْمْتَلَأَتْ . وَحَكَى الْأَصْمَعِيُّ قَالَ : أَتَيْتُ شُعْبَةَ يَوْمًا ؛ وَعِنْدَهُ حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ ، وَهِيَ تَتَكَلَّمَانِ فِي حَدِيثٍ فَقَالَ شُعْبَةُ : يَا أَبَا سَلَمَةَ ، هَذَا الْفَتَى الَّذِي ذَكَرْتَ لَكَ ، فَقَالَ حَمَادُ : يَا بَنِيَّ كَيْفَ تَنْشُدُ يَتِ الْخَطِيئَةَ : « أَوْلَئِكَ قَوْمٌ . . . » ؟ فَابْتَدَأَتْ الْقَصِيدَةَ مِنْ أَوَّلِهَا :

أَلَا طَرَقْتَنَا بَعْدَ مَا هَجَعَتْ هِنْدُ وَقَدِ سِرْنَ خَسَاوَاتِلَ بِهَا الْجِدِّ ^(٢)

(١) هِيَ قِرَاءَةُ عَيْسَى الثَّقَفِيِّ ، وَانْظُرْ تَفْسِيرَ الْقُرْطُبِيِّ ١٣ : ٢٠٣ .

(٢) دَبَّوَانُهُ ١٩ ، ٢٠ .

إلى أن بلغت قوله :

أولئك قومٌ إن بنوا أحسنوا البنى وإن عاهدوا أوفوا وإن عَقَدُوا شَدُّوا^(١)
فقال لى حماد : يا بنى إن العرب تقول : بنى يبنى بناءً فى العمران ، ويقولون
فى الشرف : نبا يَنْبُو نَبْوًا ، فأنشد هذا البيت « أحسنوا البنى » ، فعرفت قَدْرَ
حماد من ذلك فما كنت أنشد إلا كما لَقَّننى .

قوله : « أرباب الجَدِّ » . أى أصحاب السعد والمال ، والعرب تقول : لفلان
جَدٌّ فى الدنيا ، أى حظ وبخت ، قال امرؤ القيس :
* وقام جَدُّهم بنى أبيهم^(٢) *

وقال آخر :

عش بجدِّ ولا يضرُّكَ نوْكُ إنما عيشُ مَنْ تَرى بالجدودِ
وجدَّ الرجل : صار له جدٌّ ، وأجدّه الله : جعل له جدًّا ، وما كنت
ذا جدٍّ ، ولقد جدِّدت تجمدًا ، ورجل جديد : حظيظ من الجدِّ والحظ .
أبو عبيد قوله : « ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ »^(٣) ، أى ولا ينفع ذا الفنى .
منك غناه إنما تنفعه طاعته . يعقوب : أى من كان له حظ فى الدنيا لم ينفعه
ذلك فى الآخرة .

بكتهم : قطع كلامهم وأهانهم . عاف : كره . وصلتهم : اتصاهم به .
والوَصْلَةُ : سبب التواصل ، وهى فى الآدميين ما يصل واحدًا بآخر من حُبٍّ وغيره ،
والوَصْلَةُ بالفتح : ما جعلته بين عود وعود ، أو حبل وحبل ، فوصلتهما به . وصلتهم :
عاطيتهم . حلقة : يمين . يصاهر : يخاتن . حِرْقَةٌ : صنعة ومكسب ، وهى فِعْلَةٌ
من الحرف وهو الحرمان ، والحارَف : الحروم ، كأن صاحبها منع الرزق ، فصار
يعالج كسبه .

(١) ديوانه ١٣٨ و بقيته :

* وبالأشقيين ما كان العقابُ *

(٢) اللسان - جدد ، وفى رواية : الجد ، بكسر الجيم ، أى الاجتهاد والعمل .

أبو هريرة رضى الله عنه ، قال صلى الله عليه وسلم : « خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح » .

سهل بن سعد رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عمل الأبرار من الرجال الخياطة ، ومن النساء الغزل »

* * *

فَقِيَّضَ الْقَدَرُ لِنَصَبِي وَوَصِي ، أَنْ حَضَرَ هَذَا الْخُدَاعُ
نَادَى أَبِي ، فَأَقْسَمَ بَيْنَ رَهْطِهِ ، أَنَّهُ وَفَى شَرْطِهِ ، وَادَّعى أَنَّهُ طَالَمَا
نَظَّمْ دُرَّةً إِلَى دُرَّةٍ ، فَبَاءَهُمَا بِيَدْرَةٍ ؛ فَاغْتَرَّ أَبِي بِزُخْرَفِ مُحَالِهِ ؛
وَزَوَّجْنِيهِ قَبْلَ اخْتِبَارِ حَالِهِ ، فَلَمَّا اسْتَخْرَجَنِي مِنْ كِدَاسِي ، وَرَحَّلَنِي
عَنْ أَنَاسِي ، وَتَقَلَّنِي إِلَى كَسْرِهِ ، وَحَصَلَّنِي تَحْتَ أَسْرِهِ ، وَجَدْتُهُ
قَعْدَةً جُبْمَةً ، وَالْفَيْئَةُ ضُجْمَةً نُومَةً . وَكُنْتُ صَحْبَتُهُ بِرِيَاشٍ
وَزِيٍّ ، وَأُنَاتٍ وَرِيٍّ ، فَمَا بَرِحَ يَبِيئُهُ فِي سُوقِ الْهَضْمِ ،
وَيُتْلِفُ ثَمَنَهُ فِي الْخَضْمِ وَالْقَضْمِ ، إِلَى أَنْ مَزَّقَ حَالِي بِأَسْرِهِ ، وَأَنْفَقَ
مَالِي فِي عُسْرِهِ .

° ° °

قوله : « قِيَّضَ » ، أى قَدَّرَ وساق . نَصَبِي : تعبي . وَوَصِي : مرضى ،
ونصب الرجل نصباً . أَعْيَا من التعب ، ووصب وصباً : أتعبه المرض ، فهو نصب
ووصب . الْخُدَاعُ : الكثير الخداع لغيره ، وبسكون الدال الذى يخدعه غيره
كثيراً ؛ التحريك للفاعل والسكون للمفعول فيما يأتى على « فَعَلَهُ » من الصفات .
نادى : مجلس . رهطه : قومه ، وهو اسم لجماعة من ثلاثة إلى عشرة ، ويجمع

أرْهُطُ وأَرَاهُط . وفق شرطه : أى موافق ما اشترط . نَظَمُ دُرَّةً ، يريد أنه جوهرى ينظم سلوك اللؤلؤ . بَدْرَةٌ : عشرة آلاف درهم ، وأراد بالدُرَّة هنا الكلمة ، ويعبر بها عن الحكمة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم « لَا تَدْعُوا الدُّرَّةَ فِي أَفْوَاهِ الْكِلَابِ » ، يعنى العلم . اغترتْ : انخدع ، وهو افتعل من الغرور . زخرف محاله : تزين باطله ، وأصل زخرف : زين الشيء بالزخرف وهو الذهب . كِنَاسَى : يبتى وأصله للظبي ، وهو من قوله تعالى : ﴿ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ ^(١) تشبيهاً لها بالطباء على ما ذكره ابن قتيبة ؛ ويقال له : كُنَّاسٌ وَمِكنَسٌ من الكنس ، كأن الظبية قد كنست مرقدها ووطأتها . رَحَلَنِي : قتلني وحمَلَنِي على الرَّحْلِ . كَسَرَهُ : بيته ، وأصله جانب بيت الشعر أو الخباء ، لأن جانب الخباء قد انكسر عن يمينه . أَسْرَهُ : حبسه . قُعْدَةٌ : كثير القعود . جُثْمَةٌ : كثير الجثوم ، وهو ملازمة الموضع . ضُجْجَةٌ : كثير الاضطجاع ، وهو الامتداد على الأرض للنوم . نُومَةٌ : كثير النوم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثَلَاثَةٌ لَمْ يَمُتْ مِنْهُنَّ اللَّهُ » ، وذكر الذي يكثر النوم بالنهار ، ولم يأخذ من الليل شيئاً ، وفي حديث آخر : « خَيْرُ أَهْلِ شَرِّ الزَّمَانِ مُؤْمِنٌ نُومَةٌ » . أَبُو عبيدة : هو الخامل الذي لا يعرف الشر وأهله ، فتريد أنه عاجز قد لازم بيتها ، فإن تصرف فيه اعترضها ممتداً ، فلا تجد معها راحة . رِيَّاشٌ : ثياب ، « فِعَالٌ » من الرِّيش ، لأنها تكسو البدن كما يكسو الرِّيش الطائر . زَيٌّ : هيئة حسنة من اللباس . أُمْنَاثٌ : متاع . رَيٌّ : حالة حسنة ، وأصله الهمز ، فسُهِلَ وأدْغِمَ ليوافق « زِيّاً » . قال ابن الأنباري : الْأُمْنَاثُ : المتاع . والرَّوْى والرَّوَاءُ : المنظر ، وما له رؤاء أى ماله منظر ولا لسان . والخرْفَانُ ، من رأيتُ أرى . ما برح : ما زال . الهَضْمُ : التقصان . الْخَضْمُ : الأكل بالضم كله . والقَضْمُ : الأكل بأطراف الأسنان . مَرَّقٌ : قطع وأفسد . حَالِي : غنای ، ويروى « مَالِي » مكان « حَالِي » ، وما فيه بمعنى الذى كأنه قال : فرتق

الذى لى ، ورواية ابن ظفر «بالي» بالباء ، وقال : البال : الخاطر ، وما لهذا الشيء .
بال ، إذا حَقَّرْتَهُ ، والبال كالخلد ، تقول خَطَرَ بِنَالِي ، كما تقول : خَطَرَ بِخَلْدِي
ونفسى ، وكانَ هذا هو الأصل . والبال : الحال أيضاً ، ومنه قوله :

* وخَالَفَ بَالُ أَهْلِ الدَّارِ بِأَلِي *

عسره ، أى فقره .

* * *

فَلَمَّا أَنْسَانِي طَعْمَ الرَّاحَةِ ، وَغَادَرَ يَنْتِي أَنْتَى مِنَ الرَّاحَةِ ،
قُلْتُ لَهُ : يَا هَذَا ، إِنَّهُ لَا نَحْبَأَ بَعْدَ بُوسٍ ، وَلَا عِطْرَ بَعْدَ عُرُوسٍ ،
فَانْهَضْ لِلْكَتْسَاتِ بِصِنَاعَتِكَ ، وَأَجْنِنِي ثَمَرَةَ بَرَاعَتِكَ ؛ فَرَعَمَ أَنَّ
صِنَاعَتَهُ قَدْ رُمِيَتْ بِالْكَسَادِ ، لِمَا ظَهَرَ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْفَسَادِ ،
وَلِي مِنْهُ سُلَالَةٌ ، كَأَنَّهُ خِلَالَةٌ ، وَكِلَانًا مَا يَنَالُ مَعَهُ
شِبَعَةٌ ، وَلَا تَرَقَا لَهُ مِنَ الطَّوَى دَمْعَةٌ ، وَقَدْ قُدَّتُهُ
إِلَيْكَ ، وَأَخْضَرَّتُهُ لَدَيْكَ ، لِتَعْجِمَ عُودَ دَعْوَاهُ ، وَتَحْكُمَ يَنْتِنَا
بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ .

فَأَقْبَلَ الْقَاضِي عَلَيْهِ ، وَقَالَ لَهُ : قَدْ وَعَيْتُ قَصَصَ عِرْسِكَ ،
فَبَرِهْنِي الْآنَ عَنْ نَفْسِكَ ، وَإِلَّا كَشَفْتُ عَنْ نَبْسِكَ ،
وَأَمَرْتُ بِجَبْسِكَ ؛ فَأَطْرَقَ إِطْرَاقَ الْأَنْعُمَانِ ، ثُمَّ شَمَّرَ لِلْجَرْبِ
الْعَوَانِ ، وَقَالَ :

• • •

الراحة : القرار والعيش الهنيء ، وأراد بأنقى من الراحة خلوا الكف من الشعر . مخبأ : ستر . بؤس : شدة وفقر . عطر : طيب ..

[أصل المثل : لا عطر بعد عروس]

ولا عطرَ بعد عروس ، مثل يضرب لتأخير الشيء عن وقت الحاجة إليه ، وأصله أن رجلاً تزوج امرأة فوجدها تَفَلَّةً^(١) ، فقال لها : أين عطرِك ؟ قالت : خبأتُه لغير هذا الوقت ، فقال لها : لا مخبأ لعطر بعد عروس ؛ وبهذا اللفظ روى أبو زيد الأنصاري المثل^(٢) .

السكرى : عروس رجل كانت عنده ابنة عم له ، فمات عنها ، فتزوجها بعده ابن عم لها آخر ، وهي كارهة ، وانطلق بها إلى أهلِه وقد زوجها طيباً في سَفَط ، فمرَّ بها بقبر عروس ، فأقبلت تبكيه وترفع صوتها ، وتقول : يا عروس الأعراس ، ويا شديد الباس ؛ مع أشياء لا يعلمها الناس . فأنهرها زوجها ، وقال : ما تلك الأشياء ؟ فقالت : كان عن المكارم غير نَعَّاس ، يُعمل السيف صبيحة الباس . ثم قالت : يا عروس الأعراس الأزهر ، الكريم الحضر ، مع أشياء كانت تذكر ؛ فازداد زوجها غضباً ، وقال : ما تلك الأشياء ؟ فقالت : كان عيوقاً للخنا والمنكر ، طيب النكهة غير أبجر ، ثم أخذت السَفَط وكسرتة على قبر عروس ، ثم قالت : لا عطر بعد عروس ، فذهب مثلاً . فقال زوجها : ارجعي إلى أهلي ، أنت طالق ، فقالت : إذا أنصرف مغتبطة^(٣) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن عروساً هذا رجل من هُذيل ، وامراته هُذَلِيَّة اسمها أسماء .

قوله : « براعتك » ، أى جودة تدبيرك . سلالة : ولد صغير كما سُئل من بطن

(١) نفل الشيء : تغيرت رائحته ، وامرأة تَفَلَّة ومثقال .

(٢) اللسان - عرس ، جهرة الأمثال ٢ : ٣٩٥ ، الفناخر ٢١١ .

(٣) فصل المقال ٣٣٨

(٢٣ - شرح مقامات الحريري ١)

أُمه ؛ ولهذا سُمِّي ولد الناقة عند النَّتَاج قبل أن يعلم أذكر هو أم أنثى : سليل ، ثم اتسعوا في السَّلالة فقالوا : فلان كريم السَّلالة . والخلالة : عود تُنقى به الأضراس من الطعام ، شبهت ولدها به في رِقته . ترَقاً : تنقطع . الطَّوى : الجوع ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت » . تعجُّم : تختبر . دَعَوَاه : ما أدعاه من الصَّنعة ، وعجمت العود : عضضته بأسنانك لتعلم قوته من ضعفه . وعيت : حَفِظت . قِصَص عرسك : حديث زوجك . بَرَهِن : أظهر حُجَّتَكَ ، والبرهان : الحجة . لَبَسَكَ : تخليطك والتباس أمرك . أطرق : أمال رأسه إلى الأرض ساكناً . الأفعوان : ذَكَر الأفاعى ، وهذا منقول من قول المتنبي :

فأطرقَ إطرَاقَ الشَّجاع ولو رأى مساعاً لنابيه الشَّجاعُ لَصَمًا^(١)
ووقع لنا في رواية « لناباه »^(٢) ، وهى لفة . شمر : احتزم . العوان : التى قُوتل فيها مرة بعد أخرى ، وهى أشد ، والمرأة العوان : التى علت في السن ولم تهزم . والعوان : الثيب ، كانت ذات زوج أو لم تكن ، وعوت المرأة تعويناً ، والجمع عُون .

اسْمَعْ حَدِيثِي فَإِنَّهُ عَجَبٌ * يُضْحَكُ مِنْ شَرِّهِ وَيُنْتَحَبُ *
أَنَا امْرُؤٌ لَيْسَ فِي خَصَائِصِهِ * عَيْبٌ وَلَا فِي فَخَارِهِ رَيْبٌ *
سَرُوجٌ دَارِي الَّتِي وُلِدْتُ بِهَا * وَالْأَصْلُ غَسَّانُ حِينَ أَنْتَسِبُ *
وَشُغْلِي الدَّرْسُ ، وَالتَّبَحُّرُ فِي الْعِلْمِ * طَلَابِي ، وَحَبَّذَا الطَّلَبُ *
وَرَأْسُ مَالِي سِحْرُ الْكَلَامِ الَّذِي * مِنْهُ يُصَاغُ الْقَرِيفُ وَالْخَطَبُ *

(١) من الأصمعية ٩٢ ص ٢٥٦ ، الشجاع : الحية الذكر ، وساغ ، مفعول من ساغ يسوغ ، وأصل معناه سهولة مدخل الشراب في الخلق .

(٢) يميلونه شاهداً على إلزام المتن ألف في إعرابه .

أُغْوَصُ فِي لُجَّةِ الْبَيَانِ فَأَخْ-تَارُ اللَّالِي مِنْهَا وَأَنْتَخِبُ
وَأُجْتَنِي الْيَانِعَ الْجَنِيِّ مِنَ الْقَوْلِ ، وَغَيْرِي لِلْمُودِ يَخْتَلِبُ
وَأَخْذُ اللَّفْظِ فِضَّةً فَإِذَا مَا صُنِّمَتْهُ قِيلَ إِنَّهُ ذَهَبُ
وَكُنْتُ مِنْ قَبْلِ أُمْتَرِي نَشَبًا بِالْأَدَبِ الْمُنْتَقَى وَأُخْتَلِبُ
وَيَمْتَلِي أَخْصِي لِحْزَمَتِهِ مَرَاتِبًا لَيْسَ فَوْقَهَا رُتَبُ
وَطَالَمَا زُفَّتِ الصَّلَاتُ إِلَى رَبِّي فَلَمْ أَرْضَ كُلَّ مَنْ يَهَبُ

* * *

قوله : « يُنْتَخِبُ » ، أى يُبْخِي ، ونَحْبٌ نَحِيًّا : أعلن بالبكاء . خصائصه : فضائله وما يختص به من الأفعال الحمودة . رُبُّ : شكوك . التبجر : التوسع . حِلَابِي : أى طَلَبِي ، وإنما هو العلم ، وذكر التبجر واللالِي والغوص وغير ذلك مجازاً ؛ وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما انتعل رجل قط ولا تخفف ولا لبس ثوباً ليغْدُو في طلب علم يتعلمه إلا غفر الله له حيث يخطو عتبة بيته » . رَوَى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من انتعل ليتعلم خيراً غفر الله له قبل أن يخطو » .

ابن عباس رضى الله عنهما ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الْغُدُوّ وَالرَّوَاحُ في تعليم العلم خيرٌ عند الله من الجهاد في سبيله » .

ابن مسعود رضى الله عنه ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ خَرَجَ بِطَلَبِ بابا من العلم ليردَّ به ضلّالاً إلى هدى ، أو باطلاً إلى حق ، كان كعبادة متعبداً أربعين سنة » .

قوله : « بِصَاغ » ، أى يصنع . الْهَرِيضُ : الشعر . أُغْوَصُ : أغيب في الماء إلى قعره . وَاللَّجَّةُ : معظم الماء ، جعله للبيان مجازاً . اللَّالِي : جمع لؤلؤة . أُنْتَخِبُ :

أختار . وقال المسيب بن علس^(١) في وصف الفائض وانتخابه الدرّة وتشبيه المرأة بها :

كجُمانة البحرى جاء بها غواضها من لجة البحر^(٢)
 نصف النهار الماء غامرُه وشريكه بالغيب ما بدرى
 فأصاب مُنيته فجاء بها صدقيّة كضيفة الجمر
 يُعطى بها ثمننا فيمنعها ويقول صاحبه: ألا تشرى!^(٣)
 وترى الصّارى يسجدون لها ويضمّنها بيديه للنحر
 وقال عبد الرحمن بن حسان :

وهى بيضاء مثل جوهرة الفواصِ مُيزّت من جوهريّ مكنون.
 وقال النّابغة :

أو درّة صدقيّة غواضها بهرج متى يرها يهمل ويسجد.
 قوله: «اليانع» أى الناعم. الجنى: الطرى. أمترى نشباً، أى أستخرج
 مالا، ومربتُ ضرع النّاقة: مسحته وحككته ليدرّ اللبن. والنّشب، قيل: هو
 العقار وما لا ينقل، وكأنّ مالكه قد نشب إليه حيث لا ينتقل به، كالذى ماله الماشية
 أو الذهب والفضة. المنتقى: المختار، ويروى «المقتنى»، وهو المكتسب. ويقال:
 احتلب وحلب حلباً، والحليب: اللبن، وهو الحلاب، والحلاب أيضاً: الإزم بحلب
 فيه، وأصله السّيلان. وتحلب الضرع: سال، وانحلبت عينه: سال دمعها. يمتطى:
 يركب. أخصى: باطن قدمي، وهو ماضر منها وارتفع عن الأرض. الحُرمتة:
 أى لرفعته وشرفه. مراتباً: منازل: والمرتبة منزلة الشرف، من الرتب وهو

(١) ط: «على» تحريف.

(٢) الأبيات في شعراء النصرانية ٣٥٦، وخزانة الأدب ١: ٥٤٥.

(٣) ألا تشرى، أى ألا تبيع، كما ذكره ابن الأنبارى في الأضداد ٧٤.

ها أشرف من الأرض . والرُّتَب : جمع رُتْبَة ، وهى بمعنى المرتبة ، وأصل الرُّتَب الدَّرَج تُقَطَع فى الحجر ليصعد بها إلى أعلى الجبل ، ومنه رتب فلامه ، إذا أتمع بعضه بعضا على نظام واعتدال . زُفَّت : حُجِلَتْ ، من زَفَفَت العروس إلى زوجها إذا أهديتها له . الصَّلَات : العطايا . رَبَّنَى : منزلى . لم أرض كلَّ مَنْ يَهَبُ ، أى لا أرضى أن أكون تحت مِنَّة كل أحد .

* * *

فَالْيَوْمَ مَنْ يَفْلَقُ الرَّجَاءَ بِهِ أ كَسَدُ شَيْءٍ فِي سَوْقِهِ الْأَدَبُ
لَا عِرْضُ أَتْنَائِهِ يُصَانُ وَلَا يُرْقَبُ فِيهِمْ إِلَّا وَلَا نَسَبُ
كَأَنَّهُمْ فِي عِرَاصِهِمْ جَيْفُ يُتَعَدُّ مِنْ نَنْهَاهَا وَيُجْتَنَّبُ
فَحَارَ لُبِّي لِمَا مُنِنْتُ بِهِ مِنَ اللَّيَالِي وَمَرْفَاهَا عَجَبُ
وَصَاقَ ذَرْعِي لَضِيقِ ذَاتِ يَدِي وَمَا وَرَتَنِي الْهُمُومُ وَالْكَرْبُ
وَقَادَنِي دَهْرِي الْمَلِيمُ إِلَى سَلُوكِ مَا يَسْتَشِينُهُ الْحَسْبُ
فَبِغْتُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لِي سَبْدُ وَلَا بَاتُ إِلَيْهِ أَنْقَابُ
وَادَنْتُ حَتَّى أَثْقَلْتُ مَالِقَتِي بِحَمْلِ دَيْنٍ مِنْ دُونِهِ الْعَطَبُ
ثُمَّ طَوَيْتُ الْحَشَى عَلَى سَعَبٍ خَمْسًا فَلَمَّا أَمْضَى السَّعَبُ
لَمْ أَرَ إِلَّا جِهَازَهَا عَرَضًا أَجُولُ فِي بَيْنِهِ وَأَضْطَرُّ

* * *

مَنْ يَفْلَقُ : معنى من استفهام ^(١) . يَرْقَبُ : يَرعى . إِلَ : قرابة ، وإلَ : بقاء

(١) حاشية ط : قوله : من استفهام ، الظاهر أن من موصولة وعبرة غيره ؛ أى أن من يتطلق به الأمل ، ويرجى منه النوال لا يشمل الأدب والمعارف ، حتى صار ذلك كالسلعة بالكسادة عنده . انتهى بالحرف . مصححه .

عهد . وسبب : معرفة وصحبه ، والسبب : العلم ، ومنه : ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾^(١) ؛ وأصله الحنبل ؛ ثم يُستعمل في كل ما يربط شيئاً بشيء ، من كلام أو غيره . عِراضهم : مواضعهم ، وأصل العِرضَة ، فناء الدار . يقال : لَبَّ الرَّجُلَ يُلَبُّ لَبَابَةً ، ورجل ملُبوب : موصوف باللبابة ، ولُبَّ كل شيء من الثمار ولبابه : داخله ، ولبَّ كل شيء : خالسه . مُنِيت : ابتليت وقُدِّرلى . صَرَفُهَا : تقلبها وتصرَّفها بما يكره . ذَرَعَى : كناية عن صدرى وخُلُقَى ، وأصل الذَّرْع كِيل الشيء بالذَّرَاع ؛ ثم صار مثلاً ، يقال : ضاق ذَرَعَى بكذا إذا لم تحمله وضاق تصرُّفك فيه . ذات يدي ، أى مالى . ساورتني : واثبتني . الكَرْب : الهموم ، وكرَّرها لاختلاف اللفظ . المُلِيم : الذى أقى بما يُلام عليه . سُلوْك : دخول . يستشِينه : يستعيبه ، والشَّين : العيب . لَبَد : شيء لا قليل ولا كثير ، وأصله الصَّوْف ، وأكْثَر ما يستعمل مُزْدَوِجاً مع سَبَد ؛ يَقل : ما عنده سَبَد ولا لَبَد ، أى لا شعر ولا صوف ، ويراد بها نفى الإبل والغنم ، ثم صار نفياً لكل شيء من المال . بَتَات : زاد . أَقْلَب : أَرَجع .

أَدْنَتْ : أخذت بالدين ، وفي حديث عمر : «فَأَذَانُ مُعْرِضًا»^(٢) . والسائلة : صفحة العنق ، يريد أن هذا الدين لثقله ومقاساة همومه فوق العَطَب ، والعَطَب : الذى هو الهلاك دونه فى الشدَّة . عائشة رضى الله عنها : قال النبى صلى الله عليه وسلم : «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَذِلَّ عَبْدَهُ ابْتَلَاهُ بِالْإِيمَانِ وَجَعَلَهُ فِي عُنْقِهِ» ، وقال أنس رضى الله عنه : قال النبى صلى الله عليه وسلم : «إِيَّاكُمْ وَالْإِيمَانُ فَإِنَّهُمُ بِاللَّيْلِ وَمَذَلَّةٌ بِالنَّهَارِ» ، وروى جابر رضى الله عنه ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : «لَا هُمْ إِلَّا هُمُ الدِّينُ وَلَا وَجَعٌ إِلَّا وَجَعُ الْعَيْنِ» .

الحشى : أسقاط الجوف . سَغَب : جوع . أَمْضَى : أحرقتى . جهازها :

(١) سورة الكهف ٨٤ .

(٢) فى حديثه عن أسيف جبهة ، أى استدان معرضا . النهاية لابن الأثير ٢ : ١٤٩ .

متاعها الذى جاءتني به ، والجهاز ، متاع البيت ، يريد شوارها . عَرَضًا ، أراد « عَرَضًا » فحركة ضرورة ، والعرض الأمتعة هنا ، أخبرني بهذا مَنْ يوثق به في اللغة : والعرض خلاف النقد مشهور في اللغة . وفي العين : العرض ، بفتح الراء : كثرة المال ، فيقول : لما لم يبقَ لى مالٌ لم أرَ مالاَ إلا جهازها ، فيكون على هذا أتم معنى ، ويخرج عن الضرورة التى ألزمته ذلك التحريك . أحول : أتصرف . أضطرب : أكثر الترداد والتصرف .

* * *

فَجَلْتُ فِيهِ وَالنَّفْسُ كَارِهَةٌ وَالْعَيْنُ عَبْرَى وَالْقَلْبُ مَكْتَنِبٌ
وَمَا تَجَاوَزْتُ إِذْ عَبَّيْتُ بِهِ حَدَّ التَّرَاضِي فَيَحْدُثُ الْغَضَبُ
فَإِنْ يَكُنْ غَاطَهَا تَوَهُمَهَا أَنْ بَنَانِي بِالنَّظْمِ تَكْتَسِبُ
أَوْ أَنِّي إِذْ عَزَمْتُ خِطْبَتَهَا زَخَرْتُ قَوْلِي لِيَنْجَحَ الْأَرَبُ
فَوَالَّذِي سَارَتْ الرَّفَاقُ إِلَى كَمَبْتِهِ تَسْتَحِثُّهَا الثُّجُبُ
مَا الْمَكْرُ بِالْمَحْصَنَاتِ مِنْ شَيْمِي وَلَا شِعَارِي التَّمْوِيهِ وَالْكَذِبُ
وَلَا يَدِي مُذْ نَشَأْتُ نِيْطَ بَهَا إِلَّا مَوَاضِي الْيَرَاعِ وَالْكَتُبُ
بَلْ فِكْرَتِي تَنْظِمُ الْقَلَائِدَ لَا كَفِي، وَشِعْرِي الْمَنْظُومُ لَا السُّخْبُ
فَهَذِي الْحِرْفَةُ الْمُشَارُ إِلَى مَا كُنْتُ أَخْوِي بِهَا وَاجْتَلِبُ
فَأَذَنْ لَشَرْحِي كَمَا أَذِنْتَ لَهَا وَلَا تَرَاقِبْ وَاحْكُمْ بِمَا يَجِبُ

* * *

عَبْرَى : باكية . مكتنب : حزين . لعبت وتحكمت فيه ؛ يقول : ماتصرفت في بيعه الا برضا منها ومتي^(١) . قوله : « تَوَهُمَهَا » ، أى ظننها . خطبتها :

(١) حاشية ط : « قوله : ودنى ، لاجابة إليه » .

مراسلتها في النكاح . لينجح الأرب : لتقضى الحاجة . تستحبها : تستعملها .
 التَّجَبُّبُ : الإبل الكرام . المكر : الخداع ، المحصنات : العفاف . شيمى :
 طبائعى . شعارى : علامتى : التمويه ، تقدّم فى الثامنة . نيط : علق ، وناط الشيء
 نوطاً : علقه . اليراع : الأقلام . والمواضى : السرعة فى الكتابة ؛ يريد أنه فصيح
 لا يتوقف قلمه . السَّخْبُ : جمع سخاب ، وهى قلادة قرنفل ليس فيها جوهر
 ولا لؤلؤ . قال ابن ظفر : السَّخْبُ : العقود من اللؤلؤ وغيره ، ومن الطيب
 أيضا . أخوى : أخوز وأجمع .

فأذن : اسمع . لا تراقب : لاتراع متناً أحدا ولا تؤثره على صاحبه
 واحكم بيننا بما يحب ؛ وأخذ معنى الأبيات المتقدمة من قول ابن هزيمة :
 إني امرؤ لأصوغ الحلىَ بعمله كفاى لكن لسانى صائغُ الكلمِ
 وقال آخر :

وإني لنظام القلائد للعلاء ولستُ بنظام القلائد للنَّجْرِ

قال : فلما أخكمَ ماشادهُ ، وأكملَ إنشادَهُ ، عطَفَ القاضى إلى
 الفتاة ، بعد أن شُفِّفَ بالأبياتِ ، وقالَ : أما إِنَّهُ قد مَبَّتْ عِنْدَ جَمِيعِ
 الحُكَّامِ ، ووَلَاةُ الأَحْكَامِ ، انْقَرَضَ جَيْلُ الكِرَامِ ، ومِثْلُ الأَيَّامِ
 إلى اللّثامِ ، وإِنِّى لإِخَالُ بَعْلِكَ صَدُوقاً فى الكَلَامِ ، بِرِيا من الملامِ ،
 وهَاهُوَ قد اعْتَرَفَ لَكَ بالقرْضِ ، وصَرَّحَ عن المحضِ ، وَبَيَّنَ مُصْداقَ
 النِّظَمِ ، وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ معروْقُ العَظَمِ ؛ وإِغْنَاتُ المُعْذِرِ مُلَامَةٌ ، وَجَبَسُ
 المُعْسِرِ مَالَةٌ ، وَكِتْمَانُ الفَقْرِ زَهَادَةٌ ، وَانْتِظَارُ الفَرَجِ بالصَّبْرِ

عِبَادَةَ ، فَارْجِي إِلَى خِدْرِكَ ، وَاعْذُرِي أَبَا عُذْرِكَ ، وَهَنْبِي
مِنْ غَرْبِكَ ، وَسَلِّمِي لِقَضَاءِ رَبِّكَ . ثُمَّ إِنَّهُ فَرَضَ لَهُمَا فِي
الصَّدَقَاتِ حِصَّةً ، وَنَاوَلَهُمَا مِنْ دَرَاهِمِهِمَا قَبْصَةً ، وَقَالَ لَهُمَا :
تَمَلَّلاَ بِهَذِهِ الْمَلَالَةِ ، وَتَنَدَّيَا بِهَذِهِ الْبُلَالَةِ ، وَاصْبِرَا
عَلَى كَيْدِ الزَّمَانِ وَكَدِّهِ ، فَمَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ
أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ . فَهَاضَا وَلِلشَّيْخِ فَرَحَةٌ الْمَطْلُوقِ مِنَ الْإِسَارِ ،
وَهَزَّةُ الْمُوسِرِ بَعْدَ الْإِعْسَارِ .

* * *

قوله : « أَحْكَمْ » ، أى أَتَقَن . شاده : بَنَاهُ وَزَيَّنَهُ ، وَشَادَ الْبِنَاءُ : أَطَالَهُ وَعَمِلَهُ
بِالشَّدِيدِ ، وَهُوَ الْجِصَّ ، وَيُقَالُ فِيهِ : أَشَادَ ، وَيُقَالُ : شَادَ عَمَلَهُ بِالشَّدِيدِ وَأَشَادَهُ : أَطَالَهُ ،
هُوَ الْأَوَّلُ ، وَأَشَادَ الْحَدِيثَ : رَفَعَهُ ، وَعَظَفَ : ثَنَى عُنُقَهُ وَرَدَّهَا ، وَكُلُّ مَا تَنْنِيهِ
مِنْ عُنُقٍ أَوْ جَارِحَةٍ أَوْ عُودٍ فَقَدْ عَظَفْتَهُ . شُعِفَ : أَعْجَبَ . اقْتَرَضَ : انْقَطَاعُ
وَهَلَاكُ . جَيْلٌ : صِنْفٌ ، وَجَيْلُكَ : أَهْلُ عَمْرِكَ بَعْلُكَ : زَوْجُكَ ، وَبَمَثَلِ الرَّجُلِ
بُعُولَةٌ : تَزْوُجُ . وَالْقَرْضُ : السَّلْفُ ، أَرَادَ بِهِ مَا أَعْطَيْتَهُ مِنْ ثَمَنِ جَهَازِهَا سَلْفًا .
صَرَاحٌ : بَيِّنٌ . وَصَرَاحٌ عَنِ الْمَخْضِ ، مِثْلُ يَضْرِبُ لِسَرِّ الْأَمْرِ ، إِذَا انْكَشَفَ ،
وَقَالُوا : أَمْرٌ صُرَّاحٌ ، أَيْ مَنْكَشَفَ ظَاهِرٌ ، وَالصَّرِيحُ مِنَ اللَّبَنِ : الْمَخْضُ الْخَالِصُ
الَّذِي لَا رَغْوَةَ فِيهِ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

* وَتَحْتَ الرِّغْوَةِ اللَّبَنِ الصَّرِيحُ ^(١) *

ثُمَّ قَالُوا : لِكُلِّ شَيْءٍ خَالِصٌ : صَرِيحٌ . وَقَوْلُهُ : « بَيْنَ مُصَدِّاقِ النِّظَمِ » ، يُرِيدُ
أَنْ نِظْمَهُ إِنَّمَا هُوَ لِلشَّعْرِ لَا لِلْجَوْهَرِ . وَمَعْرُوقٌ : لَا لَحْمَ عَلَى عِظَامِهِ ، أَيْ هُوَ قَبِيرٌ
(١) أصل المثل : « تحت الرغوة المصريح » ، وأول من قاله عامر بن الظرب . وانظر
جبهة الأمثال ١ : ٢٧٠ .

إعنات : مشقة . المَعْدِر : الذى يجهد نفسه فى الشئ ثم لا يستطيعه ، يقال : قد أعذر ، أى قد بيّن عذره أنه لا يقدر عليه ، وعذر فهو معذر ، إذا قصر فى طلب الشئ ، قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ الْمَعْدِرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾^(١) ، وقال ابن دريد :
* حكم المعذر غير حكم المعذر *

الملائمة والمأئمة : اللؤم والإثم . والعسر : الفقر : والزهادة : قلة الرغبة ، قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ جاع واحتاج فكتمه الناس وأنزله بالله ، كان حقاً على الله أن يفتح عليه رزق سنة من حلال » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « انتظار الفرج بالصبر عبادة » .

وقال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما صبر أهل بيت على جهد ثلاثاً إلا أتاهم الله عز وجل برزق » .

خدرك : بيتك ، وأصله السّتر يكون خلفه الجارية المحجوبة . أبا عذر : زوجك المفضل لك . نهى : كفى . غربك : حدة لسانك . وقيل : معنى « نهى » من غربك ، أى غيضى من دموعك ، والغرب : فيض الدمع ، والأول أشبه . سلمى : اتقady . فرض ، أى أوجب . حصّة : نصيب . ناو لها : أعطاهما . قبصة : ما أخذت بأطراف أصابعك . الملاله : الشئ القليل . تعلّلا : خذا منه شيئاً بعد شئ ، وكذلك تندياً ، وأصل الملاله بقية الماء فى الإناء ، وبقية اللبن فى الصّرع بعد الحلب ، قال الراجز :

* يرضعها الدّرة والملاله *^(٢)

(٢) اللسان - علل ، وروايته : « ترضع » ، وقبله :

(١) سورة التوبة ٩٠

* أنجل أمى وهى الخمالة *

والبلاة : الندى القليل بيل وجه الأرض . كيد : مكر . كدّه : جهده
وأنشد أبو محجن الثقفي :

عسى فرجٌ يأتي به الله إنه له كل يومٍ في خليقته أمرٌ
عسى ماترى ألا يدوم وأن ترى له فرجاً مما ألح به الدهرُ
إذا اشتدَّ عسرُ فارحٍ يُسر! فإنه قضى الله أن العسر يتبعه اليسرُ

الإسار : الحبل يشد به الأسير . هزة : طرب . الموسر : الغنى . الإعسار :
الفقر ، وسئل حكيم : أي الأشياء أحلى ؟ قال : النصره على العدو بعد الهزيمة ،
والاستغناء بعد الحاجة ، والغلبة للمتكلم .

* * *

قال الراوى : وكنت عرفت أنه أبو زيد ساعة بزغت
شمسه ، ونزعت عزمه ، وكذت أفصح عن افتنانه ؛ وإثمار
أفنانه ؛ ثم أشفقت من عثور القاضي على بهتانه ، وتزويق
لسانه ، فلا يرى عند عرفانه ، أن يرشحه لإحسانه ، فأحجمت
عن القول إحجام المرتاب ، وطويت ذكروه كطى السجل للكتاب ؛
إلا أنى قلت بمد ما فصل ، ووصل إلى ما وصل : لو أن لنا
من ينطلق في أثره ، لأتانا بفص خبره ، وبما ينشر من خبره ؛
فأتبعه القاضي أحد أمانه ، وأمره بالتجسس عن أبنائه ،
فما لبث أن رجع متدهدا ، وقهر مقهقا ، فقال له القاضي : منهم ،
يا أبا مريم ، فقال : لقد عاينت عجبا ، وسميت ما أنشألى طربا ،

هَقَالَ لَهُ : مَاذَا رَأَيْتُ ، وَالَّذِي وَعَيْتُ !

* * *

قوله : « بزغت » ، أى طلعت . ونزغت : نشزت وقابلته بالشر والذِّكر القبيح ، وأراد أنه عرفه حين ساقته زوجته إلى القاضي . أفصح : أبين . افتنانه : تنوعه . إثمار : إخراج الثمر ، وهو حمل كل شجرة . أفنانه : أغصانه . أشفقت : خافت . عثور : ظهور ، وعثر على الأمر : أطلع عليه . بهتانه : باطله وكذبه . تزويق : تزيين ، وهو من الزَّووق الذى يعرفه العامة بالزَّواق ، أى أنه تزيين فى الظاهر ، وليس له ثبات . عرفانه : تقدم معرفته . يرشحه : يهينه ، وفلان يرشح لكذا ، أى يؤهل له ، من رشحت الأم ولدها باللب ، إذا جعلته فى فيه شيئاً بعد شيء حتى يقوى ، وقيل : الترشيح : التربية ، وقيل : هو تحنن الأم على ولدها من الشدة . أحجمت : تأخرت . المرتاب : صاحب الريبة . طويت : سترت . السَّجَل : الورق . والكتاب : المكتوب فيها ، وقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ السَّجَلُ لِلْكِتَابِ ﴾ ^(١) ، قيل : السَّجَل : اسم كاتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : ملاك من السماء الثالثة ترفع إليه الحفظة أعمال العباد كل خميس واثنين . فصل : زال وانفصل . بفص خبره : بحقيقة أمره . ينشر : يظهر . حَبْرَه : حسن كلامه ، وأصله ثياب يمانية مزينة ، ونشرها : حاطها من طيها . التجسُّس : البحث . أنبائه : أخباره . ما لبث ، أى ما أقام ، والمعنى ما لبث شيئاً حتى رجع . متدهداً : متحرراً ، والتدهده : قدَّفك الحجر من أعلى إلى أسفل . قهقر : رجع إلى خلف . مقهقهاً : مبالغاً فى الضحك ، والقهقهة : حكاية صوت الضاحك . مهيم : كلمة استفهام ، معناها : ما الأمر ؟ عاينت : رأيت . أنشأ : أحدث ، وتقديره : سمعت شيئاً أحدث لى ذلك الشيء .

(١) سورة الأنبياء ١٠٤ .

المسموع الطَّرب ، ولا يكون «أنشأ» فعلاً لأبي زيد ، إنما هو فعل «ما» من قوله : «ما أنشأ» . وعيت : حفظت .

قال : ولم يزل الشيخ مُذْ خَرَجَ مُصَفِّقُ يَدَيْهِ ، وَيُخَالِفُ بَيْنَ رِجْلَيْهِ ، وَيَمْرُدُّ بِلْءِ شِدْقَيْهِ ، وَيَقُولُ :

كَذْتُ أَصْلَى بَيْلِيهِ مِنْ وَقَاحِ شَعْرِيهِ
وَأَزُورُ السَّجْنَ لَوْلَا حَاكِمُ الْإِسْكَندَرِيهِ
فَضَحَكَ الْقَاضِي حَتَّى هَوَتْ دَنِينَتُهُ ، وَذَوَتْ سَكِينَتُهُ ،
فَلَمَّا فَاءَ إِلَى الْوَقَارِ ، وَعَقَّبَ الْاسْتِغْرَابَ بِالْاسْتِغْفَارِ ، قَالَ : اللَّهُمَّ
بِحُرْمَةِ عِبَادِكَ الْمُقَرَّبِينَ ، حَرِّمْ حَبْسِي عَلَى الْمُتَادِّينَ . ثُمَّ قَالَ
لِذَلِكَ الْأَمِينِ : عَلَىَّ بِهِ ، فَاَنْطَلِقْ مُجِدِّدًا فِي طَلَبِهِ . ثُمَّ مَا دَبَعْدَ
لَايِهِ ، مُخْبِرًا بِنَأْيِهِ ، فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي : أَمَا إِنَّهُ لَوْ حَضَرَ ، لَكُنِّي
الْحَذَرَ ، ثُمَّ لَأَوْ لَيْتُهُ مَا هُوَ بِهِ أَوْلَى ، وَلَأَرَيْتُهُ أَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ
لَهُ مِنَ الْأُولَى .

قال الحارث بن همام : فَلَمَّا رَأَيْتُ صَفْوَ الْقَاضِي إِلَيْهِ ، وَفَوَتْ
ثَمَرَةَ التَّنْبِيهِ عَلَيْهِ ، غَشِيَتْنِي نَدَامَةُ الْفِرْزَدِقِ حِينَ أَبَانَ النُّوَارَ ،
وَالْكُسْمَى لَمَّا اسْتَبَانَ النَّهَارَ .

يَصَفِّقُ يَدَيْهِ : يَضْرِبُ بِكَفَيْهِ . يَخَالِفُ بَيْنَ رِجْلَيْهِ : يَبْعَثُ بِهِمَا فِي مَشْيِهِ

خضع كل رجلٍ موضع الأخرى ، وهى من أنواع الرقص ؛ أراد أنه يضرب بكّتيه ويرقص . يفرّد : يعنى . بلاء شديقه ، أى بضوت شديد تمتلئ به أشداه .

وملء القدح : قدر ما يملؤه . أبو يعقوب : يقال : أعطنى ملء القدح ماء ، وأعطنى ملأئيه ، وأعطنى ثلاثة أملائه .

أصلّى ببلية ، أى قربت أن أحترق بها وأتصلّى بها ، والبلية : المصيبة يبتلى بها ، وقّاح ، جمع وقاحة ، وهى صلابة الوجه ، وأصلها من الحافر الصُّلب ، وقال بعضهم فى صلابة الوجه :

لا يعمل المبرّد فى وجهه بل وجهه يعمل فى المبرّد

فجعل وجهه لصلابته يؤثّر فى الحديد . شمرية ، أى شديدة القحّة ، قال الأصمعى : سألت أعرابياً ، وقد خرج من الصلاة : ما قرأ الإمام ؟ قال : ما أدرى إلا أنه وقع بين موسى وفرعون شمرية . هوت : سقطت . دينيته : قلنسوته ، وهذه اللفظة إنما وقعت فى المقامات بفتح الدال وكسر النون ، ودينته بنونين لتوافق «سكينته» ، والصحيح حذف نونها الثانية وكسر الأولى ، وهى قلنسوة محدّدة الطرف يلبسها القضاة والأكابر ، وليست من كلام العرب ، إنما هى من الألفاظ المستعملة فى العراق ، وقد استعملها شعراؤهم ، قال ابن لَنَكْكَ :

نفسى تقيك أبا الهذام يا أملى إني بكلّ الذى ترضاه لى راضى^(١)
ما كان أيرى فقيهاً إذ ظفرت به فكيف ألبسته دينية القاضى
وقال الصابى :

وفوقه دينية تذهب طورا وتجي

(١) يتيمة الدهر .

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٣٢٦ ، وهناك : « تقيك أبا الهذام كل أذى » ، وأبو الهذام شاعرا اسمه كلاب بن حمزة ؛ كان ابن لَنَكْكَ مولعا بهجائه .

ذَوَات : زالت وخفيت . سكنته : وقاره ، وأصل ذَوَى ، في الشيء الذي فيه بللٌ وندوة ، فيجفُّ بلُّهُ ، فاستعاره للسكينة . فاء : رجع . وعقَّب : أتبع . الاستغراب : كثرة الضحك ، حتى تدمع العينان ؛ أراد أنه أتبع ضحكه الاستغفار ليكون كفارة له ، وهذا الذي حُكِيَ عن القاضي يُحْكِي مثاله عن الحجاج ، يقال : إنه كان إذا استغرب ضحكاً يوالى من الاستغفار .

وقال عبد الله بن مسعود : في كتاب الله آيتان ما أصاب عبد ذنباً فقرأها ثم استغفر الله إلا غفر له الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ... ﴾ ^(١) الآية ، والثانية قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ... ﴾ ^(٢) الآية . قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : من قال : « أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه » خمس مرات ، غفر له ولو فرّ من الزحف . شدّاد بن أوس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سيّد الاستغفار أن تقول : اللهم أنت ربّي لا إله إلا أنت وأنا عبدك أصبحت على عهدك ^(٣) ووعدك ما استطعت . أعوذ بك من شرّ ما صنعت ، أبوء بنعمتك عليّ ، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

وأصل غفر واستغفر غَطَى . قال قطرب : اللهم اغفر لنا ذنوبنا ، أي غطها ، من قول العرب : غفرت المتاع في الوعاء أغفره غفراً ، أي غطيته . ثعلب : غفّر الرجل في مرضه يغفر غفراً ، أي نكس ، فكان المرض غطى عليه . وقال الأصمعي رحمه الله : اللهم اغفر لنا ذنوبنا ، أي استرها علينا ، ومنه : اصبح ثوبك ، فإنه أغفر للوسخ ، أي أستر ، وهذه معان متقاربة .

(٢) النساء ١١٠ .

(١) آل عمران ١٣٥

(٣) الجامع الصغير ١ : ٥٧ ، وفيه : « وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك » ، وفي آخر الحديث : « ومن قالها من الليل وهو موثق بها فات قبل أن يصبح كان من أهل الجنة » .

قوله : « عَلَىَّ بِهِ » ، أى جئني به . مجداً : مجتهداً في طلبه . لأُثَبِّه : إبطائه . نأيه : بعده . الحذر : الخوف . أوليته ، بمعنى وليته وأعطيته . أوَّلَى : أحقَّ ، يريد أنه لو رجع إليه كان يصله في المَرَّة الثانية بما هو خير مما وصله به أوَّل مرة . قوله : « صفو » ، أى ميل . فَوَّت : ذهاب . التنبيه : الإعلام . غشيتني : غطتني . ولحقتني . أبان : طلق . النوار : بنت عم الفرزدق وزوجه . استبان : تبين .

وقال الشاعر :

لو أن صدور الأمر تبرز للفتى كأعقابه لم تُلفه يتندّم

[ذكر الفرزدق وبعض أخباره]

والفرزدق اسمه هام بن غالب بن صعصعة ، دارى من أشرف تميم . والفرزدق لقَّب به لجهومة وجهه وغلظه ، والفرزدق : قطعة العجين ، وقيل : الرغيف الضخم .

وخبر مع النوار بنت أعين المجاشعي ، أنه خطبها رجل من قريش أو من دارم ، فبعثت إلى الفرزدق أن يكون وليها إذا كان ابن عمها ، فقال : إن بالشَّام مَنْ هو أقرب إليك منى ولأى ، وأنا حذر من أن يقدم منهم قادم ، فينكر ذلك على ، فاشهدى أنك جعلت أمرك إلى . فجعلت له أمرها أن يزوجه من يرى ، وأشهدت له بذلك ، فقال لها : أرسلني إلى القوم أزوتجك ممن خطبك . فلما غصَّ مسجدُ بنى مجاشع ببني تميم جاء الفرزدق ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : قد علمت أن النوار ولتني أمرها ، وأشهدكم أنني قد زوتجتها من نفسى ، فنشزت عليه ونافرته من البصرة إلى عبد الله بن الزبير بمكة حين أعيها أمراء البصرة ، أن يطلقوها منه . وأعيها الشهود أن يشهدوا لها اتقاء من شره ، فلم يقدر أحد على

حملها ، حتى تحمّلها قومٌ من بني عدى ، يقال لهم بنو نُسَير إلى مكة ، فصحبهم
النّوار ، فقال الفرزدق :

وقد سَخِطْتُ مَنِي النّوّار الذي ارتضى به قباها الأزواج ، خاب رجيلها^(١)
أطاعت بني أمّ النّسَيرِ فأصبحتُ على شارفٍ ورفاء صعب ذكولها^(٢)
وإن امرأً يسعى ليفسد زوجتي^(٣) كساعٍ إلى أسدٍ الشّرى يستبيلها^(٤)
ومن دون أبوال الأسود بسالةٌ وبسطة أيدٍ يمنع الضّيم طولها
وإنّ أمير المؤمنين لعالم بتأويل ما وصّى العباد رسولها

ثم ارتحل في أثرها حتى وصلا مكة ، فنزلت النّوار على بنت منظور بن
زبّان زوجة عبدالله بن الزبير رضى الله عنه ، ونزل الفرزدق على ابنه حمزة ، وقال :
أصبحتُ قد نزلتُ بحمزة حاجتي إن النّوّه باسمه الموثوق^(٥)
بأبي عماره خير من وطئ الحصى وجرت له في الصّاحين عروق
بين الحوارى الأغرّ وهاشم ثم الخليفة بعد الصّدّيق
فكان كلُّ ما أصلح حمزة بن عبد الله من شأن الفرزدق نهراً أفسده
بنت منظور ليلاً ، حتى غلبت النّوار ، وقضى ابن الزبير عليه ، فقال :

أمّا البنون فلم تُقبلْ شفاعتُهم وشهّمتُ بنتُ منظور بن زبّاناً^(٥)
ليس الشّفيع الذي يأتيك مؤزراً مثل الشّفيع الذي يأتيك عرياناً
فلما سمع ابن الزبير شعره ، توقّف في أمره ، فلقية يوماً بباب المسجد ، فضمه
إلى الحائط ، حتى كادت ترهق نفس الفرزدق . وكان الزبير في غاية من القوّة ، ثم

(١) ديوانه ٦٠٤ ، ٥ ، ٦ ، النقائض ١٠٤ ، طبقات الشعراء ٢٨١ (٢) الشارف : النافعة المسنة .

(٣) يستبيلها : يأخذ بولها بيده . (٤) ديوانه ٥٧٠ .

(٥) ديوانه ٨٧٣ ، النقائض ٨٠٥ ، طبقات الشعراء ٢٨٢ .

(٢٤ - شرح مقامات الحريري ١)

هزّه وتركه خائفاً، ثم دخل على النّوار، فقال لها: إمّا أن تُتِمّي زواج ابن عمك وإلا قتلته، وأرحت المسلمين من شرّ لسانه، فقالت له: ولا بدّ أن تقتله؟ قال: ولا بدّ، فعطفها عليه رَحِمَ القراية، وقالت: لا والله لا أدعُه للقتل، قدرضيته. فتزوَّجها، فحكم عليه ابن الزبير بمهر مثلها عشرة آلاف درهم، فسأل: هل بمكة أحد يعينه؟ فُدِّلَ على سلم بن زياد، وكان ابن الزبير قد حبَّسه، فقال:

دَعِيَ مُغْلِقِي الأبواب دون فهاهم ومُرِّي بمسرِّي لي هُبْلَتِ إلى سَلَمِ^(١)
إلى مَنْ يَرى المعروف سَهلاً سبيله ويفعل أفعال الكرام التي تَنْبِي

ثم دخل على سَلَمٍ؛ وأنشده القصيدة، فقال: هي لك ومثلها لنفقتك، فقبض عشرين ألفاً، فدفع مهرها، فدخل بها، وأحبها قبل أن تخرج من مكة، ثم خرج بها، وهما عدلان في محل، وكانت أبداً تخالفه وتسبه، لأنها كانت صالحة الدين، وكان هو رديء الدين، زانياً قاذفاً للمحصات، فكانت تكرهه.

ومن ملح أخبارها أنه راود امرأة شريفة على نفسها، فامتنعت عليه، فتهدَّدها بالهجاء، فاستعانت بالنّوار، فقالت: واعدّيه ليلة؛ ثم أعلميني. ففعلت، وجاءت النّوار، ودخلت الحُجْلة مع المرأة، فلما دخل الفرزدق البيت، أمرت الجارية فأطفت السراج، وبادر الحُجْلة والنّوار فيها، وهو لا يشك أنها صاحبة الدار، فواقعها. فلما فرغ قالت: يا عدو الله، يا فاسق! فعرفها، وعلم أنه قد خُدِعَ، فقال لها: وأنت هي! يا سبحان الله! ما أطيبك حراماً، وأبردك حلالاً! فلم تزل تؤذيه بلسانها حتى أبغضها.

فحدث أبو معقل راويته، قال: قال لي الفرزدق يوماً: امض بنا إلى حلقة الحسن، فإني أريد أن أطلق النّوار، فقلت: إني أخاف أن تتبعها نفسك، ويشهد

عليك الحسن وأصحابه ، قال : امض بنا ، فجنّنا حتى وقفنا على الحسن فقال :
كيف أصبحت يا أبا سعيد ؟ قال : بخير ، كيف أصبحت يا أبا فراس ؟ قال :
لتعلمن أن النّوار طالق مني ثلاثاً ، فقال الحسن وأصحابه : قد سمعنا ، قال :
فانطلقنا ، فقال الفرزدق : يا هذا ، إن في قلبي من النّوار شيئاً ، فقلت : قد
حذرتك ، فقال :

ندمتُ ندامةَ الكُسعيِّ لما غدت مِنِّي مطلقةً نوارُ^(١)
وكانتُ جَنَّتِي فخرجتُ منها كآدم حين أخرجه الضُّرَّارُ
ولو أني ملكتُ يدي ونفسي لأصبح لي على القَدَرِ اختيارُ
وكنتُ كفاقي عينيهِ عمداً فأصبح ما يُضِيءُ له نهارُ

وتوفّي سنة عشر ومائة . وفيها مات جرير وابن سيرين والحسن ، فقالت
امرأة بصرية : كيف يفلح بلد مات فقيهاه وشاعراه ، وأضافت جريراً إلى البصرة
لكثرة قدومه إليها ، ومسكنه باليمامة . وأخباره تطول ، وإنما ذكرنا منها ما تعاق
بالنّوار معه .

[ذكر خبر الكسعي وقوسه]

وأما الكُسعيّ فرجل منسوب إلى كُسع ، قبيلة باليمن ، واسمه محارب
ابن قيس ، وبندامته يُضرب المثل ؛ يقال : أندم من الكُسعيّ^(٢) ، وقيل : إنه من بني
سعد بن ذبيان ، وقيل : اسمه عامر بن الحارث .

ومن حديثه أنه كان يرعى إبلاً بوادي كثير العشب وانطمط ؛ فبينما هو يرعاها
بُصِرَ بِذُبُعَةٍ على صخرة ، فقال : ينبغي أن تكون هذه قوساً ، فجعل يجمعها
ويقومها حتى أدركت ، فقطمها ، فلما جنّت اتخذ منها قوساً ، وأنشأ يقول :

(١) ديوانه ٣٦٣ .

(٢) ثمار القلوب ١٣٤ ، المبداني ٢ : ٣٤٨ .

يَا رَبِّ وَفَّقْنِي لِنَحْتِ قَوْسِي فَإِنَّهَا مِنْ لَدُنِّي لِنَفْسِي
وَانْفَعْ بِقَوْسِي وَلَدِي وَعِرْسِي أَنْحَثْهَا صَفَرَاءَ مِثْلِ الْوَرَسِ
* صُلْدَاءُ لَيْسَتْ كَقَيْسَى الثَّنَكْسِ *

نَمِ دَهْنُهَا وَخَطْمُهَا بَوْتَرٍ ، وَاتَّخِذْ مِنْ بُرَايَتِهَا خَمْسَةَ أَشْهُمٍ ، وَجْعَلْ يَقْلَبُهَا فِي
كَفِّهِ ، وَ يُنْشَدُ :

هَنْ وَرَبِّي أَشْهُمٌ حِسَانُ يَلْدُ لِلرَّامِي بِهَا الْبَنَانُ
كَأَنَّمَا قَوْثُمُهَا مِيزَانُ فَأَبْشِرُوا بِالْخَصْبِ يَا صَبِيانُ
* إِنْ لَمْ يَعْقِنِ الشُّؤْمُ وَالْحَرَمَانُ *

ثُمَّ أَتَى قُتْرَةً^(١) عَلَى مَوَارِدِ مُحَرٍّ ، فَكُنْ فِيهَا ، فَمَرَّ بِهِ قَطِيعٌ ، فَرَمَى عَيْرًا
مِنْهَا بِسَهْمٍ ، فَأَخْطَه - أَيْ أَنْفَذَه - وَجَازَه ، وَأَصَابَ الْجَبِلَ ، فَأَوْرَى نَارًا ، فَظَنَّ أَنَّهُ
أَخْطَاهُ ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الرَّحْمَنِ مِنْ نَكْدِ الْجَدِّ مَعًا وَالْحَرَمَانِ
مَالِي رَأَيْتُ السَّهْمَ بَيْنَ الصَّوَّانِ يُورِي شَرَارًا مِثْلَ لَوْنِ الْعَقِيَانِ
* فَأَخْلَفَ الْيَوْمَ رَجَاءَ الصَّبِيَّانِ *

ثُمَّ مَرَّ بِهِ قَطِيعٌ آخَرَ ، فَرَمَى عَيْرًا فَأَخْطَه السَّهْمُ ، فَصَنَعَ صَنْعِيهِ الْأَوَّلَ ،
فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

لَا بَارَكَ الرَّحْمَنُ فِي رَمْيِ الْقُتْرَةِ أَعُوذُ بِالْخَالِقِ مِنْ شَرِّ الْقَدَرِ
أَأَخْطِ السَّهْمَ لِإِرْهَاقِ الضَّرَرِ أَمْ ذَاكَ مِنْ سُوءِ احْتِيَالٍ وَنَظَرِ
* أَمْ لَيْسَ يَغْنَى حَذَرٌ عَنْهُ قَدَرٌ *

(١) القتره : ناموس الصائد .

ثم مرّ به قطع آخر فرمى غيراً ، فأخطه السهم ، فصنع صنيعه الأول ، فأنشأ يقول :

ما بال سهمي يوقد الحباحباً قد كنت أرجو أن يكون صائباً
فأخطأ العيز وولّى جانباً فصار رأيي فيه رأياً خائباً
ثم مرّ به قطع آخر ، فرمى غيراً بسهم فأخطه السهم ، وصنع ما صنع أولاً ،
فأنشأ يقول :

يا أسفاً للشؤم والجدّ التكدّ في قوسٍ صدق لم تزيّن بأودّ
أخلف ما أرجو لأهلٍ وولّد فيها ولم يغنِ الحذار والجلّد
* نخاب ظنّ الأهل جمعاً والولّد *

ثم مرّ به قطع آخر ، فرمى غيراً بسهم ، فأخطه السهم ، وصنع كما صنع أولاً ،
فأنشأ يقول :

أبعد خمس قد حفظت عدّها أحجل قوسي وأريد ردّها
أخزي الإله لينها وشدّها والله لا تسلم مني بعدّها
* ولا أرجى ما حيت رفدّها *

ثم أخذ القوس ، فكسرها على حجر وبات ، فلما أصبح أبصر الأعيار
الخمسة مطروحة حوله ، فأسف وندم على كسر القوس ، وعضّ على إبهامه
فقطعها تلفناً ، وأنشأ يقول :

ندمت ندامةً لو أنب نفسي تطاو عني إذاً لقطعت خمسي
تبين لي سفاه الرأي مني لعمري أليك حين كسرت قومي

المقامة العاشرة وتعرف بالرحبية

حكى الحارث بن همام قال : هتف بي داعي الشوق ، إلى رَحْبَةِ
مالك بن طوق ؛ فليته مُتَطِياً شِمْلَةً ، وَمُنْتَضِياً عَزَمَةً مُشَمَلَةً . فَلَمَّا
أَلْقَيْتُ بِهَا الْمَرَّاسِي ، وَشَدَدْتُ أَمْرَاسِي ، وَبَرَزْتُ مِنْ الْحَمَامِ بَعْدَ
سَبْتِ رَاسِي ، رَأَيْتُ غُلَامًا أَفْرِغَ فِي قَالِبِ الْجَمَالِ ، وَالْبَسَ مِنَ الْحُسْنِ
حُلَّةَ الْكَمَالِ .

هتف بي ، أى دعانى ، يقال : هتف بي هتفاً وهُتافاً : دعاه ، وهتفت الحمامة :
مدت صوتها . والشَّوْقُ : تحرك الحب ، يريد أن شوقه إلى الرَّحْبَةِ يهبج عليه
حتى سار إليها ، وجعل له داعياً مجازاً . والرَّحْبَةُ : مدينة شهيرة من عمالة الفرات ،
بناها مالك بن طوق ، ووليتها فنُسبت إليه ، وإليها تنسب الثياب الرحبية ، وتعرف
برحبة الشام ، وهى على يسار الطريق هى والرقّة فى استقبالك الفرات جاثيا من
حرّان ، وهى فى آخر ديار ربيعة ، وأول بلاد الشام والفرات ، بين ديار ربيعة
والشّام ، فإذا عبرته صرت فى حدّ الشام .

[ذكر مالك بن طوق]

ومالك - كنيته أبو كلثوم - بن مالك بن عتاب بن سعيد بن زهير بن جُشم
ابن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن ثعلب . وقال حبيب يمدحُه ويذكر
الرَّحْبَةَ :

يامالٍ قد علمت ربيعةً أنه طالت يدي لما رأيته سالماً
 ما كان مثلك في الأرقام أرقم^(١) وأنيخ عن خدي ذاك العظم^(٢)
 وشمت ترب الرحبة العبق الثرى وشفى صدأى البحر منها الحضر^(٣)
 كم حلّ في أكنافها من معدم أمسى بها يأوى إليه المعدم

وقال فيه:

رأته في النوم عتابٌ فقال لها ذو الفراسة : هذا صفوة الكرم^(٤)
 فجاء والنسب الوضاح جاء به كأنه بهمة فيهم من البهم^(٥)
 طعان عمرو بن كلثوم وناثله إن السيور التي قدت من الأدم^(٦)
 لو كان يأمل عمرو مثله خلفاً^(٧) من صلبه لم يجد للموت من ألم

يقول هذا في اتصاله بنسب عمرو بن كلثوم ، وأين هذا من قول دعبيل

يهجوه :

الناس كلهم يعدو لحاجته ما بين ذى فرج منهم ومهموم^(٨)
 ومالك ظل مشغولاً بنسبته يزوم منها بناء غير مهدوم^(٩)
 يبنى بيوتاً خراباً لا أنيس بها ما بين طوقٍ إلى عمرو بن كلثوم

(١) ديوانه ٢٧٥ ، والأرقام بنو تغلب .

(٢) الديوان : « وأنحت عن خدي » . والعظم ، كزبرج : نبت يصنع به .

(٣) الحضر : الماء الكثير .

(٤) ديوانه ٢٦٨ .

(٥) البهمة : الشجاع .

(٦) النائل : السطاء . والأدم : الجلد .

(٧) الديوان : « ولنا » .

(٨) ديوانه ١٤٤ ، ديوان المعاني ١ : ١٨١ .

(٩) الديوان « خراباً غير مرموم » .

وكان ملكاً شجاعاً ، جواداً ممدوحاً أميراً على الجزيرة مسكن قومه
بنى ثعلب .

* * *

قوله « لثيته » ، أى أحبته . ممتطياً : راكباً . شملة : ناقة سريعة . منتصباً :
مجرداً . عزمة مشمعة ، أى عزمة سريعة لاتوانى فيها . المراسى : هى محابس
السفينة . أمراسى : حبالي ، يريد أنه استعد للإقامة وترك السفر ، وضرب لذلك
المثل بإلقاء المراسى وشد الأمراس . برزت : خرجت وظهرت . سبت : حلق ،
ومتى دخل أهل المشرق الحمام حلقوا رؤوسهم . أفرغ : وضع ليصنع . والقالب :
الذى تطبع فيه الدراهم ، ودرهم مفرغ ، إذا أذيت فضته وصبت في قالبه ، فيريد
أن هذا الغلام لإفراط حسنه أفرغ في قالب الجمال .

[نبذ وحكايات وأشعار مما ورد في الحسن والجمال]

ونذكر في هذه المقامة من أوصاف الحسن والجمال ما أمكن ، ونضيف إلى
ذلك ما قيل في العلمان من الأشعار الحسان مما يليق بهذا المكان وندعها من كل
مقامة يقع فيها ذكر العلمان . قال ابن عبد ربه : الحسن أحمر ، وقد تضرب فيه
الصفرة مع طول المكث في السكن والتضخم بالطيب كما تضرب في بيضة الأدحى .
وقال أعرابي :

وما تطيت من صفراء خالية كالعاج صفرها الأكنان والطيب
وقال آخر :

كان لون البيض في الأدحى لونك لولا صفرة الجادى
يريد أنها تضمخ بالجادى ، وهو الزعفران ، وصفرة النعمة لا تبلغ صفوته .
وقالوا : إن الجارية الحسناء تتلون بلون الشمس ، فهى بالضحى بيضاء ،
وبالعشى صفراء ، قال الأعشى :

بيضاء ضحوتها وصفـراء العشية كالعرارة^(١)

العرار : البهار .

وقال الحريري في الدرة : فأما^(٢) قولهم في الحسن : أحمر ، فعناه أنه لا يكتسب ما فيه من الجمال إلا بتحمّل مشقة يحمر^(٣) منها الوجه ، كما قالوا : السنة الحمراء للمجدبة^(٤) ، وكنّوا عن الأمر المستصعب بالموت الأحمر ، وأما قوله :

هجانٌ عليها مُحْمَرَةٌ في بياضِها تروق لها العينان والحسنُ أحمرُ
فإنه عني به الحسن في حمرة اللون مع البياض ، دون غيره من الألوان .

وقالوا في الجارية : جميلة من بعيد ، مليحة من قريب ، فالجميلة التي تأخذ بصرك جملة ، فإذا دنت منك لم تكن كذلك ، والمليحة التي كلما كرّرت بصرك فيها زادتك حسناً .

وقيل : الجميلة السمينة ؛ من الجميل ، وهو الشحم^(٥) ، والمليحة البيضاء من الملحّة^(٦) ؛ وهي البياض ، والصبيحة كذلك من الصبح لبياضه .

وقالوا : إن الوجه الرقيق البشرة الصافي الأديم إذا خجل يحمر ، وإذا فرق يصفر ، ومنه قولهم : ديباج الوجه ، يريدون تلونه من رفته .
وقال عدئ بن زيد في تلون الوجه :

مُحْمَرَةٌ خَلَطَ صَفْرَةً فِي بَيَاضٍ مِثْلَ مَا حَاكَ حَائِكٌ دِيبَاجًا

(١) ديوانه ١٥٣ ، والعرارة : شجر لها نور أصفر .

(٢) درة القواس ١٠٤ .

(٣) الدرة : « يحمار » .

(٤) الدرة : « السنة المجدبة حمراء » .

(٥) في القاموس : « الجميل : الشحم القائب » .

(٦) في القاموس : « الملحّة : بياض يخالط سواد » .

وقال ابن عبد ربه في ذلك :

يَا لَوْلَا يَسْبِي الْعُقُولَ أُنَيْقًا وَرَشًا بَتَقْطِيعِ الْقُلُوبِ رَفِيقًا^(١)
 مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ دُرًّا يَعُودُ مِنَ الْحَيَاءِ عَقِيقًا
 وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى مُحَاسِنِ وَجْهِهِ أَلْفَيْتُ وَجْهَكَ فِي سَنَاءِ غَرِيقًا
 يَأْمَنُ تَقْطَعُ خَصْرُهُ مِنْ رِقَّةٍ مَا بَالُ قَلْبِكَ لَا يَكُونُ رَقِيقًا !

وأعاد معنى : « دُرًّا يَعُودُ مِنَ الْحَيَاءِ عَقِيقًا » ، في بيت آخر فقال وأحسن :

كَمْ سَوَّسَنِ لَطْفَ الْحَيَاءِ بِلُونِهِ فَأَصَارُهُ وَرَدًّا عَلَى وَجَنَاتِهِ
 قَالَتْ امْرَأَةُ خَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ لَخَالِدٍ : لَقَدْ أَصْبَحْتَ جَمِيلًا ، قَالَ : وَكَيْفَ ذَاكَ
 وَمَا فِي رَدَاءِ الْحُسْنِ وَلَا عُمُودِهِ وَلَا بُرْنَسِهِ ! قَالَتْ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : عُمُودِهِ
 الشَّطَّاطُ^(٢) ، وَرَدَاؤُهُ الْبَيَاضُ ، وَبُرْنَسُهُ سَوَادُ الشَّعْرِ .

وقالوا : الْحَلَاوَةُ فِي الْعَيْنَيْنِ ، وَالْجَمَالُ فِي الْأَنْفِ ، وَالْحَسَنُ فِي الْوَجْهِ ، وَالْمَلَا حَةُ
 فِي الْفَمِ .

وقال بعضهم : الظَّارِفُ فِي الْقَدِّ ، وَالْبِرَاعَةُ فِي الْحَجِيدِ ، وَالرَّقَّةُ فِي الْأَطْرَافِ
 وَالْخَصْرُ ، وَالشَّانُ كُلُّهُ فِي الْكَلَامِ ، وَالْمَدَارُ عَلَى الْعَقْلِ .

وقال علي بن عبيد الرِّيحَانِيُّ : الْحَسَنُ تَنَاسُبُ الصُّورَةِ ، وَزِينَتُهُ اعْتِدَالُ
 الْحَرَكَةِ ؛ ثُمَّ مَا لَا يَحْسُنُ اللِّسَانُ التَّرْجُمَةَ عَنْهُ مِنْ خَفَّةِ الرُّوحِ وَالْقَبُولِ .

وسئل عن اختياره من الحُسْنِ ، فقال : أَمَّا مَا يُمْكِنُ نَعْتُهُ فَخَلَّتْكَانَ

(١) مطمح الأنفس ٥٢

(٢) الشطاط : الطول وحسن القوام.

وثلاثة بينهما ، ليست من صفة اللسان تعجبنى صورة أكثر نعتها الملاحظة ،
وبراعة بفصاحة ، والخلقة الثالثة نسميها مراح الروح وشكل النفس وماهية الشوق ،
وبمقدار تمكن الثالثة من القلب يستحكم سلطان الهوى على العقل ، فهذه زبدة
هذا الباب .

وأحسن الحسن ، ما لم يُجَلَّبْ بتزيين وتضييق ، وتحلية وتزويق ، وأطيب
الطيب أنفاس عبقّة من كبدايمة ، ومزاج معتدل ، ونفث نقى^(١) ، قال امرؤ القيس :
ألم تر أنّي كلّما جئت طارقاً وجدتُ بها طيباً وإن لم تطيّب^(٢)
ويحكى أن سيبويه كان يقرأ على الخليل بن أحمد منتقياً ، لثلاثين سنة بحسنه
عن تعليمه . ومعنى «سيبويه» بالفارسية رائحة التفاح ، وكان يقال : إنه أطيّبُ
الناس رائحة ومع تحفظ الخليل وورعه ، فكان إذا استأذن عليه سيبويه
يقول : مرحباً بزائر لا يمل .

وكان أبو حاتم السجستاني يحتم القرآن في كل أسبوع ، ويتصدق كل يوم
بدينار ، ومع هذا الفضل كان يميل بحبه إلى أبي العباس المبرّد ، وكان أبو العباس
يلزم حلقته وهو غلام وسيم ، فقال فيه :

ماذا لقيت اليوم من مُتَمَجِّنٍ خَنَثَ الكلام^(٣)
وقف الجمال بوجهه فسمت له حدق الأنام
حركاته وسكونه يُجَنِّي بها ثمر الأثام
فإذا خلوت بمثله وعزمت فيه على اغترام^(٤)
لم أعد أفعال العفا ف ، وذاك آكد للغرام
نفسى فداؤك يا أبا العباس يا جلّ اعتصامي

(١) ديوانه ٤١ .

(٢) الشعر والخبر في ابن خلكان ١ : ٢١٨ ، والأبيات الثلاثة الأخيرة في نزهة الألباء ١٩٠ .

(٣) ابن خلكان : « اغترام » .

فَارْحَمْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ نَزَرَ الْكَرَى بِأَدَى السَّقَامِ
وَأَنَّ اللَّهَ مَادُونُ الْحَرَامِ مَ فَلَيْسَ يَرْغَبُ فِي الْحَرَامِ

والوُكُوعُ فِي الْجَمَالِ سَجِيَّةٌ رَكِبَهَا اللَّهُ فِي الْأَوْلِيَاءِ وَأَكْبَرُ الْعُلَمَاءِ ، فَمِنْ دُونِهِمْ
مِنَ السُّوقَةِ وَالْفَوْغَاءِ . وَعَلَى قَدَرِ ذِكَاةِ الْأَرْضِ يَطِيبُ زَرْعُهَا ، وَعَلَى قَدَرِ طِيبِ
الْتُّرْبَةِ يَطِيبُ تَبْعُهَا ، فَمِنْهَا الْعَذْبُ وَالْأَجَاجُ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَعَلَى قَدَرِ شَرَفِ النَّفْسِ يَكُونُ
حُبُّهَا ، فَمِنْهُ الْمُسْتَحْسَنُ وَمِنْهُ الْمُسْتَقْبَحُ .

* وَكُلَّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَنْضَحُ *

فِي كِتَابِ الْوَشَاحِ : الْعَشْقُ إِذَا تَزَيَّنَ بِالْعَفَافِ فَهُوَ مَعْنَى شَرِيفٍ ، وَيَتَلَوُ
قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(١) ؛ فَمَنْ اتَّقَى
اللَّهَ فَهُوَ خَلِيلٌ .

وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ الْبَغْدَادِيِّينَ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا مَتَّحَنَ النَّاسَ
بِالْهَوَى ، لِیَأْخُذُوا أَنْفُسَهُمْ بِطَاعَةِ مَنْ يَهْوَوْنَهُ ، وَلِيَشْقَّ عَلَيْهِمْ سَخَطُهُ ، وَيَسِرَّ لَهُمْ رِضَاهُ ؛
فَيَسْتَدَلُّوا بِذَلِكَ عَلَى قَدَرِ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى . لِأَنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ ، وَهُوَ خَالِقُهُمْ
غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِمْ ، وَرَازِقُهُمْ مُبْتَدِئُ الْمَنِّ عَلَيْهِمْ ، فَإِذَا أَوْجَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ طَاعَةَ
لِسِوَاهُ كَانَ هُوَ تَعَالَى أَوْلَى أَنْ يُتَّبَعَ رِضَاهُ .

قَالُوا : وَلَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ وَلَا لِلْجَاهِلِ أَنْ يَنْكِرَ عِلَاقَةَ شَخْصٍ بِشَخْصٍ ،
وَحَنِينَ شَكْلٍ إِلَى شَكْلٍ ، وَمُؤَالَفَةً إِلَى إِلَافٍ ، فَالْقُلُوبُ صَافِيَةٌ قَابِلَةٌ ، وَالْعَيُونُ
إِلَيْهَا نَاقِلَةٌ .

وَقَالُوا : لَا عَاشِقَ عَلَى الْأَغْلَبِ إِلَّا مَوْفُورَ النَّعْمَاءِ ، مَكْفِيٌّ كَدَّ الْمَعِيشَةِ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ
فَرَاغِ نَفْسِهِ وَرَقَّةِ حَاشِيَتِهِ .

(١) سورة الزخرف ٦٧

وقد قيل : إن جميلاً وبُئينة لوقعا لينتين دون غداء وعشاء لبزق كل واحد منهما في وجه صاحبه .

ومن شرط العشوق أن يكون ممن يؤيس ويُطمع ، ويستتر ويلهم ، ويبدو ويُحجب ، ويبين ويصعب ، ويرضى ويُسخط ، ويقرب ويشحط ، كما قال أبو الطيب :

وأحلى الهوى ما شكَّ في الوصل ربُّه

في الهجر فهو الدهر يَرْجُو ويتَّقِي^(١)

وبين الرضا والسخط والقرب والتوى

محالّ لدمع المقلّة المترقّق

والحسن أول سعادة المرء ، ورائد اليُمن ، وسائق التّجح ؛ لأن الله تعالى بلطف الحكمة ، وبشرف الإبداع والصنعة ، لم يخلق الصورة مختارة الصفات ، سليمة من الآفات ، إلّا عن فضل الاحتفاء ، ولم يطابقها من الأخلاق إلّا بما يناسب جمالها من العقل والصفاء . ولما تجدد الخلق إلّا تبعاً للخلقة ، تناسباً بطرد ، وأصلاً لا ينعكس ، وإجمالاً لا ينفرد ، وما خلق الله نبياً قطّ إلّا وقد بهر أهل زمانه بحسنه وإحسانه ؛ فإذا نظرته لأوّل وهلة رأيت أحسنهم صورة ، وأتقنهم بنية ، فهو أوّل مرتبة ، وأعلى منقبة .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يعذب حسان الوجوه ، سُوداً لحدق » .

وورد عليه وفد عبد القيس ، وفيه غلام وضى الوجه ، فأقعده وراء ظهره ، وقال : إنما أتيت أخى داود من النظر .

وقد أكثر الشعراء في وصف الحسن ؛ فمن أحسن ذلك ما قال علي بن بسام ؛ وكأنه يصف الفتى الذي ذكره الحريري :

(١) ديوانه ٢ : ٣٠٤ ، وفيه البيت الأول بعد الثاني .

يَا مَنْ تَسْرِبَلُ بِالْمَلَاةِ وَارْتَدَى فَعَلَيْهِ تَعْتَكِفُ الْعَيُونُ إِذَا بَدَا
فِيهِ هِلَالٌ زَاهِرٌ وَيُرَى قَضِيبًا نَاضِرًا وَيُزَى كَثِيبًا أَمْلَدَا
فَإِذَا نَهَضْتَ تَرْجَرًا وَإِذَا سَفَرْتَ تَبَلَجًا وَإِذَا مَشَيْتَ تَأَوَّدَا
فَتَرَى الْجَبِينَ كَنَاجَ مَلِكٍ زَانَهُ دَرَّ تَرَاهُ مَفَرَّقًا وَمَنْضَدَا
وَيَحُولُ ذَاكَ الرَّشْحُ فِي أَقْطَارِهِ كَالْيَاسَمِينِ جَرَى بِهِ قَطَرُ النَّدَى
الْوَجْهَ فَضَى أَحَاطَ بِوَجْنَتِي ذَهَبٌ ، فَأَنْبَتَ عَارِضِينَ زَبَرُجَدَا
وَفَمَّ عَقِيمَتِي تَضَمَّنَ لَوْلُوا رَطْبًا وَنَظَمَ فَوْقَ ذَاكَ زُمَرَدَا
وَلَأَبَى إِسْحَاقُ الْخَنَاجِي^(١) :

وَأُعِيدَ أَهْدَى نَرْجَسًا مِنْ مُحَاجِرٍ وَتَنَى فَأَبْدَى سَوْسَنًا مِنْ سَوَالِفِ
وَقَدْ مَاجَ مِنْ عِطْفَائِهِ مَاءُ شَبِيبَةٍ تَعَبٌ وَلَا أَمْوَاجَ غَيْرُ الرِّوَادِفِ
تَطَّلَعَ مِثْلَ الرَّمْحِ بِسَطَةِ قَامَةٍ وَفَتَكَةَ الْحَاضِ وَلَيْنَ مَعَاطِفِ
وَلَا بَنَ وَكَيْع :

يَا مَنْ إِذَا لَاحَتْ مُحَاسِنُ وَجْهِهِ غَفَرْتَ بِلَدَائِعِهَا جَمِيعَ ذُنُوبِهِ^(٢)
إِذَا كَانَ فِي تَعَذُّبِ قَلْبِي رَاحَةً لَكَ فَاجْتَهِدْ بِاللَّهِ فِي تَعْذِيبِهِ
وَلَأَبَى إِسْحَاقُ الْخَنَاجِي :

يَا رَبِّ وَضَّاحَ الْجَبِينَ كَأَنَّمَا رَسَمُ الْعِذَارِ بِصَفْحَتَيْهِ كِتَابُ^(٣)
تُغَرَّى بِطَلْعَتِهِ الْعَيُونُ مَلَاةً وَتَبِيتُ تَعَشُّقُ عَقْلَهُ الْأَلْبَابُ
خَلِمَتْ^(٣) عَلَيْهِ مِنَ الصَّبَاحِ غِلَالَةٌ تَتَدَّى وَمِنْ شَفَقِ السَّحَابِ نِقَابُ

(١) هو أبو إسحاق بن إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة ، والأبيات في ديوانه ٣٣٦ .

(٢) بتيمة الدهر ٢ : ٣٤٠ ، وبعده هناك :

النَّجْمُ يَعْلَمُ أَنَّ عَيْنِي فِي الدُّجَى مَعْمُودَةٌ بِطَلْوَعِهِ وَغُرُوبِهِ

(٣) ديوانه ٣٣٧ .

ولأبي نواس :

أساء فزادته الإساءة حُطْوَةً حبيبٌ على ما كان فهو حبيبٌ
يعدّ على الواشيان ذنوبه ومن أين للوجه الجليل ذنوب !
ولأبي إسحاق الخفاجي :

تعلقته نَشْوَانٌ من خمرٍ رِيْقَةٍ له رشفها دوني، ولي دونها الشُّكْرُ^(١)
ترقرق ماء مُقْلَتَيَّ ووجهه ويدكي على قلبي ووجنته الجُرُ
أرق نسيبي فيه رِقَّةٌ حسنه فلم أدر أيّ قبلها منهما السُّخْرُ
وطبنا معاً نغرا وشعرا، كأنما له منطقي نغراً، ولي نغره شعرُ

* * *

وَقَدْ اعْتَلَقَ شَيْخٌ بُرْدَنِي، يَدْعِي أَنَّهُ فَتَكَ بَابِي، وَالْعَلَامُ
يُنْكِرُ عِرْفَتَهُ، وَيُكْبِرُ قِرْفَتَهُ، وَالْخِصَامُ بَيْنَهُمَا مُتَطَايِرُ الشَّرَارِ،
وَالزَّحَامُ عَلَيْهِمَا يَجْمَعُ بَيْنَ الْأَخْيَارِ وَالْأَشْرَارِ، إِلَى أَنْ تَرَاضِيَا بَعْدَ
اشْتِطَاطِ اللَّدِّ، بِالتَّنَافُرِ إِلَى وَالِي الْبَلَدِ، وَكَانَ مِمَّنْ يُزَنُّ بِالْهَنَاتِ،
وَيُغْلَبُ حُبُّ الْبَنِينَ عَلَى الْبَنَاتِ، فَاسْرَعَا إِلَى نَدْوَتِهِ، كَالسَّلَامِيكِ فِي

عَدْوَتِهِ

* * *

قوله : « وقد اعتلق شيخ بُردني »، أي تعلق بكه وأطراف ثوبه . فتك : قتل ، والفتك : أن تأتي رجلاً آمناً منك وتقتله، أو تسكن له في موضع لا يعرف بك، فإذا أتاك قتلتَه، ثم سُمِّيَ من هجم على الأمور العظام فاتكاً، فإذا أدخلت

(١) ديوانه ٣٥٣ :

رجلاً منزلك أو موضعاً لا مغيث له فيه ، فقتلته فذلك الغيلة ، فإن كان رجلاً يخافك فأمنته وآنسته حتى آمنك ، ثم قتلته فذلك الغدر . عرفتته : معرفته . يُكبر : يراه أمراً كبيراً عرفته : تهمة ، وقد عرفته بذنب ، إذا حملته عليه وأتهمته به ، وشبهه ما يلحق كل واحد منهما من أذى صاحبه بشرر النار اشتطاط اللدد : اشتداد الخصام . التنافر : التحاكم . يزن بالهنت : يتهم بالقبائح ، والهنت : الدواهي والهن والهنة من الكنايات العامة التي يكنى بها عن كل شيء ولا يقتصر بها على شيء دون شيء .

[فصل في ذكر بعض أخبار الولاية]

قوله «ويعْلَبُ حبَّ البنين على البنات» ذكر هنا من الولاية المتهمين بهذه الهنت ما يليق بالموضع . قال أهل الأخبار : إن القاضي يحيى بن أكثم^(١) ، كان مشتهراً بحب الغلمان ، وإن أهل البصرة رفعوا أمره إلى المأمون قبل اتصاله به ، وقالوا فيه : إنه قد أفسد أولادهم ، وظهرت منه الفواحش ، وأنه القائل في صفة الغلمان :

أربعة تُعْشَقُ	ألحاظهم	فعين من يعشقهم	ساهرة
فواحد دنياء في وجهه	منافق	ليست له	آخرة
وآخر دنياء منقوصة	من خلفه	آخرة	وأفيرة
وثالث فاز بكائيهما	قد جمع الدنيا مع	الآخرة	
ورابع قد ضاع ما بينهما	ليست له	دنيا ولا	آخرة

فاستعظمها المأمون وعزله عنهم .

ثم اتصل بعد ذلك يحيى بالمأمون ، وناداه ، فخرج معه في يوم عيد ، وقد ركب الجند أمامه ، ويحيى يحادثه ويضاحكه ، فنظرت إلى غلام أمرد من أولاد

(١) انظر أخبار يحيى بن أكثم في ابن خلكان ٢ : ٢١٧ - ٢٢٤ وأخبار القضاة لوكيع ٢ : ١٦١ - ١٦٧ ، وتاريخ بغداد ١٤ : ٢٩١ - ٢٠٤ ، وثمار القلوب ١٥٦ ، ١٥٧

الجند في غابة الفراهة ، عليه ثوب حرير أخضر ، ودرع موشاة مزررة بالذهب .
فالتفت إلى يحيى ، وقال له : ما تقول في هذه البضاعة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ،
إنّ هذا لتبيح من إمام مثلك مع فقيه مثلى ، قال : فمن الذى يقول :

قاضٍ يرى الحدف في الزناة ولا يرى على من يلوط من باسٍ
قال : من عليه لعنة الله وغضبه ، ابن أبي نعيم ^(١) ، الذى يقول :
أميرنا يرأسى وحاكمتنا يلوط والشر بيننا راسى
قاضٍ يرى الحدف .. البيت ، وبعده :

لا أحسب الموت ينقضى وعلى أمة وال لآل عباس ^(٢)
قال : أو صحيح هذا ؟ قال : نعم ، قال : يُنفى إلى السند ، وإنما ما زحناك ، ثم
قال للمأمون في الغلام :

أيها الراكب ثوباً هـ حريرٌ وحديدٌ
جئت للعيد وفى وجهك للأعين عيدٌ
أنت جندي ولكن فيك للحسن جنودٌ
وفى يحيى يقول ابن أبي نعيم :

يا ليت يحيى لم يلد له أكثمه ولم تظأ أرض العراق قدمه ^(٣)
ألو ط قاضٍ فى البلاد نعلمه أى دواة لم يلقها قلمه
* وأى جُجر لم يلجه أرقمه ^(٤) *

(١) ديوانه ٢ : ٣٠٢ .

(٢) ديوانه ٩٨٧ .

(٣) المضاف والمنسوب ١٥٨ .

(٤) ذكر فى المضاف والمنسوب بعد الأبيات : « فقال يحيى : دواتك أيها الأمير » .
(٢٥ - شرح مقامات الحريري ١)

وهذا كقول الآخر :

* يَدْخُلُ الْأَفْعَى إِلَى خَيْسِ الْأَسَدِ *

ويحيي خُرَاسَانِيَّ من مَرَوْ . وبلغ من تَحْكَمِهِ على المأمون أن فرض لأربعمائة غلامٍ مُزْرَدٍ ، واختارهم حِسانُ الوجوه يركبون لركوبه ، فقال راشد بن إسحاق :

خَلِيلِيْ أَنْظِرَا مُتَعَجِّبَيْنِ	لَأُظْرِفَ مَنْظَرِ تَقْلَاهُ عَيْنِيْ
لِفَرْضٍ لَيْسَ يُقْبَلُ فِيهِ إِلَّا	أَسِيلُ الْخَلْدِ حُلُوُ الْمُقْلَتَيْنِ
يَقُودُهُمْ إِلَى الْمِهْجَاءِ قَاضٍ	شَدِيدُ الطَّعْنِ بِالرُّمَحِ الرُّدَّيْنِ
إِذَا شَهِدَ الْوَعَى مِنْهُمْ غَلَامٌ	تَجَدَّلُ لِلْجَبِينِ وَلِلْيَدَيْنِ
وَبَاتَ الشَّيْخُ مَنْحَنِيًّا عَلَيْهِ	وَصُدْغَاهُ تَحَاذَى الرِّكْبَتَيْنِ

وقال فيه :

وَكُنَّا نَرْجَى أَنْ نَرَى الْعَدْلَ بَيْنَنَا
مَتَى نَصْلُحَ الدُّنْيَا وَيَصْلُحَ أَهْلُهَا
فَأَعْقَبَنَاهُ بَعْدَ الرَّجَاءِ قَنُوطُ
إِذَا كَانَ قَاضِي الْمُسْلِمِينَ يُلُوطُ

وكان القاضي أبو القاسم علي بن محمد التنوخي^(١) مولعاً بالعلمان ، وكان له غلام اسمه نسيم ، في نهاية من الحسن ، وكان يُؤثره على سائر غلمانه ، ويخصه بتقريبه واستجدانه ، فكتب إليه بعض من يأنس به :

هَلْ عَلَى مَنْ لَامَهُ مَدْعَةٌ لَاضْطَرَارُ الشَّعْرِ فِي مِمْ نَسِيمٍ
فَوَقَعَ تَحْتَ الْبَيْتِ : نَعَمْ ، وَلَمْ لَا !^(٢)
وَسَنَدُكَ مِنْ شَعْرِهِ فِي هَذِهِ الْمَقَامَةِ مَا يَسْتَمْلِحُ .

(١) انظر أخبار تاريخ بغداد ١٢ : ٧٧ ، وابن خلكان ١ : ٣٥٣ .

(٢) الخبر في معجم الأدباء ١٤ : ١٦٦ .

ومن كان يميل إلى الغلمان من الأمراء أبو العشائر الحمداني^(١) الذي يقول
فيه المتنبي :

فيا بحرَ البحُور ولا أوريّ وياملكَ الملوك ولا أحاشي^(٢)
كأنك ناظرٌ في كلِّ قلبٍ فما يخفي عليك محلُّ غاشٍ

وقال بعض الرواة : دخلت على أبي العشائر أعوده من علة ، فقلت : ما
يحمد الأمير ؟ فأشار إلى غلام قائم بين يديه ، كأن رضوان قد غفل عنه فأبقى من
الجنة ، ثم أنشأ يقول :

أسقمُ هذا الغلامُ جسمي بما بعينه من سقام^(٣)
فتورُ عينيه من دلالٍ أهدي فتوراً إلى عظامي
وامتزجت روحه بروحي تمازج الماء بالمدام
ولأبي العشائر :

سطا علينا ومن حاز الجمال سطا - ظبي من الجنة الفردوس قد هبطا
له عذاران قد خطا بوجنتيه فاستوقفا فوق خديه وما انبسطا
وظل يخطو فكلُّ قال من شغفٍ : يا ليتته في سواد الناظرين خطا !

ومع هذا الليل ، كان نزبه النفس ، رفيع الهمة ، سليم الناحية ، وكان في
الجد غاية ، وفي الشجاعة نهاية ، وفي الشعر آية . وإذا كان المتنبي الذي هو
أشعر الناس عند الأكرثية ، يقول حين عوتب في آخر أيامه على فتور شعره :
قد تجاوزت في شعري ، وأعفيت طبعي ، واغتنمت الراحة ، مذ فارقت آل
حمدان ، ومنهم الذي يقول - يعني أبا العشائر :

(١) انظر أخبار أبي العشائر في يتيمة الدهر ١ : ٧١ - ٧٥ .

(٢) ديوانه : ٢١١ .

(٣) يتيمة الدهر ١ : ٧٢ :

أَخَا الْفَوَارِسَ لَوْ رَأَيْتَ مَوَاقِفِي وَالْخَيْلَ مِنْ تَحْتَ الْأَسْنَةِ تَنْحَطُ^(١)
 لَقَرَأْتَ مِنْهَا مَا تَخْطُ يَدُ الْوَعْيِ وَالْبَيْضُ تَشْكُلُ وَالْأَسْنَةُ تَنْقُطُ
 فَهَكَذَا تَسْتَعَارُ الْعَانِي الْبَدِيعَةُ فِي الْأَلْفَاظِ الرَّفِيعَةِ ؛ فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ
 الْمُنْتَبَى هَذَا الثَّنَاءُ !

* * *

وَمَنْ وَصَفَ غَلَامًا فَأَحْسَنَ ، الْأَمِيرُ تَمِيمُ بْنُ الْمَعَزِّ صَاحِبُ مِصْرَ ، حَيْثُ يَقُولُ :
 وَبَاتَ ضَجِيعِي مِنْهُ أَهْيَفُ نَاعِمٍ وَأَدْعَجُ وَسْنَانٌ وَالْعَسُ أَشْنَبُ^(٢)
 كَأَنَّ الدَّجَى مِنْ لَوْنِ صُدُغِيهِ طَالِعٍ
 وَشَمْسُ الضُّحَى فِي صَحْنِ خَدَّيْهِ نَعْرُبُ
 وَقَالَ أَيْضًا :

يَا لَيْلَةً بَاتَ فِيهَا الْبَدْرُ مَعْتَنِقِي وَكَانَتِ الشَّمْسُ فِيهَا بَعْضُ جُلَاسِي^(٣)
 وَبَتْ مُسْتَغْنِيًا بِالشَّعْرِ عَنْ قَدَحِي وَبِالْخُدُودِ عَنِ التُّفَاحِ وَالْأَسِ
 وَقَالَ أَيْضًا :

وَرَدُّ الْخُدُودِ أَرْقُ مِنْ وَرَدِّ الرِّيَاضِ وَأَنْعَمُ^(٤)
 هَذَا تَنْشِئُهُ الْأَنْوُ فُ وَذَا يَقْبَلُهُ الْفَمُ
 فَإِذَا عَدَلَتْ فَأَفْضَلُ أَلِ وَرَدِينَ وَرَدَ يُلْسَمُ
 قَوْلُهُ : « نَدْوَتُهُ » ، أَيْ مَجْلِسُهُ .

[ذِكْرُ السُّلَيْكِ بْنِ السُّلَكَةِ]

وَالسُّلَيْكُ ، هُوَ ابْنُ السُّلَاكَةِ ، مَعْرُوفٌ بِأُمِّهِ ، وَكَانَتْ أُمُّهُ سَوْدَاءَ شَدِيدَةً

(١) يَتِيمَةُ الدَّهْرِ ١ : ٧١

(٢) دِيْوَانُهُ ٤٠٤ ، ٤١٤ . الْعَسُ : سَوَادٌ مُسْتَحْسَنٌ فِي الشَّفَةِ . وَالشَّنْبُ : رَقَّةٌ وَعَذُوبَةٌ وَبَرْدٌ فِي الْأَسْنَانِ .

(٣) دِيْوَانُهُ ٢٥٠ .

(٤) دِيْوَانُهُ ٣٨٦ .

السواد ، وكان هو أسود ، وأبوه عمرو بن سنان بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم السعدى التميمى .

وكان يسبق الخيل على رجله ، وكان من العدائين ومن رجلى العرب - وهم الذين يسعون على أقدامهم ، ويسبقون الخيل ، فيستغنون بأرجلهم عنها - وكان من أشجع الناس ، وكان لا يُغيرُ إلاَّ وحده ، وكان يقال له : الرئبال :

وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمرو بن معد يكرب ، فقال : أى العرب كان أبغض لك أن تلقاه ؟ فقال : أمّا من معدّ فعدى بن قزارة ومرة بن ذبيان وكلاب بن عامر وشيبان بن بكر وشقّ بن عبد القيس والأرقام من تغلب ، ثم لو جئت بفرسى على مياه سعد ما خفت هَيْجَ أحدٍ ؛ ما لم يلقى حُرّاهَا أو عبداها ، قال : أمّا حُرّاهَا فعامر بن الطفيل وعُتَيْبَةُ بن الحارث بن شهاب ، وأمّا عبداها فعنزة الفوارس وسليكم المقانب .

وأما عدوّته المذكورة ، فيقال : إنه أحاط به عدوّه فنزا نزوة عدّ فيها أربعاً وعشرون خطوة ، وعدّ أيضاً فى نزوة للشنفرى إحدى وعشرون خطوة . ويقال فى المثل : أعدى من الشنفرى ، وأعدى من السليك .

فأما الشنفرى فإنه أغار على بجيلة مع تأبط شرّاً وعمرو بن براق ، فرصدتهم بجيلة على الماء ، فقال تأبط شرّاً : إنّ بالماء رصداً ، فقالا : ليس عليه أحد ، ولا بدّ من وروده ، فورد الشنفرى ثم عمرو ، فقال تأبط شرّاً : القوم إنّما يريدوننى ، فلذلك لم يعرضوا لكما ، وإذا وردت أنا الماء فسيشدّون علىّ ، ويأسروننى ، فاذهب يا شنفرى ، كأنك تهرب ، وكن فى أصل ذلك القرن ، فإذا سمعتنى أقول : خذوا خذوا ، فتعال فأطلقنى ، وقال عمرو : إني سامرك أن تستأسر لهم ، فلا تبعد ، ولا تمكّنهم من نفسك . ثم ورد الماء ، فشدّوا عليه ، وكتفوه ، وفعلوا

ما أمرها ، فقال : تأبّطشراً : يامعشر بجيلة ، هل لكم في أن تيسروا فداءنا ، ونستأسر لكم ابن براق ؟ قالوا : نعم . فقال ياعمرو : هل لك في أن تستأثروا ويأسرونا في الفداء ؟ قال : حتى أروّضَ نفسي شوطاً أو شوطين ، فجرى الأوتل كالريح ، والثاني كانليل ، ثم أراد أن يجري ثالثاً ، فجعل يقع ويقوم فشلاً ؛ يُطعمهم بذلك ، فقال لهم تأبّطشراً : خذوا خذوا ، فأسرعوا إليه بأجمعهم ، وهوى الشنفري كالريح فقطع وثاقه ، ثم أحضروا ثلاثتهم ، فنجحوا ، فقال تأبّطشراً من قصيدة :

ليلةً صاحوا وأغرّوا بي سرّاعهمُ بالعيككتين لدى عمرو بن براق^(١)
لا شيء أسرع مني غير ذي عُذْرٍ أودى جناح بجانب الرّيد خفاق^(٢)

فالثلاثة عدّاءون ، والمثل مقصور على الشنفري .

وأما السليك ، فرأته طلائع جيش لبكر بن وائل ، جاءوا مجردين ليغيروا على تميم ، فقالوا : إن علم السليك بنا أنذر قومه ، فبعثوا إليه فارسين على جوادين ، فلما صاحاه خرج يحص^(٣) كأنه ظبي ، فطارده يوماً أجمع ، ثم قال : إذا كان الليل أعيا فذاخذه ، ووجدنا أثر بوله قد خد^(٤) في الأرض ، فقالا : قاتله الله ! ما أشدّ متنه ! فتبعاه ليلتهما : فلما أصبحا وجداه قد عثر بأصل شجرة ، فندر^(٥) منها كمكان قدمه ، وسقطت قوسه في جريه فانخطمت ، فوجدوا قطعه منها قد ارتزت^(٦) بالأرض ، فقالا : ما بعد هذا شيء ، والله لا تتبعناه بعد هذا . ومّر السليك إلى أهله ، فأنذرهم ، فكذبوه لبعده الغاية ، فقال :

(١) من قصيدة مفضلية ٢٧ - ٣١ ، مطلعها :

ياعيدُ مالك من شوقٍ وإيراقٍ ومّرّ طيفٍ على الأهوال طراقٍ

والعيككتان : موضع ، ورواية المفضليات : «معدى ابن براق» ، ومعدى مصدر ميمي من عدا يعدو .

(٢) العذر : جمع عذرة ، وهي ما أقبل من شعر الداسية على وجه الفرس . والرّيد : الشمراخ الأعلى من الجبل ، يقول : لا شيء أسرع مني إلا الفرس ، وإلا الطائر الجارح الذي يأوى إلى الجبل .

(٣) يحص : يسرع

(٤) خد في الأرض : شقها .

(٥) ندرت : سقطت .

(٦) ارتزت : أثبتت .

يَكْذِبُ بَنِي الْعَمَرَانِ: عمرو بن جندب وعمر بن سعد والمكذَّبُ أ كَذِبُ^(١)
 تَكَلَّتْ كَمَا إِنْ لَمْ أَكُنْ قَدْ رَأَيْتُهَا كَرَادِيسٍ يَهْدِيهَا إِلَى الْحَيِّ مُوَكِّبٌ
 كَرَادِيسٍ فِيهَا الْخَوْفُ زَانٌ وَحَوْلَهُ فَوَارِسُ هَمَامٍ مَتَى يَدْعُ بِرَكْبُوا
 فَصَدَّقَهُ قَوْمٌ ، فَنَجَّوْا ، وَكَذَّبَهُ آخَرُونَ ، فَوَرَدَ عَلَيْهِمُ الْجَيْشُ فَانْتَحَسَحَمُوا .
 وَمِنْ شَعْرِ السَّلِيكِ يَرْتِي فَرْسَهُ — وَكَانَ يُقَالُ لَهَا النَّجَامُ — وَأَنْشَدَهَا
 الْمُبَرَّدُ فِي بَابِ التَّشْبِيهِ مِنَ الْكَامِلِ :

كَأَنَّ قَوَائِمَ النَّجَامِ لَمَّا تَحْمَلُ صُحْبَتِي أَصْلًا مَحَارُ^(٢)
 عَلَى قَرَمَاءَ عَالِيَةٍ شَوَاهُ كَأَنَّ بَيَاضَ غَرَّتِهِ خِمَارُ^(٣)
 وَمَا يُدْرِيكَ مَا قَفَرِي إِلَيْهِ إِذَا مَا الْقَوْمُ وَلَوْ أَوْ أَعَارُوا^(٤)
 وَيُخْضِرُ فَوْقَ جُهْدِ الْخَضِرِ نَصًّا يَصِيدُكَ نَافِلًا وَالْمَخِ رَارُ^(٥)

أَيُّ يَصِيدُكَ . وَنَافِلًا : ثَانِيَا ، وَرَارُ : ذَائِبٌ مِنَ الْهَزَالِ ؛ وَحِكَايَةُ السَّلِيكِ ،
 عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ ، وَحِكَايَةُ الشَّنْفَرِيِّ عَنْهُ وَعَنِ الشَّيْبَانِيِّ ؛ وَكَلَّتْهَا عَلَى اخْتِصَارٍ .
 وَنَزَلَ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ كُنَانَةٍ ضَيْفًا ، فَأَكْرَمُوهُ ، وَجَمَعُوا لَهُ إِبْلًا كَثِيرَةً ،
 وَأَعْطَوْهُ إِيَّاهَا ، وَكَانَ قَدْ كَبِرَ وَشَاخَ ، وَذَهَبَتْ قُوَّتُهُ ، وَانْتَقَصَ عَدُوُّهُ ، فَقَالُوا
 لَهُ : إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَرَيْنَا مَا بَقِيَ مِنْ عَدُوِّكَ ! قَالَ : نَعَمْ ، ابْعُثُوا لِي أَرْبَعِينَ شَابًا ،

(١) الْأَغَانِي ٢٠ : ٣٥٣ (طبعة بيروت)

(٢) الْكَامِلُ ٣ : ٣ : ٦٩ ، قَالَ فِي شَرْحِ هَذَا الْبَيْتِ : الْحَارُ : الصَّدْفَةُ ، يُرِيدُ الْمَلَأَةَ
 وَأَنَّهُ قَدْ ارْتَفَعَتْ قَوَائِمُهُ لِلْمَوْتِ . وَالْأَصْلُ : جَمْعُ أَصِيلٍ ، وَالْأَصِيلُ : الْعُشْبَى .

(٣) قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : قَرَمَاءَ ، مَمْدُودَةٌ : اسْمُ مَوْضِعٍ ، وَشَوَاهُ : قَوَائِمُهُ .

(٤) قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : وَلَوْ أَوْ أَعَارُوا ؛ إِذَا طَلَبُوا أَوْ هَرَبُوا .

(٥) قَوْلُهُ . « بَصِيدُكَ » ، أَيُّ يَصِيدُ لَكَ ، يُقَالُ : صَدْتُكَ ظَلِيًّا ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ وَإِذَا كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ يُخْسِرُونَ ﴾ .

وَأَتَوْنِي بِدِرْعٍ ثَقِيلَةٍ عَظِيمَةٍ ، فَأَتَوْا بِهَا وَاخْتَارُوا مِنْ شَبَابِهِمْ أَرْبَعِينَ أَقْوِيَاءَ
عِدَّائِينَ ، فَلَبَسَ سُلَيْكُ الدَّرْعَ ، ثُمَّ قَالَ لِلشَّبَابِ : الْحَقُونِي ، ثُمَّ عَدَا عَدَاً وَسَطًا ،
وَعَدَا الشَّبَابُ وَرَاءَهُ جَهْدَهُمْ ، فَلَمْ يَاحْقُوهُ حَتَّى غَابَ عَنْهُمْ ، ثُمَّ كَرَّرَ رَاجِعًا حَتَّى عَادَ
إِلَى الْقَوْمِ وَحْدَهُ يَخْطُرُ ، وَالدَّرْعَ عَلَيْهِ ، وَسَبَقَ الشَّبَابُ .

وَخَرَجَ فِي لَيْلَةٍ مَقْمَرَةً يَطْلُبُ الْإِغَارَةَ ، فَغَلَبَ عَلَيْهِ النَّوْمُ آخِرَ اللَّيْلِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ
مَلْتَفٌ بِكِسَاءٍ ، جَثَمَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِثْلُهُ ، شَدِيدُ الْبَأْسِ ، عَظِيمُ الْقُوَّةِ ، وَأَمْسَكَ عَلَى
يَدَيْهِ ، وَمَنْعَهُ التَّحَرُّكَ ، وَجَعَلَ يَلْعَظُهُ وَيُؤْذِيهِ ، وَيَقُولُ لَهُ : اسْتَأْسِرْ يَا خَبِيثَ ،
فَاجْتَهَدَ سُلَيْكُ حَتَّى خَلَّصَ إِحْدَى يَدَيْهِ ، فَضَمَّ الرَّجُلُ إِلَيْهِ خَصَّتَمَهُ ، وَعَصَرَهُ عَصْرَةً ،
فَضَرَطَ ، فَقَالَ لَهُ : أَضْرِطًّا وَأَنْتَ الْأَعْلَى ^(١) ! فَأَرْسَلَهَا مِثْلًا ، فَلَمَّا تَخَلَّصَ مِنْهُ ،
قَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا رَجُلٌ افْتَقَرْتُ فَقُلْتُ : لَا أُخْرَجَنَّ وَلَا أَرْجِعْ إِلَى
أَهْلِي حَتَّى آتِيَهُمْ وَأَنَا غَنِيٌّ . فَقَالَ لَهُ السُّلَيْكُ : انْطَلِقْ مَعِيَ ، فَاِنْطَلَقَا فَوَجَدَا ثَالِثًا ،
قِصَّتُهُ قِصَّتُهُمَا ، فَاصْطَحَبُوا حَتَّى أَتَوْا وَادِيًا لِمُرَادٍ ، فَلَمَّا أَشْرَفُوا عَلَيْهِ إِذَا فِيهِ نَعَمٌ ،
قَدْ مَلَأَ نَوَاحِيَهُ مِنْ كَثْرَتِهِ ، فَقَالَ لَهَا السُّلَيْكُ : كَوْنَا قَرِيبًا مِنِّي حَتَّى آتِيَ الرَّعَاءُ ،
فَاعْلَمْ عِلْمَ الْحَيِّ : أَهْوَ قَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ؟ فَإِنْ كَانَ قَرِيبًا رَجَعْتُ ، وَإِنْ كَانَ بَعِيدًا
أَوْحَيْتُ إِلَيْكُمَا بِقَوْلِي فَأَغِيرَا . فَأَتَى الرَّعَاءُ فَاسْتَخْبَرَهُمْ عَنِ الْحَيِّ ، فَأَخْبَرُوهُ
بِبَعْدِ الْحَيِّ ، وَأَنْهُمْ إِنْ طَلَبُوا لَمْ يَدْرِكُوا ، فَقَالَ لِلرَّعَاءِ : أَلَا أَغْنِيكُمْ ؟ قَالُوا :
بَلَى ، فَرَفَعَ صَوْتَهُ فَفَتَنَى :

يَا صَاحِبِي أَلَا لَا حَيٍّ فِي الْوَادِي سِوَى عَمِيدٍ وَأَمٍّ بَيْنَ أَذْوَادٍ ^(٢)
أَتَنْتَظِرَانِ قَرِيبًا رِيثَ غَفْلَتِهِمْ أَمْ تَغْدَوَانِ فَإِنَّ الرِّيحَ لِلْعَادِي !
فَلَمَّا سَمِعَا ذَلِكَ أَتِيَاهُ ، وَطَرَدُوا الْإِبِلَ فَذَهَبُوا بِهَا ، وَلَمْ يَبْلُغِ الصَّرِيخُ الْحَيَّ ،
حَتَّى فَاتُوا بِالْإِبِلِ ^(٣) .

(١) الْيَدَانِ ١ ٤٢٠ ، جَهْرَةُ الْأَمْثَالِ ١ : ١٣٠ .

(٢) الرِّيحُ مَنَا : الْقُوَّةُ

(٣) الشَّعْرُ وَالشَّعْرَاءُ ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

قال ابن الأعرابي : آم مقلوب آيم ، وهم العزّاب ، جمع أمة^(١) .
 وكان السّلبك من أدلّ الناس بالأرض وأعلمهم بمسالكها ، وكان يستودع
 الماء بيض النعام في الشتاء ، ويدفنه في المفاوز العظيمة ، فإذا كان الصيف
 وانقطعت إغارة الخيل أغار على ربيعة ، وشرب من ذلك الماء . وكان يقول :
 اللهم إني أعوذ بك من الخيبة ، وأما الهيبة فلا هيبة .

* * *

قوله : «عدوّته» ، العدوّة بالكسر : الحالة ، وبالفتح المرة الواحدة ، فيريد
 الحريري أن يسراعهما إلى الوالي كان كعدوة السليك .

* * *

فَلَمَّا حَضَرَاهُ ، جَدَّدَ الشَّيْخُ دَعْوَاهُ ، وَاسْتَدْعَى عَدُوَّاهُ . فَاسْتَنْطَقَ
 الْغَلَامَ وَقَدْ فَتَنَهُ بِمَحَاسِنِ غُرَّتِهِ ، وَطَرَّ عَقْلَهُ بِتَصْفِيفِ طُرَّتِهِ ، فَقَالَ :
 إِنَّهَا أَفِيكَةُ أَفَاكِ ، عَلَى غَيْرِ مَفَاكِ ؛ وَعَضِيهَةٌ مُحْتَالٍ ، عَلَى مَنْ لَيْسَ
 بِمُغْتَالٍ . فَقَالَ الْوَالِي لِلشَّيْخِ : إِنَّ شَهِدَ لَكَ عَدْلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ،
 وَإِلَّا فَاسْتَوْفِ مِنْهُ الْيَمِينَ . فَقَالَ الشَّيْخُ : إِنَّهُ جَدَّلُهُ خَاسِيًا ،
 وَأَفَاحَ دَمَهُ خَالِيًا ، فَأَتَيْتَنِي شَاهِدًا ، وَلَمْ يَكُنْ نَمَّ مُشَاهِدًا وَلَكِنْ
 وَلَّيْتَنِي تَلْقِيهَتَهُ الْيَمِينَ ، لِيَبَيِّنَ لَكَ : أَيُصَدِّقُ أَمْ يَمِينُ ؟ فَقَالَ لَهُ : أَنْتَ
 لِلْمَالِكِ لَدَلِكَ ؛ مَعَ وَجْدِكَ الْمَتَهَالِكِ ، عَلَى ابْنِكَ الْمَالِكِ !

* * *

واستدعى عدواه ، أى طلب إغاثته وأعداه الحاكم : أغاثته . استنطق :
 أمره أن ينطق ، وقد بين سر هذا الاستنطاق في الرابعة والثلاثين عند شراء الغلام

(١) نقله في اللسان ١٨ : ٤٧ .

قال : « ثم استنطقته عن اسمه ، لا لرغبة في علمه ، بل لأنظر أين فصاحته من صباحته ، وكيف لهجته من بهجته ^(١) » . وكذلك لم يُردِ الوالى أن يستنطقه ليقول حجته ؛ بل ليعلم حلاوته من صورته التى فتنته . وقد ذكرنا أن فائدة الحسن إنما تدور على اللسان .

[إبراهيم النظام وبعض أخباره وشعره]

وهذا الاستنطاق هو الذى ذهب بإبراهيم بن سيار النظام ، الذى هو إمام فى علم الكلام إلى علاقة غلام ؛ وذلك أنه لَقِيَ غلاماً جميلَ الوجه ، مقبول الصورة ، فاستحسنه ، وتصور فيه الصورة الباطنة المناسبة لخلقته الظاهرة ، فقال له : يا غلام ، إنه لولا ما سبق من قول الحكماء ، لما جعلوا السبيل لمثلى إلى مثلك بقولهم : لا ينبغي لأحد أن يصغر عن أن يقول ، ولا أن يكبر عن أن يقال له ، أما أنستُ إلى مخاطبتك ، ولا انشرح صدرى إلى محادثتك ، لكنه سبب الإخاء وعقد المودة ، ومحلك من قلبى محل الروح من جسد الجبان ، فقال له الغلام : وهو لا يعرفه : لئن قلت ذلك أيُّها الرجل ، لقد قال أستاذنا إبراهيم بن سيار النظام : الطباع تجاذب ما شاكلها بالجائسة ، وتميل إلى ما قارنها بالموافقة ، وكيانى مائل إلى كيائك بكليتى ؛ ولو كان الذى انطوى عليه لك عَرَضاً لم أعتد به ودّاً ، ولكنه جوهر جسمى ، فبقاؤه بقاء النفس ، وعدمه بعدمها ، وأقول كما قال الهذلى :

فتبينى أنى بكم كلفٌ ثم اصنعى ما شئت عن علم ^(٢)

فقال له النظام : إنما كلمتك بما سمعت ، وأنت عندى حسن الصورة غلام ، ولولا أن محلك محلٌ مقيم ما تعرّضت لك ، ثم اعتلقه النظام بعد ، وقال فيه جرياً على علمه :

(١) متن المقامات ص ٣٧٣ (طبع الحسينية) .

(٢) ديوان الهذليين ٩٧٣ ، ونسبه إلى أبى صخر (طبعة مدنى) .

توهمه طرفى فآلم خدّه فصار مكان الوهم من نظرى أثر^(١)
 وصاخره كفى فآلم كفه فمن لس كفى فى أنامله عقر^(٢)
 ومرو بفكرى خاطراً فجرحته ولم أر خلقاً قطّ يجرحه الفكر^(٣)
 وقال فيه أيضاً :

وإذ تأمل فى الزّجاجة ظلّه جرحته لحظة مقلة الظلّ
 وقال فيه أيضاً :

أفرغ من نور سماوى مصوّر فى جسم إنسى
 وافتقر الحسن إلى حسنه فجّل عن تحديد كفى
 وقال فيه :

يا مشرقاً ملأ العيو ن فلحظها ما يستقل^(٤)
 أوفى على شمس الضحى حتى كأنّ الشمس ظلّ
 أتريد قتلى عامداً ولقتل مثلى ما يحلّ !

فصرّف فى شعره من صناعته ، وأبدع فى تخيله ببراعته .

* * *

قوله : « غرته » ، أى وجهه . طرّ ، أى قطع وأذهب . تصفيف طرّته : شعره .
 المعتدل على جبهته . أفيكة أفاك : كذبة كذاب . سفاك : قتال . عضيهة : بهتان .
 وباطل . مغتال : قاتل الفيلة . استوف : استكمل . جدّله : صرعه وألقاه على .

(١) أمالى المرتضى ١ : ١٨٨

(٢) بمدق أمالى المرتضى :

يمرو فمن لين وحسن تعطفو يقال به سكرّ وليس به سكرّ

(٣) ديوان المعاني ١ : ٢٣١

الجدالة . وهى الأرض : خاسياً : متباعداً ممنوع الكلام ، كأنه قهره ومنعه أن يصيح عند قتله ، ولذلك لم يجد عليه شاهداً ، وأصله الهمزة فستله ليوافق « خاليا » إن أخذته من خسأت السكب ، وإن أخذته من خَسِيَ البصرُ إذا كلَّ ، فلا تسهيل فيه ، ومعناه قريب من الأول ، أى أنه أضعفه بالضرب حتى لم يستطع الكلام ثم قتله . أفاح دمه ، بجاء مهملة : أراقه . قال أبو زيد فى نوادره : أفحت دمه ففاح فيجأ وفيحانا ، وأنشد :

نحن قتلنا الملك الجحججاًحاً ولم ندع لسارحٍ مراحاً
* إلاً دياراً أو دما مفاحاً *

وقال أبو حاتم : أراد : ودما مفاحاً أى مهر اقا . خاليا : بمعنى « منفردا » . أنى ، بمعنى كيف . مُشاهد : منى شاهد حاله وحضر عليها . ولئى : مَكْنَى . تلقينه : تفهيمه وإلقاءه عليه . يمين : يكذب . وجدك : حزنك . المتهالك : الكثير التفاوت ، وتهالكت المرأة عليه : تراخت عليه ، وتكاسلت ، قال الأعشى ^(١) :
تهالك حتى ينكر المرء عقله وتُسبى الحكيم ذا الحجى بالتَّقَلُّلِ ^(٢)

* * *

فَقَالَ الشَّيْخُ لِلْعَلَامِ : قُلْ : وَالَّذِي زَيْنَ الْجَبَاءَ بِالطَّرْرِ ،
وَالْعَيُونََ بِالْخَوْرِ ، وَالْحَوَاجِبَ بِالْبَلَجِ ، وَالْمَبَاسِمَ بِالْفَلَجِ ،
وَالْجُفُونََ بِالسَّقَمِ ، وَالْأَنُوفَ بِالشَّمَمِ ، وَالْخُدُودَ بِاللَّهَبِ ، وَالْثُنُورَ
بِالشَّنَبِ ، وَالْبَنَانَ بِالْتَّرَفِ ، وَالْخُصُورَ بِالْهَيْفِ ، إِنِّى مَا قَتَلْتُ ابْنَكَ

(١) اللسان - فيح ، ونسبه إلى أبي حرب بن عقيل .

(٢) ديوان الأعشى ٣٥٣

(٣) الديوان : « حتى ينكر المرء عقله » . وتهالكت المرأة فى مشيها : تمايلت .

سَهَوَا وَلَا عَمْدًا، وَلَا جَعَلْتُ هَامَتَهُ لِسِنِّي غِمْدًا، وَإِلَّا فَرَمَى اللَّهُ
جَفَنِي بِالْعَمَشِ، وَخَذِي بِالنَّمَشِ، وَطُرَّتِي بِالْجُلْحِ، وَطَلَعِي بِالْبَلْعِ،
وَوَرَدَتِي بِالْبَهَارِ، وَمَسَكَنِي بِالْبُخَارِ، وَيَذَرِي بِالْحَقِ، وَفُضَّتِي
بِالْأَحْتِرَاقِ، وَشُعَاعِي بِالْإِظْلَامِ، وَدَوَانِي بِالْأَقْلَامِ.

◊ ◊ ◊

قوله : « الذي زين الجباه بالطرر . . » ، إلى آخر يمينه ، إنما ذكر صفات
الحسن شيئاً بعد شيء ، ليُرى هذا الوالى كمال الغلام ، فيشتد حبه فيه ، فإذا ذكر صفةً
من صفاته تبه الوالى بذكرها على النظر إليها ، فوجدوها كما يصف ، فهو الآن في
هذه اليمين يحلو محاسن الغلام عليه .

الطَّرَر : جمع طُرَّة ، وهى اعتدال الشعر على الجبهة ، والطُّرَّة عندهم أن يقطع
للجارية من مقدم ناصيتها حتى لا يبلغ الشعر حاجبيها ، فيبقى ما بين شعر
ناصيتها وحاجبيها من جبهتها نقياً ، والشعر عليها معتدل ، كطُرَّة الثوب ثم تسمى
الشعور الحسن طُرراً .

أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلاث فائنات : الشعر
الحسن ، والوجه الحسن ، والصوت الحسن » .

عائشة رضى الله عنها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ملائكة السماء
يستبحون بذوائب النساء وبلحى الرجال ، فيقولون : سبحان الذى زين الرجال
باللحى ، والنساء بالدوائب » .

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد أحدكم أن يتزوج المرأة فليسأل عن
شعرها كما يسأل عن وجهها » .

قالوا : الشعر الحسن يزيد الوجه حسناً وجمالاً ، وقال ابن صارة^(١) - وكأنه وصف طرة هذا الغلام - يصف بها أبا الفضل بن الأعم ، وكان من أجمل الناس وأذكهم^(٢) في علم النحو والأدب ، وقرأ النحو قبل أن يلتحق ، فقال فيه :

أكرم بحعفر اللبيب فإنه مازال يوضح مُشْكِلَ «الإيضاح»^(٣)
 ماء الجلال بخدّه متفرقٌ فالعين منه تجول في ضَحَضَاحٍ^(٤)
 ما خدّه جرحته عيني ، إنما صَبَغَتْ غِلَالَتَهُ دِمَاءُ جِرَاحِي
 لله زائٍ زبرجد في عسجدٍ في جوهرٍ في كَوْنٍ في رَاحِ
 ذى طُورَةٍ سَبْجِيَّةٍ ذى غُرَّةٍ عاجية كالليل والإضباح
 رشاً له خدّ البرى ولحظه أبداً شريك الموت في الأرواح

* * *

[مما قيل في أنواع الحسن والجمال]

ونذكر بعد هذا الجور في العيين ، وهو شدة بياض البياض وسواد الكحل ، وكل ذلك عندهم مدوح . وقد أكره الشعراء من وصف ذلك حتى لو تركنا ذكره لشهرته لكان لنا فيه عذر ، على أننا نلّم ببعض ما قيل في ذلك ، وأما ما يزهّد فيه من ذلك ، ويقلّ ذكره في أشعارهم فالزرق ؛ على أنه قد جاء في حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «الزرق في العيين يُمن» .

(١) ط : « صارمة » ، تصحيف . (٢) فتح الطيب : « وأذكاهم » .

(٣) فتح الطيب ٥ : ٢١٣ ، ٢١٤ ، وكتاب الإيضاح في النحو لأبي علي الفارسي .

(٤) الضحضاح : الماء القليل .

وقال معاوية لضحار العبدي : إنك أحمر ، قال : والذهب أحمر ، قال :
إنك لأزرق ، قال : والبازي أزرق .

ولبعض أصحابنا :

أحبك أن قالوا بعينيك زُرْقَه كذاك عِتاق الطير زُرُق عيونها

وقال الصنوبري :

قالوا به زُرْقَة ، فقلت لهم بذاك تمت خصاله البهجة^(١)
ما كحل العين مثل زُرْقِها كم بين ياقوتة إلى سبجها !

وقال آخر :

ما مثلُ ذا الظبي في الطَّباء الأزرَق الأزرق القَباء
يجول في مقلتيه طرفي في زُرْقَة المـاء والسما
يا أبى الشَّقر ما عليهم من ذلك النُّور والبهاء
شُقْرَة شـعـرٍ على بياضٍ شعاع شمس على هـواء

وكل هذا . اعتذار حامي على وفق مدح سواد الألوان ، لسواد الألوان في
التاسعة فصل مستطرف فقف عليه .

واختلفوا في الحور ، فقال أبو عبيدة : الحوراء : الشديدة بياض بياض العين
في شدة سواد سوادها .

وقال أبو عمرو : الظبية الحوراء : السوداء العين التي ليس في عينها بياض ،
ولا يكون هذا في الإنسان إنما يكون في الوحوش .

(١) يتيمة الدهر

وقال يعقوب : الحور سعة العين وكبر المقلة وكثرة البياض .

وقال قطرب : الحوراء : الحسنة الحاجر ، صغرت العين أم كبرت .

واشتقاق « ح و ر » يدل على صحة قول يعقوب وأبي عبيدة ؛ لأنهم إنما يوقعونه في الغالب على البياض مثل الدقيق الحوارى للدرمك الشديد البياض ونحوه ، وقلمًا يتفق شدة بياض العين إلا مع شدة سوادها ، ألا ترى أن بياضها مع الزرق ليس هناك في النقاء ، وقال القاضى التنوخى في أحور :

حَوْرٌ بعينه أطال تحيّرَى ترك الدموع بجذَى المتعصِفِرِ^(١)
غصنٌ تأوّد فوق عُضْنٍ من ثَقَا ليل تبلّج عن نهارٍ مُسْفِرِ
كالشمس إلا أنه متنفس عن مسكةٍ متبسّمٍ عن جوهرِ

والبَلَج : أن يكون ما بين الحاجبين نقيًا من الشعر ، وهو من علامات السيادة عند العرب ، ويُمدّح به ويُتيمَن بصاحبه ، ويُتَطَيَّر بمقرون الحاجبين ؛ ويقال : أبلج وأبلد ، وهى البلجة والبلدة ، قال كثير :

جميلٌ الحَيَّا أبلجُ الوجه واضحٌ حلِيمٌ إذا ما زلزلته الزَّلَالِرُ
الفَلَج : أن يكون بين منابت الأسنان تباعد ، وقد فاج ثفره فلَجًا ، وهو مستحبٌ في الثغر . قال وجيه الدولة : وهو مما يليق بهذا الموضع لذكره أوصافًا ذكرها الحريرى رحمه الله هنا :

إذا عدم الرّوضَ المنوّرَ ناظِرَى أرانيه ظيٌّ فاطر الطّرف أدعجُ
فصدُّغاه رِيحاني وعيناة ترّجسي ومن ثفره لى أقحوان مفلجُ
وواحرَ بآ من حسن وردٍ بجذّه بَطِيفٌ به من عارضيه بنفسجُ

(١) الأبيات في يتيمة الدهر ٢ : ٣١٨ .

(٢) بعده في اليتيمة :

وأطالَ مِنْ ليلي وقصر ليله أتى سهرت وأنه لم يسهرِ

الجفون : أغطية العيون ، ثم تسمى العين جفناً مجازاً .

والسقم : فتور العين ، ومن حسن التشبيه في ذلك قول أبي نواس :

فطبّ بحدِيث من نديم مساعدٍ وساقية بين الراهق والحلم^(١)
ضعيفة كرت الطرف تحسب أنها قريبة عهد بالإفاقة من سُقم
وقال أيضاً :

وشادنٍ قال لي أنا رأى سقمي

وضعف جسمي والدّمع الذي انسجماً

أخذت دمعك من لفظي ، وجسمك من

خصري ، وسُقمك من طرفي الذي سقمًا

وقال ابن الرومي :

قلبي من الطرف السقيم سقيم لو أن من أشكو إليه رحيم

وقال ابن الزقاق :

ومقلّة شادنٍ أودت بجسمي كأنّ السقم لي ولها لباس^(٢)

يسلّ اللحظ منها مشرفاً لقتلي ثم يغمّده النّعاس

ولأبي العلاء بن زهر في مثل ذلك :

يا راشقي بسهام مالها غرض إلا فؤادي وما منها له عوض

(١) ديوانه ٣٢ ، حاسة ابن الشجري ١٩٥ ، وذكر البيت الثاني وبعده :

تفوق مالي من طريف وتالد تفوق الصّهباء من حلب الكرم

قال : قوله « تفوق مالي » هو من الفوّاق ؛ وهو ما بين الحلبتين .

(٢) ديوانه ١٩٠

(٢٦ - شرح مقامات الحريري ١)

ومرضى بجفونٍ كلها سَقَمٌ صَحَّتْ وفي طبعها التمرِيضُ والمرضُ
 امنن ولو بخيالٍ منك يؤنسُنِي فقد يسدّ مسدّ الجوهر العَرَضُ
 الشمم : ارتفاع في لين الأنف ، وهو من علامات الجمال والسودد ،
 قال الفرزدق :

بِكَفِّهِ خَيْرُ رَأَى رِيحُهُ عَيْقٌ من كَفَّ أَرْوَعَ فِي عِرْزِ نَيْبِهِ شَمَمٌ^(١)
 يُغَضِّى حَيَاءً وَيُغَضِّى مِنْ مَهَابَتِهِ فلا يَكَلُمُ إِلَّا حِينَ يَنْتَسِمُ
 وقال آخر :

في باعه طولٌ وفي وجهه نورٌ وفي العينين منه شَمَمٌ
 وقال النابغة^(٢) :

* شَمَّ العرائن ضرابونَ لِلِهَامِ *

الذهب : اشتعال النار بغير دخان ، فشبهه الحمرة في الخلد وضياؤه بحمرة النار ،
 وكُنِيَ به أبو لهب لجماله .

وقال ابن وكيع : فجمع السُّتَم والذهب :

واحزنى من جفون ظبي أقام عُدْرِي بها عِذارُهُ^(٣)
 أَسَقَمَ جَسْمِي بِسَقَمِ طَرْفِ حَبَّرَنِي فِي الْهَوَى اخْوَارُهُ
 عَجِبْتُ مِنْ جَحْرِ وَجَنَّتِيهِ يَحْرِقُنِي دُونَهُ اسْتِعَارُهُ
 هو اختياري فأبصروه^(٤) شاهدُ عَقْلِ النِّتَى اخْتِيَارُهُ

(١) ديوان الحماسة - بفتح المرزوقي ١ ، ١٦ .

(٢) ديوانه ٧٣ ، وصدره :

* مستحقِّي حَلَقِ الْمَآذَى يَقْدُمُهُمْ *

(٣) يتيمة الدهر ١ : ٣٤٢ ، وفيه : « واحزني » .

(٤) اليتيمة : « هذا اختياري » .

وله قريب منه :

كَأَنَّ صَدْعًا لَهُ تَرَاهُ وَهُوَ عَلَى خَدِّهِ مُدَارٌ^(١)
يَتَّ مِنْ الْحَسَنِ لِي إِلَيْهِ حَجٌّ مَدَى الدَّهْرِ وَاعْتِمَارُ
وَلَا بِنَ الرَّقَاقِ :

بَأَبَى مَنْ لَمْ يَدْعُ لِي لِحْظَهُ فِي الْهَوَى مِنْ رَمِيٍّ مِنْذُرَمَقٌ^(٢)
جَعَلَتْ نَكَبَتُهُ فِي ثَغْرِهِ عَبَقًا فِي نَسَقِي يَسْبِي الْحَدَقَ
وَبَدَتْ خَجَلَتُهُ فِي خَدِّهِ شَفَقًا فِي فَلَقِي تَحْتَ غَسَقِ
وَقَالَ الْخَفَاجِيُّ^(٣) :

يَا بَابَةَ تَهْتَزُّ فَيَنْبَانَةٌ وَرَوْضَةٌ تَنْفَحُ مِغْطَارًا
كَمْ دَمْعَ عَيْنٍ فِيكَ قَدْ أَجْرَبْتُهُ وَقَلْبَ صَبٍّ فِيكَ قَدْ طَارَا
كُنْتُ فَسْتَى قَوْسَهُ حَاجِبًا رَمَزًا وَسَمَى النَّبْلَ أَشْفَارًا
فَإِنْ رَمَى يَجْرَحُنِي طَرَفُهُ لَحْظَتُهُ أَجْرَحُهُ ثَارًا
فِيصْبِغُ الدَّرَّ عَقِيقًا بِهِ وَأَصْبِغُ الْأَلْوَانَ أَزْهَارًا^(٤)
يُدِيرُ لِلْأَعْيُنِ مِنْ وَجْهِهِ كَعَبَّةَ حُسْنٍ حَيْثُمَا دَارَا
قَدْ طَبَعَ الْحَسَنُ بِهِ دَرَاهِمًا تَسِيكُ مِنْهُ الْعَيْنُ دِينَارًا
فَلِي بِهِ عَيْنٌ مَجُوسِيَّةٌ تَعْبُدُ مِنْ وَجَنَتِهِ نَارًا

غيره :

وَأُعِيدُ تَدْنِي وَجَنَتَهُ مِنَ اللَّفْحِ تَخْلُقُ إِلَّا مِنْ صُدُودِي بِالشَّحِّ
غَدَا قَاتِلِي أَنْ ظَلْتُ أَجْرَحُ خَدَّهُ مَتَى صَارَ بِالْقَتْلِ الْقَصَاصُ مِنَ الْجُرْحِ

(١) يَتِيْمَةُ الدَّهْرِ ١ : ٣٣٣ .

(٢) دِيْوَانُهُ ٢٠٨ .

(٣) هُوَ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ خَفَاجَةَ ، وَيُحْمَرُ بِالْخَفَاجِيِّ أَيْضًا ، وَالْأَيَّاتُ فِي دِيْوَانِهِ ١٢٥ ج .

(٤) الدِّيْوَانُ « وَأَصْبَغُ النَّوَارِ » .

الثغور : جمع ثغر وهو السن . وتقدم الشنب في الثانية .

وقال العباس بن الأحنف في طيب النعم :

ذكرتكِ بالتفاح لما شممتُهُ وبالراح لما قابلتِ أوجهَ الشربِ (١)
وتذكرتِ بالتفاح منكِ سوا الفأ وبالراح طعماً من مقبلِك العذبِ

وقال ديك الجن ، واسمه عبد السلام :

بأبي فمٌ شهد الضميرُ له قبل المذاق بأنه عذبُ
كشهادةِ لله خالصةٍ قبل العيان بأنه الربُّ

وقال أحمد بن محمد الغساني :

له مبسمٌ برقته خاطفٌ عقولَ الرجال إذا ما ابتسمَ
أقول له إذ بدا دُرّه شهدنا لصانعه بالحكمِ
أرى الدرّ ثقبه الناظمون وما تقبوا إذا فكيف انتظّم!

وقال أبو بكر البلوي :

تقطُّفٌ من ثمره ووجنته أناملُ الطرفِ زهرةً عجبنا
شقيقها مذهباً يرى خجلاً وأقحواناً مفضضاً شنباً

وقال ابن بشر الكاتب : (٢)

ولم نزل ، والظلام حارسنا جسمين مستودعين في جسم
ألمه في الدجى وبرق ثنا ياهُ يربني مواقعَ اللثمِ

(١) ديوانه ٤٤

(٢) هو الحسن بن علي بن بشر الكاتب ، والأبيات في نهاية الأرب ٢ : ١٠٤

ثم افترقنا عند الصَّباح وَقَدْ أَثَرُ فِيهِ كَهَيْئَةِ الْخَلْمِ

وقال الشريف الرضى :

بَقْنَا ضَجِيعِينَ فِي ثَوْبِي هَوَى وَتَقَى يَلْفَنَا الشَّوْقُ مِنْ فَرَقٍ إِلَى قَدَمِ (١)
وبات بارق ذاك الثَّغر يُوضِح لِي مَوَاقِعَ اللَّثْمِ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلْمِ

وقال المتنبي :

حِسانُ الثَّنِي يَنْقُشُ الْوَشْيُ مِثْلَهُ إِذَا مِسْنَ فِي أَثْوَابِهِنَّ النَّوَاعِمِ (٢)
وَيَسْمُنُ عَنْ دُرٍّ تَقْلُدُنْ مِثْلَهُ كَانَ التَّرَاقِي وَشَّحَتْ بِالْمَبَاسِمِ
فهذه معاني مختلفة في أوصاف الثغر كلها حسان .

* * *

قوله : « والبنان بالترف » ، أى الأصابع باللين والنعمة ، وأحسن ما قيل في ذلك قول النابغة :

بِمَخْضَبٍ رَخْصٍ كَانَ بَنَانُهُ عَنَمٌ يَكَادُ مِنَ اللَّطَافَةِ يُعْقَدُ (٣)
فهذا تشبيهه بديع .

وقال امرؤ القيس :

وَتَعْطُو بِرَخْصٍ غَيْرِ شَنْ كَأَنَّهُ أُسَارِيعُ ظَبْيٍ أَوْ مَسَاوِيكُ إِسْجَلِ (٤)
وقال غيره :

يَا قَرَأَ أَبْصَرْتُ فِي مَأْتَمٍ يَنْدُبُ يَشْجُوا بَيْنَ أَتْرَابِ (٥)

(١) ديوانه ٧٢٣

(٢) ديوانه ٢ : ١١١ ، وفيه : « في أجسامهن » .

(٣) ديوانه ٣٠

(٤) ديوانه ١٧

(٥) لأبي نواس ، ديوانه ٣٦١ ، مختار الأغاني ٣ : ١٣٠

أبرزه الماتم لي كارهاً من بين راياتٍ وحُجَّابِ
بيكى فيذري الدرّ من نرجس ويلطُمُ الورْدَ بعُنَّابِ
وقال عكاشة^(١) :

سقىا لمنزلنا الذي كا به يوم الخميس عشيةً أصْحَابَا
إذ نحنُ نسقأها شمولاً قرَفَا تدعُ الصَّحِيحَ بعقله مُرْتَابَا
من كفّ جاريةً كأنَّ بنانها من فضةٍ قد قُفِّمَتْ عُنَابَا
وكانَ يُمنّاها إذا ضربت بها تُلقِي على يدها الشَّمالَ حِسَابَا
وقال آخر :

وحوراء اللواخطِ بين قلابي وبين جُفونها حَرَبُ البُسُوسِ
تري ماء النِّعَمِ يحولُ فيها كمثل الخمر في صافي الكُثُوسِ
كانَ بنانها أقلام عاجٍ مرصعة الرأسِ بآبنوسِ

ووصف الخصور بالهيف ، وهو الضمر والرقعة ، وسندكر معها ما يستظرف ،
وقد تقدّم قول ابن عبد ربّه :

با مَنْ تَقَطَّعَ خَصْرُهُ مِنْ رِقَّةٍ ما بالُ قلبِكَ لا يكون رقيقاً^(٢)

وقال ابن الرومي :

وَهَبْتَ لَهُ عَيْنِي الْهَجُوعَا فَأَثَابَهَا مِنْهُ الدُّمُوعَا
ظَنُّ كَأَنَّ بِخَصْرِهِ مِنْ ضَمْرِهِ ظَلَمًا وَجُوعَا

(١) هو عكاشة بن عبد الصمد العمي ، منسوب إلى بني العم ، من شعراء الأغاني ،
والأبيات في مختار الأغاني ٤ : ٥٠٨ .
(٢) مطمح الأفس ٥٢ .

وقال عبيد^(١) الله بن عبد الله :

سَلَمَى وما سَلَمَى تَفُوقُ الْمُنَى والحسنَ أوصافاً وألواناً
وَساحها يحسد خَلْخالها كجائعٍ يحسد شَبَعاناً
وقال كشاجم في مقلوبه :

مَسْأَلَةُ الْكَلِّ غَيْرُ بَطْنٍ مَثْقَلٍ فِيهِ عَنَكِيوتُ
حَبَّوْهَا الدَّهْرَ فِي اضْطِرَابٍ وَوَشَحَهَا كَاطِمٌ صَموتُ
وقال حبيب :

مَهْمَا الْوَحْشِ إِلَّا أَنْ هَاتَا أَوَانِسُ قَنَا الْخَطَّ إِلَّا أَنْ تَلَكْ ذَوَابِلُ^(٢)
مَنْ الْهَيْفَ لَوْ أَنْ الْخَلَاخِيلُ صِيَّرَتْ لَهَا وَشُجًّا جَالَتْ عَلَيْهَا الْخَلَاخِلُ
أَخَذَهُ الْقَاضِي ابْنُ لُبَّالٍ فَقَالَ :

جَلُوتَ لَنَا شَيْئًا مِنَ الدَّرِّ عَاطِلًا بَعِيشِكَ لِمَنْ جَنَّبَتْهُ الْجِيدَ وَالذَّخْرَا
فَقَالَتْ وَلَمْ تَكْذِبْ خَشِيتُ سُقُوطَهُ وَأَوَمْتُ إِلَى فِيهَا فَنَظَّمْتَهُ ثَغْرَا
كَذَلِكَ إِنْ عَضَّ السَّوَارُ بِمَقْصَمِي وَحَازَرْتُ أَنْ يَدْمِيهِ حَمَلَتُهُ الْخَصْرَا

وَأَكْثَرُ مَا يَذْكُرُونَ الْخَصْرَ بِالرَّقَّةِ مَعَ ذِكْرِ الْكَلِّ بِالْعِظَمِ ، كَمَا قَالَ
دِيكُ الْجَنِّ :

وَتَمَايَلْتُ فَضَحَكْتُ مِنْ أَرْدَا فِيهَا عَجَبًا ، وَلَيْكِنِّي بَكَيْتُ خَلْصَرِهَا^(٣)
تَسْقِيكَ كَأْسَ مُدَامَةٍ مِنْ كَفِّهَا وَرَدِيَّةٍ ، وَمُدَامَةٍ مِنْ ثَغْرِهَا

وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو حَفْصٍ بْنُ عَمْرِو :

(١) ط : « عبادة » ، وهو عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وأخباره وشعره في
أبن خلكان ١ : ٢٧٣ ، والبيتان في ديوان المعاني ١ : ٢٥٠ .

(٢) ديوانه ٢٥٦

(٣) الأغاني ١٤ : ٥٥ .

مشت كاعصن يثنيه النسيم ويمدوه النسيم فيستقيم
لما ردفت تعلق من ضعيف وذاك الردف لي ولها ظلوم
يعذبني إذا فكرت فيه ويتعبها إذا رامت تقوم
وما حبي لها إلا عذاب عليه من نضارتها نعيم

قوله: «سهوا». أي خطأ. والهامة: الرأس. وإلا فرمى الله جفني بالعمش،
إنما ذكر العمش والنمش وما بعده لأنها أضداد لما تقدم، وعند الإشارة لما يتبين
من الغلام عند الوالى أضدادها، فيزداد حسناً.

* وبضدها تتبين الأشياء * (١)

والعمش: انتشار شعر العينين. والنمش: أخفى من البرش. الجلح: الصلح،
وهو انحسار الشعر من التزعتين، وفعله جَلَحَ الرجل واجْلَحَ، كاسودَّ. والطلع:
قد تقدم في الثانية، وإذا علتة خضرة سُمِّيَ بلحاً. والبحار: نرجس المغرب،
وهو أصفر، والورد أحمر، فدعا له بعلّة تذهب جمال وجهه وتصفّر حمرة خده.
والبخار: كالبخير: التّن. والمسكة: أطيب العطر، فدعا له بتغيير الرائحة. وتقدم
أن أطيب الطيب أنفاس عبقة من كبدي سليمة. وتقدم في الثانية معنى قوله:
«ووردني بالبحار» منظوماً، وقال الصابي في أبجر:

نطق ابن نصر فاستطارت جيفة في العالمين لنتن فيه الفاسد (٢)
فكان أهل الأرض كلهم فسوا متواطئين على اتفاق واحد
وقالت جنان في أبي نواس:

فإذا ما أردت أن تحمد الله على ما أعطى وأولاك شكراً
فليكن ذاك بالضمير فمن سبّح بالفسو نال إنمّا ووزراً

(١) للعتبي ديوانه ١: ٢٢، صدره:

* ونذيمهم وبهم عرفنا فضله *

(٢) يتيبة الدهر ٢: ٢٦٣.

وقال آخر :

أهدى زريق قطه لقمه قد لا كهافى فيه الأبخر
فبادر القط إلى دفنها يحسبها من بعض ما قد خرى

قوله : «وبدرى بالمحق» ، المحاق : أن ينمحق ضوء القمر فلا يبقى منه شيء .
واحتراق الفضة : اسودادها . وشُعاعى بالظلام ، أى صباحة وجهه ووضاءته
بسواد اللحية ، أى عاجلنى الله بالالتحاء ، ويريد بهذا كله أن يكسوَ بياض
وجهه سواد الشعر ، فيكسد ولا يُبْلَغَتْ إليه .

وقال ابن المعتز في مثل هذا الدعاء :

يارب إن لم يكن فى وصله طمع وليس لى فرج من طول هجرته^(١)
فاشف السقام الذى فى طرف مقتلته واستر ملاحه خديته بلحيته
ونقل لفظ احتراق الفضة من قول أبى الحسين النعمانى^(٢) ، وهو من شعراء اليتيمة :
لى حبيب يزهى بحسن عجيب وبقد مثل القضيبي الرطيب
أحدث بالسواد فضة خدي قد أحرقت سواد القلوب

[ذكر العذار والالتحاء]

ونذكر هنا ما يليق بهذا الموضع مما قيل فى العذار وفى الالتحاء مما مدح
به وذم ، قال ابن عبد ربه :

ومعذر نقش الجلال بمسكه خدأ له بدم القلوب مضر جاً^(٣)
لما تيقن أن سيف جفونه من نرجس جعل التجاد بنف جاً

وقال ابن صارة^(٤) :

(١) ديوانه ١ : ٧١

(٢) هو أبو الحسين محمد بن عمر النعمانى الكاتب ، من شعراء العراق ، والبيتان فى
اليتيمة ٢ : ٣٤٦ .

(٣) العقد ١ : ٣٣

(٤) ط : « صارمة » ، تصحيف ، والبيتان فى نهاية الأرب ٢ : ٨٦٨ .

ومعذّر رقت حواشي حسنه
فقلوبنا حذرًا عليه رفاق
لم يكس عارضه السواد وإنما
نفضت عليه سوادها الأخداق^(١)
وقال عبد المحسن الصوري :

ومعذّر العذار إلى فؤادي
لجرم سابق من مُقَلَّتِيهِ^(٢)
وكم أعرضت عنه فأعرضت بي
عن الأعراض خضرة عارضيه
ولما قلت إن الشعر يسقى
لقلبي في الخلاص سقى عليه
وقال أبو القاسم الزاهي :

لولا عذارك ما خلعت عذارى
لكنك في وزر من الأوزار^(٣)
ما كنت أحسب أن أعين أو أرى
تخطيط ليل في بياض نهار
حتى نظرت إلى عذارك فاعتدى
سقم القلوب ونزهة الأبصار
وللمعتمد بن عباد :

تم له الحسنُ بالعذار
واختلط الليل بالنهار^(٤)
أخضر في أبيض تبدى
ذلك آبي وذأ بهاري
لقد حوى مجلى تمامًا
إن يك من ريقه عقاري

وقال ابن حمدون :

ظل على خدّه العذار
فافتضح الأسُ والبهار
وأبيض هذا واسود هذا
واجتمع الليل والنهار
أغض عيني عنه لأنني
عليه من مُقَلَّتِي أَغَارُ

(١) والبيتان أيضا في النخبة ١ : ١ : ١٢٣ .

(٢) يتيمة الدهر ١ : ٢٥٧ .

(٣) يتيمة الدهر ١ : ١٩٩ .

(٤) النخبة ١ - قنن : ١٨ ، ١ - ق ٢ : ١٤ .

فهذا كله حسن في مدح العذار؛ وإن كان التذير بموت الجمال، فإذا تقوى العذار واسود؛ صاروا إلى نعيه، كما قال أبو بكر البلوي:

انظرْ إلى مَيِّتٍ وَلَكِنَّهُ خَلَوْا مِنَ الْأَكْفَانِ وَالْعَاسِلِ
قد كتب الدهر على خدّه بالشعر: هذا آخرُ الباطِلِ

وله في ضده:

لَمَّا التَّحَى مَنْ قَدْ هَوَيْتُ وقلت رسمٌ قد دَرَّ
عَايَنْتُ مِنْ طَلَّابِهِ زُمْرًا مُوَاصِلَةً زُمْرِ
وكذاك أصحاب الحديث نفاهم عند الكِبَرِ

وكما قال أبو الحسن بن الحاج:

أَبَا جَعْفَرٍ مَاتَ فِيكَ الْجَمَالُ فَأَظْهَرَ خَدَّكَ لُبْسَ الْحِدَادِ
وَقَدْ كَانَ يَنْبِتُ زَهْرَ الرِّيَاضِ فَأَصْبَحَ يُنْبِتُ شَوْكَ الْقَتَادِ
أَبْنِ لِي مَتَى كَانَ بَدْرُ السَّمَاءِ يُدْرِكُ بِالْكُونِ أَوْ بِالْفَسَادِ
وَهَلْ كُنْتَ فِي الْمَلِكِ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ فَأَخَى عَلَيْكَ ظَهْرُ الْقَسَادِ
وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ حَمِيدٍ فِي غِلَامِ التَّحَى:

هَلَّا وَأَنْتَ بِمَاءِ وَجْهِكَ يُسْتَقَى رَوْضُ الشَّبَابِ قَلِيلُ شَعْرِ الْعَارِضِ
فَالآنَ حِينَ بَدَتْ بِخَدِّكَ لَحْيَةٌ ذَهَبَتْ بِحُسْنِكَ مَلءَ كَفِّ الْقَابِضِ
مِثْلَ السَّلَافَةِ عَادَ خَمْرُ عَصِيرِهَا بَعْدَ اللَّذَازَةِ مِثْلَ خَلِّ الْحَامِضِ
وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ بِسَامٍ فِي أَخِيهِ جَعْفَرٍ^(١):

يَا مَنْ نَعْتُهُ إِلَى الْإِخْوَانِ لَحْيَتُهُ أَدْبَرَتْ وَالْدَّهْرُ إِقْبَالُ
قَدْ كُنْتَ مِمَّنْ يَهْشَى النَّاضِرُونَ لَهُ تُفَضُّ دُونَكَ أَسْمَاعٌ وَأَبْصَارُ
أَيَّامُ وَجْهِكَ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهُ وَلِلرِّيَاضِ عَلَى خَدِّكَ أَنْوَارُ

(١) هو علي بن محمد بن بسام البغدادى، والأبيات في القهيرة ١ - ق ١: ١١٩.

فيا لدهرٍ مضى ما كان أحسنه إذ أنت ممتنعٌ، والشرط دِينَارُ
حانت منيته فاسودَّ عارضه كما تُسودُّ بعد الميت الدَّارُ
وفيه يقول أيضاً :

حانت وفاتك يا أبا العباس فدع المكاس فلات حين مكاس
ما بال وجهك بعد كثرة نُوره قد سودَّوه بحالك الأنفاس !
أين الدنانير التي عودنها هيَّهات جاء الشعر بالإنفاس
كانت بخدَّ ثيابه ديباجة فاستبدلت حلساً من الأحلاس
وكذا البناء فقير مرتفع إذا كانت بليته من الآساس
وقال مُصعب المالحن :

قد ضافت أقطار خدك لحية تركته وهو مسودُّ الأقطار
فكان خط الشعر في جنباته ليل أقام على نجومٍ أو نهار

وكان لمحمد بن بشر بابان يُدخل من الأَكبر أصحابه ، ومن الأصغر أحبابه
فجاء يوماً غلامٌ مليح ، وأراد الدخول من الأصغر على عادته ، فنزع ، فجعل يخاصم
البواب لإدلاله ، فبلغ ذلك ابن بشر ، فكتب إليه :

قل لمن رامٍ بجهل مدخل الطَّبيِّ القَرير
بعد أن علق في خديب مَخْلَلةَ الشَّعير
لَيْتَهُ يَدْخُلُ إن جا من البابِ الكبير

وقال ابن الأَبَر :

لست بُصابٍ إلى معذَر بل أنا في حُيِّهِ معذَر
لا أعشق الطَّبيِّ ذا الجام لأنه في الطَّباء منكَر

أَحْسَنُ مَا فِيهِ أَنْ تَرَاهُ بَيْنَ مَهَابَةٍ وَبَيْنِ جَوْذَرٍ

نَظَرُ قَوْلِهِ : «لَأَنَّهُ فِي الظُّبَا مُنْكَرٌ» إِلَى قَوْلِ حَبِيبٍ :

تَعُشُّقُكَ الْكِبَارَ يَدُلُّ عِنْدِي عَلَى أَنَّ الرِّحَى قَلْبِي تَفَالَا^(١)
وَقَالَ آخَرُ :

لِي فِي أَبِي يَحْيَى وَمَعشُوقِهِ شَغْلٌ عَلَى ذِي شَغْلٍ شَاغِلُ
يَا لَيْتَ شَعْرِي قَوْلَ ذِي حَيْرَةٍ مَنْ مِنْهُمَا الْمَفْعُولُ وَالْفَاعِلُ !

وَقَالَ ابْنُ حَصِينٍ فِي مُحَبَّبٍ صَغِيرٍ :

بِأَبِي ظَهِي صَغِيرِ السِّنِّ حَازَتْ ثَلَاثَ سَيِّئِي
سَرَّانِي أَنْ لَيْسَ يَدْرِي مَذْهَبِي فِيهِ وَفَنِّي
فَهُوَ يَدْعُونِي عَمَّا وَأَنَا أَدْعُوهُ بِأَبْنِي
وَاللَّخْبِزَ أُرْزَى :

قَالُوا عَشَقْتَ صَغِيرًا قُلْتُ أُرْتَعُ فِي رَوْضِ الْحَاسَنِ حَتَّى يُدْرِكَ الثَّمَرُ^(٢)
رَبِيعَ حَسَنِ دَعَانِي لِاتِّبَاعِ هَوَى
وَقَالَ التَّنُوخِيُّ فِي جَسِيمٍ :

مَنْ أَيْنَ أُسْتَرِ وَجْدِي وَهُوَ مِنْتَهَكٌ مَا لِلْعَتِيمِ فِي نَيْلِ الْهَوَى دَرَكُ^(٣)
قَالُوا عَشَقْتَ عَظِيمَ الْجِسْمِ قُلْتُ لَهُمْ
وَالْفَقِيهِ ابْنُ حَزَمٍ :

وَذِي عَذَلٍ فَيَمُنُ سُبَّانِي حَسَنُهُ يُطِيلُ مَلَامِي فِي الْهَوَى وَيَقُولُ^(٤) :

(٢) يَتِيْمَةُ الدَّهْرِ : ٣٣٨ .

(١) دِيْوَانُهُ ٤ : ٤٢٠ (طَبْعُ الْمَعَارِفِ)

(٤) الذَّخِيرَةُ ، الْقِسْمُ الْأَوَّلُ ١ : ١٤٧ .

(٣) يَتِيْمَةُ الدَّهْرِ ٢ : ٣١٨ .

أفنى حسن وجهٍ لاح لم تر غيره
فقلتُ له: أسرقتَ في اللّوم ظاهراً
ألم تر أنّي ظاهريٌّ وأنّي

وأحسن حبيبٍ حين قال :

قال الوشاةُ بدا في الخلد عارضه
الحسن منه على ما كنتُ أعهده
أحلّى وأعذب ما كانت شمائله
وصار من كان يلجى في مودته

وقال الحلواني :

قالوا التحى فاتحت بالشعر بهجته
خطت يد الحسن فيه فوق وجنته
قلت : لولا الدجى لم يحسن القمر^(١)
هذى محاسن - يا أهل الهوى - آخر

وله أيضاً :

لى حبيب إذا شكوت إليه
لست أدعو بالشعر غيظاً عليه
سامنى بالهوى عذاباً شديداً^(٢)
غير أنّى أدعو بقلبٍ ترجى

وقال غيره :

قد حلّ في سوق الكساد
كأنما الشعر فيه زرع
مذ لاح في خدك السواد^(٣)
والنتف منه له حصاد

(١) ديوانه ٤٣٢ ، وفيه : « لا تكثرُوا » .

(٢) نهاية الأرب ٨٥:٢ ، من غير نسبة الذخيرة ٤ - ١ : ٢٢٠ .

(٣) الذخيرة ٤ - ١ : ٢٠٠ (٤) الذخيرة ٤ - ١ : ٢٢٢ ونسبها إلى الحلواني أيضاً .

وقوله : « ودواتي بالأقلام » ، أي ابتلاه الله أن يلاطبه ، قال الفنجدية :
أنشدني بعض الشعراء بمزوروز لبعضهم :

دوادار الأمير له دواة كمثل الياسمين بغير صُوفٍ
بُرى قلم الأمير بغوصٍ فيها مغاص عصيدة في حلق صوفي
ونقل لفظ الدواة والأقلام من قول ديك الجن ؛ وكان يهوى غلاماً من
حُص ، اسمه بكر ، جلس معه ليلة يتحدث بها حتى غاب القمر ، فقام بكر
لميشي ، فقال :

دع البدر فليغربْ فأنت لنا بدرُ إذا ما تجلَّى عن محاسنك الشَّفرُ^(١)
إذا ما انقضى سحر الذين يبابلُ فأنت لنا سحرٌ وريقك لي خمرُ
ولو قيل لي قم فادع أحسنَ مَنْ ترى

لصحت بأعلى الصوت : يا بكرُ يا بكرُ !

وكان هذا الغلام شديد التصاون والتمتع ، فاحتال عليه قومٌ من حُص ،
فأخرجوه إلى متنزّه ، فأسكروه وفسقوا به ، فبلغ ذلك ديك الجن فقال :
يا بكرُ ما فعلت بك الأَرْطَامُ يا دارُ ما فعلت بك الأيامُ^(٢)
في الدار بعدُ بقية نستمها أم ليس فيك بقية نُسْتَمُ
شغل الظلامُ كراكَ في أبوابهم^(٣) فتفرغت لدواتك الأقلامُ
وله فيه أيضاً :

قولا لبكر بن مهدي إذا اعتكرت

عسا كر الليل بين الطَّامِسِ والجَّامِ^(٤)

(١) الأغاني ١٤ : ٦٠ ، وفيه : « من عاسنك الفجر » .

(٢) الأغاني ١٤ : ٦٢ ، وفيه : « ما فعلت بك الأبطال » .

(٣) الأغاني : « في ديوانه »

(٤) الأغاني ١٤ : ٦٢ ، وفيه : « قولا لبكر بن دهمرد » .

ألم أقل لك إن الكبر مهلكة
قد كنت تفرق من سهم تعابنه^(١)
وكنت تفرع من لمس ومن قبل
إن تدم نخداك من ركض فربتما
والبني والعجب إفساد لأقوام
فصرت غير رميم رقعة الراي
فقد ذلك لإسراج وإلجام
أمسى وقلبي منك الموضع الدامي

قال أبو علي بن رشيقي: كنت أوصي غلاماً وضيئاً، كان يختلف إلى،
وأحذره من كثرة التخليط، فخرج يوماً في جماعة من أصحابه، فأوقع به،
فأخبرت بذلك، فقلت:

ياسوء ما جاءت به الحال
ما أخطئ الناس بصوغ الخنا
إن كان ما قالوا كما قالوا
صيع من الخاتم خلخال
وهذا من قول ابن المعتز:

مضى خالد والمال تسعون درهما
وآب ورأس المال ثلث الدراهم^(٢)

وهذا المعنى الخبيث يتبين بعقد التسعين والثلاثين في اليد.

وقال ابن رشيقي:

سقطت ثنيته فأوجع قلبه
فإذا مررت به فسل فؤاده
لسقوطها وجرى عليه عظيم^(٣)
عنها وقل صبراً كذاك الريم
والسلك لا واه ولا مفصوم
أبدأ بخاتم ربه مختوم
عجبا للؤلؤة هوت من سلكها
أتمدياً يا خطب وهو مصون

(١) الأغاني: «لغانية»

(٢) نقله في التنف ٥٨.

(٣) نقله في التنف ٦٥.

ويستحبّ لمن وُسم بوسمة الجمال ، أن يكون شديد التصاؤن ، قليل التبدّل ، فذلك أدعى للسلامة ، وقد قال ابن وكيع في ذلك :

قالوا عشقت كثير البخل ممتنعاً فقلت : هيهات عنكم أطيئُهُ^(١)
لو جادهان ، وقلت الجود عادتهُ وإنما عزّ لَمَّا عزّ مطلبُهُ

فإذا تبدّل وأجاب كل من دعاه صار عرضةً للظنون ، ونبت عن محاسنه العيون ، لأنّ النفس الحرّة لا تنفك من غيرة ، وقد قال العباس بن الأحنف :

يا قوم لم أجزكم لللالة مِنّي ولا لمقالٍ واشٍ حاسدٍ^(٢)
لكنني جربتكم فوجدتكم لا تصبرون على طعام واحدٍ

وقال أبو الوليد بن حزم :

لَمَّا استمالك معشرٌ لم أرضهم والقول فيك كما علمت كثيرُ
داويتُ دونك مُهجتي فماسكتُ من بعد ما كادبت إليك تطيرُ
فأذهب فقير جوانحي لك منزلُ واسمع فقير وفائيك المشكورُ
وله أيضاً :

يقول وقد لمتّه في الهوى فلان، وعرضت شيئاً قليلاً :
أتحمدني؟ قلت : لا، والذي أحلك في الحب مَرَعِي وبَيْلا
وكيف وقد حلّ ذاك الإزارُ وقد سلك الناس تلك السبيلاً

(١) بئيمة المهر ١ : ٣٣٧

(٢) ديوانه ١٠٦ ، الزهرة ١٥٠ ، الأغاني ١٥ : ١٣٧ (ساسي) ، الشعر والشعراء

وقال محمد بن السري :

قايسْتُ بين جماله وفعاله فإذا الملاحَةُ بالخيانةِ لا تَنفِي ^(١)
والله لا كلمته ولو أنه كالبدْرِ أو كالشمس أو كالسكتني

وقال آخر :

أيا حسناً أزرْتُ قبائح فعله عليه كما أزرى الكسوف على البدرِ
لقد فُتَّتْ كلَّ الناس حسناً وزينةً ولكنما قَبَّحَتْ ذلك بالفدرِ

وقال ابن عيينة :

ضيعت عهد فتى لمهدك حافظٌ في حفظه عجبٌ وفي تضيقك
إن تقتليه وتذهبي بفؤاده فبحسن وجهك لا بحسن صنيعك

* * *

فقال الغلامُ : الاضطِلَاءُ بِالْبَلِيَّةِ ، وَلَا الْإِيْلَاءُ بِهِذِهِ الْآلِيَّةُ ،
وَالْإِنْقِيَادَ لِلْقَوْدِ ؛ وَلَا الْحَلْفَ بِمَا لَمْ يَخْلِفْ بِهِ أَحَدٌ . وَأَبَى الشَّيْخُ
إِلَّا تَجَرِيْعَهُ الْيَمِينَ الَّتِي اخْتَرَعَهَا ، وَأَمَرَ لَهُ جُرْعَهَا . وَلَمْ يَزَلْ
التَّلَاحِي يَدْنُهُمَا يَسْتَعِيرُ ، وَحَجَّةُ التَّرَاضِي تَعْرِ ، وَالْغُلَامُ فِي ضَمَنِ
تَأْيِيهِ ، يَخْلُبُ قَلْبَ الْوَالِي بَتْلَوِيهِ ، وَيُطْمِعُهُ فِي أَنْ
يُبَلِّيهِ ، إِلَى أَنْ رَانَ هَوَاهُ عَلَى قَلْبِهِ ، وَأَبَّ بِلُبِّيهِ ،
فَسَوَّلَ لَهُ الْوَجْدُ الَّذِي تِيَمُهُ ، وَالطَّمَعُ الَّذِي تَوَهَّمُهُ ، أَنْ

(١) إنباه الرواة ٣ : ١٣٧ ، ابن خلكان ١ : ٥٠٣ ، وبعده هناك :

حلفت لنا ألاَّ نَحْنُوْنَهُمُودَنَا فكأنما حلفت لنا ألاَّ تَنفِي

يُخَلِّصُ السَّلَامَ وَيَسْتَخْلِصُهُ ، وَأَنْ يُنْقِذَهُ مِنْ حَبَالَةِ الشَّيْخِ
ثُمَّ يَقْتَتِصَهُ .

قوله : « الاصطلاء » ، أى الاتصال والتلبس . والبلية ، أراد دعوة الباطل
التي ادعى عليه الشيخ . والإيلاء : الحلف . والألّية : اليمين . والقود : قتل النفس
بالنفس ، فيقول : الصبر على الضرب أو القتل أهون من هذه اليمين التي لم يحلف
بها أحد اخترعها : استنبطها . أمقر : أمر ، من المقر ؛ وهو الصبر .

[من ألوان من الحلف]

وهذه اليمين المخترعة ، حكى الأصمعيّ شبهها ، فقال : اختصم أعرابيان عند
بعض الولاة في دين ، فجعل المدعى عليه يحلف بالطلاق والعتاق ، فقال المدعى :
دعني من هذه الأيمان ، واحلف بما أقول لك ، فقال : ما قولك ؟ قال : قل : لا ترك
الله لك خفًا يتبع خفًا ، ولا ظلفًا يتبع ظلفًا ، وحتك من أهلك وولدك ، كما
يُحاتّ الورق من الشجر ؛ إن كان بقي لي هذا الحق قبلك . فأعطاه حقه ولم
يحلف له .

وحكى المسعودي أن الفضل بن الربيع قال : صار^(١) إلى عبد الله بن مصعب
ابن ثابت بن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ، فقال : إن موسى بن عبد الله
ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب قد أرادني على بيعته ، فأخبرت
الرشيّد بذلك ، فجمع بينهما ، فقال الزبير لموسى : سعيتم علينا ، وأردتم نقض
بيعتنا ودولتنا ، فقال له موسى : ومن أنتم ! فغلب الرشيّد الضحك حتى رفع
رأسه إلى السقف لثلا يظهر منه الضحك ، ثم قال موسى : يا أمير المؤمنين ، هذا
المشتنع على ، خرج مع أخى محمد على ذلك المنصور ، وهو القائل [من أبيات]^(٢) :

قوموا ببيعتهكم نهض بطاعتنا إن الخلافة فيكم يا بني الحسن

(١) ط : « سار » ، وما أثبتته من ا ، ب . (٢) من المسعودي .

ولست سعايته حُبًّا لك ، ولا مراعاةً لدولتك ؛ ولكن بغضاً لنا جميعاً أهل البيت^(١) ، وأنا أستحلفه بيمين ، فإن حلف بها أتت قات ذلك ، فدمى حلال لأمر المؤمنين . فقال له الرشيد : احلف له يا عبد الله ، فامتنع ، فقال له الفضل : لِمَ تمتنع وقد زعمت أنه قال ما ذكرته ؟ قال : فإنى أحلف له ، قال موسى : قل : تقلدت الحول والقوة دون حول الله وقوته إلى حولي وقوتي ، إن لم يكن ما قاله حقاً . لحلف له ، فقال موسى : الله أكبر ! حدثني أبي عن أبيه ، عن جده ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما حلف أحد بهذه اليمين وهو كاذب إلا عجل الله له العقوبة قبل ثلاث » ، وهأنذا بين يدي أمير المؤمنين في قبضته ، فإن مضت ثلاث ولم يحدث له حادث ، فدمى حلال لأمر المؤمنين .

قال الفضل : فوالله ما صليت العصر في ذلك اليوم ، حتى سمعت الصراخ من داره^(٢) . فدخلت عليه ، فوالله ما كدت أعرفه : لأنه صار كالزُّق العظيم ، ثم اسودَّ حتى صار كالنَّحَم ، فعرفت الرشيد في الحين ، فما انقضى كلامنا حتى عرفنا أنه قد مات ، فبادرت بتعجيله ، وتوليت الصلاة عليه . فلما وُورى في قبره انخسف به ، وخرجت رائحة مفرطة الذن ، ومرَّت أحمال شوك على الطريق ، فأمرت بها فطرحت في قبره ، فانخسف ثانية ، فأمرت بالواح ساج ، فطرحته على قبره وألقى التراب عليها ، وانصرفت ، وأعلمت الرشيد . فأكثر التعجب ، وأحضر موسى ؛ فأعطاه ألف دينار ، وقال له : لِمَ عدلت عن اليمين المتعارفة عند الناس ؟ فقال : أخبرت بالسند المتقدم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من خلف بيمين كاذبة تجد الله فيها ، استحيا الله من تعجيل عقوبته ، ومن حلف بيمين كاذبة نازع الله فيه حوله وقوته إلا عجل الله له العقوبة قبل ثلاث^(٣) » .

* * *

قوله : « التلاحى » ، السباب والتشائم . على رضى الله عنه ، قال النبي صلى الله

(١) بعدها في المسمودى : « ولو وجد من ينتصر علينا جميعاً لكان معه ، وقد قال باطلاً :

(٢) ب والمسمودى : « من دار عبداً » .

(٣) الخبر في المسمودى ٣ : ٣٥١ - ٣٥٣ .

عليه وسلم : « من لاحى الرجال سقطت مروءته وذهبت كرامته ، وما زال جبريل ينهاني عن ملاحاة الرجال كما ينهاني من عبادة الأوثان » . وفى المثل : من لاحاك فقد عاداك .

يستمر : يتقد . محجة التراضى : أى طريق الرضا . تعرُّ : تصب . وفى ضمن تأنيبه ، أى فى أثناء كلامه وامتناعه . يخلب : يخدع ويأخذ قلبه . تلويته : انعطافه . يطعمه : يدعوه للطعم . يلبّيه : يجيبه لمراده . وران : غلب وغطى . أبو هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أذنب العبد نُكُت فى قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب صقلت ، وإن عاد زادت حتى تعظم فى قلبه ، فذلك الران » ، قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾^(١) .

ألب : أقام . لبه : عقله . سؤل : زين . الوجد : حرقه القلب . تيمه : عبده وذلك ، والتميم : المستعبد لهواه . توهمه : ظنه . يستخلصه : يختصه لنفسه . حباله : آلة الصيد . يقتنصه : يصيده ؛ يقول : إنَّ هذا الغلام فى أُمِّاء كلامه بالتمنع وترك الانقياد للشيخ يُطعم الوالى فى الانقياد له ، وإنه إذا دعاه لما يريد منه أجابه ، وإنما فعل هذا حين رأى إدامة نظر الوالى فى وجهه ، واستحسانه كلامه ، ولو فسر الوالى حال الغلام بمنظومٍ لأنشد :

يهدى لك الدر من لفظٍ ومبتسمٍ ضربان : منتشر منه ومنظومٌ
يجنى الذنوب ، وأحنو أن أوأخذه من أجل ذلك قيل الحسن مرخومٌ
ولأنشد إذا غلب عليه هواه :
مراك مراك لا شمس ولا قررٌ وورد خديك لاورد ولا زهر^(٢)
فى ذمة الله قلب أنت ساكنه إن بنت بان فلاعين ولا أثرٌ
لولا محلك من قلبى لما أسفت نفسى عليك ، فرقاً أيها القمر
هذه الأبيات لأبى الوليد بن حزم ؛ وقد كرر معنى البيت الأخير فقال :

(٢) نفح الطيب ٤ : ٤ .

(١) المطدفة ١٤

أذكيت من قلبي بنائك لوعةً حتى خشيت على محلك فيه

ومما يتعلق بهذا المعنى قول الآخر :

وإنا رماني بالسهم تُمُداً وفيها نصال الهجر حتى امتلا صدري

فقلت له لا ترم قلبي فإنه مكانك والمرمى أنت ولا تدري

وقال آخر :

حملتك في قلبي فهل أنت عالم بأنك محمول وأنت مُقِيم !

ألا إن شخصاً في فؤادي محله وأشتاقه ، شخصٌ على كريم

وقال التهامي :

قلبي فداؤك وهو قلبٌ لم يزل تُذَكِّي شهاب الشوق في أنثائه^(١)

جاورته شرّ الجوار وزرته لما حلت فناءه بفنائيه

حرق سوى قلبي ودعه فإنتى أخشى عليك وأنت في سودائه

وقال آخر :

أودع فؤادي حرقاً أودع نفسك تؤذى أنت في أضلعي

أمسك سهم اللحظ أو فارمها أنت بما ترى مصابٌ معي

موقعها القلبُ وأنت الذي مسكته في ذلك الموضع

* * *

فقال للشَّيخ : هَلْ لَكَ فِيما هُوَ الْبَقُ بِالْأَفْوَى ، وَأَقْرَبُ

لِلتَّقْوَى ! فقال : إلام تُشِيرُ لِأَقْتَفِيهِ ، وَلَا أَقِفُ لَكَ فِيهِ ؟ فقال :

أَرَى أَنْ تُقْصِرَ عَنِ الْقِيلِ وَالْقَالَ ، وَتَقْصِرَ مِنْهُ عَلَى مائَةِ مِثْقَالٍ ،

(١) ديوانه ٨٨ .

لَا تَحْمَلْ مِنْهَا بَعْضًا ، وَأَجْتَبِ الْبَاقِيَ لَكَ عَرْضًا ، فَقَالَ الشَّيْخُ :
مَا مِنِّي خِلَافٌ ، فَلَا يَكُنْ لَوْعَدِكَ إِخْلَافٌ ، فَتَقَدَّه الْوَالِي عِشْرِينَ ،
وَوَزَعَ عَلَى وَزَعَتِهِ تَكْمَلَةً خَمْسِينَ . وَرَقَّ ثَوْبُ الْأَصِيلِ ، وَانْقَطَعَ
لِأَجْلِهِ صَوْبُ التَّحْصِيلِ ، فَقَالَ لَهُ : خُذْ مَارَاجَ ، وَدَعْ عَنْكَ اللَّجَاجَ ،
وَعَلَى فِي غَدٍ أَنْ أَتَوَصَّلَ ، إِلَى أَنْ يَنْضَ لَكَ الْبَاقِي وَيَتَحَصَّلَ ،
فَقَالَ الشَّيْخُ : أَقْبَلُ مِنْكَ عَلَى أَنْ أَلْزِمَهُ لَيْلَتِي ، وَيَرْعَاهُ إِنْسَانٌ
مُقَلَّتِي ، حَتَّى إِذَا أَعْنَى بَعْدَ إِسْفَارِ الصُّبْحِ ، بِمَا بَقِيَ مِنْ مَالِ
الصُّلَحِ ، تَخَلَّصْتَ قَائِبَةً مِنْ قُوبٍ ، وَبَرِيءٌ بِرَأَةِ الذُّئْبِ مِنْ
دَمِ ابْنِ يَعْقُوبَ ، فَقَالَ لَهُ الْوَالِي : مَا أَرَاكَ سُمْتَ شَطَطًا ، وَلَا
رُمْتَ فَرَطًا .

قال الحارث بن همام : فَلَمَّا رَأَيْتُ حُجَجَ الشَّيْخِ كَالْحُجَجِ
السَّرِيجِيَّةِ ، عَلِمْتُ أَنَّهُ عِلْمُ السَّرُوجِيَّةِ

* * *

قوله : « أليق » أى أشكل وأصقل . بالأقوى : بصاحب القوة . والذي
هو أقرب للتقوى ، هو العفو لقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (١) .
أفتفيه : أتبعه . لا أقف لك فيه ، أى لا أتوقَّف فيما تشير به . تُقصر : تكف . عن
القول والقال ، أى عن كل كلام . أجتبى : أجمع . عَرْضًا : كل ما ليس فيه
روح من الأمتعة غير العين ؛ وهو ليس بنقد من السَّاعِ التي يُتجر فيها من متاع
ورقيق وغير ذلك . أحمَل : أضمن ، وفلان حميل بكذا ، أى ضامن له . إخلاف :
كذب وعد . نقده : أعطاه نقدًا . وُرِّع : فُتق . وزَعَتُهُ : شُرطته الذين يكفون

(١) سورة البقرة ٢٣٧ .

عنه الناس ، واحدهم وازع مثل كافر وكفرة ، وقد وزعته وَزَعًا كففته ، وأيضاً دفعته . وقال الحسن البصري رحمه الله : لا بدّ للسلطان من وَزَعَةٍ . الأصيل العشيّ . وثوبه : ضوء الشمس ، وهو في ذلك الوقت رقيق . صَوْب : وقع ، وصاب السهم صوباً وصيّباً : وقع بالرماية ، وصاب السحاب الموضع : أمطر . والاحتصيل : أن يحصل بقية المال . راج : حضر وتيسر ، ويقال : راج الشيء رَوْجاً فهو رائج إذا جاء جاء سريعاً . قوله : « إنسان مقلتي » ، أي سواد عيني . يرعاه : يحفظه وينظره . أعنى : أتى بالبقية ، والعفاوة : بقية المرق في القدر . تخلّصت : انفصلت . والقائبة : البيضة . والثوب : الفرخ ، وهذا مثل يضرب للرجلين يفترقان بعد الصّحبة ، وجاء مقلوباً لأن الذي يفصل ويخرج إنما هو الفرخ من البيضة ، والثوب ، من تقوّب الشيء إذا انتشر ، ومنه القوباء لداء الحزاز^(١) . وابن يعقوب هو يوسف عليهما السلام ، وبراءة الذئب من دمه ، هو ما يحكى أن إخوته لما جاءوا إلى أبيهم ليكون على يوسف ، علموا أنه لا يصدّقهم ، فاصطادوا ذئباً فلطّخوه بدم ، وأتوه ليكون ، وقالوا له : هذا الذئب قد ضرّى ، أكل أغنامنا وأكل يوسف أخانا ، قال لهم : أطلقوه ، ودعا الله يعقوب أن ينطقه له ، فقال للذئب : ادن مني ، فجعل يبصص بذئبه ويدنو منه ، حتى وضع خده على نخذ يعقوب ، فقال له : لم أكلت ابني ، وجعّفتني فيه ؟ فقال : لا والله يا نبي الله ، ما رأيته ولا أكلته ، ولما لغريب في أرضكم اليوم ، وصلت من مصر في طلب أخ لي فقدته ، فأوثقتي هؤلاء وساقوني إليك ، فقال لهم يعقوب عليه السلام : الذئب مع أخيه أوثى منكم مع أخيك .

قوله : « مُت » : أي كَلَمْتُ . شَطَطاً : شيئاً بعيداً ، والشَّطَط : مجاوزة القدر . ورمت فَرَطاً : طلبت شيئاً متفواتاً ، وكيف لم يسمّه شططا ، وقد حرّمه لذة ليلة مع هذا العلام أحسن من ليلة الخفاجي^(٢) حيث يقول :

(١) في القاموس : الحزاز ؛ ككتاب : وجع في القلب من غيظ أو نحوه .

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن خناجة الأندلسي ، صاحب الديوان المنسوب إليه .

وليلة طَلَقَةٍ قَضَيْتُ من موعدٍ للحبيب دِينًا^(١)
 بَتْنَا نَجْرَ الذِيُولِ فِيهَا والخر تَمْشِي بنا الهويَى
 أَرْسَلْ فِي رَوْضٍ وَجَنَّتِيهِ لِحِظَةِ عَيْنٍ تَفِيضُ عَيْنًا
 كَأَنَّمَا اللَّحْظُ كَيْمِيَاءُ تَذْهَبُ مِنْ وَجْهِ لُجَيْنَا
 وَمَا تَوَهَّمْتُ أَنْ طَرَفَا يَظْلِبُ عَيْنَ اللّجِينِ عَيْنًا

أو ليلة الآخر حين يقول :

لَمَّا رَأَى مَنْ ظَلَّتْ فِيهِ مَتِيًّا جَسْمِي ضَيْلًا وَالْفَوَادِ مَوَلَّيًّا
 جَادَتْ شِمَائِلُهُ عَلَى بَلِيلَةٍ أَهْدَتْ إِلَى الصَّبِّ الْمَعْنَى مَا شَتَّيَتْ
 عَانَقَتْ فِيهَا الْبَدْرَ لَيْلَةً تَمُّهُ يَا مَنْ رَأَى بِدْرًا يَعَانِقُهُ الشَّمَا !

[ذكر أحمد بن سريح أحد أئمة الشافعية]

قوله: «الحجج الشريحية» منسوبة إلى أحمد بن سريح، وهو من كبار أصحاب الشافعي، وكان حسن الاحتجاج، مليح المناظرة.

وقال الفنجديهي: الشريحية منسوبة إلى الإمام أبي العباس أحمد بن عمر ابن سريح إمام أصحاب الشافعي على الإطلاق، ومن لانفس ذات درّ بمثله في الآفاق، حججه في أحكام الشرع أوضح الحجج، وأقواها وأمتنها على مرور الأيام والحجج، وكان يلقب بالبازي الأشهب، وبالشافعي الثاني، لتبجّره في استنباط المعاني، من غوامض الأخبار والمثاني، دلائله في فنون العلم متينة، وبراهينه مبيّنة. وقال: رأيت في المنام كأننا أمطرنا كبريتاً أحمر، فلاتُ كُتْمِي وحجري وجيبي منه، فعبّرتُ أني أرزقُ علماً غزيراً كِعِزَّةِ الكبريت الأحمر.

وَمُسَمِّعٌ يَتَمَثَّلُ بِهِذِهِ الْأَيَّاتُ :

(١) ديوانه : ٣٤٠ ، المغرب ٢ : ٣٦٩

فلا تحسد الكلب أكلَ العظامِ فعند الخسارة ما ترحة
تراه وشيكاً شيكاً إسته كلوما جناها عليه فمه
إذا ما أهان امرؤ نفسه فلا أكرم الله من بكرمه

وكان يناظر محمد بن داود ، فقال له ابن داود يوما وقد أكثر عليه
السؤال : أبلغني ربي ، فقال له : قد أبلغتك الدجلة والفرات ^(١) .

وقال له مرة : أمهلني ساعة ، فقال : قد أمهلتك من الساعة إلى أن تقوم
الساعة ^(٢) .

وقال له ابن داود يوما : أكلك من الرّجل وتجيئني من الرأس ! فقال له :
كذلك البقر إذا حفيّت أظلافها ، وهنت قرونها .

واجتمع أبو العباس بن سريج وأبو بكر بن داود الأصبهاني في مجلس
عيسى بن الجراح الوزير ، فتناظرا في الإيلاء ، فقال ابن سريج : أنت بقولك : من
كثرت لحظاته ، دامت حسراته ، أبصر منك في الكلام في الإيلاء ، فقال له
ابن داود : لئن قلت ذلك ، فإني أقول :

أنزه في روض الحاسن مقلتي وأمنع نفسي أن تنال محرمًا ^(٣)
وأحمل من ثقل الهوى مالو أنه يُصبّ على الصخر الأصم تهدما
ويَنطقُ طرفي عن مترجم خاطري فلولا اختلاسي ردّه لتكلما
رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم فلست أرى حبا صحيحا مسلما

وقال له ابن سريج : بم تفتخر ؟ ولو شئت قلت :

(١) طبقات الشافعية ٣ : ٢٤ (طبع الحلبي) .

(٢) طبقات الشافعية ٣ : ٢٤ .

(٣) طبقات الشافعية ٣ : ٢٧ .

وَمُساهِرٍ بِالْفُتُوحِ مِنْ لَحَظَاتِهِ قَدْ بَتُّ أَمْنُهُمْ لَدَيْدِ سِنَاتِهِ^(١)
 أَصْبُو لَحْنِ كَلَامِهِ وَحَدِيثِهِ وَأَكْرَرُ اللَّحَظَاتِ فِي وَجَنَاتِهِ
 حَتَّى إِذَا مَا الصَّبْحُ لَاحَ عَمُودُهُ وَلَّى بِخَاتَمِ رَبِّهِ وَبَرَاتِهِ
 فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْوَزِيرَ ! يَحْفَظُ عَلَيْهِ مَا قَال ، حَتَّى يَقِيمَ عَلَيْهِ
 شَاهِدِينَ عَدْلَيْنِ ، أَنَّهُ وَلَّى بِخَاتَمِ رَبِّهِ وَبَرَاتِهِ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ سَرِيحٍ : فَيَلْزَمُنِي فِي
 هَذَا مَا يَلْزَمُكَ فِي قَوْلِكَ :

* وَأَمْنَعُ نَفْسِي أَنْ تَنَالَ مُحَرَّمًا *

فَضَحِكَ الْوَزِيرُ ، وَقَالَ : لَقَدْ جِئْتُكُمْ ظَرْفًا وَلُطْفًا وَعِلْمًا وَنَهْمًا .
 اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْحِكَايَةُ عَلَى أَنَّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ الْعَالَمَيْنِ عَلَى اشْتِهَارِهِمَا بِالْعِلْمِ
 وَالْفَضْلِ وَالِدِّينِ كَانَا يَرْتَاخَانِ إِلَى التَّعَشُّقِ عَلَى سَبِيلِ التَّظَرُّفِ وَالتَّزَامِ التَّعَفُّفِ
 عَلَى مَا يَلِيقُ وَيَشْكَلُ بِمَنْصَبِهِمَا ؛ وَإِذَا كَانَ التَّعَشُّقُ بِشَرَطِ الْعَفَافِ ، فَإِنَّمَا يَزِيدُ
 الرَّجُلَ الْفَاضِلَ رَقَّةً طَبِيعَ ، وَحِلَاوَةً شِمَائِلَ .

وَقَالَ ابْنُ سَرِيحٍ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ : أُرَيْتُ فِي الْمَنَامِ الْبَارِحَةِ كَأَنَّ
 قَائِلًا يَقُولُ : هَذَا رَبُّكَ يَخَاطِبُكَ ، فَسَمِعْتَهُ يَقُولُ : مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ؟ فَقُلْتُ :
 بِالْإِيمَانِ وَالتَّصَدِيقِ ، قَالَ : قَقِيلُ : مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ؟ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهُ
 يُرَادُ مِنِّي زِيَادَةُ الْجَوَابِ ، فَقُلْتُ : بِالْإِيمَانِ وَالتَّصَدِيقِ ، غَيْرَ أَنَا قَدْ أَصَبْنَا مِنْ
 هَذِهِ الذُّنُوبِ ، فَقَالَ : أَمَّا إِنِّي سَأَغْفِرُهَا لَكَ .

وَنُؤَوِّفِي لِحَسِّ مَضَيْنِ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةَ سِتْ وَثَلَاثِينَ ، وَبَلَغَ سَنَهُ
 سَبْعًا وَخَمْسِينَ سَنَةً وَسِتَّةَ أَشْهُرَ ، وَدُفِنَ فِي حِجْرَةِ بِسُوقَةِ غَالِبٍ بِبَغْدَادٍ رَحِمَهُ
 اللَّهُ عَلَيْهِ .

[طَائِفَةٌ مِنْ شَعْرِ النَّسِيبِ]

وَنَذَكُرُ الْآنَ مِنْ نَفِيسِ الشَّعْرِ الْمَضْمَنِ « مَنْ ظَهَرَ مِنْ مَحْبُوبِهِ بِرَأْدِهِ مِنْ .

الوصال ، ثم عفا عما يخلّ بأهل الجلال ، قال إدريس بن اليمان :

لم تدر ما خلّدت عينك في خلدي من الفرام ولا ما كابدت كبدي
أفديك من زائر رام الدنوّ فلم يسطمه من حرق في الدمع متقد
خاف العيون ، فوافاني على عجل معطلاً جيدُهُ إلا من الفيد
عاطيته الكأس فاستجيت مدامها من ذلك الشنب العسول والبرد
حتى إذا غازلت أجفانه سنة وصيرته يد الصهباء طوع يدي
أردتُ توسيده خدي وقلّ له فقال : كفك عندي أفضل الوسد
فبات في حرم لا غدر يُزعجه وبث ظمآن لم أضدِر ولم أُرِد
بدرٌ ألم وبدرٌ التّم منه حق والأفق محلوك الأرجاء من حسد
تخيّر الليل فيه ، أين مطاعه أما درى الليل أن البدر في عضدي !
وقال الرمادي :^(١)

وليلة راقبتُ فيها الهوى على رقيب غير وسنان
والراح ما تنزل عن راحتي وقتاً ومن راحة ندّمان
وربّ يوم قيظه منضجٌ كأنّه أحشاء ظمآن
أبرز من خديّ لي رشحه طلاً على ورديّ وسوّسان^(٢)
وكان في تحليل أزراره أقود لي من ألف شيطان
فتحتُ الجنة من جيبي فبت في جنة رضوان
مروءة في الحب تنهى بأن يُجَاهَر الله بعصيان

وقال سعيد بن حميد :

زائرٌ زارنا على غير وعدٍ أهيف الكشح ، مُثقلُ الأردافِ

(١) هو يوسف بن هارون الرمادي ؛ والأبيات في المطرب لابن دحية ؛

(٢) الرشح : المرق ؛ والطل : قطرات الندى .

غالب الخوف حين غالبه الشؤ ق فأخفى الهوى وليس بخافي
 غض طرفي عنه تقى الله واختز ت على بذله بقاء التصافي
 ثم ولّى والخوف قد هزّ عطفني ه ، ولم تخل من لباس العفاف
 وقال بعض الطالبين :

رموني وإياها بشنعاء هم بها أحق ، أدال الله منهم وعجلاً
 بأمر تركناه وربّ محمد جميعاً ، فلما عفاة أو تجملاً
 وسنزيد ما يستحسن في العفاف وضده في الثانية عشر .

قوله : « علم السرّوجيّة » ، أى مشهورها . والعلم : الجبل .

* * *

فلبثت إلى أن زهرت نجوم الظلام ، وانتشرت عقود الزحام ،
 ثم قصدت فناء الوالى ، فإذا الشيخ لفق كالى ، فنشدته الله : أهو
 أبو زيد ؟ فقال : إى ومحلّ الصيد ! فقلت : من هذا الغلام ،
 الذى هفت له الأحلام ، قال : هو فى النسب فرخى ، وفى
 المكتسب فحى ، قلت : فهلا كفيت بحاسن فطرته ، وكفيت
 الوالى الافتنان بطرته ! فقال : لو لم تبرز جهته السين ، لما
 فنفت الحوسين ، ثم قال : بت الليلة عندي أنطى نار الجوى ،
 ونديل الهوى من النوى ، فقد أجمعت على أن أنسل بسحرة ،
 وأصلى قارب الوالى نار حسرة .

* * *

لبثت : أفت . عقود : جمع عقد ، أراد ما يعقد من جموع الناس في الزحام .
انتثرت : افتترقت . زهرت : أضاءت . الفناء : ما حول الدار . ناشدته : سأله .
هفت ، أى طارت . الأحلام : العقول . فطرته : خلقتة . تبرز : تظهر . والطرة :
قد تقدمت ، وشبه اعتدال الشعر على الجبهة بشكل السين على السطر ، وأخذه
من قول التهامي :

يأرب معنى الشأن نسلكه^(١) في سلك لفظ قريب الفهم مختصر^(٢)
لفظ يكون لعقد القول واسطة^(٣) ما بين منزلة الإسهاب والمختصر^(٤)
إن الكتابة صارت تحت أنمله^(٥) والجود فالتقيا منه على قدر^(٦)
ترد أقلامه الأرماع صاغرة^(٧) عكسا ، كعكس شعاع الشمس للقمر^(٨)
وفي كتابك فاعذر من يهيم به^(٩) من المحاسن ما في أحسن الصور^(١٠)
الطرس كالحد والنونات دائرة^(١١) مثل الحواجب والسينات كالطرر^(١٢)
ومن ملح الخبز أرزى :

وبنفسى من إذا خمسته نثر الورد عليه ورقه^(١٣)
وإذا مسّت يدي طرته أفلتت منه فعادت حاقه^(١٤)

أخذها من حكاية لعمر بن أبي ربيعة ؛ حدث المغيرة بن عبد الرحمن ، قال :

(١) ديوانه ٤٥ هـ ، وفيه : « أسلكه » .

(٢) الديوان : « سارت » .

(٣) الديوان : « فالتقيا به » .

(٤) بمد في الديوان :

يملو بياض المعاني سود أحر فيها إن الظلام ليجلو رونق السحر

(٥) الديوان « الطرس كالوجه » .

حجبت مع أبي وأنا غلام ، عَلَى جُمَّة^(١) ، فحُتَّ عَمْرَ فُسَلِّت عليه ، فجلست عنده ، فجعل يمدَّ الْخَصْلَةَ من شعري ثم يرسلها ، فترجع على ما كانت عليه ، ويقول : واشباباه ! حتى فعل ذلك مرارا ، ثم قال لي : يا بن أخي ، قد سمعتني أقول في شعري : قالت وقلت ... وكلّ مملوكٍ لي حرّاً إن كنت مُكشفت عن فرج امرأة حرام قطّ ، فسألت عن رقيقه ، فقيل لي : أما في الحوك فسبعون سوى غيرهم^(٢) .

وساير عَمْرَ عُرْوَة بن الزبير يحدثه ، فقال : وأين زين الموابك؟ - يعني ابنه محمداً ، وكان يُعرف بذلك الجمال - فقال عروة : هو أمامك ، فركد بطلبه ، فقال له عروة : يا أبا الخطّاب ، أولسنا أ كفاء كراماً لمحدثك ! قال : بلى ، بأبي أنت وأمي ، ولكنني مغرّى بهذا الجمال حيث كان ، ثم التفت إليه ، وقال :

إني امرؤٌ موكعٌ بالحسن أتبعه لاحظ لي فيه إلّا لذة النظر^(٣)

أخذه العباس بن الأحنف ، فقال :

أتأذنون لصبٍ في زيارتكم فعندكم شهواتُ السَّمْع والبَصَرِ
لا يضرُّ السَّوءُ إن طالَتْ إقامته عَفْ الضمير ولكن فاسق النظرِ

[مما قيل في حاق الشعر]

ومما يتعلق بذكر الشعرِ حِلَاقه ، والشعر فيه كثير ؛ فنلّم منه باليسير .

وأول من قرّع هذا الباب - فيما يذكر - القائل :

حَلَقُوا رَأْسَهُ لِيَكْسُوهُ قُبْحًا خيفة منهم عليه وشحًا

(١) الجمّة : شعر الرأس .

(٢) الخبر في الأغاني ١ : ٧٧ .

(٣) الأغاني ٣ : ١٤٦ ، ١٤٧ .

كان من قبل ذاك ليلاً وصُبحاً فحوا أنيله وأبقوه صُبحاً
وقال أبو العباس القربي :

كان إلا قمرًا تحت دُجى فأنجلي الليلُ ولاح القمرُ
أو كزهرٍ في كمامٍ كامنٍ شقتُ عنه فتمَّ الزهرُ
وقال أبو العباس بن حيّون :

حلقوك في تغيير حسنك رغبةً فازداد حسنك بهجةً وضياءً
كالخمر فضّ ختامه فتشعشت والشمع قطّ ذباله فأضاء

* * *

قوله: «قنفشتُ» ، أى أخذت بسرعة ، تقول : قفشت الشيء ، قفشا إذا
جمعت عليه كفك بسرعة ، وقد انقشفت العنكبوت ، إذا دخلت حُجرها .

قوله: «الجوى» ، أى مرض القلب . نديل : نعوض ، والإدالة : أن يكون الشيء .
لك مرة ولغيرك أخرى وهى من الدولة . النوى : البعد أو يريد : هلم انجدد المودة
في هذه الليلة ، ويكون ذلك عَوْضًا من طول التفراق ، فقد عزمت على أن أنسل
بالسحر وأفرّ ، والانسلال : الخروج مستخفياً . أصلي قلب الوالى : أجعله متحرراً
بالتحسر والتفجع .

* * *

قال : فقضيتُ الليلةَ معه في سمرٍ ، آتق من حديقة زهرٍ ،
وخيلةٍ شجرٍ ، حتّى إذا لآلَا الأفق ذنبُ السرحانِ ، وأن
انبلاجُ الفجرِ وحانَ ، ركبَ مثنى الطريقِ ، وأذاق الوالى عذابَ
الحريقِ ، وسلمَ إلى ساعَةِ الفراقِ ، رُفعةً مُحكمةَ الإلصاقِ ،

وقال : اذفَعها إِلَى الْوَالِي إِذَا سَلِبَ الْقَرَارَ ، وَتَحَقَّقَ مِنْهُ
الْفِرَارُ ؛ فَفَضَضْتُهَا فِعْلَ التَّمَلُّسِ ، مِنْ مِثْلِ صَحِيفَةِ التَّمَلُّسِ .

قَضَيْتُ : أَتَمَمْتُ . سَمَرُ : حَدِيثٌ بِاللَّيْلِ يُسَمَّرُ عَلَيْهِ . آفَقُ : أَحْسَنُ . حَدِيقَةُ :
بِسْتَانٌ ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا تَحْتَ حَائِطٍ أَوْ زَرْبٍ . زَهْرُ : تَوْرٌ . خِمِيلَةٌ : رَوْضَةٌ فِيهَا
شَجَرٌ . لَأَلَا : لَمَعَ وَأَضَاءَ . الْآفَقُ : جِهَاتُ السَّمَاءِ . ذَنْبُ السَّرْحَانِ ، هُوَ الْفَجَرُ
الْكَاذِبُ ، وَهُوَ ضَوْءٌ يَظْهَرُ قَبْلَ الْفَجْرِ دَقِيقٌ مُتَصَعِّدٌ إِلَى السَّمَاءِ . وَالسَّرْحَانُ : الذَّنْبُ ،
شَبَّهَ ضَوْءَهُ بِذَنْبِهِ . آنَ : حَانَ وَقَرُبَ . انْبِلَاجُ الْفَجْرِ : ظُهُورُ ضَوْئِهِ . مَتْنٌ : ظَهَرَ .
الْحَرِيقُ : النَّارُ . سَلَّمَ : تَرَكَ . مُحْكَمَةُ الْإِلْصَاقِ : مُتَقَنَةُ الطِّقِ . الْقَرَارُ : السَّكِينَةُ ، يَرِيدُ
أَنْ الْوَالِي إِذَا أَخْبَرَ بِهِرٍ بَنًا ذَهَبَ عَقْلُهُ ، فَجَعَلَ يَتَمَلَّلُ وَلَا يَقَرُّ . فَضَضْتُهَا : كَسَرْتُ
خَتَامَهَا .

[ذَكَرَ التَّمَلُّسَ وَصَحِيفَتَهُ]

والتَّمَلُّسُ ، شَاعِرٌ مَشْهُورٌ ، اسْمُهُ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ الْمَسِيحِ ، وَتَمَّى التَّمَلُّسَ بِقَوْلِهِ :

فَهَذَا أَوَانُ الْعَرَضِ جُنَّ ذَبَابُهُ زَنَايِرُهُ وَالْأَزْرَقُ لِلتَّمَلُّسِ ^(١)

وَهُوَ مَا خُذَ مِنْ تَلَمَّسِ الرَّجُلِ الْحَاجَةِ ، إِذَا طَلَبَهَا مَرَّةً مِنْ غَيْرِهِ ، وَأَصْلُ ذَلِكَ
مَنْ أَلَمَّسَ بِالْيَدِ ، كَالَّذِي يَلْمَسُ بِيَدِهِ فِي الظَّلَامِ مَوَاضِعَ خَفِيَّةٍ يَطْلُبُ مِنْهَا شَيْئًا ضَاعَ
مِنْهُ ، أَوْ كَلَسَ الْأَعْمَى شَيْئًا بِيَدِهِ .

(١) الصَّحْرَاءُ وَالْمَعْرَاءُ ١٢٢ ، قَالَ فِي شَرْحِهِ : الْعَرَضُ : الْوَادِي ، وَيُرْوَى : «حَى ذَبَابُهُ» .
(٢٨ — شَرْحُ مَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ ١)

ومن كلام عامتنا: فلان يتلمس، بسكون التاء، أى يدخل بين الناس باستخفاء ولا يُشعر به.

والمتمسُّ أحد الثلاثة الذين اتفق العلماء على أنهم أشعر القلَّين في الجاهلية، وهم: التلمس والمسيب بن علس وحُصين بن الحُمام.

والمتمس، بالميم قبل اللام، هو المتخلص الذى يطلب السلامة والخلاص بسهولة، وقد أُمس إذا خرج من بين القوم هارباً وهم لا يشعرون، وقد أُمس الشيء، إذا سقط من يدك ولم تشعر به لملاسته.

والصحيفة: الكتاب. وقصتها^(١) أن التلمس وطرفة كانا يتنادمان مع عمرو ابن هند ملك الحيرة - وكان سيِّء الخلق شديد، وهو الذى حرَّق من تميم مائة رجل، فهجوه، فقال فيه التلمس - وكان طرده لشيء بلغه عنه:

أطردتني حَذَرُ الهجاء ولا واللَّات والأنصاب لا تتل^(٢)
أى لا تنجو.

وقال فيه أيضاً:

إن الخيانة والمفالة وانلنا والفَدَر نتركه ببلدة مفسد^(٣)
ملك يلعب أمه وقطينها رخو المفاصل أيزرُه كالنَّزْدِ
فإذا حلت ودون بيتي غَاوَة^(٤) فابرق بأرضك ما بدالك وارعد
وقال طرفة:

فليت لنا مكان الملك عمرو رَغُونًا حول قَبْتِنَا تَخُور^(٥)

(١) جهرة الأمثال ١: ٥٧٩ - ٥٨٢، الميداني ١: ٣٩٩.

(٢) الأغاني ٢٣: ٥١٦ (طبع الثقافة ببيروت).

(٣) شعراء النصرانية.

(٤) غاوة: قرية من قرى حلب.

(٥) ديوانه ٩٠ - ٩٦، والرغوث: النعجة المرضع.

لعمرك إن قابوس بن هندٍ ليخط ملكه نوكٌ كثيرٌ^(١)
 في أبياتٍ شهرتها تنبي وتغني عن ذكرها ؛ فاستحيا أن يقتلها بحضرته ،
 ويدينها إدلالُ المنادمة ، فكتب لهما بصحيفتين ، وختمهما لثلاً يعلم ما فيهما -
 هو أوّلُ مَنْ ختم الكتاب - وقال لهما : اذهبا إلى عاملي بالبحرين ، فقد أمرته
 أن يصلكما بجوازٍ . فذهبا فرّاً بطريقهما بشيخ يحدث ويأكل من خبز بيده ،
 ويتناول القمل من ثيابه ويقصعه ، فقال المتلمس : ما رأيت شيخاً كالיום أحق
 من هذا ! فقال الشيخ : ما رأيت من مُحَقِّقٍ ! أخرج الداء ، وآكل الدواء ،
 وأقتل الأعداء . وروى : أقتل عدوّاً ، وأدخل طيِّباً ، وأخرج خبيثاً ، أحقُّ والله
 مني مَنْ يحمل حتفه بيده .

فاستراب المتلمس بقوله ، وطلع عليهما غلام من أهل الحيرة من كتاب
 العرب ، فقال له المتلمس : أتقرأ يا غلام ؟ قال : نعم ، ففك الصحيفة فإذا فيها : فإذا
 أتناك المتلمس فاقطع يديهِ ورجليه وادفنه حيّاً : فقال لطرفة : ادفع إليهِ صحيفتك ،
 فإن فيها مثل هذا ، فقال طرفة : كلا لم يكن ليحتري على - وكان غراً صغير السن -
 فقذف المتلمس بصحيفته في نهر الحيرة ، وقال :

قذفتُ بها في الثُّنْيِ من جَنبِ كافرٍ كذلك أقنُو كلَ فظٍّ مضلٍّ^(٢)
 رضيتُ لها بالماءِ كما رأيْتُها يحولُ بها النِّيارُ في كلِّ جدولٍ
 وأخذ نحو الشام وقال :

ألقي الصحيفة كي يخفِّفَ رَحْلَهُ والزَّادُ حتى نعلَه ألقاها
 أراد : أنه تخفّف للفرار ، فألقى ما لا يُثقل ، وما لا بدّ للسفر منه .

(١) النوك : الحماة

(٢) الشعر والشعراء ١ : ١٣١ . النقي : منطاب النهر . كافر : اسم علم لنهر الحيرة ،

وأقنو ، أى أجزى .

وقال حينئذ :

مَنْ مَبْلَغُ الشَّعْرَاءِ عَنْ أَخَوِيهِمْ خَبْرًا فَتَصَدُّقُهُمْ بِذَلِكَ الْأَنْفُسِ^(١)
 أَوْ دَى الَّذِي عُلِقَ الصَّحِيفَةُ مِنْهُمَا وَنَجَا - حِذَارُ حَبَائِهِ - الْمُتَلَسُّ
 أُلْقِيَ الصَّحِيفَةُ ، لَا أَبَالِكَ إِنَّمَا يُخْشَى عَلَيْكَ مِنَ الْحَبَاءِ الذَّقْرِسِ^(٢)
 وَأَمَّا طَرَفَةٌ فَوْصَلٌ إِلَى الْبَحْرَيْنِ ، فَلَمَّا قَرَأَ الْعَامِلُ صَحِيفَتَهُ ، وَسَأَلَهُ عَنِ الْمُتَلَسِّ
 فَأَخْبَرَهُ بِفِرَارِهِ ، عَفَا عَنْهُ لَصَدَقَهُ وَرِعَايَتَهُ لَطَائِعِ الْمَلِكِ حَيْثُ لَمْ يَفْكُهُ .
 وَقِيلَ : إِنَّهُ سَجَّهَ ، وَبَعَثَ إِلَى عَمْرِو بْنِ هَنْدٍ ، وَقَالَ لَهُ : مَا كُنْتَ لِأَقْتُلَ طَرَفَةً ،
 وَأَعَادَى قَبِيلَتَهُ ، فَإِذَا أُرِدْتَ قَتْلَهُ ، فَابْعَثْ إِلَيْهِ مَنْ يَقْتُلُهُ . فَعَمِلَ وَخَيْرٌ فِي قَتْلِهِ ؛
 فَاخْشَارُ أَنْ يُسْقَى الْخَمْرَ ، وَيُفْصَدَ أَكْحَلُهُ^(٣) ؛ فَعَمِلَ بِهِ ذَلِكَ حَتَّى مَاتَ نَزْفًا ، وَدُفِنَ
 بِهَجَرَ . وَقِيلَ فِي قَتْلِهِ غَيْرَ ذَلِكَ .

وقال البحتري يصدق ما تقدم :

ولقد سكنت إلى الصدود من الدوى

والشرى أرى عند طعم الحنظل^(٤)

وكذاك طرفه حين أوجس ضربة في الرأس هان عاياه فصدا الأكل

وقال ، وهو في السجن يخاطب قومه :

أسلمنى قومي ولم يفضبوا لسوء حات بهم فادحه^(٥)

كل خليل كنت خالنه لا ترك الله له واضحه

كلهم أروغ من ثعلب ما أشبه الليلة بالبارحة

(١) الشعر والشعراء ١ : ١٣١ ، ١٣٢ .

(٢) النقرس : داء معروف في الرجلين ، وفسره في اللسان ٨ : ١٢٧ بالذاهية .

(٣) الأكل : عرق في اليد ، ويسمى عرق الحياة .

(٤) ديوانه ١٧٤٣ .

(٥) المقدم الثمين ٥٤ .

وقال يخاطب عمرو بن هند في السجن :

أبا منذرٍ كانت غروراً صيفتي ولم أعطِكم بالطَّوعِ مَالِي ولا عِزِّي (١)
أبا منذرٍ أفنيتَ فاستبقِ بعضنا حنَّ نيكِ بعضُ الشرِّ أهونُ من بعضِ

وقتل وهو ابن عشرين سنة ، والعرب تقول : أشعر الناس ابنُ العشرين
وتعنيه ، إلا أنَّ أبا العباس أشد لأخته تربيته :

عَدَدْنَا لَهُ سِتًّا وَعَشْرِينَ حِجَّةً فلما توفى واستوى سيِّداً ضَخَمَا (٢)
فُجِعْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا إِيَّاهُ عَلَى خَيْرِ حَالٍ ، لا وليداً ولا قَحْماً (٣)

وهلك المتلمس في الجاهلية ببُغرى .

* * *

فَإِذَا فِيهَا مَكْتُوبٌ :

قُلْ لِّوَالٍ غَادَرْتُهُ بَعْدَ يَمِينِي سَادِمًا نَادِمًا يَمَضُ الْيَدَيْنِ
سَكَبَ الشَّيْخُ مَالَهُ ، وَفَنَاهُ لَبَهُ ، فَاصْطَلَى لَطَى حَسْرَتَيْنِ
جَادَ بِالْعَيْنِ حِينَ أَعْمَى هَوَاهُ عَيْنُهُ فَاثْنَى بِلَا عَيْنَيْنِ
خَفَضَ الْحُزْنَ يَامَعْنَى فَا يُجِ دِي طِلَابُ الْآثَارِ مِنْ بَعْدِ عَيْنِ
وَكِنَّ نَجَلَ مَاعَرَكَ كَمَا لَدَى الْمُسْلِمِينَ رَزَهُ الْحُسَيْنِ
فَقَدَرِ اعْتَضَتْ مِنْهُ فِهْمًا وَحَزَمًا وَاللَّيْبُ الْأَرِيبُ يَبْنِي ذَيْنِ
فَاعْصِ مِنْ بَعْدِهَا الْمَطَامِعَ وَاعْلَمْ أَنَّ صَيْدَ الطَّبَّاءِ لَيْسَ بِهَيْنِ

(١) ديوانه ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٢) الكامل للمبرد ١ : ٢٥٨ . وروايته : « فلما توفاهما » :

(٣) القهم : الرجل المتألم سناً .

لَا وَلَا كُلُّ طَائِرٍ يَلْبِجُ الْفَسْحَ وَلَوْ كَانَ مُخَدَّقًا بِاللَّجَيْنِ
وَلَكُمْ مَنْ سَعَى لِيَصْطَادَ فَاصْطِرْ يَدَ وَلَمْ يَلْقَ غَيْرَ خُفٍّ حَيْنِ

قوله : « غادرته » ، أى تركته . بعض اليمين : تندما . سادما : متغفرا ،
والسادم : المتغير العقل من الغم ، من قولهم : ماء سديم ، ومياه سديم وأسندام ،
أى متغيرة ، وقيل : السديم : الحزين الذى لا يطيق ذهابا ولا مجيئا ، من قولهم :
بغير مسدّم ، إذا منع من الضراب ، فكأن الحزين منع من الذهاب والجيء ، فيقول :
تركته بعض يديه تندما وتلثما . اللظى : لهب النار ، وقد لظت النار : علأ لهبها ؛
فيريد أن الشيخ أخذ ماله والفتى عقله ، فاحترق بنار فجعتين جاد : سمح .
العين : الذهب . هواه : تعشقه وميله : اثنى . رجع . بلا عينين ، أى بغير مال
ولا بصر . خفف : سكن . معنى : معذب . يجدى : ينفع ، والعين ها هنا :
الشخص .

[أصل المثل : طلب أثرا بعد عين]

وقولهم : طلب أثرا بعد عين ، كأن رجلا تمكن من عدوه أو من صيد
ليرميّه ، فتراخى عنه حتى فاته ، ثم شدّ في طلبه بعد الفوت ؛ وأوّل من قال ذلك
مالك بن عمرو العامري ؛ وكان بعض ملوك غسان أخذه وأخاه سماكا بسبب
قتيل كان له فى عمالته ، فحبسهما زمانا ، ثم قال لهما : إني قاتل أحدكما ، فجعل كل
واحد منهما يقول : اقتلنى مسكان أخى ، فقتل سماكا وخطى مالكاً ، فقال سماك
حين ظن أنه مقتول :

وَأَقْسَمُوا لَوْ قَتَلُوا مَالَكًا لَكُنْتُ لَهُمْ حَيَّةً رَاصِدَةً
 بِرَأْسِ سَبِيلٍ عَلَى مَرْقَبٍ وَيَوْمًا عَلَى طُرُقٍ وَارِدَةٍ
 أُمَّ سَمَّاكِ فَلَا تَجْزِعِي فَلَمَمُوتٍ مِمَّا تَلِدُ الْوَالِدَةُ

وانصرف مالك إلى قومه ، فلبث فيهم زمانا . ثم إن ركبا مروا بهم وأحدهم
 يغني بهذا البيت :

* وَأَقْسَمُوا لَوْ قَتَلُوا مَالَكَا *

فسمعت بذلك أم سمالك ، فقالت : يا مالك ، قبح الله الحياة بعد سمالك ! أخرج
 في طلب ثأر أخيك ، فخرج فلحق قاتل أخيه في ناس من قومه ، فقال : من أحسن
 لي الجبل الأحمر ! فمرفوه ، فقالوا له : لك مائة من الإبل ، وكف عنه ، فقال :
 لا أطلب أثرا بعد عين ، فذهبت مثلاً ، ثم حل على قاتل أخيه فقتله ^(١) .

* * *

قوله : « جَلَّ » ، أي عظم . عراك : قصدك . رزء الحسين : المصاب بقتله حين
 قتل بكر بلاء .

[رزء الحسين *]

وحديثه أن معاوية لما مات أرسل إليه أهل الكوفة أن قد حبسنا أنفسنا
 على بيعتكم . وطولب بالمدينة أن يبايع يزيد ، فخرج إلى مكة ، وأرسل ابن عمه مسلم
 ابن عقيّل إلى الكوفة وقال له : إن كان حقاً ما كتبوا به ، فمرفى الحق بك .
 فخرج من مكة للنصف من رمضان ، وقدم [الكوفة] لخمس خلون

(١) جهرة الأمثال ٢ : ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، وأورد في معنى الأثر قول حبيب :
 قَالُوا أَتَبْكِي عَلَى رَسْمٍ قُتِلَ لَهُمْ مِنْ فَاتَةِ الْعَيْنِ هَدَى شَوْقَهُ الْأَثَرُ
 (٢) انظر خبر مقتل الحسين في تاريخ الطبري حواشي سنن ٦٠ ، ٦١ .

من شوال ، وأميرها النعمان بن بشير ، فدخل مستتراً ، فبايعه من أهلها ثمانية عشر ألفاً . فكتبه ^(١) بذلك . فلما هم بالخروج لقيه ابن عباس رضي الله عنهما ، فقال له : يا بن عم ، أهل العراق أهل غدر ، وإنما يدعونك للحرب ، فقال له : يا بن عم ، كتب إلى مسلم باجتماع أهل الكوفة عليّ ، فقال له : قد جرت بهم ، وهم أصحاب أبيك وأخيك ، وقتلتك غداً مع أميرهم ، إذا بلغ ابن زياد خبرك استفرّجهم ، فكان الذين كتبوا إليك أشدّ عليك عن عدوك ، فإن أبيت إلاّ الخروج فلا تخرجنّ بنسائك وولدك معك ، فإنّي لخائف أن تُقتل كما قتل عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه . فردّ عليه : لأن أُقتل بموضع كذا ^(٢) ، أحبّ إلىّ من أن أُسَـجَلَ بمكة .

وأتصل الخبر بيزيد ، فكتب إلى عبید الله بن زياد بتوليته الكوفة . ففرج مسرعاً ، فدخلها في حشمه وهو ملثم ، والناس يتوقعون قدوم الحسين ، فجعل عبید الله بن زياد يسلم على الناس ، والناس يقولون : وعليك السلام يا بن رسول الله ، قدمت خير مقدّم ، حتى انتهى إلى القصر .

فحسر اللثام ، ففتح له النعمان الباب ، وتنادى الناس : ابن مَرْجَانة ، فحصبوه بالحصباء ، فقاتهم . ووضع الرّصد في طلب مُسلم ، فصاح مسلم : يا منصور — وكان شعارهم — فاجتمع له في ساعة واحدة ثمانية عشر ألفاً . فأحاطوا بالقصر فقاتلوا ابن زياد ، فلم يُمسِ المساء ومعه مائة رجل . فلما رأى تفرّقهم سار نحو أبواب كِنْدَةَ ، فبلغ الباب ومعه ثلاثة ، فخرج وليس معه أحد ، فبقى حائراً لا يدرى أين يتوجّه ، فنزل من على فرسه ، ودخل أحد أزقة الكوفة ، فانتهى إلى باب مولاة لـحمـد بن الأشعث ، فاستسقاها فسقته ، وأعلمها حاله ،

(١) أي كاتب الحسين .

(٢) تاريخ الطبري « فقال له حسين : إنّي أسعير الله وأظفر ما يكون » .

خرقت له ، فأوته وأعلنت محمد بن الأشعث بمكانه ، فشى إلى ابن زياد ، فأعلمه ، فوجه معه سبعين رجلاً ، فافتحموا عليه ، فقاتلهم مُسلم ، وأمنه محمد بن لأشعث ، وحوّله إلى ابن زياد فضرب عنقه ، وبعث برأسه إلى يزيد بن معاوية ، فصلب جثته .

وانتهى الأمر إلى الحسين ، وقد بلغ القادسية ، فهم بالرجوع ، فقال له إخوة مسلم : لا ترجع أو تقتل ، أو نأخذ بثأرنا ، فقال الحسين : لا خير في العيش بعدكم ، فسار حتى لقي خيلاً لابن زياد ، وعليها عمر بن سعد بن أبي وقاص ، فعُدل إلى كربلاء ، وهو في نحو خمسمائة فارس ، فلما كثرت المساكر أيقن أنه لا محيص له ، فقال : اللهم احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا ، ثم هم يقاتلوننا ! ثم خطب قومه فقال : يا عباد الله ، اتقوا الله ، وكونوا من الدنيا على حذر ، فإن الدنيا لو بقيت على أحد ، أو بقي عليها أحد ، لكانت الأنبياء أحق بها وبالبقاء ، غير أن الله خلقها للفناء ، فجديدها بال ، ونعيمها مضمحل ، وسرورها مكفهرة ، والدار قلع ، والمنزل تلعة ^(١) ؛ فتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقوا الله لعلكم تفلحون . ثم قاتل حتى قُتل رضي الله عنه . وفيه ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة ؛ وتولى قتله سينان بن أنس النخعي ، واحتز رأسه ، وانطلق به مسرعاً إلى ابن زياد ، وهو يقول :

أوقر ركابي فضةً وذهباً إني قتلت الملكَ الحَجْبَا
* قتلتُ خيرَ الناسِ أمّا وأباً * ^(٢)

وبعث معه الرأس إلى يزيد بن معاوية ، وعنده أبو بَرَزَة ، فجعل ينكت بالفضيب على فيه ، وهو يقول :

نفلق هاماً من رجالٍ أعزّة علينا ، وهم كانوا أعق وأظلماً ^(٣)

(١) يقال : هو على قلعة ، أى على رحلة ، والطلعة : مجرى الماء من أعلى بطون الأرض والازول عليه مخوف .

(٢) بعده في الطبرى :

* وخيرهم إذ يُنسبون نسباً *

(٣) حصين بن الحمام الرمي ، من المفضلية ١٢

فقال له أبو برزّة : ارفع قضيبك عن فمه ، فلقد رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يلمُّه .

وقتل يوم عاشوراء سنة إحدى وستين ، وقتل معه سبعة وثمانون ، منهم على ابنه الأكبر ، ومن ولد أخيه الحسن عبد الله والقاسم وأبو بكر ، ومن إخوته العباس وعبد الله وجعفر ومحمد وعثمان بنو علي ، ومن بنى عمه جعفر ومحمّد وعون أبناء عبد الله بن جعفر . ومن ولد عقيل عبد الله وعبد الرحمن وجعفر ، ودفعهم أهل القادسية بعد قتلهم بيوم ، وقتلواهم من أصحاب عمر بن سعد ثمانية وثمانين .

* * *

قوله : « اعتضت » : اقتلعت من العوض . يبنى ذين : يطلب هذين . للظباء : الغزلان . يلجج : يدخل . محذّقا باللجين ، أى محمّقا بالفضة ، والصائد يفرق حول الفخ حبّ القمح وشبهه ، فيلقطه الطائر حتى يتوصّل إلى مانصب له فيقع ، فقال : ما كلُّ طائر يُخدع ، ولو حلّق له الفخ بحبّ اللجين بدلا من القمح ، وإني من هذا الصنف .

قوله : « ولستم من سعى ليصطاد فاصطيد » ، من قول الصابي :

يا قمرأً كأنّك خشف في نظرتي وكألفضيب اللذن في نضرتي
خلّكتك صيدا كان في قبضتي فعرت من صيدى في قبضتي

والسابق له كعب زهير بن في قوله :

طاف الرّماة بصيد راعهم فإذا بعض الرّماة بنبل الصيد مقتول^(١)

* * *

(١) لم يرد هنا البيت في ديوانه ، وأورده الميمى في ملحى الديوان ٢٥٩ ، ٢٤٢ عن الشريحي .

[أصل المثل : رجع بخفي حنين]

وُخِفَا حُنَيْنٌ ، يضرب بهما المثل للخائب الخاسر ، واختلف في حُنَيْنٍ ، فقال يعقوب : إنه كان رجلاً مُدْعِيًّا ، فجاء إلى عبد المطلب ، وعليه خُفَّانٌ ، فقال : يا عم إني من ولد هاشم ، فأنعمَ النَّظَرُ فيه ، وقال : لا وعظام هاشم ، ما أرى فيك شمائلَ هاشم ، فارجع خائبًا خاسرًا .

وقيل : كان رجلاً مغنيًا ، فدعاه قوم من أهل الكوفة . ليُطربَهم في نزهة ، فخرج جوابه إلى الصحراء ، فضر به وسلبوا ثيابه ، وتركوا عليه خُفَّيْهِ ؛ فلما رجع إلى زوجته - وكانت تنتظر رجوعه على عادته بما يفضل من أطعمة النزهة - ورأته على تلك الحالة قالت لكل من سألها : رجع حُنَيْنٌ بخفيِّه .

وقيل : إنه كان صانعًا ، فساومه أعرابيٌّ بخُفَيْنٍ ، وما كسه حتى أخرج به . فلما ارتحل الأعرابيُّ ، أخذ حنين إحدى الخفين فوضعهما على الطريق ، ثم مشى وألقى الأخرى في موضع آخر على الطريق ، وكن له ، فلما مرَّ الأعرابيُّ بألحف قال : ما أشبه هذه بخف حُنَيْنٍ ؛ ولو كان معها الأخرى لأخذتها . فلما انتهى إلى الأخرى ، ندِمَ على ترك الأولى ، فأناخ راحلته ، وأخذها ورجع إلى الأولى ؛ فلما غاب عمَّد حنين إلى راحلته بما عليها فركبها ، ومضى بها ، ورجع الأعرابيُّ إلى قومه دُلُفَيْنٍ ، فكان إذا سئل عن حاله قال : رجعت بخفي حنين . فصار مثلاً .

وقيل : كان حنين لصًا حقيرًا فأخذَ وُصْلِبَ ، فجاءته أمه وعليه خُفَّانٌ فانزعمتها ورجعت ، فقيل : رجعت بخفي حُنَيْنٍ ، أي رضيت منه بذلك .



فَتَبَصَّرَ وَلَا تَشْمُ كُلَّ بَرْقٍ رَبِّ بَرْقٍ فِيهِ صَوَاعِقُ حَيْنٍ
 وَاغْضُضِ الطَّرْفَ تَسْتَرِحْ مِنْ غَرَامٍ تَكُنْمِي فِيهِ ثَوْبٌ ذَلِ وَشَيْنِ
 خَبَلَاءُ الْفَتَى اتَّبَاعُ هَوَى النَّفْسِ وَبَذَرُ الْهَوَى طُمُوحُ عَيْنِ
 قال الراوى : فَمَزَّقْتُ رُقْعَتَهُ شَذَرَ مَذَرَ ، وَلَمْ أَبَلْ أَعْدَلَ
 أَمْ عَذَرَ .

* * *

قوله «تبصر» : أى أحسن النظر . حَيْن : هلاك . والصاعقة : نار ترسل مع
 الرعد والبرق ، وجمعها صواعق ، وصعق الرجل إذا أصابته ، وصعق إذا مات ،
 وقيس تقول : صاعقة ، وبنو تميم صاقعة ؛ وقد صعق . غرام : عذاب الحب . شين :
 عيب . والبذر : زرع الحب فى الأرض .

طموح : ارتفاع يريد أن أصل المشق مداومة النظر ، ألم فيه بقول عيسى
 عليه السلام : « لا يزنى فرجك ما غضضت بصرك » ؛ وقد تقدّم : من كثرت
 لحظاته دامت حسراته .

وقال سابق البربرى فى اتباع الهوى :
 وهجر الهوى للمرء فاعلم سعادة

وطول الهوى رَيْنٌ عَلَى الْقَلْبِ رَائِنُ
 فَكُنْ دَافِنًا لِلشَّرِّ بِالْخَيْرِ تَسْتَرِحْ مِنْ الشَّرِّ إِنَّ الْخَيْرَ لِلشَّرِّ دَافِنُ
 وقال آخر :

لِذَا أَنْتَ لَمْ تَعَصِ الْهَوَى قَادَكَ الْهَوَى

إِلَى كُلِّ مَا فِيهِ عَلَيْكَ مَقَالُ

وقال المتنبي :

عزيرٌ أَسَى مَنْ دَاوَاهُ الْأَعْيُنُ النَّجَلُ عناء به مات المحبون من قَبْلُ^(١)
فمن شاء فليَنظُرْ إِلَى قَمَنْظَرِي نذيرٌ إِلَى مَنْ ظَنَّ أَنَّ الْهَوَى سَهْلُ
وما هي إِلَّا لَحْظَةٌ بعدَ لَحْظَةٍ إذا نزلت في قلبه رَحَلَ الْعَقْلُ

وقال ابن زيدون :

مَنْ يَسْأَلُ النَّاسَ عَنْ حَالِي فَشَاهِدُهُ محضُ الْعِيَانِ الَّذِي يُغْنِي عَنِ الْخَبَرِ^(٢)
أما الضَّيِّقُ فَجَنَّتْهُ نَظْرَةٌ عَنِّي كَأَنَّهَا وَالرَّدى جَاءَ عَلَى قَدَرٍ
فهمتُ معنَى الْهَوَى مِنْ وَخِي طَرَفَكَ لِي
إِنْ الْحَوَارِ لَمَقَمٌ — وَمِنْ الْحَوَارِ

وقال العباس بن الأحنف :

الْحَبُّ أَوَّلُ مَا يَكُونُ لِمَا جَاءَهُ تَأْتِي بِهِ وَتَسْوِقُهُ الْأَقْدَارُ^(٣)
حتى إِذَا اقْتَحَمَ الْفَتَى لَجَجَ الْهَوَى جَاءَتْ أُمُورٌ لَا تُطَاقُ كِبَارُ

فهذا كله يبين بيت الحريري .

قوله : « مزقت » : قطعت . شذَر مَذَرَ : قَطَعًا متفرقة في كل جهة ،
وأصل الشَذَر قطع الذهب ، ومَذَرَ اتباع لها .
لم أَبَلْ : أى لم أَهَالِ . عَذَل : لام . عذَر : قَبِلَ العذر .

(١) ديوانه ٣ : ١٨٠ .

(٢) ديوانه ٢٠١ .

(٣) ديوانه ٩٩٦ .

فهرس المقامات

صفحة	
٤٦ - ١٢	صدر المقامات
٧٤ - ٤٨	المقامة الأولى ، وتعرف بالصنعانية ؛ تتضمن ظهور أبي زيد في مظهر الواعظ ثم كشف حاله بعد ذلك
١٢٧ - ٧٦	المقامة الثانية ، وتعرف بالحلوانية ، تتضمن محاسن من التشبيهات الرائعة في الشعر .
١٥٧ - ١٣١	المقامة الثالثة ، وتعرف بالدينارية ، تتضمن أشعاراً في مدح الدينار وذمّه .
١٨٦ - ١٥٨	المقامة الرابعة ، وتعرف بالدمياطية ، تتضمن محاورة أبي زيد مع ابنه في المواصلة والقطيعة .
٢١٩ - ١٨٩	المقامة الخامسة ، وتعرف بالكوفية ، تتضمن وقوف أبي زيد إلى باب دار ابنه ، يطلب منه القريّ ومجاوبته له
٢٦٨ - ٢٢٤	المقامة السادسة ، وتعرف بالمراغية ، وتتضمن الرسالة التي فيها كلمات معجبة ، وكلمات غير معجبة
٣٠٧ - ٢٧٢	المقامة السابعة ، وتعرف بالبرقعيدية ، تتضمن تعامى أبي زيد ، وقيام امرأته بقيادته ، وهو يبيع الرقاع المكتوبة
٣٣٠ - ٣٠٨	المقامة الثامنة ، وتعرف بالمعرية ، تتضمن خصمه أبي زيد وابنة في الميل والإبرة
٣٦٥ - ٣٣٣	المقامة التاسعة ، وتعرف بالإسكندرانية ، تتضمن خصمة أبي زيد لامرأته ، وقيامه ببيع أثائها ومتاعها .
٤٤٤ - ٣٧٥	المقامة العاشرة ، وتعرف الرحبية ، تتضمن دعوى أبي زيد على شخص أنه اعتدى على ابنه

فهرس الموضوعات (٥)

صفحة	
١١ - ٣	مقدمة الشارح
٣٤ - ٢٢	بديع الزمان الهمداني
٢٥ - ٢٤	ذكر همدان
٢٨ - ٢٦	السبب في إنشاء الجريء المقامات
٣٣	ذكر قدامة بن جعفر
٣٤	عدى بن الرناغ
٣٦ - ٣٥	القديم والحديث في الأدب
٤٠ - ٣٦	القول في الحمام
٤٢ - ٤١	من أقوالهم في الحقد ذمًا وحمداً
٤٥ - ٤٤	مما ورد من الحكم على ألسنة البهائم وغيرها
٥١ - ٥٠	مدينة صنماء
٥٧، ٥٦	نبذ من أقوال الشعراء في ذم الكبير
٦٤ - ٦٣	من لطائف التجنيس
٦٨ - ٦٦	نبذ من الأشعار في ذم الدنيا
٧١ - ٧٠	أبونواس في مجالس الوعظ
٧٨	ذكر مدينة حلوان

(٥) وهي الموضوعات التي وردت في أثناء الشرح .

صفحة	شعار السكدية
٧٩ - ٧٨	مما قيل في اللحي من الشعر
٨٩ - ٨٤	البحترى وبعض أخباره وشعره
٩٦ - ٩٠	وصية أبي تمام للبحترى
٩٧	ذكر النرجس ومقال الشعراء في تشبيه العميون به
١١٠ - ١٠٣	ذكر الوأواء الدمشقي وبعض شعره
١١٤ - ١١٠	من قولهم في الامتحان
١١٦	يديهة السلامى
١١٨، ١١٧	من نوادر صاعد بن الحسن الربعى
٢٢٣، ١٢٢	مما قيل في البديهة الحاضرة
١٢١ - ١١٨	نقد شعر الحريرى
١٢٥ - ١٢٣	من أقوالهم في الفراق
١٢٦، ١٢٥	فصل في الحسد وما قيل فيه
١٣٨ - ١٣٥	قصة المثل : أنجز حرث ما وعد
١٤٤ - ١٤٣	مما قيل في وصف الدينار من الشعر
١٤٤	فصل في الوعد ومذاهب الناس فيه
١٤٧ - ١٤٥	فصل في مدح الشيء وذمّه في وقت واحد
١٥٦ - ١٥٤	مما قيل في سواد الليل
١٦٢ - ١٦٠	مذاهب الشعراء في العفو أو الانتصاف
١٧٢ - ١٧٠	مما ورد في الصبح من الشعر
١٧٣	نبذ مما قيل في الحمام شعراً ونثراً
١٨٠ - ١٧٧	قولهم : حديث خرافة
١٨٨ - ١٨٦	

صنعة

١٨٩ - ١٩١	الكوفة
١٩١ - ١٩٣	عما ورد في وصف الهلال من الشعر
٢٠٣ - ٢٠٥	قصة موسى عليه السلام قبل بيعته
٢٠٧	إبراهيم عليه السلام
٢٠٧ - ٢٠٨	عما قيل في القرى والأضياف
٢٠٩ - ٢١١	نبذ وحكايات في البؤس والحرمان
٢١١ - ٢١٣	ذكر مدينة فيد
٢١٩ - ٢٢٣	ذكر الكهيت في بعض أخباره وشعره
٢٣٢ - ٢٣٦	ذكر قطري بن الفجاءة
٢٣٩ ، ٢٤٠	الخطيئة وسعيد بن القاص
٢٤١ - ٢٥١	فصل في الدواة والقلم والمداد
٢٦٢ ، ٢٦٣	الضباع وما قيل فيها
٢٦٣ - ٢٦٥	نبذ مما قيل في أحوال الدهر
٢٦٥ - ٢٦٧	نبذ وأقوال في ذم الزمان
٢٨٦ - ٢٨٩	ذكر ابن عباس وبعض أخباره
٢٨٩ - ٢٩٢	ذكر إياس القاضي وبعض نوادره
٢٩٦ - ٣٠٠	ذكر العمى وما ورد فيه من الشعر
٣٠٣ - ٣٠٦	استطراد بذكر أشعار في التشبيه رائعة
٣٠٨	ذكر معرة النعمان
٣١٤ ، ٣١٥	القطا
٣٧٦ ، ٣١٨	عما قيل في رفو الثياب من الشعر

صفحة	
٣٢١ - ٣١٨	مما قالت الشعراء في الأطوار البالية
٣٣٩ - ٣٣٥	مما ورد من الشعر في السواد والبياض
٣٣٤	ذكر فرغانة
٣٣٥ ، ٣٣٤	ذكر غانة
٣٤٥ - ٣٣٩	باب في الخض على السفر وترك المعجز
٣٤٧ ، ٣٤٦	ذكر الإسكندرية
٣٥٤ ، ٣٥٣	أصل المثل : لا عطر بعد عروس
٣٧١ - ٣٦٨	ذكر الفرزدق وبعض أخباره
٣٧٣ - ٣٧١	ذكر خبـر الكسعى وقوسه
٣٨٣ - ٣٧٦	نبذ وحكايات مما ورد في الحسن والجمال
٣٨٨ - ٣٨٤	فصل في ذكر بعض أخبار الولاة
٣٩٣ - ٣٨٨	ذكر السليـك بن الساسكة
٣٩٥ - ٣٩٤	إبراهيم النظام وبعض أخباره وشعره
٦١٨ - ٤٠٩	مما قبل في أنواع الحسن والجمال أيضا
٤٠٩ - ٣٩٨	ذكر المذراء الانحاء
٤٢٠ - ٤١٩	من أنواع الخلف
٤٢٧ - ٤٢٥	ذكر أحمد بن سريج أحد أئمة الشافعية
٤٢٩ - ٤٢٧	طائفة من شعر النسيب
٤٣٢ - ٤٣١	مما قيل في خلق الشعر
٤٣٧ - ٤٣٣	ذكر المتلمس وصحيفته
٤٣٩ - ٤٣٨	أصل المثل : طلب أثراً بعد عين
٤٤٢ - ٤٣٩	رزة الحسين بن علي رضي الله عنه
٤٤٣ -	أصل المثل : رجع نحفيّ حنين

* استدراك وتعليق

صفحة	سطر	
٦	٢٠	أبو الحجاج الأبنزي خطأ ، وصوابه : « الأندى » ، منسوب إلى أئده ، مدينة من كورة بلنسية بالأندلس . وانظر الروض المعطار ٣١ ، وبغية الملتبس للضي ٤٧٧ .
١٠	١٣	أبو عبد الله بن إمام الأئمة الراشدين ، هو محمد ابن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي ، أحد ملوك دولة الموحدين بالمغرب ، بويغ بالخلافة سنة ٥٩٥ وتوفي في سنة ٦١٠ ، وابنه يوسف ولي عهده . وانظر المعجب في أحوال المغرب ٣٨٦ ، ٣٨٧ .
٢٥	٩	هو أبو بكر بن اللبانة الداني .
٥٦	٨	الصواب أن اسمه أبو حفص بن عمر السلمي قاضي قرطبة . من أهل أغمات ، وولي أيضاً فضاء فاس وتلماس وإشبيلية ، وله شعر كثير مطبوع . توفي سنة ٦٠٤ . وانظر نفع الطيب ١ : ٢٧٣ وصلة الصلة لابن الزبير رقم ٣٠ ، والتكملة لابن أبار برقم ١٨٣١ .

(١) ومعظم هذه الاستدراكات مما أفدته من الصديق العلامة الدكتور محمد
مكي عند قراءته لهذا الجزء بعد طبعه .

- ص ٦٣ ٢ صواب كتاب البيت :
 فاحذر هدايا الناس تأمن من المنّ
 بها أو قول واش يشي
- ص ٦٣ ١٧ الخبر والأبيات في زهر الآداب ٧٧ ، ٧٨
- ص ٦٦ ٢٢ (حاشية ٤) في ترجمة أبي عمران بن موسى بن عمران : توفي
 سنة ٦٠٤ ، وله تراجم أخرى في التكملة لابن
 أبار برقم ٢١٤٧ والمصون اليانعة ١٣٥ ، وألف
 بابه للبلوى ١ : ٢٣ ، ٣٥٦ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ٣٨٩ .
- ١٠٧ ١ أبو جعفر بن برد ، خطأ والصواب أن اسمه
 أبو حفص بن برد ، والبيتان في الذخيرة ق ١
 ج ٢ : ٤٨ ، ٤٩ ، وله ترجمة في جذوة المقتبس
 للحميدى ١٩٢ والذخيرة لابن بسام ق ١ ج ٢ :
 ١٨ - ٥٢ ، ومطمح الأنفس ٢٧ ، ٢٨ .
- ١٠٨ ٢ أبو بكر الأبيض ، وهو أحمد بن محمد الأنصاري
 الإشبيلي ، وانظر ترجمته في المطرب لابن دحية
 ٧٠٦ .
- ١٢٨ ٢١ الحلواني القيرواني ، هو عبد الكريم بن فضال
 الحلواني القيرواني ، وله ترجمة في المطرب
 ٥٩ ، ٧٥ ، والذخيرة لابن بسام ٤ : ٢١٩ ،
 والآيات لابن سعيد ١٠٧
- ١٣٩ ٣ هو أبو بكر بن الجد

هو موسى بن عمران المارتي	١٦	١٧٧
الصواب أن الأبيات لأبي عامر بن شهيد ، وانظر الذخيرة لابن بسام ق ١ ج ١ : ٢٥٧	١٧ ، ١٦	١٧٧
هذه الأبيات تنسب للمنفقل ، وانظر الذخيرة لابن بسام ق ١ ج ١ : ٢٥٧ .	٦ - ٣	١٧٨
البيتان في الذخيرة لابن بسام ق ١ ج ١ : ٢٥٨	٨ ، ٧	١٧٨
البيتان في الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٥٨	١٢ ، ١١	١٧٨
نسبة البيتين لأبي بكر بن بقي ، وهما بهذه النسبة في الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٥٨	١٣	١٧٨ ح
البيتان في الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٥٨	٢٨ ، ١٧	١٧٨
هو وهب بن سلمة القرطبي ، من أهل النسك والورع بالأندلس ، ذكره الرازي في كتاب أعيان الموالى برقم ٢٧٢٨ .	١٢	٢٠٩
الصواب : « الليكى » ، بالياء ، واسمه أبو بكر ابن يحيى بن سهل ، وانظر ترجمته في المغرب لابن سعيد ٢ : ٢٦٦	٢	٣١٣
الحلواني ، هو عبد الكريم بن فضال القيرواني ، والأبيات في الذخيرة ٤ : ٢٢٠	٩	٣١٧
الأبيات في قلائد العقيان ٣٠٠	١٣	٣٢٠
الغفار في الاصطلاح الأندلسي ضرب من العبادة أو الطيلسان .	٢٢ (الحاشية ١)	٣٢١

- ٣٤٢ ٦ كذا في جميع الأصوال بنسبة هذا البيت ،
 إذا لم أجد في بلدة ما أريده
 فعندى لأخرى عزمة وركاب
 إلى أبي الطيب ، والصواب أن البيت لأبي فراس
 من قصيدته البائية الرومية ، ديوانه ٣٨
- ٣٩٨ ٩ (العنوان) يكتب هكذا : مما قيل في أنواع الحسن والجمال
 أيضا .